
المصباح
مجلةٌ علميّة فصليّةٌ محكّمةٌ
تُعنى بالدراساتِ والأبحاثِ القرآنيةِ
(٣٨)



العتبة الحسينية المقدسة

المصباح

مجلةٌ علميّة فصليّة محكّمة

تُعنى بالدراساتِ والأبحاثِ القرآنيةِ

تصدرُ عن

العتبة الحسينية المقدسة

العدد الثامن والثلاثون - صيف (٢٠١٩م - ١٤٤٠/ ١٤٤١هـ)

السنة العاشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

Republic Of Iraq
Ministry Of Higher Education & Scientific Research
Research and Development

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
دائرة البحث والتطوير

العدد: ب ت/ ٨٠٣٣/٤
التاريخ: ٢٠١٣/١٠/٦

No :
Date:

ديوان الوقف الشيعي / الامانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

م/ مجلة المصباح

تحية طيبة...

اشارة الى كتابكم المرقم ١٤٩٩٦ في ٢٠١٣/٩/٢٩ والحاقا بكتابنا المرقم ب ت ٨٠٣٣/٤ في ٢٠١٣/٦/٦ بالإمكان اعتماد "مجلة المصباح" الصادرة عنكم لأغراض الترقية العلمية.

....مع وافر التقدير

أ. م.د. محمد عبد عطية السراج
المدير العام لدائرة البحث والتطوير
٢٠١٣/١٠/٦

نسخة منه إلى/
- دائرة البحث والتطوير/ الشؤون العلمية.
- الصادرة.
انس/١٠/٦

Website:www.rddiraq.com mail : gd_office@rddiraq.com .scientificdep@rddiraq.com

الهاتف / ٧١٩٤٠٦٥

المشرف العام

سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي

المتولي الشرعي للعتبة الحسينية المقدسة

رئيس التحرير

محمد علي هدو

مدير التحرير التنفيذي والعلاقات العامة

الدكتور حميد مجيد هدو

هيئة التحرير

أ.د. صالح مهدي عباس

أ.د. علي رحيم هادي الحلو

أ.د. علي عباس الاعرجي

أ.د. وائل عبد الامير الحربي

أ.م.د. عبد الجواد البيضاني

الهيأة الاستشارية

أ.د. حازم سليمان الحلي
جامعة الكوفة - العراق

أ.د. عبد الجبار ناجي
بيت الحكمة - بغداد

الشيخ الدكتور منصور مندور
الازهر الشريف

أ.د. محمد علي آذرشب
جامعة طهران - ايران

أ.د. عبد الامير كاظم زاهد
جامعة الكوفة - العراق

أ.د. عبد النبي اصطيف
جامعة دمشق - سورية

أ.د. محمد جواد الطريحي
جامعة بغداد - العراق

أ.د. محمد كريم ابراهيم
جامعة بابل - العراق

أ.د. محمد الخطيب
جامعة كربلاء - العراق

أ.د. عبود جودي الحلي
جامعة كربلاء - العراق

المصباح

مجلةٌ علميّةٌ فصليّةٌ محكّمةٌ

تُعنى بالدراساتِ والأبحاثِ القرآنيةِ

العدد الثامن والثلاثون - صيف (٢٠١٩م - ١٤٤١هـ)

سكرتير التحرير
أحمد حسن محفوظ

التحرير الالكتروني
د.علي عباس الأعرجي

التنسيق والمتابعة والتوزيع
علي افضيلة الشمري (العراق)
هـ/ ٠٧٨١٠٤٢٧١٣٠
د.أحمد كامل الجابري (مصر)
هـ/ ٠٠٢٠١١١١٢٦٧٧٧٩
مسلم البعاج (ايران)
هـ/ ٠٠٩٨٩٣٠٦١٨١٢٣٩

الشؤون المالية
رضا جواد الحائري

معتمد الترجمة الانكليزية
سعد شريف طاهر

الاخراج والتصميم
قاسم سالم محمد

الترقيم الدولي :
ISSN: 2226 -5228
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق
١٤١٤/ ٢٠١٠

العنوان الموقعي
مجلة المصباح -مقابل باب السلام
كربلاء المقدسة -جمهورية العراق

الاتصالات
مدير التحرير والعلاقات العامة
٠٧٨١٠٨٠٠٦٢٧
٠٧٧٠٣٢٨٥٠٧٨
سكرتير التحرير
٠٧٨٠٣٢٠٣٩٣٣
ادارة المجلة
بدالة ٠٠٩٦٤ ٣٢ ٣١٠٠٥٥
٠٠٩٦٤ ٣٢ ٣١٠٠٦٦
داخلي: ٥٦١

البريد الإلكتروني: Info@almissbah.org - almissbah@imamhussain.org
موقعنا على شبكة الإنترنت: www.almissbah.org

المحتويات

أَلصُورَةُ القُرْآنيَّةُ لانْهِيَارِ المَوْجُودَاتِ	أ.د. أحمد الصفار استاذ جامعي كيميائي	ص ١٥
مُصْحَفُ السَّيِّدةِ فاطِمَة (بحث في حقيقة الماهِيَّةِ)	د.عبد الله أميني	ص ٧٣
كَرَامَةُ المَرأَةِ في ضَوْءِ المُعْطَيَاتِ الشَّكْلِيَّةِ والدَّلالِيَّةِ لِلْآيَةِ (٣٤) مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ	أ.د. جهانگير أميرى د. كبرى روشنفكر د. نور الدين پروين	ص ٩٣
مَفْهُومُ (إلّا ما قَدْ سَلَفَ) في القُرآنِ المجيد	الشيخ الدكتور منصور مندور من علماء الازهر الشريف	ص ١١٥
عَطْفُ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ في القُرآنِ الكَرِيمِ	أ.د. وائل عبد الأمير الحربي كلية الآداب-جامعة بابل	ص ١٢٩
دَوْرُ العِلْمِ في تَطْوِيرِ التَّفْسِيرِ وَتَصْحِيحِهِ..	هاشم ابوخمسين الاحساء- المملكة العربية السعودية	ص ١٥٧
أَلاسَالِيبُ العَرَبِيَّةُ وَجَمَالِيَّتُهَا في القُرآنِ الكَرِيمِ	د. مصطفى عباسى مقدم عبد الحر زيدان حمزة	ص ١٦٩
أُصُولُ التَّفْسِيرِ عِنْدَ أَهْلِ البَيْتِ	الشيخ كاظم الدلام العبادي	ص ٢٠٧
القَصَصُ القُرْآنِيُّ حَقائِقٌ واقِعَةٌ (نقد فكرة وجود الأساطير في القرآن)	عبد الرؤوف حسن الربيع جامعة المصطفى العالمية	ص ٢٢١

أَثَرُ المَصادِرِ الأَدَبيَّةِ في تفسير القُرآنِ الكَريمِ
د. محمد حسن فؤاديان
سيد علي طهماسبي
ص ٢٥٧

أَلنُّجُومُ في الْقُرْآنِ الكَرِيمِ
الشيخ محمد مهدي نجف
رئيس مركز البحوث والدراسات الفلكية
ص ٢٨٣

مَنْهَجِيَّةُ المُقَارَنَةِ في التَّفْسِيرِ
الشيخ. د. طاهر الغرباوي
عضو الهيئة العلمية في جامعة المصطفى
ص ٢٩٣

مَعَالِمُ المُجْتَمَعِ الإِسْلامِيِّ في أُمِّ الكِتَابِ
السيد منذر الحكيم
ص ٣٢٣

أَلتَّطَوُّرُ الدَّلالِيُّ في ألفاظِ المَرَضِ الوَارِدَةِ في القُرْآنِ الكَرِيمِ
م.م. سوسن فاضل عبود
المديرية العامة للتربية- بغداد
ص ٣٣٩

نافذة المصباح

الإقتباس و الإستشهاد بألفاظ ومفردات القرآن الكريم
الأستاذ المتمرس الدكتور
محمد كريم إبراهيم الشمري
ص ٣٥٨

النسوية المعاصرة
نقد آراء محمد شحرور حول حجاب المرأة
فاطمة العقيلي
جامعة الاديان والمذاهب
ص ٣٨١

مِنْ جَدِيدِ الدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيَّةِ
م. م. مقدام محمد جاسم البياتي
المديرية العامة لتربية محافظة ميسان
ص ٤٠٢

أفكار وآراء
محاضرة ألقاها المستشرق الألماني
شتيفان فيلد
ص ٤١٤

ضوابط النشر

١. أن يكون البحث منسجماً مع اختصاص المجلة وتوجهها في نشر الابحاث التي تتعلق بالقرآن الكريم حصرياً.

٢. أن لايكون البحث منشوراً في مجلة داخل العراق وخارجه، أو مستلاً من كتاب أو رسالة جامعية أو محملاً على الشبكة العنكبوتية على أن يلتزم الباحث بذلك بتعهد خطي.

٣. أن لايكون البحث نمطياً أو مما أشبع موضوعه بحثاً، أو سردياً أو إحصائيا أو إجرائيا مما لا يتمثل فيه جهد الباحث الفكري.

٤. يرسل البحث محملاً على CD أو فلاش او بوساطة البريد الالكتروني للمجلة مع احتفاظ الباحث بنسخة الأصل عنده. ولاتستوفي المجلة أية مبالغ نقدية عن نشر الابحاث المطلوبة للتحكيم والترقية.

٥. تقوم المجلة باشعار الباحث بوصول البحث، ثم تشعره بقبول النشر في حال موافقة هيئة التحرير على ذلك وعندها يكون البحث ملكا للمجلة لايجوز تقديمه للنشر في مجلة أخرى.

٦. ترتيب الابحاث في المجلة يخضع لسياق فني صرف ولا علاقة لأهميته أو لمكانة الباحث بذلك.

٧. يهمل كل بحث لا يحمل المعلومات المطلوبة عن الباحث (اسمه –درجته العلمية –مكان عمله –عنوانه الكامل ورقم هاتفه أو عنوان بريده الالكتروني).

٨. يستحسن للباحث الإشهار بنشاطه العلمي والثقافي في سطور قليلة.

٩. تحتفظ هيئة التحرير بحق حذف أو تعديل ما لايتماشى وسياسة المجلة في نشر علوم القرآن الكريم حصرياً أو ماخرج منها عن منهج البحث العلمي أوالموضوعي أو مامس جوهر العقائد الاسلامية ورموزها الفكرية والدينية.

كلمة الافتتاح

بقلم رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله، و على آله ومن والاهم...

وبعد:

فها هي ذي مجلة المصباح تَدْرُج على مضمار السنةِ العاشرةِ وبالنجاحِ نفسِهِ الذي بدأتْ به مسيرتُها العلميةُ الدائبةُ، وعلى الرغم من كل ما اعترض طريقها من عوائق لا يعلم سبَبَها الا الله والذين يَحْزُنهم أن تحقق مجلةٌ تصدر عن مؤسسة دينيةٍ كل هذا النجاح والتقدم والرصانة والديمومة والوثاقة..

وإذا اردنا أن نبحث في مردّ ذلك، وجدنا أن للاستشراق إصبعاً خبيثاً فيه، منذ أن وضع المستشرقون ضوابط البحث العلمي وجردوه من التأثيرات الدينية والعاطفية والاخلاقية والفنية، فكتبوا تاريخ الاسلام والعرب والشعوب المستضعفة بما سموه بالقلم العلمي المنهجي المجرد من العواطف والنزعات العقدية وتحت غطاء (الموضوعية) والتي لاتجيز الانحياز بالمدح أو القدح للظواهر التاريخية أو أعلام التاريخ. فلا تجيز لك (الموضوعية) أن تصلي على النبي أو أن تترحم على أحد أو أن تلعنه أو أن تحرك العواطف في طرح حادثة، فكل ذلك -في نظر الموضوعية الاستشراقية الشوهاء -خلافُ البحث العلمي والأكاديمي. وقد زاد المأخوذون بهذا المنهج على كل ذلك، عدم جواز التفنن في إخراج البحث أو تلوينه

أو تزيينه بما يستهوي الذوق السليم ويريح النظر ويبعث في النفس الراحة، طارحين في كل ذلك جوهر البحث ومضمونه جانبا، عدا كونه قد تضمن المقدمة والتمهيد والملخص والفصول والمباحث المطلوبة والنتائج وقائمة المصادر وما إلى ذلك مما يعدّ مجرد شكل لا أكثر. اما جوهر البحث وفكرته وأهميته وجدوى طرحه للبحث وغير ذلك، فهي أمور ثانوية ترجع الى قناعة الباحث وقدرته على أن يجعل من فكرته عقدة لبحثه حتى لو كانت بسيطة أو ربما تافهة، فالبحث يكون عندها مقبولاً مادام قد التزم بقواعد العرض..!!.

كم بودّي لو أجد جوابا عن اسئلة أطرحها على دعاة (المنهجية) لعلي اريح نفسي من (لماذا) و(وكيف) و(انّى):

- ما الذي يقدح في المنهجية وضع الحواشي في سياق أو أسفل الصفحة لكي نلزم الباحث بوضعها مجتمعة في آخر البحث؟!.
- ما الذي يقدح في المنهجية أن يكون البحث مزيناً بالاخراج الطباعي الجميل ومصمماً بعمودين وبأربعة ألوان... الخ؟!.
- ما الذي يقدح في المنهجية أن يكون للمجلة المحكمة سكرتير تحرير أو هيأة استشارية؟!.
- وما الذي يقدح في المنهجية أن يشارك اعضاء هيئة التحرير بكتابة البحوث فيها أو أن يكتب رئيس التحرير كلمة يفتتح بها المجلة؟.
- وعشرات الاسئلة التي لامجيب عنها الا الدعاء وأن نقول: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [سورة الاعراف: ٨٩].

بحوث العدد

البحوث وما تتضمنها من آراء وافكار تعبر عن رأي كتابها


حم
كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك
الله العزيز الحكيم
الشورى
٣-٢-١
نقاش المسجد النبوي

أَلصُورَةُ القُرْآنِيَّةُ لانْهِيَارِ المَوْجُودَاتِ

أ.د. أحمد الصفار
استاذ جامعي كيميائي
ومهتم بالدراسات القرآنية

فحوى البحث

تناول البحث مفهومين قد يكونان جديدين، وتمت مناقشتهما من خلال الآيات البينات. وهما أن الحياة قائمة لكل شيء في الموجود فلا موت لها بالمعنى المتعارف عليه إلا قبل القيامة، وأحد أدلة ذلك هو التسبيح المستمر ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾. فإن كل ما في الموجود له حياة. وإن ماتت الأحياء بسلب الروح عنها وتبلى أجسادها، فسلب الروح هو لإيقاف الفعاليات الحيوية فقط، فأجزاؤها تستمر فيها الحركة وستبقى تسبح.

والحياة هنا تعرّف بالحركة وليس بصفات التنفس، والتكاثر وغيرهما من الفعاليات الحيوية المتصف بها ما متعارف عليه بالكائن الحي. والتي تنتهي بسلب الروح منها. وهي التي حُـدِّد فناؤها بالآية الشريفة ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٍ ﴾. فالموت الكلي وهو (الهلاك) لايتم بسلب الروح منها بل هو بسكون الحركة الدائبة في الجوهر. وهذا ما يحاول الباحث عرضه وإثباته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمـــة:

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الكون وقدّر له الهلاك، ومثّل جلّ وعلا ذلك الهلاك بصورة نبات يخضرّ لأيام قليلة ما يلبث أن يصفرّ ويذبل فيحصد، فيُستأصل الموجود ولا يبقى له أثر بعد عين، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة يونس: ٢٤]. وسيكون زوالها سريعا وفناؤها كالهشيم تذروه الرياح، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [سورة الكهف: ٤٥]، ولا يبتعد هذا الوصف عن جعل "الحياة الدنيا في بهجتها المعجبة ثم الزوال كمثل مطر أعجبَ الحرّاث نباته الحاصل بسببه ثم يتحرك إلى غاية ما يمكنه من النمو فتراه مصفر اللون ثم يكون هشيماً متكسراً متلاشياً تذروه الرياح"[1]، فقال سبحانه وتعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [سورة الحديد: ٢٠]. وبالمحصلة لا يبقى منها شيء وينفد وينتهي كل ما فيها فقال سبحانه وتعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [سورة النحل: ٩٦].

لقد تميزت الحياة الدنيا بالحركة والتغيّر والتبدّل. وبتوقفها عن الحركة فإنه سينتهي كل شيء الى فناء وزوال وعدم بقاء. خذ مثلا توقف حركة الأرض حول الشمس عندئذ يتعرض نصفها المقابل الى الشمس لنهار دائم والنصف الآخر لليل دائم وما سيرافق هذا التوقف. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۗ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ

(١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٩، ص ١٦٤.

عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[سورة القصص: ٧١-٧٢].

وسنوضح في الفصول التالية على الصورة اللحظية التي رسمها القرآن الكريم لانتهاء الموجود. ولكن قبل ذلك علينا أن نمر ببعض المقدمات.

الفصل ١:

الحركة في الموجود:

يترتب على الزمن كل من الحركة والفعل ورد الفعل وما يتصل بهما. ويحدد عامل الزمن في وجودنا على الأرض من ارتباطها بالشمس كدالة على ذلك. ونعلم أن من بين الحركات حركة الأرض حول الشمس وحول نفسها، وبسرعة ثابتة[٢]

(٢) سرعة الأرض عند خط الاستواء ٤٦٤ متر بالثانية. فمحيط كوكب الأرض من خط الاستواء = ٤٠٠٧٠ كيلومترا (٢٤٨٩٨ ميل)، وطول اليوم يبلغ ٢٤ ساعة. بالتالي بقسمه المحيط على طول اليوم، يمكنا أن نستنتج انه تبلغ سرعة الأرض عند خط الاستواء ما يقرب حوالي ١٦٧٠ كم/ساعة (١٠٣٧ ميل) وهذه ليست نفس السرعة عند خطوط العرض الأخرى.

وكذلك حركة الشمس الدائبة التي تجري وتنتقل من مكان لآخر فتتحرك متسارعة نحو مستقرها[٣] وعندئذ يتوقف سيرها في زمان ومكان محددين، قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ﴾[سورة يس: ٣٨]. وأصبح لكل من الشمس والقمر مسارا وفلكا خاصا بهما ويتحدد من خلالهما وضع كل واحد نسبة للآخر. فالليل هو الظل المخروطي الملازم لوجه الأرض المخالف للشمس، والنهار وهو خلاف الليل يعني الوجه المقابل للشمس، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[سورة الأنبياء: ٣٣]، وهذه الحركة تؤثر في نظام الليل والنهار حيث يزيد هذا وينقص ذاك وبالعكس بحسب الفصول المختلفة وبقاع الأرض المتفرقة، وما ينقص من الليل يدخل في النهار وما ينقص من النهار يدخل في اللّيل، قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ

(٣) إن الشمس تجري نحو نجم النسر الواقع Vega، في مجرّة درب التبّانة.

﴿وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة لقمان: ٢٩].

الفصل ٢:
تراتبية الزمن للعوالم الوجودية

الزمن مرهون فقط -كما هو معلوم- بالعوالم السفلى وهي الدنيا أو ما يسمى بالناسوت(٤) وينعدم بالمراتب العليا المعرّف بواجب الوجود وهو الله سبحانه وتعالى ويسمى باللاهوت(٥).

«وأن ذات الله وهو الوجود غير المحدود والمستقل بقطع النظر عن الصفات ويسمى (غيب الغيوب) ومع أخذ صفاته الكمالية -التي لا تنفصل عن ذاته بل هي عين ذاته -يسمى باللاهوت كما أسلفنا. والوجود المتأخر عن ذات الله وصفاته وهو عالم العقل ويسمى بالجبروت(٦)، وما تأخر عنه من عالم النفوس الكليّة يسمى بالملكوت(٧). وما هو أدنى منه مرتبة من عالم الطبيعة والمادة سماوياً كان أو أرضياً يسمى بالناسوت ولعالم الناسوت بشكل عام مرتبتان مرتبة القوة والاستعداد، ومرتبة الفعلية: والمراد من الفعلية صور العناصر والمركبات، من قبيل المعادن والنباتات والحيوانات والإنسان، التي يظهر كل واحد منها في حد خاص وله أثر مخصوص، والمراد من القوة: الهيولى(٨)

(٤) الناسوت: Human nature، وتطلق أيضا على عالم الشهادة أي الدنيا. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد التهانوي، (ت: بعد ١١٥٨هـ)، مكتبة لبنان ناشرون -بيروت، ١٩٩٦.

(٥) اللاهوت: في الأصل لا هو إلا هو، وحرف التاء زائدة عن قواعد العربية.

(٦) الجبروت: The all -mighty constraint، وهو عدا الملكوت. عند الصوفية عبارة عن الذات القديمة وهي صيغة المبالغة بمعنى الجبر. والجبر إما بمعنى الإجبار من قولهم جبرته على الأمر جبرا أو أجبرته أكرهته عليه، وتدعى مرتبة الصفات الجبروت. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد التهانوي، (ت: بعد ١١٥٨هـ)، مكتبة لبنان ناشرون -بيروت، ١٩٩٦.

(٧) الملكوت: Kingdom spiritual world، بفتحتين صيغة المبالغة بمعنى الملك والملك هو التصرف الصحيح بالاستعلاء، فالعبد له فيه اختيار ما دام في هذا العالم، وهي مرتبة الأسماء.

(٨) الهيولي: لفظ يوناني، بمعنى الأصل والمادة. وفي الاصطلاح: هي جواهر في الجسم قابلة لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال، والانفصال، محل للصورتين: الجسمية،

والمادة الأولى مما ليس له فعلية والذي يعد أساساً لكل الصور، ويقبل الصور المختلفة بفعل الحركة والتغيير في المسيرات المتنوعة»[٩].

فالحركة إنما هي في عالم الشهادة، وهي حركة انتقالية. وقد فسر الفيلسوف ابن سينا علّة الحركة الى ثلاث فقال: «فأسبابها ثلاثة: قسر، وطبيعة، وإرادة، والطبيعة نفسها ليست تكون علّة حركة مالم يقترن بها أمر بالفعل. أما الحركة الإرادية فإن عللها أمور إرادية كلية ثابتة، ولا يجوز أن يلزم عن علّة ثابتة أمر غير ثابت. أما الحركة القسرية: فإن كان المحرّك يلازمها فعلتها حركة المحرك وأفعاله، وعلّة عليتها آخر الأمر طبيعة وإرادة؛ فإن كلّ قسر ينتهي الى طبيعة أو إرادة؛ فإن القوة القسرية حالها في إيجاب الحركة بتجدد الأُيون (جمع أين) عليها حال الطبيعة الى أن تبطل، وإن الحركة أمر يحدث دائما، وكل حادث فله علّة محدِثة، فكل حركة لها علّة محدِثة، وهذا هو المحرّك»[١٠].

الفصل ٣: معنى الحياة:

لنبدأ بتعريف الحياة من تعريف نقيضها وهو الموت الذي يعرّف كما يلي: والموت لغويا كما جاء في لسان العرب[١١] «يقع على أنواع بحسب أنواع الحياة، فمنها: ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الحيوان والنبات، كقوله تعالى: ﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾[سورة الروم: ٢٤]، ومنها: زوال القوة الحسّية، كقوله تعالى -حاكياً قول مريم عليها السلام ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾[سورة مريم: ٢٣]، ومنها: زوال القوة العاقلة، وهي الجهالة، كقوله

والنوعية، فالخشب هيولي الكرسي؛ والفضة هيولي الخاتم. كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، ١٩٨٣.

(٩) من المبدأ الى المعاد في حوار بين طالبين، حسين علي منتظري، مؤسسه تحقيقات ونشر معارف اهل البيت عليهم السلام، إيران، ص٧٠.

(١٠) المبدأ والمعاد، أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٩٨، فصل ٢٠ -٢٢، وفصل ٢٥.

(١١) لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر -بيروت، ١٤١٤هـ، ج ١٤ مادة موت.

تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[سورة الانعام: ١٢٢]، و﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾[سورة النمل: ٨٠]، ومنها: الحزن والخوف المكدر للحياة، كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[سورة إبراهيم: ١٧]. وقد يستعار الموت للأحوال الشّاقة، كالفقر والذّلّ، والسؤال والهرم، والمعصية».

والموت أيضا "كل ما سكن فقد مات حتى يقال مات الحَر ومات البرد"[١٢]، وإن الموت جاء في القرآن الكريم للنفس فقط ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[١٣][سورة آل عمران: ١٨٥]، وقد يكون تعبيرا لانعدام الحياة للنبات والحيوان معبرا عنه بجفاف الأرض وخرابها فتصبح ميتة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[سورة البقرة: ١٦٤]، وكذلك في الآية الشريفة: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[سورة البقرة: ٢٥٩].

أما إذا قلنا نقيض الحياة هو الفناء: فالفناء: "نقيض البقاء"[١٤]، كما في الآية الشريفة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[سورة الرحمن: ٢٦]، لاحظ معي أن الآية تشير الى ﴿مَن﴾ فهي تتكلم عن فناء العقلاء معبرا عنهم بـ (مَن) وليس (ما)، وذلك لأن (مَن) هي للعقلاء. وذلك لأن "المنتفع بالتخويف هو العاقل فخصه تعالى بالذكر، ومع ذلك فإن كل ما على وجه الأرض مع الأرض فان"[١٥]، و "(مَنْ) هو للتغليب، أو من الثقلين –الجن والإنس –﴿فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ذاته ولو استقرأت جهات الموجودات وتفحصت وجوهها وجدتها بأسرها فانية في حد ذاتها إلا وجه الله أي الوجه الذي يلي جهته"[١٦]. «وإذا

(١٢) المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت ٤٥٨هـ)، ١٩٩٦ج ٢، ص ٨.

(١٣) [سورة الأنبياء: ٣٥]، [سورة العنكبوت: ٥٧].

(١٤) تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، دار الهداية.

(١٥) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث– القاهرة. ج١٥، ص ٧٧.

(١٦) تفسير البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله

ثبت ذلك وكانت الجواهر لا تفنى إلا بفناء يضادها على الوجود، فاذا وجد الفناء انتفت الجواهر كلها، لأنها اختصاص له بجوهر دون جوهر، فالآية دالة على عدم جميع الاجسام»[١٧]. وأن فناء الدنيا كلها إنما هو بفناء أجزائها.

«فالاستعمال في الجميع بأصل واحد. وقد استعمل القرآن لفظ الموت بهذا الملاك، مثلاً يقول: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾[سورة يس: ٣٣]. ويقول في الأصنام: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾[سورة النحل: ٢١]. ويطلقه على المراحل المتقدمة من خلق الإنسان، فيقول: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾[سورة البقرة: ٢٨]. فترى في الجميع نوع ذهاب وزوال، الأرض، أو للقدرة على الحركة والتكلم، كما في الأصنام، وغير ذلك"[١٨].

ويفهم من كل ذلك أن «الحياة والموت المشهودين في هذه الموجودات الحية الشاعرة المريدة، فإن هذه الحياة المجهولة لكنه لا يستطيع أن يوجدها إلاَّ من هو واجد لها، فلا يمكن أن يعلل بالطبيعة الجامدة الفاقدة لها، ولا بشيء من هذه الموجودات الحية، فإن حياتها هي وجودها، وموتها عدمها، والشيء لا يقوى لا على إيجاد نفسه ولا على إعدام نفسه»[١٩] وفي هذا المجال قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨]. نعم؛ وبكل تأكيد فإن الله سبحانه هو المبدع وهو المبدئ وهو الذي يسلب الحياة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾[سورة البروج: ١٣][٢٠].

وأما الحياة فقد عرّفت قرآنيا على أنها كما يلي: «الأول: للقوة النامية الموجودة

بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤١٨ هـ. ج٥، ص ٧٧.

(١٧) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (ت ٤٦٠ هـ).

(١٨) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، جعفر السبحاني، دار احياء التراث العربي، بيروت، ج ٤، ص ٢٢١.

(١٩) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢، ص ٣٥١.

(٢٠) [سورة يونس: ٤]، [سورة يونس: ٣٤]، [سورة النمل: ٦٤]، [سورة العنكبوت: ١٩]، [سورة الروم: ١١]، [سورة الروم: ٢٧].

في النبات والحيوان، ومنه قيل: نبات حي، قال عز وجل: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[سورة الحديد: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ [سورة ق: ١١]، وقوله ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾[سورة الأنبياء: ٣٠]. الثانية: للقوة الحساسة، وبه سمي الحيوان حيوانا، قال عز وجل: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ [سورة فاطر: ٢٢]، الثالثة: للقوة العاملة العاقلة، كقوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾[سورة الأنعام ١٢٢]، والرابعة: عبارة عن ارتفاع الغم، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[سورة آل عمران: ١٦٩] أي: هم متلذذون، لما روي في الأخبار الكثيرة في أرواح الشهداء. والخامسة: الحياة الأخروية الأبدية، وذلك يتوصل إليه بالحياة التي هي العقل والعلم، قال الله تعالى: ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[سورة الأنفال: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ [سورة الفجر: ٢٤]، والسادسة: الحياة التي يوصف بها الباري، فإنه إذا قيل فيه تعالى: هو حي، فمعناه: لا يصح عليه الموت"[٢١]، ليس ذلك إلا لله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[سورة البقرة: ٢٥٥][سورة آل عمران: ٢].

«لكنّها في نظر علماء الطبيعة تلازم الآثار التالية في الموصوف بها:

الجذب والدفع، والنُموّ والرشد، التوالد والتكاثر، والحركة وردّة الفعل. وهذا التعريف للحياة إنما يشير إلى آثار الحياة لا إلى بيان حقيقتها، وهي آثار مشتركة بين أفراد الحيّ ومع ذلك كلّه نرى البُعدَ الشاسع بين الحياة النباتيّة والحياة البشريّة. فالنبات الحيّ يشتمل على الخصائص الأربَع المذكورة، ولكن الحياة في الحيوان تزيد عليها بالحس والشعور وهذا الكمال الزائد المتمثل في الحسّ والشعور لا يجعل الحيوان مصدقاً مغايراً للحياة، بل يجعله مصداقاً أكمل لها. كما أَنَّ هناك حياةً

(٢١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم –الدار الشامية، ٢٠٠٩.

أَعلى وأَشرف وهي أَن يمتلك الكائن الحي مضافاً إِلى الخصائص الخمس، خصيصة الإِدراك العلمي والعقلي والمنطقي»[٢٢].

وهنا أقف عاجزا حيال هذه التعريفات للحياة لأنها لا تشتمل على من هو دائب في حركته ينتقل في حركته ويغيّر موضعه كالنجوم والكواكب وغيرها. فهذه الأجرام تهتز وتدور وتنتقل، وتتوالد وتكبر وتهرم وتموت أيضا. فكلها في حركة مستمرة مادامت السماوات والأرض تماما كالإلكترون فماذا نطلق عليها؟.

دعنا نأخذ الشواهد القرآنية لتوصيف أفعال الأشياء التي لا تصنف ضمن – الكائنات الحية –كما دأب الإنسان على تصنيفها. بينما هي كلها تشير الى نوع من الإفاضة التي توحي بما أسميه (بالحياة): المعرفة بالحركة الذاتية.

أفعال الأشياء دليل حياتها:

١. **تسبيح الأشياء:**

لقد وصف الطباطبائي تسبيح الأشياء وهذا التسبيح مرتبط بالدلالة الذاتية العقلية قائلا «أن الأشياء قاطبة مسبّحة بحمده بوجوداتها القائمة به تعالى المعتمدة عليه، وهذا تسبيح ذاتي منهم ودلالته دلالة ذاتية عقلية غير مرتبطة بالدلالات اللفظية»[٢٣]، مفسرا الآية الشريفة ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [سورة الرعد: ١٣]، ويقول: "وكما أن إظهار هذه الأشياء لنفسها في الوجود إظهار لحاجتها ونقصها وكشف عن تنزه ربها عن الحاجة والنقص، وهو تسبيحها كذلك إبرازها لنفسها إبرازاً لما عندها من جميل فعل ربها الذي وراءه جميل صفاته تعالى فهو حمدها فليس الحمد إلا الثناء على الجميل الاختياري فهي تحمد ربها كما تسبحه"[٢٤] وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن

(٢٢) حسن محمّد مكّي العاملي، الصفات الثبوتية الذاتية https: // research. rafed. net.

(٢٣) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ).

(٢٤) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٣، ص ١١١.

﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: ٤٤]. وإذا كان التسبيح هو تنزيه الشيء ونسبته إلى الطهارة والنزاهة من العيوب والنقائص، فهنا جاء التعبير بالمضارع للدلالة على الاستمرار في الآية الشريفة ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الجمعة: ١][٢٥]. فالتنزيه مستمر منذ خلقت السماوات والأرض الى يوم زوالهما. فبأي إطار نضع استمرارية التنزيه كما هي استمرارية حركتها؟.

٢. معرفة الأشياء:

بالإضافة للصفة العقلية للأشياء فأن صدر المتألهين قد أعطى المعرفة لهذه الموجودات فقال: «وأنّ كلّ موجود على حسب وجوده عارف بربّه المتّصف بصفات الجمال، المنزّه عن نقائص الإمكان والزوال، ومن عرف الله فلا محالة يسبّحه ويقدّسه وينزّهه بلسان الحال أو المقال أو الفِعال، فكلّ موجود يسبّح بحمده إلاّ من غلب عليه الوهم المغيّر لخلق الله»[٢٦]، فبأي إطار نضع معرفتها بالله كما هي استمرارية تنزيهها وحركتها؟.

٣. سجود الأشياء:

وهذه الأشياء تسجد لله خضوعا وتذللا ومنها الدواب وهي ليست فقط التي تدبّ على الأرض بل أن «في ذلك من التلويح إلى أن ما نسب إليهم في كلامه تعالى من النزول والصعود والذهاب والمجيء مما ظاهره النقلة والحركة المكانية ليس من نوع ما للدواب من الدبيب والانتقال المكاني ما لا يخفى»[٢٧]، التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ [سورة النحل: ٤٩]. فإن جميع ما في العالم من المخلوقات حتى نفس السماوات والأرض تسجد لله سبحانه وتعالى سجودا ذاتيا، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الحشر: ٢٤]. فبأي إطار نضع استمرارية سجودها الذاتي كما هي استمرارية تنزيهها

(٢٥) [سورة التغابن: ١].

(٢٦) تفسير القرآن العظيم، صدر المتألهين محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي (ت ١٠٥٩ هـ)، دار الإيمان، قم.

(٢٧) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٤، ص ٢٦٦.

ومعرفتها بالله وحركتها؟.

٤. خشوع الأشياء:

بالإضافة لما مر أعلاه فإنها تخشع. والخشوع هو التذلل والخضوع، فيقول الله سبحانه وتعالى وإن كان الكلام مسوقا سوق المثل مبني على التخييل على إمكانية خشوع الجبل فيما أنه لو جعل في الجبل عقل ثم أنزل عليه القرآن لخشع وخضع، ولأنقاد لمواعظه، وتشقق من خشية الله، «حذراً من عقابه، وخوفاً من ألا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله»[٢٨]، ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾[سورة الحشر: ٢١]. وخشوع الأرض أيضا ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾ [سورة فصلت: ٣٩]. فبأي إطار نضع استمرارية خشوعها كما هي استمرارية سجودها الذاتي وتنزيهها ومعرفتها بالله وحركتها؟.

٥. توحيد الأشياء لله:

إن السماوات والأرض وغيرهما من أشياء توحده تعالى وتسبّح بحمده، وقد قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[سورة الحشر ٢٤]، و "إن السماوات والأرض وغيرهما ناطقة بالتوحيد فعلاً متلبسة به. فما منها إلا مؤمن مطيع. بل وهي تأبى أن تخون الأمانة. أمانة ارجاع الولاية الإلهية لعدم استعدادها، وإشفاقها منها لعدم اشتمالها على صلاحية التلبس وتجافيها عن قبولها فأبين حملها"[٢٩]. قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [سورة الأحزاب ٧٢]. فبأي إطار نضع استمرارية توحيدها لله كما هي استمرارية خشوعها وسجودها الذاتي وتنزيهها ومعرفتها بالله وحركتها؟.

٦. نطق وشهادة الأشياء:

وتستوجب الشهادة القدرة على النطق أو التكلم أو أي أسلوب آخر لإظهار المستور. هذا من جهة وجهة

(٢٨) فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب –دمشق، بيروت، ١٤١٤ هـ.

(٢٩) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٦، ص ٣٥٠.

أخرى القدرة على الإفصاح عن حقيقة وعلم وكلاهما لا يحتاجان الى الكذب والتزوير. ولقد تكلم القرآن عن شهادة الأشياء بآيات عديدة[٣٠]، كما يقول سبحانه وتعالى ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النور: ٢٤]. ولأن الله هو خالقها فهو القادر على أن يجعلها تنطق بالشهادة وأنه «لا دليل على فقدان الأشياء غير ما استثنيناه للشعور والإرادة سوى أنا في حجاب من بطون ذواتها لا طريق لنا إلى الاطلاع على حقيقة حالها»[٣١]. ويذهب الرازي كذلك في هذا الرأي فيقول: أن «البنية ليست شرطاً للحياة ولا للعلم ولا للقدرة، فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق في كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء»[٣٢].

وتتجلى حقيقة إدراك الأشياء وعلمها بالله أنه العالم المطلّع عالم الغيب والشهادة وأنه لا تغيب عليه غائبة، فيقول عن نفسه سبحانه وتعالى: ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾[سورة البقرة: ٣٣]، ولذلك فإنها لا تتستّر على ما تعلم فتنطق «بمعناه الحقيقي»[٣٣]، قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٍ ﴾[سورة فصلت: ٢١]، «فأوجب نطقها وكشف عن العلم المدخر عندها المكنون في ضميرها فهي ملجأة إلى التكلم والنطق، ولا يضر ذلك نفوذ شهادتها وتمام الحجة بذلك فإنها إنما أُلجئت إلى الكشف عما في ضميرها لا على الستر عليه والإخبار بخلافه كذباً وزوراً حتى ينافي جواز الشهادة وتمام الحجة»[٣٤]. فالله سبحانه يتحدث عن أن الأرض ستدلي بشهادها أيضا ﴿ يَوۡمَئِذٖ

(٣٠) [سورة النور: ٢٤]، [سورة فصلت: ٢٠]، [سورة فصلت: ٢١ -٢١].
(٣١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٧، ص ٣٨١.
(٣٢) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة، ج ٢٧، سورة فصلت، ص ١١٧.
(٣٣) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٧، ص ٣٨١.
(٣٤) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٧، ص ٣٨٠.

﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾[سورة الزلزلة: ٤].

قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال: ((أتدرون ما أخبارها؟. قالوا: الله ورسوله أعلم قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها أن تقول: عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا فهذه أخبارها))[٣٥]. هذا يعني أن «الأرض شاعرة بما يقع فيها من الأعمال خيرها وشرها متحملة لها يؤذن لها يوم القيامة بالوحي أن تحدث أخبارها وتشهد بما تحملت، وأن الحياة والشعور ساريان في الأشياء وإن كنا في غفلة من ذلك»[٣٦]. فبأي إطار نضع إدراكها وشهادتها وشعورها كما هي استمرارية توحيدها لله سبحانه وخشوعها وسجودها الذاتي وتنزيهها ومعرفتها بالله وحركتها؟.

على أي حال فإن تنزيه الموجودات لله ودوام حركتها ومعرفتها بكمال خالقها وسجودها لله سبحانه وتعالى ذلك لأنها عالمة وعارفة، وشاعرة وحية ومريدة أيضا. كل ذلك لما أفاض الله عليها من عناية، «لأن أنفُس الأجرام السماوية عالمةٌ بما تفعل علما كليّا أو جزئيا، وعالمة بما يلزم أفاعيلها. وأنه سبحانه لمّا كان علمُ الحق الأول بنظام الخير في الوجود علما لا نقص فيه وكان ذلك سببا لوجود ما هو علم به حصل الكلّ في غاية الإتقان، لا يمكن أن يكون الخير فيه إلا على ما هو عليه، ولا شيء مما يمكن أن يكون للكلّ إلا وقد كان له. وهذا الذي يسميه الأوائل عناية»[٣٧].

هذه العناية التي سماها ابن سينا هي ذاتها التي عبر عنها القرآن الكريم بالهداية والتي اصطلح عليها عقديا بالهداية التكوينية، فقال سبحانه وتعالى ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾[سورة طه: ٥٠]، وأن "هداية كل شيء إلى مطلوبه، ومطلوبه

(٣٥) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت ٣٥٤هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨. ج ١٦، ص ٣٦٠.

(٣٦) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ٣٤٢.

(٣٧) المبدأ والمعاد، أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٩٨، فصل ١٠، فصل ١١، ص ٨٧-٩١.

هو الغاية التي يرتبط بها وجوده وينتهي إليها والمطلوب هو مطلوبه من جهة خلقه الذي أعطاه، ومعنى هدايته له إليها تسييره نحوها كل ذلك بمناسبة البعض للبعض. وإلقائه الرابطة بين كل شيء بما جهز به في وجوده من القوى والآلات وبين آثاره التي تنتهي به إلى غاية وجوده"[٣٨]. وقال جل وعلا: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [سورة الأعلى: ٣]

ويأتي ذلك من تقدير الله وهدايته لكل شيء. و«جعل الأشياء التي خلقها على مقادير مخصوصة وحدود معينة في ذواتها وصفاتها وأفعالها لا تتعداها وجهزّها بما يناسب ما قدر لها فهداها إلى ما قدر فكل يسلك نحو ما قدر له بهداية ربانية تكوينية»[٣٩].

الفصل ٤: الحركة والتكامل:

من المعلوم أن هناك ترابطا بين الحركة والتكامل. حيث يقضي قانون الحركة والتكامل بأن يكون الانتقال من القوة الى الفعل، على أن الفيض اللاحق أكمل من الفيض السابق كما يعبر عنه. وهذه الحركة التكاملية بحاجة الى علّة، فالتقدم والتكامل في سلّم النمو والحركة، لا يمكن ان يصدر عفويا، فهو تكامل هادف، ويستحيل ان يتحقق من دون توجيه وتخطيط من مبدِأ الكمال ومصدره وهو الله جل شأنه.

وإني أرى أنه لا يوجد مخلوق ممكن الوجود في هذا الكون ساكنا وبدون حركة. إذ أن بهذه الحركة أصبح الموجود قائما، وبغيابها يصبح هباء منثورا لا أثر له. وسأقف على هذا التصور على انفراد ان شاء الله.

الفصل ٥: الحركة الجوهرية:

الحركة الجوهرية كما عرفها الفيلسوف صدر المتألهين، هي أنّ كلّ شيء يتحرّك في ذاته كما يتحرّك في الخارج بحركة وضعيّة أو انتقالية فهذه الحركة الذاتية تسمّى بالحركة الجوهرية. فاعتبر أن جميع الحركات ترجع الى الحركة الجوهرية التي

(٣٨) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٤، ص١٦٦.

(٣٩) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ) ج٢٠، ص٢٦٥.

هي حركة استمداد وجودية من واهب الوجود سبحانه وتعالى والتغيرات الكمية التي تترتب على التغيرات الكيفية او بالعكس لم تكن لتتم لو لم يكن لها استناد الى الحركة الجوهرية. وهو ذات المفهوم الذي اعتمدته من عدم وجود (موت) بمعنى ثبات وسكون الحركة في هذا الكون وهذا الموجود -كما أسلفت -قبل الموت الأخير في التمهيد للنشر والقيامة.

إن أول شخص طرح هذه النظرية بشكل تفصيلي استدلالي هو صدر الدين أو صدر المتألهين الشيرازي[٤٠] حيث قال: «إن كل ذرات الكائنات وعالم المادة في حركة دائبة، أو بتعبير آخر: إن مادة الأجسام وجود سيال متغير الذات دائما، وفي كل لحظة له وجود جديد يختلف عن الوجود السابق له، ولكون هذه التغيرات متصلة مع بعضها فإنها تحسب شيئا واحدا، وبناء على هذا فإن لنا في كل لحظة وجودا جديدا، إلا أن هذه الوجودات متصلة ومستمرة ولها صورة واحدة، أو بتعبير آخر: إن المادة لها أربعة أبعاد: طول وعرض وعمق وأما البعد الآخر فهو ما نسميه (الزمان) وهذا الزمان ليس بشيء إلا مقدار الحركة في الجوهر»[٤١]. وبالمناسبة فإن صدر المتألهين بكلامه هذا قد سبق أينشتاين بطرحه بُعد الزمن ويمكن مراجعة ذلك أكثر من مضانه.

وقد ذهب أحدهم في تفسير مرور الجبال كالسحاب في الآية: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ

(٤٠) الشيخ صدر الدين محمّد بن إبراهيم بن يحيى القوامي الشيرازي المعروف بملّا صدرا، أو صدر المتألّهين (ت ١٠٥٠هـ)، من مؤلفاته: الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة العقلية، والشواهد الربوبية في المناهج السلوكية، والمبدأ والمعاد، ورسالة المشاعر، والحكمة العرشية، والمظاهر الإلهية في أسرار العلوم الكمالية، ومفاتيح الغيب، وكسر أصنام الجاهلية، ورسالة في حدوث العالم، ورسالة طرح الكونين، ورسالة في اتصاف الماهية بالوجود، ورسالة خلق الأعمال، ورسالة في القضاء والقدر، ورسالة في التشخيص، ورسالة في التصور والتصديق، ورسالة الواردات القلبية في معرفة الربوبية، ورسالة في اتحاد العاقل والمعقول، التفسير الكبير، متشابه القرآن، وغيرها كثير.

(٤١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٥. ج ١٧، ص ٤٠٤ -٤٠٥.

﴿أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة النمل: ٨٨]، الى الحركة الجوهرية للجبال فقال: «أن الأشياء كالجبال تتحرك بجوهرها إلى غاية وجودها وهي حشرها ورجوعها إلى الله سبحانه»(٤٢).

وهذا يدفعني الى التفكير عميقا في جوهر أو ماهية الحركة الجوهرية للمادة وما حقيقتها؟. وإني أذهب معتقدا أنها تنطلق تماما من حركة الإلكترون، ابتداء كمنطلق لتكوين الجزيئات والمركبات والمواد الملموسة والمحسوسة في وجودنا. فهي الحركة الجوهرية المتوفرة في كل شيء في الموجود المادي. وهي الحركة القائمة من بداية الخلق الى انتهائه. ولا أجد مصطلحا يناسبها ليعمم على الموجودات كلها عاقلها وغيرها. فإن قلت روحا فإني سأصطدم بالتصنيفات التي وضعها الفلاسفة والمشتغلون بالجانب العقائدي والبيولوجي، وغيرهم. لقد اصطلحوا على بعض الكائنات الحية ونزعوها من النباتات والجمادات. ثم أودعوها في بعضها على مراحل متدرجة وليست دفعية كما في الإنسان بعدما تجتمع النطفة بالبويضة مستندين للآية الشريفة ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [سورة السجدة: ٨ -٩]. وقالوا إن الحياة هي ليست الروح فالنبات له حياة وليس روح.

وقال آخر في تشخيص الفرق بيت الروح والحياة «أن الروح من قرائن الحياة، والحياة عرض. والروح جسم رقيق من جنس الريح وهو جسم رقيق حساس»(٤٣).

وأضيف للتمييز بينهما أن هناك حياتان مستمرة ومستقرة. «فأما المستمرة فهي الباقية إلى انقضاء الأجل بموت أو قتل. والحياة المستقرة هي أن تكون الروح في الجسد ومعها الحركة الاختيارية دون الاضطرارية. وضابطها أي الحياة المستقرة أن يكون فيه حركة اختيارية وتعرف

(٤٢) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٥، ص ٤٠٢.

(٤٣) الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت ٣٩٥هـ)، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

بانهيار الدم أو بالحركة العنيفة أو بهما»[٤٤].

وأيا كان فهناك حركة ونشاط وقد سميت بأسماء مختلفة. فالروح هي المسؤولة عن العمليات الحيوية. وبسلبها تتوقف تلك العمليات الحيوية، ولكن لا يتحقق الموت الكامل، وما يطلق من لفظ الموت إنما هو نقيض الحياة وهما اللفظان المتداولان.

خذ مثلا عن تمثيل الروح في العمليات الحيوية. فالنشاط الكيميائي الحيوي، الذي يعبّر عن حيوية كل خلية في الكائن الحي، فأنه يتم تحت سيطرة الحامض النووي «دي إن إيه، DNA"[٤٥] والذي يتواجد داخل نواة الخلية في أي كائن حي علي وجه الأرض، ودعنا نقول إنه يعتبر بذرة الحياة الأولى.

وقد وجد أن -مادة الحياة -في سائر المخلوقات (ما تسمى بالكائنات الحية) تشترك في أنها تتألف من نفس العناصر التي نراها من حولنا في التراب مثل الكربون، والهيدروجين، والأوكسجين، والنتروجين. ولكن

(٤٤) حاشية الجمل على المنهج لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري، المعروف بالجمل (ت: ١٢٠٤هـ)، دار الفكر. ج١٠، ص ٣٤٤.

(٤٥) الدي أن إيه (DNA)هو العماد الأساسي للكائنات الحية ووجود الحياة على الأرض. إذ أنه يمكن أن يكرر نفسه، أي يصنع مثيلا له. وهو الذي يحتوي على التعليمات الجينية التي تصف التطور البيولوجي للكائنات الحية ومعظم الفيروسات؛ كما أنه يحوي التعليمات الوراثية اللازمة لتكوين أعضاء الجنين سواء في الرحم أو البيضة أو النبات، أي لكل الكائنات الحية .يعتبر وسيلة التخزين الطويل الأجل للمعلومات الوراثية وهي الوظيفة الأساسية لجزيئات (الدي أن إيه)، بالإضافة إلى أنه يمكن من خلال هذه الجزيئات الحصول على المعلومات اللازمة لبناء البروتينات والحمض الريبي النووي (بالإنجليزية: RNA). تسمى قطع الدي أن إيه (DNA) التي تحمل معلومات وراثية يمكن ترجمتها لبروتينات بالمورثات أو الجينات. تتواجد بعض قطع الدي أن إيه لأغراض تركيبية وتنظيمية. ويمكن تصور أن (الدي أن إيه) عبارة عن مخطوطة، أو برمجة سوفتوير، موجودة في نواة خلية. واللغة المكتوبة بها تتكون من أربعة حروف. والجملة المكونة من عدة كلمات منها تعرف بأنها (جين). وكل (جين) يتكون من مئات أو آلاف الحروف. وجميع الوظائف التي تؤديها الخلية فهي تنظم عملها وفقا لترتيب الشفرة المكتوبة بالحروف الأربعة في هذا المخطوط. https: //ar. wikipedia. org.

بنسب مختلفة. والغريب أن كلتا الخليتين الحية والميتة تحتويان على نفس العناصر الكيميائية ولكن بموت الخلية يتوقف «الـدي أن إيـه» عـن إعـطـاء الأوامـر لاستمرار العمليات الكيميائيـة، فالسّر في التحريك والأوامـر الكيميائيـة في الاستمرار بالنشاط هو المشترك بين الميت والحي، ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾[سورة آل عمران: ٢٧]. وأرجو الانتباه أن بموت الخلية أي بتوقف الأوامر التي تحدث الفعاليات الحيوية، فإنه سيبقى جزيء "الدي أن أيه" قائما، لكنه لا يعمل. والـذي أودّ الإشـارة اليه أن الـروح التي كانت في جـزيء (الدي أن إيه) تنجز الفعاليات الحيوية وبسلبها تتوقف تلك الفعاليـات ولكن الجزيء يبقى كمركب كيميـائي بالمفهوم الجديد للحياة غير ميت بل ذو حركة جوهرية دائمة بوجوده كمركب قائم. إذ لولاها لما استقر كمركب موجود. فهو حي بحركة الكترونات ذراته المختلفة ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولًا﴾[سورة الأنفال: ٤٢].

فهداية هذا المركب الكيميائي للقيام بـدوره وهـو حي (الـروح فيه) يختلف تماما فيما لو صنعته كيميائيا (لا روح فيه) فإنه لن يعمل ولا ينقل المورثات. فماذا نسمي هذا السر؟. لا بأس لنسمّه بالحياة المستمرة التي تنتهي بسلبها وهو الموت بتوقفه وليس بهلاكه وتفتته الى أجزائه. ثم لا يمكن أبدا أن ترتبط العناصر المكونة (للدي أن أي) المكون الأساس للحياة إلا من خلال الروابط أو الأواصر الكيميائية التي هـي بـدورهـا مكونة مـن اشـتراك إلكترونان لكل رابطة بين ذرتين وهذان الإلكترونان ناشطان متحركان دائما ما دامت السماوات والأرض. ألا تعد هذه الحركة حياة مستمرة؟.

الفصل ٦: حركة الإلكترون:

علمنا أن لا حـركـة ذاتيـة مـن غير مسبب، وأن الثابت لا يسبب في حركة متحرك، وكـما نعلم أن الطاقة محفوظة لا تستحدث بل يمكن نقلها من صورة الى أخـرى ولا يمكن عدمها عـلى أن يكـون ذلـك في نـظـام مـعـزول وهـو ما اصطلح عليه قانون الديناميكا الحرارية

(Thermodynamics).

وأن الإلكترون يدور حول النواة بسرعة ثابتة وبطاقة محددة حسب نظرية بور[٤٦]. وفيما بعد تطور المفهوم في نظرية الكم ليصبح سحابة إلكترونية. وقال العلماء أنه يشكل سحابة الكترونية بمستوى محدد من الطاقة عن النواة.

والسؤال هنا هو من أين أكتسب الإلكترون طاقة الدوران هذه؟. فيأتي جواب الفيزيائيين أنه طالما أن الإلكترون مشحون بشحنة سالبة فإنه يتأثر كثيرا بالمجال الكهربائي، وبتعبير أدق فإنه يتعجل بهذا المجال، وبما أن له كتلة صغيرة جدا فإنه سيتعجل بسرعات عالية جدا حتى بوجود مجال كهربائي ضعيف جدا. ويشبهون حركته حول النواة تماما كحركة الكواكب حول الشمس. فبينهما تجاذب وللكوكب قوة طاردة تمنعه من السقوط على الشمس. وأن الكوكب ينجذب نحو الشمس لأن كتلته أقل من كتلتها.

وكذلك فإن كتلة الإلكترون أصغر من كتلة النواة. وللإلكترون كما للأرض دوران حول نفسها ويسمى بالغزْل وبعزم زاوي كمي بقيمة ٢/ ١ أما باتجاه عقارب الساعة فيكون بقيمة موجبة أو عكس عقارب الساعة فتكون قيمة سالبة. ولكن كيف اكتسب الإلكترون هذا الدوران الذاتي، وكيف اكتسبت الأرض أو الكواكب هذا الدوران الذاتي، أيضا؟. لا أريد أن أخوض في كل الافتراضات العلمية والنظريات. ومهما كانت فالنتيجة أن هناك حركة دورانية للإلكترون حول النواة مكونا سحابة سالبة الشحنة[٤٧]. ولولا هذه الحركة الدورانية والمتلازمة مع الحركة المغزلية الإلكترونية لما قامت الدنيا على شكلها المحسوس والملموس.

(٤٦) نظرية بور: في عام ١٩١٣ قام العالم الدانماركي نيلز بور بتطوير نظرية دمجت أفكار كل من بلانك واينشتاين أكسبته جائزة نوبل عام ١٩٢٢ وتعد نظريته أول نظرية وضعت لتفسير التركيب الالكتروني لذرة الهيدروجين، وتنص على أن الإلكترون يدور حول النواة في مدارات محددة دون أن يفقد شيئا من طاقته.

(٤٧) لكل إلكترون على حدة في السحابة الإلكترونية حول ذرة مفردة (حرة)، يعبر عنها على شكل دالة رياضية في ميكانيكا الكم. ويعبر عن المدار الذري في ميكانيكا الكم بعدد الكم المداري.

ومن المعلوم أن الذرة هي أصغر جسم في الكون وأنها لا يمكن تكسيرها أكثر مع الإبقاء على صفة المادة قائمة. فخاتم الذهب مثلا يمكن تكسيره الى قطع صغيرة فأصغر الى أن ننتهي بذرات الذهب التي هي ذرات عنصر الذهب، ولا يمكن ان نرى هذه الذرات بالمجهر. ولكن لو تم تحطيم ذرة الذهب الى مكوناتها من نواة والكترونات بعملية تفاعلات نووية فسوف لن تبقى ذرة ذهب، وسوف لا تحتفظ المكونات الجديدة فيما بعد بصفات عنصر الذهب بل سيكون عنصرً آخر ومكونات أخرى.

وأن أبسط مركب في الكون كله هو جزيء غاز الهيدروجين. حيث أنه يتكون من اتحاد ذرتي هيدروجين مع بعض وذلك بتكوين رابطة إلكترونية[٤٨] بين الذرتين مكونا جزيء الهيدروجين الغاز الذي يملأ الكون وما بين النجوم، وهو المكوّن الرئيس لشمسنا. هذه الرابطة ناتجة من مساهمة كل ذرة بإلكترون واحد. بسبب غزل كل واحد منهما عكس اتجاه الآخر فإنهما يتجاذبان نتيجة لتكوين مجالين مغناطيسيين متعاكسين وبذلك يتكون الجزيء.

ولك أن تتخيل كيف تكوّن جزيء الماء أو جزيء السكر أو الرمل أو مركبات الصخور وهكذا. فلو توقف هذا الإلكترون عن حركته المغزلية فإنه لا يمكن أن يرتبط مع إلكترون آخر وبذلك لا يتكون جزيء. وهذا يعني أنه سوف لا يوجد ماء ولا غازات ولا صخور ولا جبال ولا شمس ولا أي شيء من الذي تراه اليوم وتحسه وتلمسه. بل سيبقى الإلكترون في ذرته وحيدا وهذه الحالة غير موجودة وإذا وجدت فسيكون

(٤٨) تقوم الإلكترونات بتكوين مدار جزيئي بين ذرتين ويتماسك الجزيء. تفاعلات الإلكترونات تنشأ نتيجة القوة الكهرومغناطيسية حيث تتأثر الإلكترونات (سالبة الشحنة) مع نواة الذرة (موجبة الشحنة) وكذلك تتأثر فيما بينها، فتنشأ الروابط بين الذرتين، وبعض الخصائص الأخرى مثل المغناطيسية.

وتكوّن الذرات رابطة في حالة أن تكون طاقتها بعد الارتباط أقل من طاقتها قبل الارتباط. حيث تتحرك الإلكترونات في الذرة والجزيئات في مستويات محددة للطاقة.

عمرها لحظيا. إذ أن كل الكترون له غزْل كمي وله قيمة واتجاه وعلى أساس هذا الافتراض تم شرح كل الحقائق الملموسة في حياتنا اليومية وعلى أساسه أيضا يتم تكوين مركبات جديدة من أدوية وأصباغ وصناعات وكل شيء.

والسؤال مرة أخرى لماذا يا ترى تدور الإلكترونات بحركة مغزلية؟.

للإجابة عليه نعود الى ما ابتدأنا به الموضوع؛ وقلنا أن لكل حركة محرِّك. فحركة الإلكترون حول النواة، أو حركة الكواكب حول شموسها، أو حركة الشموس كلها هل هي ذاتية بنفسها وإرادتها؟.

لقد ناقش هذا السؤال الفيلسوف ابن سينا وملخص اجابته أنه قال: «لأن الحركة المستديرة دائمة فلا يجوز أن يتم دوام الحركة المستديرة بهذه القوة النفسانية وحدها. لمقدمتين: إحداهما أنه لا يمكن أن يكون لجسم من الأجسام قوة غير متناهية، والثانية أنه لا يمكن أن تكون قوة متناهية يصدر عنها فعل غير متناه، لأن القوة تقدر بالفعل، وبالعكس. وما كان فعله غير متناه فهو ذو قوة غير متناهية. وقد بان ووضح أن لهذه الحركة محركا غير متناهي القوة وأنه مباين الذات لكل جرم، فإذن هذا المحرك هو غير النفس الذي هو كمال للفلك وقابل للتغيّر، لأنها قوة جسمانية، وهذا المحرك لا يمكن أن يكون كمالا لجسم ولا قوة في جسم. وتحقيق هذا أن الجرم السماوي يستمد القوة غير المتناهية بما يعقل من الأول ويسنح عليه من نوره وقوته دائما»[٤٩].

ويعود ذلك الإتقان في هذه الحركة الى موجدها وخالقها، فهذا الاتقان «صادر عن عِلمُ الحقّ الأول بنظام الخير في الوجود عِلما لا نقص فيه، وكان ذلك العلم سببا لوجود ما هو علم به حَصل الكل في غاية الإتقان، لا يكون الخير فيه إلا ما هو عليه، ولا شيء مما يمكن أن يكون للخير إلا وقد كان له»[٥٠]. إن الله سبحانه وتعالى قد

(٤٩) المبدأ والمعاد، أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٩٨، فصل١١، ص٣٨-٤٤.

(٥٠) المبدأ والمعاد، أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٩٨، فصل ١١، ص ٨٨.

خلق كل شيء على وجه الإتقان والإحكام والاتساق، وقد قال سبحانه: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[سورة النمل: ٨٨]. فالله هو المحرّك، وهو الذي يفيض على الأشياء حركتها ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة يس: ٧٩].

فلعدل الله ورحمته أن مدّ الإلكترون بالحركة خيرا منه وكمالا منه سبحانه وتعالى. والسؤال هنا ماذا لو سُلبت هذه الحركة من واهبها؟.

الفصل ٧:
مفهوم الحياة مطلق لكل الأشياء في الكـــــون:

علمنا مما سبق أن لا حركة ذاتية من غير محرّك، وأن المتحركات لها إرادة بالطول مع الإرادة الإلهية، مطيعة ومستجيبة له. كما في قوله :﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[سورة فصلت: ١١]. "وقد تبين أيضاً في المعالم الإلهيّة إثبات العقل والإرادة للأرض بالبرهان المنوّر بأنوار القرآن"[٥١]، واستبشـــرت فأحيطت ببركة إلهية ومستشرقة بنوره ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [سورة الزمر: ٦٩]. والله سبحانه قد أمدها بالحياة، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾ [سورة فصلت: ٣٩]. والحياة تعني "ومن اكتحلت عين بصيرته بنور الحكمة الحقّة، يعلم أنّ كل جرم فله حياة ونفس وعقل، إذ ما من جسم إلاّ وله صورة طبيعيّة هي مبدأ حركته القريبة، وكلّ جسم من شأنه التفرّق والانقطاع والتكثّر، وعند القطع والتكثير تنعدم ذاته ويزول اتّصاله، وكلّ طبيعة من شأنها الاستحالة والسيلان دائماً. فالنَفْس الروحانيّة هي علّة اتّصال الأجرام ووحدانيّته، فالوحدة والاتّصال مستفادان في كل جرم من النَفْس، وكذا البقاء والاستمرار له لسيلان طبيعته واستحالتها. والنَفْس لا يتمّ وجودها إلاّ بالعقل، لأنّها أيضا من حيث الفعل والتدبير طبيعة، ومن حيث الذات والحقيقة عقل، فثبت أنّ الأرض ذات حياة نفسانيّة، ولها كلمة فعّالة روحانيّة.

(٥١) تفسير القرآن العظيم، صدر المتألهين محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي (ت ١٠٥٩ هـ)، دار الإيمان، قم.

واستدلّ معلّم أسلاف الحكماء -والكلام لصدر المتألهين -على أنّ الأرض ذات حياة بأنّها تنمو وتنبت الجبال-فإنّها نبات أرضي-، وفي داخل الجبال حيوانات كثيرة ومعادن، وإنّما تتكوّن هذه منها لأجل الكلمة ذات النفس فإنّها هي التي تصوّر في داخل الأرض هذه الصورة. وهذه الكلمة هي صورة الأرض الفاعلة فيها هذه الأفاعيل، ولا يمكن أن تكون ميتة وتفعل هذه الأفاعيل العجيبة العظيمة، فان كانت حيّة فإنها ذات نفس لا محالة. فإن كانت هذه الأرض الحسيّة حيّة -وهي صنم -فبالحريّ أن تكون الأرض العقليّة حيّة -انتهت حكاية كلامه. أنّ الأعيان الجوهريّة دائمة التوجّه إلى الله تعالى توجُّها معنويّا وحركة ذاتيّة، وما من جوهر عينيّ له صورة وجوديّة إلاّ وله هذا السير الحثيث إلى الحضرة الإلهيّة، وهو أبداً في الانتقال من صورة إلى صورة، ومن طور إلى طور حركة رجوعيّة وسيراً استكماليّاً"[٥٢] كما قال سبحانه: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[سورة النمل: ٨٨].

فأصبح الآن من الضروري أن أعود الى الفكرة في أن الحياة مطلقة في الكون لكل الأشياء وليست مختصة بما اصطلح عليه بالكائنات الحية فقط، بل أن الحياة تشمل كل الموجودات. لأن الكون يتكون من أصغر جزيء وهو جزيء الهيدروجين الى أكبر الجزيئات من البوليمرات وبينهما ما تراه وتتحسسه في الحياة الدنيا. ولا يمكن أن يتكون جزيء من غير تكوين رابطة الكترونية ناتجة من حركة الإلكترونات. ولعدل الله ورحمته أن مدّ الإلكترون بالحركة خيرٌ منه وكمالٌ منه سبحانه وتعالى. فأي صخرة أو حبة رمل أو ورقة نبات أو رميم جثة فإنها مكونة من مركبات كيميائية. وهذه المركبات مكوّنة من ذرات ترتبط فيما بينها بروابط إلكترونية. ففي هذه المركّبات حركة دائبة مستمرة وهي مستمدة من محرِكها ومطلقِها ومنشِئها، وهو الله الخالق القدير وهاديها لفعلها، فاستجابت لأمره طائعة

(٥٢) تفسير القرآن العظيم، صدر المتألهين محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي (ت ١٠٥٩ هـ)، دار الإيمان، قم.

بإرادة ذاتية ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: ٤٠]. والسؤال الآن ماذا لو سلبت هذه الحركة؟.

ماذا لو سُلبت هذه الحركة من قبل واهبها؟.

إن في الإجابة على هذا التساؤل تتجلى حقيقة يوم القيامة -والله العالم-، والصوَر المهولة المرافقة لها. إن سلب الحركة الذاتية للإلكترون فإنه يعني انهيار كل جرم ملموس ومحسوس في الكون، وتصح عليه الآيات التالية:

١. **الجبال:**

الله سبحانه الذي جعل الجبال مثبتات للأرض من الميد والإمالة يمينا وشمالا كما قال سبحانه في أكثر من آية ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾(٥٣) [سورة النحل: ١٥]. هذه الجبال المكوَّنة من تراب وصخور وغيرهما، وبدورها فإن كل واحدة منها مكوَّن من مركبات كيميائية. وأن هذه المركبات الكيميائية متكوّنة من ارتباط ذرات متنوعة. وذلك من خلال روابط كيميائية، وهذه الروابط الكيميائية ناشئة من حركة متعاكسة لإلكترونين. وأن كل ذرة من الذرتين المترابطتين تساهم بإلكترون واحد أو أكثر لتكوين رابطة واحدة أو أكثر مع الذرات الأخرى. فإذا توقف الإلكترون عن حركته (بالأمر الإلهي) فإنه سيلبّي طائعا كما تمّ ذلك للسماوات والأرض حيث سمعتا النداء الرباني فاستجابتا بإرادتهما الذاتية ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ١١]. وستتحطم الرابطة الكيميائية وسيتفكك المركب متحولا الى ذراته وهذه الذرات تموت بموت الحركات الأخرى لمكونات النواة. حينئذ لم يعد هناك وجودا كما كان ولا موجودات وتعود كلها الى مكونات الذرة الساكنة غير المتحركة وينتهي الكون الى عالم مكونات الذرة والله العالم.

فالجبال بعدما تصير كثبانا مهيلا يسيرها على وجه الأرض كما تسير

(٥٣) وأيضا في: [سورة الرعد ٣]، [سورة الحجر: ١٩]، [سورة الأنبياء: ٣١]، [سورة النمل: ٦١]، [سورة لقمان: ١٠]، [سورة فصلت: ١٠]، [سورة ق: ٧]، [سورة المرسلات: ٢٧].

السحاب في السماء لا بل ستصبح كالسراب لا حقيقة لوجودها ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾[سورة النبأ: ٢٠]، فهي هباء منتشرا. ولأن الأنسان لا يستطيع وصف الهباء أكثر مما عرّف على أن الهباء هو شيء مرئي في شعاع الشمس الداخل من الكوة. وفي الحقيقة هو لا شيء كما وصف الله عمل الكافرين في الآخرة فوصف عملهم المحبط بأنه هباء: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[سورة الفرقان: ٢٣]، فتصبح الجبال الرواسي المثبتة للأرض هباء منثورا ولا ترى وإنما هي وهمٌ كالسراب لا حقيقة له.

٢. **الأرض:**

لقد خلق الله الأرض وجعلها مبسوطة محلا للاستقرار ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾[سورة البقرة: ٢٢]، وجعلها قرارا ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾[سورة غافر: ٦٤] ومهدّها للعيش ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾[سورة طه: ٥٣]، كما أن الله سبحانه قد مكّن الإنسان منها والعيش فيها ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٠]. لقد أحكم الله صنعه وما كان خلقه للأرض من غير نظام، فما خلق الله سبحانه وتعالى السماء والأرض وما بينهما لعباً ولهواً وما أبدعها عبثاً ولغير غاية وغرض حاشا الله وتعالى الله علوا كبيرا ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٦]. فلم يكن خلقها من غير غاية ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾ [سورة ص: ٢٧] بل أنه سبحانه قد خلقها بالحق ﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾[سورة الدخان: ٣٩]. وحفظها من الزوال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ [سورة فاطر: ٤١]، ولكن هذه الأرض لا تبقى كما هي. بل سيتغير النظام، وينشأ نظام غير هذا النظام الذي نعهده ولا يمكن أن نتصوّره، ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾[سورة إبراهيم: ٤٨]، والله العالم كيف ستكون، فستزول عنها الجبال وتصبح مستوية لا جبال ولا وديان ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [سورة الكهف: ٤٧]. ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ

﴿ مُدَّتْ ﴾ [سورة الانشقاق: ٣] فلا حائل أو حاجز فيغطيها نور الله ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾[سورة الزمر: ٦٩]. وتشقق ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾[سورة ق: ٤٤]، فتهتز الأرض وتزلزل ويدق بعضها على بعض فترج رجا ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾[سورة الواقعة: ٤]. وتدك دكا ﴿ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾[سورة الفجر: ٢١]. فترجف الأرض ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ ﴾ [سورة المزمل: ١٤]، فتزلزل كل الأرض زلزلة قوية ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [سورة الزلزلة: ١]، فستفرغ ما في داخلها ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [سورة الزلزلة: ٢]، فتضطرب الأرض وتتردد في الذهاب والمجيء مثل الموج ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾[سورة الملك: ١٦]، فتحاط بالقدرة الربانية فتدك وتفتت الى أجزاء صغيرة فتدك الأرض بدكة واحدة لا تثنى بأخرى تقضي على وجودها، ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾[سورة الحاقة: ١٤]، وهذا يعني أن "الدك أشد الدق وهو كسر الشيء وتبديله إلى أجزاء صغار، وحمل الأرض والجبال إحاطة القدرة بها، وتوصيف الدكة بالواحدة للإشارة إلى سرعة تفتتها بحيث لا يفتقر إلى دكة ثانية"(٥٤).

٣. السماء:

هذه السماء التي بنيت(٥٥) بأيد(٥٦) وقدرة، وجعلت سقفا محفوظا(٥٧)، عالية الدقة في الجمال والنظام، وجعل فيها بروجا وزينة(٥٨)، سيتغير ويتبدل نظامها ولم تعد كما كانت عليه. وسوف لا أذكر الى ما سيجري لها فقد أذكره في مكان آخر. وهنا سأذكر الآيات التي تناولت هذا التبدّل: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ

(٥٤) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٩، ص ٣٩٧.

(٥٥) [سورة البقرة: ٢٢]، [سورة غافر: ٦٤]، [سورة ق: ٦]، [سورة الذاريات: ٤٧]، [سورة النازعات: ٢٧]، [سورة الشمس: ٥].

(٥٦) [سورة الذاريات: ٤٧].

(٥٧) [سورة الأنبياء ٣٢].

(٥٨) [سورة الحجر: ١٦]، [سورة الفرقان: ٦١]، [سورة فصلت: ١٢]، [سورة ق: ٦]، [سورة الملك: ٥]، [سورة البروج: ١].

لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤] ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ [سورة الطور: ٩]، ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾[سورة الدخان: ١٠]، ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [سورة الرحمن: ٣٧]، ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ [سورة الانفطار: ١]، ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ [سورة المزمل: ١٨]، ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾ [سورة المرسلات: ٩]، ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾[سورة النبأ: ١٩]، ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ [سورة الانشقاق: ١]، ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [سورة الحاقة: ١٦]، ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ [سورة التكوير: ١١] ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾ [سورة المعارج: ٨].

فالله سبحانه وتعالى خلقها في بداية خلقها فكان حالها كالدخان، "حال كونها شيئاً سماه الله دخاناً وهو مادتها التي ألبسها الصورة"[٥٩]: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[سورة فصلت: ١١].

وشاء الله سبحانه أن ينتهي كيان السماء بعد تلك الصور التي رسمها القرآن الكريم من خلال الآيات أعلاه من التشقق والتقطع والانصهار والوهن والضعف بعد ذلك تعود هذه السماء الى الصورة نفسها التي بدأت منها، وهي التي وصفها سبحانه وتعالى بالدخان: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة الدخان: ١٠]. لقد ذكر الله سبحانه في الآية الشريفة: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤].

فبعد طي السماء بمعنى "ذهابها عن الحس"[٦٠]، أو «يفنيها فتتحول دخاناً»[٦١]،

(٥٩) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٧، ص ٣٦٥.

(٦٠) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(٦١) تفسير القمي، أبو علي بن إبراهيم القمي (القرن الثالث)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ج٢، ص ٧٧.

وأن الطي للسماء هو «رجوعها إلى خزائن الغيب بعدما نزلت منها وقدرت»[٦٢] كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[سورة الحجر: ٢١]. فتعود السماء الى الحالة التي ابتدأها سبحانه وتعالى قبل الخلق، فاعتبر سبحانه وتعالى "تشبيه الاعادة بالإبداء في جواز تعلّق الارادة والامكان، او تشبيه المعاد بالمبتدئ"[٦٣]. بمعنى آخر «يعيد أوّل الخلق كما بدأه، تشبيها للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء، وما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه؟. قلت: أوّله إيجاده عن العدم، فكما أوجده أولا عن عدم، يعيده ثانياً عن عدم»[٦٤].

(٦٢) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٤، ص ٣٢٩.

(٦٣) تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة، سلطان محمد الجنابذي الملقب بسلطان علي شاه (ت القرن ١٤ هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

(٦٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، دار المعرفة، ٢٠٠٩، ج٣، ص١٣٧.

الفصل ٨:

الموت والفناء والإعدام والهلاك:

الإعدام كما عرّفه الطوسي على أنه تفريق الأجزاء، وفصّل أكثر فجعل المكلّف يعاد وذلك بجمع أجزائه بينما لا يعاد غيره، وجاز إعدامه بالكلية ولا يعاد ويصدق عليه أنه هالك بمعنى أنه غير منتفع به، أو يقال: إنه هالك بالنظر إلى ذاته، فقال «فإن المكلف بعد تفريق أجزائه يصدق عليه أنه هالك بمعنى أنه غير منتفع به، أو يقال: إنه هالك بالنظر إلى ذاته، فالإعدام بتفريق أجزائه ولا امتناع في ذلك، فإذا فرق أجزاءه كان هو العدم فإذا أراد الله تعالى إعادته جمع تلك الأجزاء وألفها كما كانت فذلك هو المعاد. ويدل على هذا التأويل قوله تعالى في سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية الإحياء للأجزاء في الآخرة، لأنه تعالى لا يحيي الموتى في دار التكليف وإنما الإحياء يقع في الآخرة، فسأل عليه السلام عن كيفية ذلك الإحياء وهو يشتمل على السؤال عن جميع المقدمات التي يفعلها الله تعالى حتى يهيئهم ويعدهم لنفخ الروح، فأمره الله تعالى بأخذ أربعة

من الطير وتقطيعها وتفريق أجزائها ومزج بعض الأجزاء ببعض ثم يفرقها ويضعها على الجبال ثم يدعوها، فلما دعاها ميّز الله تعالى أجزاء كل طير عن الآخر وجمع أجزاء كل طير وفرقها عن أجزاء الآخر حتى كملت البنية التي كانت عليها أولا ثم أحياها الله تعالى ولم يعدم تلك الأجزاء فكذا في المكلف، هذا ما فهمناه من قوله: كما في قصة إبراهيم عليه السلام، فهذا هو كيفية الإعدام»[٦٥].

إذن فإعدام الشيء هو تفريق أجزائه وبجمعها إعادته للحياة، والسؤال هنا هو من الذي يجمعها بعد التفريق؟. فإن قلنا إن ذات الشيء تجمع نفسها فذلك غير ممكن لأنها في ذاتها مخلوقة ولا تملك لذاتها أن تحيي ذاتها بعد التفريق، وإنما من خلقها أول مرة قادر على أن يعيدها سيرتها الأولى. «فذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين: كونوا أحياء، فيكونون أحياء كما كان شأنه في بدء الخلقة، ذلك إذ قال للسماوات والأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا: أتينا طائعين»[٦٦].

وهذا ما نلاحظه في قصة إحياء الطيور المقطعة أجزاؤها، إذ عبّر عن إعادة الحياة بالسعي وهو نوع من الحركة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠].

وكذلك السماء والأرض فإن الله سبحانه وتعالى جمع أجزاءَهما وكان دخان بعد تفرق. فأمر الدخان الذي هو مادة السماء والأرض أن يكون سماءً وأرضاً فكانا سماءً وأرضاً قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[سورة فصلت: ١١]. مع ملاحظة استجابة السماء

(٦٥) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد- الخواجة نصير الدين الطوسي، (ت ٦٧٣ هـ)، شرح جمال الدين الحسن بن يوسف الحلي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ص٥٤٦.

(٦٦) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢، ص ٣٦٨.

والأرض وطواعية فعلها. وذلك لإرادتهما الذاتية ولعلمهما بقدرة القدير الذي أنطق كل شيء ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[سورة فصلت: ٢١]. إذن فإن العدم هو تفريق أجزاء الحي، والحياة هي جمع الأجزاء.

وما هو الموت إذن؟. لقد وصف الموت على أنه "ما استحال معه النمو والإحساس ولم تصح معه القدرة والعلم وهو نقيض الحياة، والموت من فعل الله تعالى وليس لأحد فيه صنع ولا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى"(٦٧). ويتعلق الموت بذي روح مثل الحيوانات ومنها العاقل وهو الإنسان ذو الأفعال الاختيارية أو التي لها أفعال جبرية كباقي الحيوانات والنباتات. وعلى أي حال سواء كانت الحياة متعلقة بالروح او النفس او الحركة فالموت نقيض الحياة.

وأما الفناء فهو الموت لذوات الشعور «أي كل ذي شعور وعقل على الأرض سيفنى وفيه تسجيل الزوال والدثور على الثقلين»(٦٨)، لقوله تعالى بالإشارة للضمير من في الآية الشريفة ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [سورة الرحمن: ٢٦].

"إنّ ملاحظة المعنى اللغوي، والاستعمال القرآني للفظ الموت، يفيد أنّ الموت أمرٌ عدمي، ولكنه من زاوية أُخرى، ليس أمراً عدمياً في موت الإنسان، وذلك لو فسّر الموت بقبض الملائكة الطاقات الحسية الموجودة في الإنسان؛ فإنّه أمرٌ وجوديٌّ، وإن كانت النتيجة أمراً عدمياً. ويمكن جعله أيضاً من الأمور الوجودية في الإنسان، بمعنىً آخر، وهو أنّ الموت نافذة على الحياة الجديدة"(٦٩). يقول أمير المؤمنين عليه السلام في إشارة الى أن الموت انتقال وليس فناء: «أيّها الناس، إنّا خُلقنا وإيّاكم للبقاء، لا للفناء لكنكم من دار إلى دار

(٦٧) تصحيح اعتقادات الإمامية تأليف الإمام الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم أبي عبد الله العكبري، البغدادي (ت ٤١٣ هـ) تحقيق حسين درگاهي، ج١، ص٩٤.

(٦٨) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٩، ص١٠٠.

(٦٩) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، جعفر السبحاني، ج ٤، دار احياء التراث العربي، بيروت.

تنقلون»[٧٠]، فالفناء كما يتضح هو أمر عدمي.

والهلاك: «بطلان الشيء من العالم وعدمه رأسا»[٧١]، وأن «هلاك الأشياء بطلان وجودها الابتدائي وخلوّ النشأة الأُولى عنها بانتقالها إلى النشأة الأُخرى ورجوعها إلى الله واستقرارها عنده»[٧٢]، ويتأكد لنا أن الأشياء كلها الى زوال ماعدا الواجب الوجود الخالق للأشياء، فهو هالكها جميعها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [سورة القصص: ٨٨]. والفرق بين الإهلاك والاعدام: "أن الإهلاك أعم من الإعدام لأنه قد يكون ينقض البنية وإبطال الحاسة وما يجوز أن يصل معه اللذة والمنفعة، والإعدام نقيض الإيجاد فهو أخص فكل إعدام إهلاك وليس كل إهلاك إعداما"[٧٣]. وسأقف عند هذه العبارة في موضوع الانتقال بعد النفخة الثانية والتي تسمى نفخة الإحياء التي هي بعد النفخة الأولى نفخة الإماتة حيث يتحقق الهلاك الكامل لكل شيء، وسيكون في الفصل التاسع.

الفصل ٩: السكون:

يعرف السكون على أنه «ثبوت الشيء بعد تحرك»[٧٤]. كما في حال سكون الارض ووقوفها عن حركتها فإنه سيمتد الظل وسيدوم، فالحركة الطبيعية للأرض حول نفسها ستجعل الظل يمتد ويطول بدلالة الشمس، ولو شاء الله لجعل الظل ساكنا بسكون الأرض كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّۖ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗاۚ ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ [سورة الفرقان: ٤٥]. "ولازم ذلك أن يكون المراد بمد الظل ما يعرض الظل

(٧٠) الإرشاد: للشيخ المفيد، ص ١٢٧.

(٧١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم –الدار الشامية، ٢٠٠٩، مادة هلك.

(٧٢) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٦، ص ٩٢.

(٧٣) الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت ٣٩٥هـ)، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

(٧٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم –الدار الشامية، ٢٠٠٩.

الحادث بعد الزوال من التمدد شيئاً فشيئاً من المغرب إلى المشرق حسب اقتراب الشمس من الأفق حتى إذا غربت كانت فيه نهاية الامتداد وهو الليل، وهو في جميع أحواله متحرك ولو شاء الله لجعله ساكناً، والدليل هي الشمس من حيث دلالتها بنورها على أن هناك ظلاً وبانبساطه شيئاً فشيئاً على تمدُّد الظل شيئاً فشيئاً ولولاها لم يتنبه لوجود الظل"(٧٥). فقال تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾[سورة الفرقان: ٤٥-٤٦].

قلنا إن المتحرك لا يتحرك بذاته بل يحتاج الى محرِّك، وهنا يضع الله سبحانه وتعالى تساؤلين فيما لو غيرت الأرض دورانها حول نفسها حول القطب الحالي الشمالي الجنوبي الى محور عرضي عمودي على الشمس، أي كحركة القمر حول نفسه حول محوره العمودي على الأرض، فماذا سيكون؟. سيكون الوجه المواجه للشمس في نهار دائم سرمدي، والوجه البعيد عن الشمس سيقع بمخروط الظل وسيكون في ليل سرمدي، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[سورة القصص: ٧١-٧٢]. ومن المعلوم أن حركة الرياح والمياه في البحار والمحيطات كلها ستتأثر بحرارة الأرض وبمعنى آخر أن حركتها حول الشمس مرهونة بحرارة الأرض. وبثبوتها فإن حركة الرياح ستسكن وكذلك تيارات الماء، قال تعالى ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ [سورة الشورى: ٣٣].

ولكن في تصوّر آخر؛ فيما إذا توقفت الأرض في دورانها حول نفسها فجأة، فإن الجو المحيط بالأرض سيستمر بسرعته الأصلية وهي سرعة دوران الأرض والتي تساوي ١٧٦٠ كيلومتر في الساعة على خط الاستواء، وهذا يكفي لكنس ما على وجه الأرض ليس له جذور صخرية.

(٧٥) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٥، ص ٢٢٥.

وكذلك ستتلاطم مياه المحيطات والبحار لتنسكب جانبا، فتغمر كل شيء، كما وسيطول اليوم ليصبح مساويا ٣٦٥ يوما عاديا.

وسيواجه نصف الأرض للشمس وترتفع درجة الحرارة، بينما النصف الآخر سيغمره الظلام وسيبرد كثيرا، ولا نرى ما تعودنا عليه من تبدل الليل بالنهار وغروب وشروق إلا بعد نصف عام. وماذا بعد؟.

لو توقفت الأرض عن دورانها حول الشمس فماذا يحدث؟.

يرسم العلماء صورة افتراضية معتمدة على الحسابات الرياضية فيفترضون أن الأرض ستتسارع بالسقوط نحو مركز الشمس. والتي تبعد عنها بـ ١٥٠ مليون كيلومتر، وأن رحلتها ستستغرق ٦٤ يوما ونصف، بينما سترتفع درجة الحرارة بشكل مضطرد الى أن تصل الى ٣٠٠ درجة مئوية في اليوم الستين والأيام الأربعة الأخيرة سترتفع بشكل سريع الى أكثر من ٣٠٠٠ درجة مئوية.

ويقال: إنه بعد شهر من رحلة الأرض نحو الشمس وبتلك السرعة الهائلة تؤدي الى رفع درجة حرارتها الى ٥٨ درجة مئوية، وسيصبح حينئذ نور الشمس شديدا جدا. بينما تبدأ المعامل على الأرض بالتوقف، وستحترق الغابات وتموت معظم الحيوانات ويصبح العيش صعبا. وباقتراب الأرض من الشمس أكثر فإن درجة حرارة الماء سترتفع أكثر فيؤدي الى خروج بعض الغازات الذائبة في الماء وأحدها الأوكسجين، فتموت الأسماك بسبب نقص الأوكسجين بينما ترتفع نسبة غاز الأمونيا، وبذلك فإن بارتفاع درجة حرارة الماء فإنها ستقضي على سلسلة الغذاء الموجودة في الماء، وهذا يعني موت الحياة المائية. ولا يفوتنا أن نذكر أنه سيسبقها جفاف الهواء الذي يؤدي الى قتل الحشرات.

وبينما تستمر رحلة الأرض نحو الشمس، وحينما تصل درجة الحرارة ١٠٣ مئوية سيبدأ الماء بالغليان على سطح المحيطات والبحار، عندئذ سيغطي الأرض بخار كثيف. ولكن بسبب الضغط العالي في أعماق المحيطات فإنه يمنع من

غليان الماء في الأعماق.

وفي اليوم الأخير، فإنه ستقترب الأرض جدا من الشمس وبسبب الجذب الهائل من قبل الشمس فإن شكل الأرض سيتغير الى الشكل الكمثري فينسحب الوجه المقابل للشمس بقوة، مما يعجل في فتق وجه الأرض وتتشقق الصخور وتتفجر وتُخرج ما فيها على شكل حمم من بين الصخور المنفطرة. ثم تبدأ الصخور بالانصهار. علما أن درجة حرارة سطح الشمس هي ٥٧٠٠ كلفن، بينما في مركزها فإنها تساوي ١٥ مليون كلفن[٧٦].

ولو تساءلنا، ماذا لو اختفت الشمس من مدارها المرسوم لها؟. من المعلوم أن الشمس تتحرك بجريان نحو مستقرها أو حتى تنتهي إلى مستقرها ومن ثم استقرارها وسكونها بانقضاء أجلها أو زمن استقرارها أو محله بذلك الجريان فإنه مقدّر بزمن ومكان محددين ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [سورة يس: ٣٨]، على أن "ظاهر الجري هو الدال على الانتقال من مكان إلى مكان"[٧٧]، فالشمس لا تزال تجري ما دام النظام الدنيوي على حاله حتى تستقر وتسكن بانقضاء أجلها حينئذ ستخرب الدنيا ويبطل هذا النظام، وعندئذ فإن الأرض ستفلت من مدارها حول الشمس وستسير بسرعة مستقيمة مهولة وبسرعة ٣٠ كيلومتر في الثانية. ومن ثم سيغمر الأرض ظلام دامس وستبرد حرارتها بشكل سريع. ومن المعلوم أن ٩٩. ٩٪ من الإنتاج الطبيعي على الأرض هو من عمليات التمثيل الضوئي والتي تعتمد على الشمس، كما لم يعد باستطاعة النباتات أخذ ثاني أوكسيد الكاربون، وطرح الأوكسجين الغاز الحيوي. علما أن اختفاء ضوء الشمس يستغرق ٨ دقائق و٢٠ ثانية يومئذ سنرى آخر غروب للشمس. وآخر شيء يراه الإنسان هو القمر قبل انتهاء التسعة دقائق الأخيرة. وبعدها يعم الأرض الظلام، ولكن لا يزال يصلنا ضوء

(٧٦) الصفر المئوي تساوي ٢٧٣ كلفن.

(٧٧) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٧، ص ٨٩.

ضعيف جدا من المجرة التي نحن فيها ولكن بشدة قليلة مساوية لـ ٣٠٠/ ١ من ضوء القمر، وهو كما ترى ضئيلا جدا لا يكفي حتى للرؤية، فستنار المدن بالإنارة الاصطناعية. بينما يعم الظلام المناطق الأخرى غير المضاءة.

وكما أسلفنا فبغياب ضوء الشمس سيتوقف التمثيل الضوئي ولم يعد هناك امتصاص لغاز ثاني أوكسيد الكاربون لإنتاج غاز الأوكسجين الغاز الحيوي لبقاء الكائنات الحية على الأرض. كما أنه وبعد أسبوع واحد من غياب ضوء الشمس فإن سطح الأرض سيبرد الى درجة الانجماد أو أقل منها. وبالتأكيد فستموت جميع النباتات وسيتبعها موت كل الحيوانات ومنها الإنسان الذي يعتمد على النبات، وبعدها بعام ستنخفض درجة الحرارة الى (-٧٣) درجة مئوية وعندها ستتجمد كل المياه في العالم.

كان ذلك التصور العلمي للتغيرات المتوقعة في النظام الشمسي. وهو كما ترى مجرد افتراضات لا يمكن تأكيدها بتجربة. ولنعد الآن للصورة القرآنية.

الفصل ١٠:

الصورة القرآنية للحظة انهيار الموجودات:

يرسم القرآن الكريم الصورة الحقيقية لما سيجري عند بدء العالم الأخروي، فسيحصل تغيير كوني شامل، وأنه سيقوم نظام جديد لا يعتمد على السنن المتعاهد عليها التي أودعها سبحانه وتعالى في الحياة الدنيا.

ونؤكد هنا تماما جهلنا بما سيجري يومئذ إلا ما أشار له القرآن الكريم. وسنمر على ما ذكره القرآن الكريم بالإفادة أيضا من التصورات العلمية التي سنّها الله سبحانه وتعالى والتي على أساسها قام الكون، وبانهيارها سينتهي ذلك النظام الكوني الجميل الذي وصفه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة

البقرة: ١٦٤].

فأرضنا جزء من الكون المحاط بسقف يحفظه وهي السماء ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾[سورة الأنبياء: ٣٢] التي زينها سبحانه وتعالى بمصابيح ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ [سورة الملك: ٥]، ولأن الكواكب لا تزول عن مستقرها وكذا النجوم. فجعل السماء الدنيا جميلة مزدانة بضوئها ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾[سورة الصافات: ٦]. وقد زادها جمالا بأن جعل للشمس والقمر منازلا وبروجا وهو ما يزيد الناظرين للسماء بهجة وجمالا بتفاوت لمعان الكواكب، ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [سورة الحجر: ١٦]. ماذا سيحدث لهذا الكون الباهر الجمال، ومتسق النظام إذا اختل نظامه؟.

ماذا لو اختّل النظام الشمسي؟.

ذكرنا فيما سبق؛ التصور العلمي لانزلاق الأرض نحو الشمس مسارة بأفلاك الكواكب الشمسية بالترتيب نحو الشمس. لقد افترضوا الأزمان استنادا لسرعة الأرض وتسارعها نحو الشمس، ثم افترضوا أن الرحلة تستغرق نحو ٦٤ يوما ونصف اليوم، والله العالم بكل ما سيجري لأنه لا أحد يعلم ولم تجرَ تجربة في ذلك بل هي مجرد افتراضات لا تمنعنا من التدبّر والتفكير.

ويصف القرآن الكريم مشاهدا لما سيجري للأرض والكون كالتي ذكرناها سابقا ومتممة لها ولكننا جمعناها لوحدها.

١. الأرض والشمس:

لنبدأ من أن الأرض كوكب تابع للشمس وأن الحياة مرهونة بوجودها على ما هي عليه، ثم أن الله سبحانه وتعالى قد جعل واحدة من غايات خلق الشمس والقمر هو لتنظيم الحساب إلى سنين وأشهر، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[سورة يونس: ٥]. وهذه الشمس قد رسم لها فلكا ومسارا تجري فيه وتنتقل من مكان لآخر كما أراده الله لها وقدّره تقديرا حكيما الى أن تبلغ أجلها

وغايتها؛ ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [سورة يس: ٣٨].

ويظل الشمس والقمر متلازمين لما خط لهما من المسير. وفيه لا تدرك الشمس القمر حتى يختل بذلك التدبير المعمول بهما، ولا يمكن لأحدهما أن يتداخل بفلك الآخر فكل له تقديره الدقيق جدا وبحركة الأرض حول نفسها يتكون الليل والنهار. فلا الليل سابق النهار، "بل هما متعاقبان في التدبير فيتقدم الليل النهار فيجتمع ليلتان ثم نهاران بل يتعاقبان"(٧٨). فكل من الشمس والقمر وغيرهما من النجوم والكواكب يجرون في مجرى خاص به ومحفوظ. قال تعالى ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[سورة يس: ٤٠]. وقد قدّر الله سبحانه وتعالى للشمس والقمر بحساب منه فيجريان على ما قدّر لهما من نوع الجري ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾[سورة الرحمن: ٥]. وعلى هذا النظام الدقيق دامت الحياة على الأرض واستقامت وعمرت.

وماذا لو توقفت الأرض عن الدوران حول نفسها؟

فسيكون -كما أسلفنا -ليل في نصف الأرض المعاكس للشمس أمده نصف سنه والنصف المواجه للشمس نهار ويستمر لنصف سنة أيضا، وأما أذا ما غيّرت الأرض دورانها حول نفسها بالدوران الطبيعي حول قطبها الشمالي الجنوبي وأصبح دورانها حول قطبها العرضي العمودي على الشمس، فسيصبح دورانها وقتئذ حول نفسها كما هو دوران القمر حول نفسه، ولكن لم يعد هناك ليل ونهار وتعاقب بينهما. بل لها وجه بعيد عن مواجهة الشمس ولا يرى نورها، وآخر يواجه الشمس دائما، فيعني ذلك سرمدية كل من الليل والنهار معا. قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ

(٧٨) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٧، ص ٩١.

﴿إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[سورة القصص: ٧١-٧٢].

اما إذا ما تغيرت الشمس وتكوّرت، وذلك بأن "يجمع نورها ويذهب ضوؤها ويحدث الله تعالى للعباد ضياء غيرها"(٧٩)، ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [سورة التكوير: ١]، فتتكور الشمس يعني "انظلام جرمها"(٨٠). وسينطفئ نورها وسينكدر ضياؤها، وسيحدث ذات الانكدار للشموس الأخرى تماما كما لشمسنا، وستمحى آثارها ويذهب نورها فتطمس؛ ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾[سورة المرسلات: ٨]. فبعضها أكبر من شمسنا وأشد ضياءً ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾[سورة التكوير: ٢]، ويومئذ ستتهاوى كل النجوم والكواكب فلا نظام يحدها ولا أفلاك تجري فيها، وستنفرط كما ينفرط العقد فتتناثر اللآلئ، ويضطرب نظام حركتها ويختل، ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [سورة الإنفطار: ٢]. ويتزامن مع ذلك تماما أن تتوقف الأرض عن دورانها حول نفسها وحول الشمس فجأة مما يجعل من الهواء المحيط بالأرض وكذلك من المياه الموجودة في البحار والمحيطات أن تستمر بحركتها وهي المساوية لسرعة دوران الأرض قبل التوقف وهي ١٧٦٠ كيلومتر في الساعة على خط الاستواء، فهذا يكفي لكنس ما على وجه الأرض ليس له جذور صخرية. فيرسل الله سبحانه وتعالى الحاصب وهي الريح المهلكة في البر والقاصف وهي الريح المهلكة في البحر. ريحاً كاسرة للسفن أو مهلكة مغرقة لكل شيء؛ ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾[سورة الإسراء: ٦٨-٦٩]. فإن هذه الريح ستقتلع ما علا سطح الأرض

(٧٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج١٠، ص ٢٧٦.

(٨٠) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ٢١٣.

فتثير التراب و"ستقلب باطنها إلى ظاهرها وكذلك تشمل القبور"[٨١]، ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾[سورة الإنفطار: ٤]، ريح شديدة عاصفة تدفع أمواج البحر العالية فتحيط بهم من كل جانب؛ ﴿ جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾[سورة يونس: ٢٢]، وكذلك ستتلاطم مياه المحيطات والبحار لتنسكب جانبا، فتغمر كل شيء، وسينفتح بعضها في بعض حتى يزول الحائل ويختلط العذب منها والمالح ويعود بحراً واحداً، ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾[سورة الإنفطار: ٣]، يحدث ذلك بعدما غاب النظام الذي كان حافظا لها حيث جعل سبحانه وتعالى الأرض مستقرة لا تميد بنا وجعل في فرجها التي في جوفها أنهاراً وجعل لها جبالاً ثابتة وجعل بين البحرين مانعاً من اختلاطها وامتزاجهما، ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾[سورة النمل: ٦١]. سيغيب ذلك وينتهي، وسيعم الأرض حينئذ ظلام دامس هذا ما سيحدث على الأرض. وبالتأكيد فسيكون من الأسهل للقمر عند اختلال النظام، فينخسف نوره، ويذهب ضياؤه، قال تعالى: ﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴾ [سورة القيامة: ٨] وهنا يجتمع الشمس والقمر على غياب نورهما ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [سورة القيامة: ٩]، فيجتمعان، وقد يكون جمعهما "جمعاً في ذهاب نورهما بما يراه الانسان. وجعل أحد الشيئين مع الآخر. فالجمع على ثلاثة اقسام: جمع في المكان، وجمع في الزمان، وجمع الاعراض في المحل. وجمع الشيئين في حكم او صفة مجاز"[٨٢]. لا بأس حتى وإن جمعا في المكان والزمان فيمكن ذلك، ولم يعد هناك سراج ولا قمر منير، وهما اللذان كانا يزينان السماء الدنيا بنورهما ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[سورة الفرقان: ٦١]، فتبارك

(٨١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ٢٢٣.

(٨٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج١٠، ص ١٩٣.

الرحمن من اتقان محكم متين.

ولم يعد ذلك التلازم قائما بينهما، ووقتا لا يتعداه أحدهما على الآخر، ذلك التوقيت المتلازم والمتبادل الذي ينتج عنهما الليل والنهار. والذي كان يومئذ في الحياة الدنيا وتنعم بها الموجودات على الأرض: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [سورة يس: ٤٠]، ولكن باختلال هذا النظام الدقيق حينئذ لم يعد هناك فلك خاص لكل واحد منهما، بل سيجتمعان ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [سورة القيامة: ٩]. فسينشق القمر وينفلق الى نصفين "فينفصل بعضه عن بعض فصار فرقتين شقتين"(٨٣) قال تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[سورة القمر: ١].

٢. النجوم والسماء:

ولم تعد هناك نجوم يُهتدى بنورها ومواقعها ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[سورة الأنعام: ٩٧]، بعدما كانت مسخرة للإنسان في حياته يهتدي بها في الليالي الحالكة الظلام، فيذكرهم سبحانه وتعالى بجمال نظمها وترتيب مواقعها الدقيق: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[سورة النمل: ٦٣].

وأما السماء التي كانت مثل السقف المحفوظ والمحكم فإنها بعدما تهاوت النجوم وتناثرت، وانطفأ نورها فستصبح واهية ضعيفة، وستكون كالدخان فتضعف وتضمحل. فهي في مور شديد ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾[سورة الطور: ٩]، ولم تعد تلك السماء "ذات الطرائق الحسنة المراد منها مسير الكواكب او نضدها على طرائق التزيين"(٨٤) تلك التي أقسم بها الله سبحانه وتعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾[سورة الذاريات: ٧]. فإنها ستتشقق وتصبح واهية رخوة، ضعيفة مسترخية، بانتقاض بنيتها ولا ينظر أكثر هولاً من رؤية السماء في

(٨٣) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٩، ص ٥٥.

(٨٤) تفسير الصافي، الصافي في تفسير كلام الله الوافي، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، مكتبة الصدر، طهران، ج٥، ص ٣٦.

هـذه الهيـأة، ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [سورة الحاقة: ١٦]، وستنفرج فتتشقق وتتصدع ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾ [سورة المرسلات: ٩]، و"تشققها هذا سيصبح كقطع الأبواب"[٨٥]، ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾[سورة النبأ: ١٩]؛ "فشقّت شقوقاً"[٨٦]، "وتتقطـــــع"[٨٧] ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ [سورة الانفطار: ١]، وستتفطر وتنصهر أو أنها ستجري كالدهان "فانّ الدّهن إذا صبّ بعضها فوق بعضٍ اختلف الوانها ودُرديّ الزّيت ايضاً تختلف الوانه"[٨٨]، وستصير حمرة كـالأديـم الأحمـر؛ ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [سورة الرحمن: ٣٧]، وذلك كله لأنها أطاعت وانقادت لربها وكانت حقيقة وجديرة بأن تستمع وتطيع فتتشقق وتتصدع وتنفرج ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [سورة الانشقاق: ١ -٢].

فلـم تعـد سـماء جميلـة رائـعـة كما عهدناها مبنية بقوة ومتانة من قبل القدير ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[سورة الـذاريـات: ٤٧] ولم تعد سقفا محفوظا ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [سـورة الأنبياء: ٣٢] تزينه الكواكب ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [سـورة الصافات: ٦]، لكنها ستكشط "بالقلع عـن شـدة الـتـزاق فينطبق على طيها"[٨٩]؛ ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ [سورة التكوير: ١١] فتطـــوى بقدرة القدير ويحكـم قبضته "فيطويها بـقـدرتـه كما يطوي الواحد منا الشيء المقدور له طيّه بيمينـــــه"[٩٠] ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌ

(٨٥) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (ت ٤٦٠ هـ).

(٨٦) تفسير الصافي، الصافي في تفسير كلام الله الوافي، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، مكتبة الصدر، طهران.

(٨٧) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(٨٨) تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة، سلطان محمد الجنابذي الملقب بسلطان علي شاه (ت القرن ١٤ هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

(٨٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(٩٠) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق

بِيَمِينِهِۦ ﴾[سورة الزمر: ٦٧]، فيطويها كطي السجل ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾[سورة الأنبياء: ١٠٤] أو يطويها بمعنى "يفنيها فتتحول دخاناً"(٩١). ثم تصير مائعة "كدردي الزيت، أو كعَكَر القطران، أو مصهور الفضة"(٩٢) فتنصهر السماء تماما وتصير "كمصهور النحاس أو الرصاص"(٩٣)، أو الفلزات، فتكون كالمهل: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾ [سورة المعارج: ٨]. فتملأ فضاء الكون كله بالدخان أو ما يشبه الغيوم ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ [سورة الفرقان: ٢٥] وينتشر دخان غليظ يغشى الناس ويغطيهم ﴿ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾[سورة الدخان: ١٠].

"دخان يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أمّا المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة، وأمّا الكافر فبمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره"(٩٤).

فالسمـــــاء هي الشاهد الأول على اختلال النظام الكوني، فلم يعد هناك تزامنا، ولا أفلاكا ولا بروجا للكواكب ولا للشمس ولا منازل للقمر كالتي أقسم بها سبحانه وتعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ [سورة البروج: ١] التي جعلها زينة للناظرين، في جوّها من البهجة والجمال الذي يولّه الألباب بنجومها الزاهرة وكواكبها اللامعة على اختلاف أقدارها وتنوّع لمعانها ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [سورة الحجر: ١٦] وحفظها سبحانه وتعالى من كل ما يسيء لها ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾[سورة الحجر: ١٧]. وزينها سبحانه وتعالى بزينة الكواكب

والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(٩١) تفسير القمي، أبو علي بن إبراهيم القمي (القرن الثالث)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

(٩٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(٩٣) تفسير القمي، أبو علي بن إبراهيم القمي (القرن الثالث)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ج٢، ص ٧.

(٩٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٥. ج ١٦، ص ١٣٢.

فكانت من الجمال ما يبهر العقول ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [سورة الصافات: ٦]. وإن ذلك الكون الفسيح المتنامي والمتحرك نحو التوسع والامتداد، وذلك "البناء الواسع الفضاء عجيب، فإن القبة الواسعة لا يقدر عليها البناؤون"(٩٥) ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[سورة الذاريات: ٤٧]. لم تصمد هكذا إذا جاء الوعد الحق ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٧]، فستتهاوى هذه النجوم وتتساقط من مواقعها التي حددها لها سبحانه وتعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [سورة الواقعة: ٧٥]. وسينمحي أثرها فتطمس ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾[سورة المرسلات: ٨]، حينئذ سينطفئ نورها وتموت ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾[سورة التكوير: ٢]، بعدما كانت تثقب الظلام بضوئها ﴿ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾[سورة الطارق: ٣]، فتفقد مواقعها وأفلاكها وتتناثر كالعقد المنفرط في الكون ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾[سورة الانفطار: ٢].

٣. **الشمس والأرض:**

أما شمسنا فإنها ستتسارع نحو غايتها ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [سورة يس: ٣٨]. آخذة معها كل الكواكب الشمسية وأرضنا واحدة منها ومعها القمر. فيجتمع القمر مع الشمس ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [سورة القيامة: ٩]. فسينشق القمر وينفلق الى نصفين "فينفصل بعضه عن بعض فصار فرقتين شقتين"(٩٦)، ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[سورة القمر: ١].

لنتوقف هنيهة ونتمعن في التغيرات قبيل اجتماع الأرض بالشمس المعبّر عنها بالقرآن الكريم اجتماع الشمس والقمر. وسوف لا أعتبر التسلسل في الحوادث هي قطعية وإنما علمها عند الله سبحانه وتعالى وإنما رتبناها ليسهل علينا تصورها.

فستمور الأرض وتخسف وينقلب

(٩٥) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة. ج ٢٨، ص ٢٢٧.

(٩٦) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٩، ص ٥٥.

سافلها على عاليها "وإن الله يخسف بهم الأرض بأمره وإذنه. فيحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك، فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها، فيذهبون والأرض فوقهم تمور، فتلقيهم إلى أسفل السافلين"(٩٧) ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾[سورة الملك: ١٦].

عندئذ لم تبق الأرض كما كانت عليه فستكتسحها الريح الشديدة السرعة بعدما يتوقف دورانها وأنها ستقتلع كل ما على وجهها فتُمدّ "بزوال كل انثناء فيها وتستوي"(٩٨)، «فتنبسط باندكاك جبالها وآكامها حتى تصير كالصحيفة الملساء»(٩٩) ﴿ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴾ [سورة الانشقاق: ٣]، فلا وجود للأشجار وستصبح أرضا صفصفا ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفۡصَفًا ﴾[سورة طه: ١٠٦]، بعدما تنسف الجبال نسفا فتتذرى وتتطاير ولم يعد لها وجودا ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴾[سورة طه: ١٠٥] فتتسطح وتصبح ملساء ولم يعد فيها ارتفاعا ولا انخفاضا ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴾[سورة طه: ١٠٧]، فينهار النظام الشمسي، فلا الأرض تدور حول نفسها ولا هي تدور حول الشمس ولم تعد الأرض في مدارها حول الشمس فتحدث فيها زلزلة عظيمة لا يمكن وصفها، فهي ليست كالزلازل المعهودة مع ما يرافقها من دمار وخراب. زلزلة ينتج عنها أن تتحرك الأرض كل الأرض، وتضطرب اضطرابا شديدا، ﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ﴾ [سورة الزلزلة: ١]، "فإذا حُركت الأرض تحريكاً شديداً فأنها ستعمّ جميع الأرض. بخلاف الزلازل المعهودة التي تختص ببعض الأرض فتكون قوية لشدتها"(١٠٠).

(٩٧) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة. ج٣٠، ص ٧٠.

(٩٨) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة.

(٩٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج ١٠، ص ٦٩٩.

(١٠٠) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق

﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة الحج: ١] وتتزعزع الأرض وما عليها وما تحتها فترجف الأرض بترديد واضطراب ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ [سورة النازعات: ٦]، فترج رجا عنيفا وتهتز هزا. كأن الأرض قد "حرّكت تحريكاً شديداً حتى ينهدم كل شيء فوقها من جبل وبناء"[١٠١] ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾[سورة الواقعة: ٤]، ويرافق كل ذلك التحريك والاضطراب والزلزلة العظيمة صوت شديد زاجر ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ [سورة النازعات: ١٣]، صوت يصك الآذان ويصعق كل سامع له. هذا الصوت الشديد المصاحب للخراب الكبير سوف لا يبقي كائنا حيا إلا وقتله حينئذ يسود الأرض الموت في كل مكان ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [سورة الزمر: ٦٨]. " فإذا سمع الناس ذلك الصوت وهو في الشدة بحيث لا تحتمله طبائعهم يفزعون عنده ويصعقون ويموتون"[١٠٢]، ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة النمل: ٨٧]، وسنفصل بذلك الصوت الرهيب في الفصل القادم. ولم تعد أرضنا هي ذات الأرض التي نحن عليها فتتبدل ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾[سورة إبراهيم: ٤٨]، "فيزاد في الأرض وينقص منها وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وتمد مد الأديم وتصير مستوية لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وتتغير السماوات بذهاب الشمس والقمر والنجوم وبالجملة سيتغير كل من الأرض والسماوات عما هو عليه الآن في الدنيا من الصفات والأشكال"[١٠٣]. فلا الرياح العاتية الشديدة ولا ارتجاف الأرض يبقي ما في باطن الأرض على حاله. فستشقق

والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(١٠١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، دار المعرفة، ٢٠٠٩، ج٦، ص ٢١.

(١٠٢) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة. ج٢٤، ص ٢١٩.

(١٠٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، احمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، دار طيبة. ج١٥، ب ٤٤، ص ١٩.

وتتفطّر ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾[سورة ق: ٤٤] فستلقي الأرض ما في باطنها على وجه الأرض المستوية الخالية من كل شيء وهي الساهرة[١٠٤] ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾[سورة النازعات: ١٤]. فإن هذه الريح ستقتلع ما علا سطح الأرض فتثير التراب و"ستقلب باطنها إلى ظاهرها وكذلك تشمل القبور"[١٠٥]، ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾[سورة الإنفطار: ٤]. ولا تعود الأرض تحتمل ما في داخلها كلما اقتربت من الشمس فيتشقق سطحها ﴿ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ [سورة الطارق: ١٢] فتتشقق الصخور ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾[سورة عبس: ٢٦] وتخرج ما في بطنها من كنوزها ومعادنها وحممها ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [سورة الزلزلة: ٢]، "وتخلو غاية الخلو حتى لم يبق في باطنها شيء كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو"[١٠٦] ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [سورة الانشقاق: ٤].

٤. البحار والمحيطات:

وأما البحار والمحيطات فستتلاطم أمواجها وتنسكب بغزارة على السواحل فتغمر مياهها الأراضي الشاسعة وتتفرغ من مياهها وتمتلئ الأخرى. فيكون البحر مسجورا وهو تعبير عن «البحر الفارغ والممتلئ»[١٠٧] ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ [سورة الطور: ٦]، أو أن البحار ستفرغ "فتغيض مياهها بتسجير النار فيها"[١٠٨] ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾[سورة التكوير: ٦]. فتنفجر البحار بعضها على بعض وتزول الحواجز بينها وتغرق الأرض،

(١٠٤) الساهرة الأرض المستوية أو الأرض الخالية من النبات، الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ١٨٦.

(١٠٥) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ٢٢٣.

(١٠٦) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة. ج٣١، ص ١٠٤.

(١٠٧) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج١٠، ص ٢٧٤.

(١٠٨) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٩، ص ٧.

و"تتفجر البحار بعضها في بعض فصارت البحور كلها بحراً واحداً ويرتفع البرزخ بينها"[١٠٩]. ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾[سورة الانفطار: ٣]. وأنها قد تسجرت فأوقدت فصارت ناراً تضطرم، فتمتلئ السماء بخارا شديدا وغماما يعم الأرض من كل جهاتها، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾[سورة الفرقان: ٢٥].

٥. الجبال:

وسيرافق هذا المشهد المخيف أن تتحرك الجبال وتسير تاركة جذورها فتزول جميعها فلا جبال ولا تلال. «فإذا زالت الجبال والتلال ترى الأرض بارزه لا تغيب ناحية منها عن أُخرى بحائل حاجز ولا يستتر صقع منها عن صقع بساتر»[١١٠] ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [سورة الكهف: ٤٧] فتصبح الأرض مستوية لا حواجز ولا جبال وكأن الشروق يرى على وجه الأرض، ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [سورة الزمر: ٦٩]. وتندك أجزاؤها وتتلاشى وتتكسر الجبال الى قطع صغيرة، "فكسرتا كسرة واحدة لا تثنى حتى يستوي ما عليها من شيء مثل الأديم الممدود. ويضرب بعضها ببعض الى أن تفتتت الجبال وسفتها الرياح وبقيت الأرض شيئاً واحداً لا جبل فيها ولا رابية. بل تكون قطعة مستوية وإنما فتدك الأرض جملة واحدة والجبال دكة واحدة"[١١١]، ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [سورة الحاقة: ١٤]، «حتى صارتا غباراً»[١١٢]. «فتصير الجبال رملا سائلا متناثراً»[١١٣]، وتصير ككثيب الرمل الذي يهيل إذا حرّك من أسفله، ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾

(١٠٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.
(١١٠) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٣، ص ٣٢١.
(١١١) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.
(١١٢) [سورة الفجر: ٢١].
(١١٣) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (ت ٤٦٠ هـ).
(١١٤) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (ت ٤٦٠ هـ).

[سورة المزمل: ١٤]. ثم يفرق الله تركيب أجزاء الجبال وينسفها نسفاً ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾[سورة طه: ١٠٥]، فتنهد الجبال بعدما تتشقق الأرض ﴿وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾[سورة مريم: ٩٠]. وتفتت تفتيتا دقيقا فتبس بسا وتصبح كالدقيق ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾[سورة الواقعة: ٥]، فتصبح "كالعهن المنفوش فتنتشر كالصوف المنتشر ذو ألوان مختلفة فتتلاشى الجبال على اختلاف ألوانها بزلزلة الساعة"[١١٥]. ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [سورة القارعة: ٥] فتتفرق كالغبار أو أدق "كالهباء الظاهر في شعاع الشمس الداخل من الكوة"[١١٦]، ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا﴾ [سورة الواقعة: ٦] وتصبح غاية بالدقة بل تصبح كالسراب. ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[سورة النبأ: ٢٠]، "فالسراب هو الموهوم من الماء اللامع في المفاوز ويطلق على كل ما يتوهم ذا حقيقة ولا حقيقة له على طريق الاستعارة" فستنتهي الجبال تماما ولا يكون لها وجود.

(١١٥) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ٣٤٩.

(١١٦) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٩، ص ١١٦.

الفصل ١١:
النفخة الأولى والنفخة الثانية والانتقال الى النشأة الآخرة:

العنوان يتحدث عن إماتة الأحياء جميعها في الأرض والسماء ثم إحياءهم بعد إماتتهم، ثم الهلاك لكل شيء. وسنتحدث عن النفختين لنفهم معناهما وآثارهما كما صورهما القرآن الكريم. ونعرّج فيما بعد ذلك على ما بعد النفخة الثانية وما قبل النشأة الآخرة وهي الهلاك لكل شيء إلا الخالق سبحانه وتعالى.

ويتردد في ذكر النفخة في القرآن الكريم لفظ الصوُر. والصور يعني: البوق الذي يستخدم عادة لإيقاف او لتحريك الجند وأحيانا القوافل ولقد استخدم لفظ الصور مقترنا بالنفخة في عدد من الآيات[١١٧]، وهذا يدل على

(١١٧) [سورة الأنعام ٧٣]، [سورة الكهف ٩٩، [سورة طه ١٠٢]، [سورة المؤمنون

توقف الحياة باسرها في عالم الموجودات ومن ثم حركتها مرة أخرى. والنفخ في الصور كناية عن إعلام الجماعة الكثيرين كالعسكر بما يجب عليهم أن يعملوا به جمعاً كالحضور والارتحال وغير ذلك. وقد يعبر عنه قرآنيا بالناقور. والناقور يعني «الصور الذي ينقر أي ينفخ فيه الملك»[118]. قال تعالى ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [سورة المدثر: ٨]، "وهي كهيئة البوق"[119].

وقد ورد في القرآن الكريم بالإضافة الى النفخة ألفاظ أخرى لها ذات الدلالة وهي كلها متعلقة بالصوت الشديد وما يلازمه ومنها:

١. **الصيحة:**

الصيحة: «الصيحة هي رفع الصوت»[120]، قال تعالى ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [سورة ق: ٤٢] والصيحة "صاعقة سماوية نازلة عليهم أماتتهم بصوتها وأحرقتهم بنارها إذ لا مانع من نسبة حادث من الحوادث الكونية خارق للعادة أو جار عليها إلى ملك روحاني إذا كان هو في مجرى صدوره كما أن سائر الحوادث الكونية من الموت والحياة والرزق وغيرها منسوبة إلى الملائكة العمالة"[121]. وتؤدي بهم الى الموت ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [سورة ق: ١٩]، فأخذتهم الصيحة السماوية وهي العذاب المحتوم فأهلكتهم وجعلتهم كغثاء السيل، وما يحمله السيل من يابس النبات والورق والعيدان البالية. فصاروا كالمتبقي في حضيرة الماشية من نباتات واشجار يابسة المنقطعة بالكسر

١٠١]، [سورة النمل ٨٧]، [سورة يس ٥١]، [سورة الزمر ٦٨]، [سورة ق ٢٠]، [سورة الحاقة ١٣]، [سورة النبأ ١٨]، [سورة المدثر ٨].

(١١٨) لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر –بيروت، ١٤١٤هـ.

(١١٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج ١٠، ص ١٧٦.

(١٢٠) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم –الدار الشامية، ٢٠٠٩.

(١٢١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٠، ص ٣١٦.

والرضّ الذي يجمعه صاحب الحظيرة؛ فصاروا كيبيس الشجر المتفتت إذا تحطم. ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾[سورة القمر: ٣١] ولقد أخذ الله سبحانه على نفسه أن تموت كل الأحياء ذات نفس فقال ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾[سورة آل عمران: ١٨٥][١٢٢]، حينئذ يعمّ السكون والخمود ولا حركة لها ﴿ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴾ [سورة يس: ٢٩]، فالصيحة عذاب استئصال تقضي عليهم وتهلكهم وما لها من رجوع أو مهلة ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾[سورة ص: ١٥]، ويقال أن هذه الصيحة هي صيحة الإحياء. فيقومون من موتتهم ناظرين فيخرجون من الأجداث أو يخرجون للمثول أمام الله سبحانه ﴿ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴾[سورة ق: ٤٢]، فتشقق عنهم الأرض سراعا ﴿ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗا ﴾[سورة ق: ٤٤] أذلاء لما سيؤولون له ﴿ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴾[سورة النمل: ٨٧]، فيلقون على "وجه الأرض المستوية الخالية من النبات"[١٢٣] ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾[سورة النازعات: ١٤].

٢. الصاخّة:

الصاخة: «الصاخة صيحة تصخ الأذن أي تطعنها فتصمها لشدتها؛ ومنه سميت القيامة الصاخة»[١٢٤]. قال تعالى ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾[سورة عبس: ٣٣] فإذا جاءت الصاخة فإن المرء سيهرب من موالاة أخيه ولا يكلمه ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴾[سورة عبس: ٣٤]، ﴿ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴾ [سورة عبس: ٣٥ -٣٧].

٣. القارعة:

القارعة: «هي المصيبة تقرع الإنسان

(١٢٢) [سورة الأنبياء: ٣٥]، [سورة العنكبوت: ٥٧].

(١٢٣) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ١٨٦.

(١٢٤) لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر -بيروت، ١٤١٤هـ، مادة صخخ.

قرعاً كأنها تؤذنه بأشد من نفسه»[١٢٥]. ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [سورة القارعة: ١ -٣] وهي "كل هنة شديدة القرع. وهي القيامة أيضا"[١٢٦]. والقارعة من القرع وهو الضرب باعتماد شديد مما يؤدي الى أن يكون الناس «كالجراد الذي ينفرش ويركب بعضه بعضاً وهو غوغاء الجراد»[١٢٧]، ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾[سورة القارعة: ٤]، وستتلاشى الجبال بمختلف ألوانها وستصبح كالصوف المنفوش ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [سورة القارعة: ٥].

٤. الزجرة:

«الزجرة الصرفة عن الشيء بالمخافة»[١٢٨]. وهي «صيحة»[١٢٩]، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾[سورة الصافات ١٩].

٥. الراجفة والرادفة:

الراجفة: «صيحة عظيمة وفيها تردد واضطراب كالرعد إذا تمخض»[١٣٠]، ﴿تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ [سورة النازعات: ٦] وتأتي بعدها الرادفة ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [سورة النازعات: ٧].

٦. النفخة الأولى ﴿نفخة الإماتة﴾:

جاء في القرآن الكريم إشارة الى ما سيجري عندما ينفخ في الصور ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾[١٣١] [سورة الكهف: ٩٩]، وفيها يموت كل ذي حياة في السماوات والأرض، فالموت إنما يلحق الأجساد بانقطاع تعلق الأرواح بها. فيصعق كل

(١٢٥) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١١، ص ٣٦١.

(١٢٦) المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت ٤٥٨هـ)، ١٩٩٦، ج٤، ص ١٨٥.

(١٢٧) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ٣٤٩.

(١٢٨) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(١٢٩) تفسير الصافي، الصافي في تفسير كلام الله الوافي، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، مكتبة الصدر، طهران.

(١٣٠) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ).

(١٣١) [سورة الأنعام: ٧٣].

من في السماوات والأرض فيهلكوا جميعا، والصعق معناه «الصوت الشديد. ومنه الصاعقة، وهي الوقع الشديد من الرعد. ويقال إن الصعاق الصوت الشديد. ومنه قولهم: صعق، إذا مات، كأنه أصابته صاعقة»[١٣٢]، «وربما مات منه، ثم استعمل في الموت كثيرا»[١٣٣] ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[سورة الزمر: ٦٨]. وقد قدمنا للمشاهد التي تؤدي الى انعدام الحياة، نتيجة لتغيّر الأرض والسماء. ففي مثل هذه الأوضاع والأحوال، تموت جميع الكائنات الحية فتحدث صيحة عظيمة: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ [سورة يس: ٤٩] "تفاجئهم ولا تمهلهم أن يموتوا من فورهم فلا يستطيعون توصية –على أن الموت يعمهم جميعاً دفعة فلا يترك منهم أحداً يوصي إليه –ولا أن يرجعوا إلى أهلهم إذا كانوا في الخارج من بيوتهم مثلاً"[١٣٤]. ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [سورة يس: ٥٠] ففي هذه النفخة إماتة لجميع الأحياء. وهنا أود الإشارة الى أنه: بالإضافة لما سبق الى أن الإماتة هنا على ما بينه المفسرون تقع على الثقلين وهما الجن والإنس كما جاء في الآية الشريفة ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾[سورة الرحمن: ٢٦]. فإن هذه الآية لم تتكلم عن باقي الموجودات الكونية التي تكلمت عنها الآية ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ﴾ [سورة القصص: ٨٨] والتي سنتكلم عنها في المرحلة ما بعد النفخة الثانية. فيتوضح لنا أن النفخة الأولى إنما هي لإماتة الثقلين والنفخة الثانية هي لإحيائهم. ويتم في النفختين معا ظواهر كونية تؤدي الى إزالة الحياة للكائنات الحية من على الأرض. وقد

(١٣٢) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، ت ٣٩٥ هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (ت ٣٩٥)، ج٣، ص ٢٨٥.

(١٣٣) تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، دار الهداية، مادة صعق، ج٢٦، ص ٢٥.

(١٣٤) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٧، ص ٩٨.

أشرنا لها في االفصول السابقة، وكذلك تغيير وجه الأرض وتسطيحها تماما بل وتغيير موقعها وغيرها من الظواهر وكلها وضعت تحت أشراط الساعة ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾[سورة محمد: ١٨].

٧. **أشراط الساعة:**

والأشـــراط جمع الشَرَط بالتحريك وهـو العلامة، وبذلك فقد بين القرآن الكريم علامات الساعة التي تخبر بوقوع يوم القيامـــة. وسأمرّ عليها -فقط- لاستكمال الموضوع، ولن أقف عندها كثيرا، ومنها(١٣٥):

١. **بعثة النبي ﷺ:**

والكلام للمشركين ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾[سورة محمد: ١٨].

٢. **اندكاك سد يأجوج ومأجوج:**

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾[سورة الكهف: ٩٨ -٩٩].

٣. **اتيان السماء بدخان مبين:**

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[سورة الدخان: ١٠ -١١]، ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [سورة الدخان: ١٦].

٤. **نزول المسيح عليه السلام:**

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾[سورة الزخرف: ٥٧] ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[سورة الزخرف: ٦١].

٥. **إخراج دابة الأرض:**

﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[سورة النمل: ٨٢].

٦. **مجيء بعض آيات الرب تعالى:**

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ

(١٣٥) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، جعفر السبحاني، ج ٤، دار احياء التراث العربي، بيروت.

﴿ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[سورة الأنعام: ١٥٨].

٧. **مشاهد يوم القيامة:**

وهناك مشاهد القيامة ومنها الحوادث الكونية الهائلة التي ستقع في نفس قيام الساعة. وهي التي أسهبنا في الإشارة اليها فيما سبق وسنتكلم عن الجزء الأخير منها ما بين النفخة الثانية والمعاد وهو الهلاك التام للكون كله ونظامه، والله العالم بالحقائق جميعها.

٨. **النفخة الثانية ﴿نفخة الإحياء﴾:**

النفخة الثانية هي التي تحيا فيها الأموات، دون النفخة الأولى التي تموت فيها الأحياء لكون ما يترتب عليها من انتفاء الأنساب، «واعتبار انتقاء الأنساب من الحوائج الدنيوية التي تدعو الإنسان إلى الحياة الاجتماعية التي تبتني على تكون البيت، والمجتمع المنزلي يستعقب التعارف والتعاطف وأقسام التعاون والتعاضد وسائر الأسباب التي تدوم بها العيشة الدنيوية ويوم القيامة ظرف جزاء الأعمال وسقوط الأسباب التي منها الأعمال فلا موطن فيه للأسباب الدنيوية التي منها الأنساب بلوازمها وخواصها وآثارها»[١٣٦]، وأن التساؤل وثقل الميزان وخفته إلى غير ذلك من آثار هي من آثار النفخة الثانية. ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[سورة المؤمنون: ١٠١ -١٠٣]. ومن علامات إحياء الأموات بالنفخة الثانية أن يجمعون بعد سكون وموت، ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾[سورة الكهف: ٩٩] وكذلك يحشرون، ويجري بينهم تخافت واستغراب لفترة مكوثهم ويتصورون أنهم مكثوا يوما. فيجمعون والأرض مستوية لا جبال فيها ولا وديان ولا نبات، وفي هذا الموقف المهول فإنهم جميعا يتبعون داعي الإحضار بكل خوف وخشوع ومن غير أن يرفعوا صوتا فيتحدثون همسا، فلا

(١٣٦) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٥، ص ٦٩.

شفاعة شفيع إلا من يأذن له الله بها: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾[سورة طه: ١٠٢ -١١١].

وتجمل الآيات السابقة وكذلك آيات أخرى قد ورد ذكرها الى ما سيجري على الناس يوم الجزاء من حين يبعثون إلى أن يجزوا بأعمالهم من الإحضار ثم الحشر ثم تسطيح الأرض ثم أنهم يطيعون ويتبعون الداعي للحضور ثم تسقط الشفاعة حينئذ ثم يحاطون علما بحالهم وهي مقدمة للحساب والجزاء ثم سلطان الله وقوته عليهم ونفوذ حكمه فيهم وبالمقابل ذلتهم وخيبتهم.

لقد ذكر القرآن الكريم النفخة وما يتعلق بها من صيحة ونقر وصخّ وزجر ورجف وقرع في آيات عديدة[١٣٧] وهنا لا أريد أن أصنف تلك الآيات للنفخة الأولى أو أيها للنفخة الثانية فقد تناولها المفسرون وكتّاب آخرون[١٣٨]، وما أريد أن ألفت الانتباه إليه هو نقطة الانتقال بين نهاية النفخة الثانية وهي إحياء الأموات وانتهاء الكون المتمثل في قوله سبحانه وتعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ﴾ [سورة القصص: ٨٨]. ولأصطلح عليها ما قبل المعاد أو نفخة الهلاك.

(١٣٧) الزمر ٦٨، النمل ٨٧، الحاقة ١٣ -١٤، المؤمنون ١٠١، الكهف ٩٩، طه ١٠٢، النبأ ١٨، الأنعام ٧٣، ق ٢٠، ق ٤٢، يس ٢٩، يس ٤٩، يس ٥١، يس ٥٣، ص ١٥، المدثر ٨ -٩، عبس ٤٣ -٤٤، الصافات ١٩، النازعات ٦، النازعات ١٣، القارعة ١-٣، القمر ٣١.

(١٣٨) دروس في العقيدة الإسلامية، محمد تقي اليزدي، دار الحق، بيروت. الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، جعفر السبحاني، ج ٤، دار احياء التراث العربي، بيروت، مفاهيم القرآن، جعفر السبحاني، فصل ١٦، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.

٩. **ما قبل المعاد ﴿نفخة الهلاك﴾:**

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: ١٣ -١٦]. لو تتبعنا تسلسل الآيات الشريفة نرى أن بعد تلك النفخة الواحدة ستدك الأرض بما فيها الجبال وحينئذ يصير يوم القيامة، ثم يلحق باندكاك الأرض انشقاق السماء فتصبح واهية ضعيفة. إن "في توصيف النفخة بالواحدة إشارة إلى مضي الأمر ونفوذ القدرة فلا وهن فيه حتى يحتاج إلى تكرار النفخة، وأنها النفخة الثانية التي تحيي الموتى. وقوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ فالدكّ أشد الدق وهو كسر الشيء وتبديله إلى أجزاء صغار، وحمل الأرض والجبال إحاطة القدرة بها، وتوصيف الدكة بالواحدة للإشارة إلى سرعة تفتتها بحيث لا يفتقر إلى دكة ثانية. وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، أي قامت القيامة"[١٣٩].

وإلحاقا بهذه الصورة هناك مرحلة أخيرة، وهي مرحلة الهلاك لكل شيء بعد نفخة الإحياء. وفي هذه المرحلة لا يبقى فيها حياة للكائنات الحية ولا وجود لشيء، فكل شيء باطل في ذاته ولا وجود له وهو معدوم. وفي هذه النفخة يعمّ الموت كل شيء من الأحياء وغيرها «وكل شيء فانٍ بائد الا ذاته»[١٤٠]. أي أن «كل شيء هالك في نفسه باطل في ذاته لا حقيقة له إلا ما كان عنده مما أفاضه الله عليه»[١٤١] لقوله تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[سورة القصص: ٨٨]، وقد اختلف المفسرون في تفسير ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، فمنهم "من فسر الهلاك بالعدم، والمعنى أن الله تعالى يعدم كل شيء سواه عز وجل، ومنهم من فسر الهلاك بإخراجه عن كونه منتفعاً به، إما بالإماتة أو بتفريق الأجزاء،

(١٣٩) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٩، ص ٣٩٧.

(١٤٠) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج٤، ص ٢٦٩.

(١٤١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٦، ص ٩٠.

وإن كانت أجزاؤه باقية، فإنه يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء أجزائه، بل خروجه عن كونه منتفعاً به، ومنهم من قال: معنى كونه هالكاً كونه قابلاً للهلاك في ذاته، فإن كل ما عداه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكن الوجود كان قابلاً للعدم فكان قابلاً للهلاك، فأطلق عليه اسم الهلاك نظراً إلى هذا الوجه"(١٤٢).

بالتأكيد أن أيا كان من تلك الآراء في هلاك الأشياء، إما بتفريق أجزائها أو عدم الانتفاع بها أو عدمها وإبادتها فكلها تدور حول عدم وجودها على الصورة قبل الأخيرة، وبالفعل فإنه سوف يتغيّر كل شيء لقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾[سورة إبراهيم: ٤٨]، وغيرها من الصور الكونية التي مررنا بها سابقا ومنها انشقاق السماء وانشقاق القمر وتكوير الشمس واجتماعها بالقمر ثم الصوت الشديد وغيرها كثير. أقول بالمجمل لم يعد هناك النظام الكوني المتناسق المنقاد الذي كان معمولا به بل سيتغيّر كل شيء. فالهلاك: "بطلان الشيء من العالم وعدمه رأسا"(١٤٣)، كما وأن «هلاك الأشياء بطلان وجودها الابتدائي وخلوّ النشأة الأُولى عنها بانتقالها إلى النشأة الأُخرى ورجوعها إلى الله واستقرارها عنده»(١٤٤)، ويتأكد لنا أن الأشياء كلها الى زوال ماعدا الواجب الوجود الخالق للأشياء ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[سورة القصص: ٨٨]. وزوالها هو زوال بنيتها التي كانت عليها. وعدمها هو غياب مظهرها وعينها، فهلاكها هو انتهاء صورتها التي هي عليها. لعلنا نتساءل كيف يكون ذلك؟.

وهنا تبرز حقيقة بيّنة واضحة وهي توقف حركة كل شيء. ولا يمكن أن يكون ذلك إلا بسكون الحركة الجوهرية، وهذا

(١٤٢) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة، ج٢٥، ص ٢٣.

(١٤٣) المفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم -الدار الشامية، ٢٠٠٩، مادة هلك.

(١٤٤) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٦، ص ٩٢.

يعني توقف حركة كل مكونات الذرة لأي ممكن الوجود. والذرة هي الجسم المكون الأصغر في الكون، وهذا يعني أيضا انتهاء كل شيء محسوس وملموس؛ فلا جبال ولا تراب ولا سماء ولا نجوم ولا هواء ولا أي شيء. فقط تبقى مكونات وأجزاء الذرة وهي الإلكترونات ومكونات النواة، والله وحده العالم. ويرافق ذلك تكون طاقة هائلة شديدة تفجّر الكون كله ولا يمكن تصورها أو تخيل عظمتها وشدتها. ولعل بوقوع الضرب المتتابع الذي سماه القرآن الكريم بالبطش وهو "الأخذ بشدة، وأكثر ما يكون بوقع الضرب المتتابع"(١٤٥) ولعظمتها وقوتها سمّاها بالبطشة الكبرى ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [سورة الدخان: ١٦]، تلك البطشة الكبرى توحي وترسم صورة الأهوال لما سيجري-والله العالم -في لحظات انتهاء النظام الكوني.

(١٤٥) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث-القاهرة. ج٢٧، ص ٦٥٨.

الخاتمة:

لقد مررنا بعرض الصوَر التي بينها القرآن الكريم لآيات يوم القيامة وما قبلها بحدوث النفختين الأولى والثانية. وأتممناها بما عرضته الآيتين الكريمتين ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [سورة الحاقة: ١٣ -١٦]، و ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [سورة القصص: ٨٨]. اللتان تبينان تلاشي الموجودات. وافترضنا أن تلاشيها هو ليس عدمها بل بقاء أجزاءها، وإنما يكون ذلك بسكون حركة مكونات الموجودات والمتمثلة بجوهر المادة، والمعرّف علميا بأصغر مكونات المواد وهي الذرة، فسكون الموجودات يتم بسكون حركة مكونات الذرة. وأنها أي مكونات الذرة ستستجيب حتما للأمر الإلهي مطيعة خاشعة خاضعة مدركة عالمة كما مر توضيح ذلك. وكنا قد فصلنا في الفصول السابقة مقدمات تمهيدية لتوضيح الغاية من بحثنا هذا.

مُصْحَفُ السَّيِّدةِ فاطِمَة
(بحث في حقيقة الماهِيَّةِ)

د.عبد الله أميني

فحوى البحث

كثر الحديث عن مصحفٍ ينسب الى فاطمة الزهراء، حتى وصل الى حدّ اللغط والمهاترات ضد الشيعة بدعوى أنهم يتعبدون بقرآن هو غير القرآن الذي بين أيدي المسلمين منذ اكثر من الف سنة والذي نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله ﷺ ليكون من المنذرين. وثَنَتْ الاوساط المعادية للاسلام ونبي الاسلام ركبتها لتنظّر وترسم وتدَّعي ما تمليه عليهم نفوسهم المريضة ابتغاء الفتنة العمياء. ومن المؤسف أن نجد من يستجيب لنعيقهم ممن ينقصهم التحقيق والحياد وخوف الله -سبحانه-.

لقد عرض السيد الباحث لهذا الموضوع عرضا علميا مدعما بالدليل الدامغ على بطلان القول بأية علاقة بين القرآن الكريم وهذا المصحف أصلاً، وبما يجعل الإصرار على خلافه مكابرة ومراءً وحقداً بنوازع شريرة لشقّ العصا والايقاع بين المسلمين.

الخلاصة:

هناك اسألة وابهامات عديدة يتم طرحها حول مصحف فاطمة عليها السلام ؛ وهل هو كما يظهر من عنوانه (مصحف) قرآن خاص بالسيدة فاطمة عليها السلام، أم أنه كتاب في موضوع آخر؟.

فلو افترضنا أن الجواب هو الثاني، فهل يا ترى كتبته فاطمة عليها السلام أم أنه تم املاؤه عليها؟. على ماذا يحتوي؟. هل هو في الآداب والأخلاق أم أنه في التشريعات والفقه؟. اين هذا الكتاب في يومنا الحاضر؟.

قبل الاجابة عن أي تساؤول، هناك سؤال مركزي يجب الاجابة عنه؛ هل أن هذا المصحف له اعتبار وأصل؟. هل ثبت وجوده من خلال الطرق المعتبرة الموثوقة؟.

يمكن الحصول على جميع الاجابات عن هذه الأسئلة من خلال التدبر والفحص في الروايات الخاصة بهذا الموضوع. بالطبع فإنه يجب الأخذ بنظر الاعتبار أن لسان هذه الروايات مختلف؛ فبعضها يرى أن محتوى هذا المصحف يشتمل على أحكام الحلال والحرام، بينما يقول البعض الآخر أنه لا يحتوي على هكذا مواضيع اصلاً . ويقول البعض الآخر أن مَنْ أملاه هو النبي صلى الله عليه وآله بنفسه، وهناك من يذهب ألى ان من أملاه على السيدة فاطمة عليها السلام هو أمين الوحي جبرائيل، عندها يجب علينا أن نجيب عن هذا التساؤول في أنه هل لجبريل أن يتكلم مع غير الأنبياء؟. واذا كان كذلك، فهل تكلم مع السيدة فاطمة عليها السلام بهذه الطريقة؟. ألم ينقطع الوحي عن الأرض بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله ؟.

على أية حال، هناك العديد من الاسئلة في هذا الصدد، وللاجابة عنها قمنا باعداد هذا الأثر الذي بين أيديكم.

العبارات الرئيسية: فاطمة عليها السلام، المصحف، الروايات، القرآن الكريم.

ما هو مصحف فاطمة عليها السلام؟.

من أكثر الأسئلة المطروحة على الساحة في يومنا الحاضر حول هذا المصحف هو العنوان المريب والجدلي، أي (المصحف)، والظاهر من الأمر أن هذا القرآن له منزلة وجاه كبيرين وهو قرآن خاص. ولكن لو دققنا النظر في الروايات والأحاديث،

سوف نجد بأن هذا المصحف لا يحتوي حتى على آية واحدة. ولكن بعض الجهلة، بمجرد أن يسمعو كلمة مصحف يتصورون بأن المراد منه هو القرآن. حتى أن بعضا من الجمهور ذهبوا إلى أبعد من ذلك فقد توجهوا إلى مدينة قم للبحث عن هذا المصحف بغية الاطلاع عليه وبحسب مدعاهم أن يرو «قرآناً آخر» ولكن حينما واجهوا الحقيقة وعرفوا بأن الشيعة ليس لديهم قرآن آخر يختلف عما هو بين أيدي المسلمين، تعجبوا من الاتهامات التي تكال ضد الشيعة الإمامية.

وقد تفاقم الوضع إلى حد أن بعض الشيعة قد صدّقوا هذه الافتراءات وأن مصحف فاطمةعليها السلام هو قرآن آخر غير هذا الموجود، فقاموا بالتصدي لروايات هذا الكتاب والتقليل من أهميتها وتفنيدها، والتشكيك في أسنادها. بينما نرى وبشكل ملفت للنظر بأن البعض كالإمام الخميني رحمة الله عليه لا ينكرون هذا المصحف بل لايتوانون عن الافصاح عن افتخارهم به: «نحن نفتخر.. بأن الصحيفة الفاطمية ذلك الكتاب الذي الهمه الله سبحانه وتعالى لسيدتنا فاطمة الزهراء.. هو لنا»[1].

ماذا يريد هؤلاء من الافتخار والتباهي بمصحف فاطمة؟. مع أن أحداً لم يطلع على محتواه وما في هذا المصحف، ولم يصلنا إلا امور كلية عن طريق الروايات حوله.

لذا يجب علينا أن نذعن بثبوت وجود مصحف فاطمةعليها السلام، وهناك أدلة وطرق صحيحة من أجل اثبات وجوده ولكن يتوجب الاجابة عن الاشكالات والابهامات التي تحيط بهذا الموضوع، وبالخصوص أنه لم يُطبع ولم يُنشر أي كتاب مستقل حول هذا الأمر، وإنما تم التعرض للموضوع بشكل ضمني.

بعض الأحاديث التي جاءت حول مصحف فاطمةعليها السلام، قد جاءت بهذا الاصطلاح (مصحف)، وعلى هذا الأساس فإننا نراهم يبنون ردود أفعالهم بناءاً على هذا التصور؛ ومن جملة من فعل ذلك هو محمد بن مسلم الذي يروي عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال:

(١) صحيفه انقلاب (الوصية السياسية الالهية للإمام الخميني)/ ٣، طهران: وزارة الثقافة والارشاد الاسلامي.

(وخلّفت فاطمة مصحفاً ماهو قرآناً)[٢].

يروي علي بن سعيد عن الإمام الصادق عليه السلام:

(وعندنا والله مصحف فاطمة ما فيه آية من كتاب الله)[٣].

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

(فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرّات)[٤].

يعتقد البعض بأنه حينما وضعت كلمة «المصحف» للقرآن خاصة، فحينما يقال «مصحف فاطمة» فإنه يراد منه قرآن فاطمة عليها السلام، وبما أن الحديث الأخير يقول: (فيه مثل قرآنكم ثلاث مرات) لذا فإن الشيعة يعتقدون بأن هذا القرآن الموجود فيه نقص والعياذ بالله!. وهم يغفلون عن أنه في نهاية هذه الأحاديث هناك إشارة إلى أنَّ هذا المصحف لا توجد فيه أيّة آية.

وعلى أية حال فإننا سوف نخوض في غمار هذا البحث وأول ما سوف نتعرض له هو معنى كلمة «مصحف».

معنى «مصحف»:

يقال لمجموع تلك الأوراق المكتوبة والمحفوظة بين غلافين «مصحف»: (الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين)[٥] «صحف» جمع صحيفة أي الورق والصفحة التي يتم الكتابة عليها: «دفّتان» تثنية «دفّة» والتي تعني جانب وحاشية كل شيء. «دفتا المصحف» أي غلاف الكتاب من الامام ومن الخلف[٦]. لذا فإن المصحف هو الذي يحتوي على مجموعة من الأوراق وليس ورقة واحدة؛ ولكن وفي بعض الأحيان من الممكن أن يكون الكتاب لا يحتوي سوى على ورقة واحدة، كما أن المصحف يجب أن يقع بين دفّتين تحتضنان تلك الأوراق (الصحف) بينهما[٧].

(٢) بحار الأنوار، المجلسي، ٢٦/ ٤١، ح٧٣، طبعة دار الكتب الاسلامية، طهران.
(٣) المصدر السابق، ٢٧/ ٢٧١، ح٣.
(٤) اصول الكافي، الكليني، ٢/ ٦٢٣؛ بحار الأنوار، ٢٦/ ٣٩، ح١٠.
(٥) صحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، ٤/ ١٣٨٣؛ تاج العروس، الزبيدي، ٦/ ١٦١.
(٦) المصباح المنير، القيوّمي/ ١٩٧؛ الفروق اللغوية، ابو هلال العسكري/ ٢٤١، قم: بصيرتي.
(٧) مناهل العرفان،، الزرقاني، ١/ ٣٩٤؛ دار احياء التراث، بيروت، ١٤١٢.

بالنتيجة فإنه يجب القول بأن «مصحف» تعني الكتاب المجلد وتشمل كل كتاب ولا تختص بالقرآن، حتى وإن كان العنوان المشهور للمصحف يختص بالقرآن. اذاً فلغةً لا يمكننا القول بأن «المصحف» يعني القرآن.

لا شك في أن مصطلح المصحف قد استخدم بمعنى القرآن بكثرة ولكن لا يمكن القول بأنه «العَلَم» للقرآن الكريم، وإنما اشتهر المصحف بأنه القرآن.

مصطلح «المصحف» عند غير المسلمين:

من العديد من الأسناد يمكننا اثبات بأن كلمة مصحف لا تعني القرآن الكريم، ومنها ما استخدمه العرب غير المسلمين، فمثلاً ما نقله ابن سعد في طبقاته الكبرى حول قصة «سهيل» النصراني، فقد استفاد من عبارة المصحف ليدل بها على الانجيل والكتب المقدسة التي كانت عنده[٨]. وبما أن العرب المسلمين كانوا يسمون المكتوبات لغير المسلمين «صحفاً»، فلو كان هذا الاصطلاح مختصاً بالقرآن، لم يكن لهم مسوغ في أن يستخدموه في غيره، فمثلاً تنقل «ام سلمة» زوجة النبي قصة الحبشة بهذه الصورة:

(فنشروا مصاحفهم حوله.. بكتْ أساقفتُهُ حتى أَخْضَلوا مصاحفهم)[٩].

وكذلك «الأوزعي» المتوفى ١٥٧ (تسع سنوات بعد شهادة الامام الصادق عليه السلام)، قد استفاد في تعبيره عن كتب الروم من عبارة «المصحف»[١٠].

المصحف في لسان الصحابة وثقافتهم:

لقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يستخدمون عبارة المصحف في غير القرآن، فمثلاً كان الصحابي المعروف ابو سعيد الخدري وفي جوابه عن بعض من طلب منه أن يملي عليهم الحديث، يقول: «لا نكتبكم شيئاً أتجعلونه مصاحف تقرؤونها»[١١].

كما قد طلب عثمان من «حفصة»

(٨) الطبقات الكبرى، ١/ ٣٦٣، دار صادر.

(٩) سيرة النبي، ابن هشام، ١/ ٣٥٩ -٣٦٠، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١.

(١٠) الطبقات الكبرى، ٧/ ٤٣٣؛ تذهيب الكمال، ١٧/ ٣١٥، مؤسسة الرسالة.

(١١) تقييد العلم، الخطيب البغدادي/ ٣٦، دار احياء السنة النبوية، بيروت، ١٩٧٤.

زوجة النبيﷺ: «**ارسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف**»[١٢].

المصحف في ثقافة التابعين:

فكما أن الصحابة كانوا يستخدمون «المصحف» في غير القرآن، كذلك التابعون أيضاً ساروا على المنهج نفسه، وهناك في هذا الصدد مجموعة من النصوص والتقارير التي تدل على ذلك، ومن جملتها ما وصل عن «محمد بن سيرين الأنصاري» الذي يقول:

«أقسم عليٌّ أن لا يرتدي برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف»[١٣].

فإذا كان المصحف في هذا الكلام المراد به القرآن، فلا معنى أن نقول أن المراد، أنه يجمع القرآن في قرآن! اذاً فالمراد هو المعنى اللغوي للمصحف.

التقرير الثاني من «رفيع بن مهران»، فهو يقول:

«إنّهم جمعوا القرآن في مصحف»[١٤].

المصحف في دواة السلف من الكتّاب:

المصحف بمعنى الكتاب المجلّد، يمكن ملاحظته في كتابات العلماء المتقدمين، فمثلاً قام «الجاحظ» بتسمية كل جزء من أجزاء كتابه «الحيوان» باسم مصحف وفي نهاية الجزء يقول:

«تم المصحف الأول ويتلوه المصحف الثاني..».

كما يقول الشيخ ابو بكر بن عقال الصقلي في الفوائد:

«لم يجمع الصحابة سنن رسول الله في مصحف...»[١٥].

من الجيد أن نذكر بأن مصطلح المصحف لم يأت في القرآن ولم يُعدّ من ضمن أسماء القرآن. لقد عدَّ جلال الدين السيوطي[١٦] وأبو المعالي الصالح، أحد المحدثين الإسلاميين خمساً وخمسين اسماً للقرآن الكريم، ولم تكن كلمة «مصحف» من ضمنها.

من الطريف أن نعلم بأنه لم يعترض

(١٢) صحيح البخاري، ٦/ ١٢٠، ح٤٩٣٧، دار الفكر، بيروت، ١٤١١.
(١٣) المصاحف، للسجستاني/ ١٠، الرحمانية، مصر.
(١٤) المصدر السابق/ ٩.
(١٥) أضواء على السنّة المحمدية، أبو رية/ ٢٥٩، البطحاء.
(١٦) الاتقان في علوم القرآن، ١/ ٥١ -٥٢، دار الفكر، بيروت.

معترض على «سيبويه» حينما سمّى كتابه بـ«الكتاب» على الرغم من تسمية القرآن الكريم بهذا الاسم أيضاً، ولكن الجميع اعترض على تسمية كتاب السيدة فاطمة عليها السلام بـ«المصحف»[١٧].

المصحف في يراع الكتاب المعاصرين:

يقول الدكتور امتياز أحمد في كتابه «دلائل التوثيق المبكر للسنّة والحديث»:

«إن المصحف لا يعني القرآن فقط، وإنما يعني الكتاب أيضاً» ويأتي بدليل على مدعاه بشواهد وأدلّة[١٨].

كما يقول الاستاذ بكر بن عبد الله في كتابه «معرفة النسخ والصحف الحديثية»:

«المصحف من جملة المصطلحات التي تشمل كل نوع من المجموعات التي تشتمل على الكلام»[١٩].

وقد كتب الدكتور ناصر الدين اسد في «مصادر الشعر الجاهلي»:

«كان يقال لكل كتاب تم جمعه «مصحف» ومرادهم مطلق الكتاب وليس القرآن فقط..»[٢٠].

كتب السيدة الزهراء عليها السلام الاخرى:

النظريات المختلفة حول المصحف:

بحد علمنا فإنه ليس هناك أي عالم من علماء الشيعة أو السنة استطاع أن يصل إلى مصحف السيدة فاطمة عليها السلام، وإنما وعن طريق بعض الأحاديث والأخبار التي وصلت إلينا وتتعلق بهذا الموضوع استطاعوا أن يتعرفوا إلى حد ما على محتواه، من أملاه، ومن كتبه. وعلى هذا الأساس فإنه ليس هناك أي بحث أو تحقيق جامع وشامل حول هذا الموضوع. وقد قال البعض: إن مصحفها يحتوي على الأمثال والحكم والمواعظ والاخبار والعجائب، وقد كتبه أمير المؤمنين عليه السلام وقدّمه إلى السيدة فاطمة عليها السلام، حتى يكون سلوىً لها على موت أبيها[٢١].

(١٧) معالم المدرستين، مرتضى العسكري، ٢/ ٣٤، مؤسسة البعثة.

(١٨) ترجمة الدكتور عبد المعطي أمين/ ٢٦٣-٢٦٩، كلية البحوث الاسلامية- باكستان.

(١٩) معرفة النسخ والصحف الحديثية/ ٢٣-٣١، طبعة دار الراية، جدّة.

(٢٠) مصادر الشعر الجاهلي/ ١٣٩، دار المعارف، القاهرة-١٩٦٩.

(٢١) المراجعات، السيد عبد الحسين شرف

بينما يعتقد البعض: أن هذا المصحف يشتمل على الاحكام التشريعية، والاخلاقية وما سوف يقع من امور في المستقبل، وأن السيدة فاطمةعليها السلام قامت بجمعه على اساس ما سمعته من أبيها ومن زوجها[٢٢].

يعتقد السيد محسن الأمين بأن السيدة فاطمةعليها السلام لديها مصحفان، أحدهما الالهامات الالهية التي نزلت عليها من الله سبحانه، والآخر ما املاه رسول اللهصلى الله عليه وآله على السيدة الزهراءعليها السلام[٢٣].

وكما قلنا، فإن سبب تعدد الأقوال حول محتوى المصحف يعود إلى الأحاديث والأخبار التي جاءت في الكتب المختلفة والمتناثرة، وليس لها أي دليل عقلي أو تحليل نظري خاص، لأن الاستنادات البحثية قائمة على الروايات التي لم يتم جمعها في باب واحد وإنما جاءت عن طريق كتب مختلفة.

وكما جاء في بعض الأخبار التي تتحدث حول كتب السيدة الزهراءعليها السلام، فإن أياً منها لم يذكر المصحف. فعلى هذا الأساس اعتقد البعض أن المصحف هو ذلك الذي صرحت به الأخبار، وهذا هو سبب الاختلاف في الآراء.

بالطبع فإن هذه الأحاديث تتكلم حول كتب السيدة فاطمةعليها السلام وليس حول المصحف بالخصوص. لذا فمن المستحسن أن تتم الاشارة إلى بقية الكتب المنسوبة إليها أيضاً لكي يتسنّى لنا أن نصل إلى مصحفها من بينها.

١. الكتاب الأخلاقي:

لم يرد في مصادر السنة أو الشيعة كتاب بهذا العنوان، وإنما جاء في الكتب اشارة إلى مضمون هذا الكتاب. ينقل الخرائطي عن مجاهد قائلاً:

دخل أُبيُّ بن كعب على فاطمةعليها السلام -ابنة محمدصلى الله عليه وآله- فأخرجت إليه كَرَبَةً فيها كتاب «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُحسن إلى جاره»[٢٤].

الدين، تحقيق: حسين الراضي/ ٥٢١، دار الكتاب الاسلامي، ايران.

(٢٢) سيرة الأئمة الإثني عشر، سيد هاشم معروف الحسني، ١/ ٩٦ -٩٧، دار التعارف، بيروت.

(٢٣) أعيان الشيعة، ١/ ٣١٣ -٣١٤، الأتصاف، بيروت.

(٢٤) مكارم الأخلاق ومعاليها، الخرائطي/

ويبدوا أن من يقولون بأن مصحف فاطمة يشتمل على المعارف والأخلاق وأدب التعامل، يعتمدون في كلامهم على مثل هذه الأحاديث، ولكننا سوف نقول بأن مصحف فاطمة عليها السلام لا يشتمل على النقاط الأخلاقية وذلك لأنه لا يوجد أي دليل على هذا المدّعى.

٢. الكتاب التشريعي:

لم يذكر كتاب بهذه الأوصاف وبهذا العنوان ضمن الأحاديث أيضاً، ولكن الإمام الصادق عليه السلام وفي جوابه عن بعض المسائل التي طرحها عامل المنصور-الخليفة العباسي- في المدينة استند في أجوبته على هذا الكتاب[٢٥]. وعلى هذا الاساس صار الفهم بأن لفاطمة الزهراء عليها السلام كتاب في الأحكام الشرعية.

وقد عدَّ السيد محسن الأمين هذا الكتاب بأنه هو مصحف فاطمة عليها السلام[٢٦].

ولكن يجب القول بأن هناك روايات- والتي سوف نذكرها -تقول بأن مصحف السيدة فاطمة عليها السلام لا يشتمل على أحكام الحلال والحرام، واذا كانت هناك فقهية مذكورة في مصحف آخر وروايات اخرى عن السيدة فاطمة عليها السلام، فهي ما نقلته عليها السلام عن أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله[٢٧].

٣. لوح فاطمة عليها السلام:

يقال للصفحات التي تكون من العظام العريضة أو الخشب «لوح». ووجود هذا اللوح تم ذكره في العديد من الأحاديث، وذلك لأنه يحتوي على أسماء أئمة الشيعة.

٤. الوصية:

وقد جاءت في العديد من الروايات وبأسانيد مختلفة:

قد خلّفت فاطمة الزهراء عليها السلام كتاباً كتبت فيه وصاياها[٢٨].

٥. مصحف فاطمة عليها السلام:

وقد ورد ذكر هذا الكتاب أيضاً في

٣٤، مكتبة السلام العالمية، القاهرة.

(٢٥) فروع الكافي، الكليني، تحقيق علي أكبر الغفاري، ٣/ ٧٠٥، ح٢، در الأضواء، بيروت.

(٢٦) أعيان الشيعة، ١/ ٣١٤-٣١٥.

(٢٧) سيرة الأئمة الاثني عشر، ١/ ٩٦-٩٧.

(٢٨) تهذيب الأحكام، الطوسي، تحقيق: الخرسان، ٩/ ١٤٤، ح٥٠، طبعة دار الأضواء، بيروت.

العديد من الروايات وبأسانيد مختلفة ومتعددة.

مصحف فاطمة عليها السلام وطرق معرفة صحة واعتبار الروايات:

إن جميع علماء الشيعة والسنة يعترفون بوجود هذا المصحف ويقبلونه، ولا نعرف اليوم أحداً مخالفاً له. وفي الوقت الحاضر سوف نكتفي بما نقله العلّامة السيد محسن الأمين، حيث قال:

«.. لا استبعاد ولا استنكار في أن يحدّث جبرئيل الزهراء عليها السلام، ويسمع ذلك علي عليه السلام، ويكتبه في كتاب يطلق عليه «مصحف فاطمة» بعدما روي ذلك عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام ثقات أصحابهم.

وكأنّي بمن يستنكر ذلك أو يستبعده أو يعدّه غلوّاً، وهذا خارج عن الإنصاف. فهل يشكّ في قدرته تعالى، أو في أنّ البضعة الزهراء أهل لمثل هذه الكرامة، أو في صحّة ذلك، بعدما رواه الثقات عن أئمّة الهدي من ذرّيّتها؟. وقد وقع من الكرامة العظيمة لآصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام، وهو ليس بأكرم على الله من آل محمّد، ...»[٢٩].

هوية مصحف فاطمة:

(الكاتب، المملي، المحتوى والحجم):

العنوان الذي سبب سوء الفهم:

لقد قلنا بأن عنوان «مصحف فاطمة» قد سبب اللغط في بعض الاحيان وأوجد هذا الوهم بأنَّ هناك قرآن خاص بالسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، كما حصل مع «مصحف عبد الله بن مسعود» و «مصحف عائشة» و «مصحف أبي بن كعب»، ولكن حينما حققنا في الفصل الأول من هذا الكتاب وراجعنا معاجم اللغة، ارتفع هذا الوهم وعرفنا بأن «مصحف»، ليست حكراً في القرآن الكريم..

كما قلنا بأن هذا الكتاب لا يحتوي على أية آية قرآنية، وعلى هذا الأساس فلا هو قرآن ولا موضوعه قرآني. وقد اشرنا في ضمن كلامنا السابق إلى أن هذا الكتاب لم تقم عليها السلام بكتابته أو املائه ولم يتم تسميته بـ«مصحف فاطمة» إلا لكونه هدية إلهية

(٢٩) أعيان الشيعة، ١/ ٣١٤، الطبعة القديمة، الانصاف، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٧٠هـ، السيد حسن الأمين، حذف ابن المؤلف هذا الجزء في الطبعة الجديدة.

إليهاﷺ. لذا فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا، من هو كاتب أو قائل هذا الكلام؟. واذا كان محتوى هذا المصحف ليس قرآناً، فماذا يمكن أن يحتويه؟. وما حجم هذا الكتاب؟ و...

كاتب المصحف:

توجد هناك روايات كثيرة ورد فيها أن الإمام عليؑ هو كاتب ذلك المصحف؛ ومن جملة تلك الروايات ما قاله الإمام الصادقؑ جواباً عن سؤال «حماد بن عثمان»، حينما سأله عمن هو كاتب ذلك المصحف، فقال:

(فجعل أمير المؤمنين يكتب كلّما سمع حتى أثبت من ذلك مصحفاً)[٣٠].

ولكن ابن رستم الطبري ينقل في «دلائل الامامة» رواية تقول:

«نزل مصحف فاطمة مكتوباً من السماء، ولم يكن املاءاً، حتى يكون الامام عليؑ كاتباً ومدوناً له»[٣١].

ولكن يجب القول:

١. إن نزول المصحف، لا يعني بالضرورة ارسال المصحف والكتاب، وإنما قول المحتوى والرسالة، ولا يمنع أن يكون الامام عليؑ حاضراً حين نزول الملائكة وأن يكتب ما يقولونه، مع هذا الاحتمال يبدوا بعيداً جداً.

٢. ربما أن الحل الوحيد يمكن في عدم قبول رواية الطبري، وذلك أن سندها ضعيف، وأن بين رواتها «جعفر بن محمد بن مالك الفزاري» الذي ضعّفه «النجاشي» في الحديث واعتبره فاسد المذهب والرواية[٣٢]. وقد خطّأه الآخرون أيضاً[٣٣].

المملي والقائل للأحاديث:

١. **الله:**

قال البعض أن القائل للأحاديث الموجودة في المصحف هو الله سبحانه. يقول الإمام الصادقؑ:

(إنما هو شيء أملاه الله وأوحي

(٣٠) اصول الكافي،، ١/ ٢٤٠، ح٢؛ بحر الأنوار، ٢٦/ ٤٤، ح٧٧.

(٣١) دلائل الامامة/ ٣٠، الاعلمي، بيروت، ١٤٠٣؛ مسند فاطمة الزهراء، السيد حسن شيخ الاسلامي/ ١٩٩، در القرآن الكريم، قم ١٤١٢.

(٣٢) رجال النجاشي، ١/ ٣٠٢.

(٣٣) معجم رجال الحديث، الخوئي، ٤/ ١١٧.

إليها)[٣٤].

لقد حصل هذا النوع من الالهام لأم موسى عليه السلام، فقد جاء في سورة القصص وفي الآية السابعة: (وأوْحَيْنَآ إلى أمِّ موسى..).

٢. المَلَك:

يعتقد البعض بأن هذا الكلام جاء عن طريق مَلَك من الملائكة. وهذا الاحتمال جاء في حديث منقول عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث قال:

(فأرسل الله إليها مَلَكاً يُسلّي غَمَّها ويُحدِّثَهَا)[٣٥].

وفي صحيحة ابي عبيدة عن الإمام الصادق عليه السلام، أنَّ هذا الكلام كان من جبرئيل:

(وكان جبرئيل يأتيها فيُحسن عزاءها على أبيها ويُطِب نفسها ويُخبرها عن أبيها ومكانه ويُخبرها بما يكون بعدها في ذرّيتها...)[٣٦].

٣. رسول الله صلى الله عليه وآله

يقول الإمام الحسين عليه السلام:

(وعندنا مُصحفُ فاطمة، أما والله ما فيه حرف من القرآن ولكنّه إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط علي عليه السلام)[٣٧].

وعلى أساس هذا الحديث فإن القائل لكلام هذا المصحف، هو رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول العلّامة المجلسي في ذيل هذا الحديث:

والمراد من رسول الله، هو جبرئيل، كما جاء في العديد من الآيات القرآنية التعبير عن الكثير من الملائكة بأنهم رسل الله[٣٨].

بعد ان علمنا بأن كلام هذا المصحف كان من الله -عن طريق جبرئيل -وكان كاتبه هو الإمام علي عليه السلام . يخطر سؤال على البال وهو: لماذا سمّي هذا المصحف باسم فاطمة عليها السلام ونُسب إليها؟. على الرغم من أنها لم تكن القائلة له أو كاتبته!.

(٣٤) بحار الأنوار، ٢٦/ ٣٩، ح٧٠.
(٣٥) اصول الكافي، ١/ ٢٤٥، ح٢.
(٣٦) بصائر الدرجات، الصفار/ ١٥٣، ح٦؛ اصول الكافي، ١/ ٢٤١، ح٥.
(٣٧) بحار الأنوار، ٢٦/ ٤١ -٤٢، ح٧٣.
(٣٨) الحج(٢٢): الآية ٧٥؛ فاطر(٣٥): الآية ١؛ الأنعام(٦): الآية ٦١؛ الأعراف(٧): الآية ٣٧؛ هود(١١): الآية ٦٩؛ الحجر(١٥): الآية ١٥؛ مريم(١٩): الآية ١٧ -١٩ و...

في جواب هذا التساؤل نقول: لقد نزل هذا الكلام إلى السيدة فاطمة عليها السلام مواساة لها، لذا فقد سمّي باسمها ونُسب إليها. ونجد نظيراً لهذا الأمر حينما تم نسبة التوراة إلى موسى عليه السلام والإنجيل إلى عيسى عليه السلام والزبور إلى داود عليه السلام . وكما جاء القرآن الكريم قوله: ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[سورة الأعلى: ١٩] مع أن هذا المصاحف كلها لله سبحانه، ولكن بما أنها نزلت على ذلك الرسول فقد نُسبت إليه.

ماذا يحتوي مصحف فاطمة عليها السلام:

هناك العديد من الروايات حول محتوى مصحف فاطمة عليها السلام؛ البعض من تلك الروايات تنفي موضوعات معينة والبعض الآخر منها تُثبت موضوعات أُخرى، وبهذه الطريقة:

الموضوعات المنفية:

تقول روايات أهل البيت عليهم السلام: (مصحف فاطمة عليها السلام لا يشتمل على أمرين: الأول منها القرآن والآخر الأحكام الشرعية).

وقد جاءت هذه الرويات بالتعابير التالية:

ليس قرآناً: (مَا هُوَ قُرآن)؛[٣٩] لا أعتقد أنه قرآن: (مَا أَزْعُمُ أَنَّه قرآن)[٤٠]، (ليس في شيء من القرآن)[٤١] (ما فيه شيء من كتاب الله)[٤٢]، (ما فيه آية من كتاب الله)[٤٣]، (ما فيه حرف من القرآن)[٤٤]، (ما فيه من قرآنكم حرف واحد)[٤٥].

وقد جاء في المصادر السنّية ومنها ما اورده «محمد ابو زهره» في كتابه، من أن مصحف فاطمة ليس فيه شيء من القرآن[٤٦].

كل هذا التأكيد والتكرار على نفي أن يكون في مصحف فاطمة عليها السلام شيء من القرآن يفهمنا بأنه وفي عصر الامامين الباقر والصادق عليهما السلام كان المصحف يعني القرآن المكتوب. ولكن لماذا كان الأئمة عليهم السلام كانوا يقولون مصحف ـ وليس كتاب ـ

(٣٩) . بحار الأنوار، ٢٦/ ٤١ -٤٢، ح٧٣.
(٤٠) . المصدر السابق، ٤٥، ح٣٠.
(٤١) . المصدر السابق، ح٧٩.
(٤٢) . المصدر السابق/ ٤٣، ح٣٩.
(٤٣) . المصدر السابق، ٤٧/ ٢٧١، ح٣.
(٤٤) . المصدر السابق، ٤٦، ح٣٤.
(٤٥) . المصدر السابق، ٢٦/ ٣٩، ح١٠.
(٤٦) . الامام الصادق ـ حياته وعصره/ ٣٢٤، مطبعة احمد علي مخيمره، مصر.

فاطمة؟. فلو كانوا يطلقون عبارة كتاب فلم يكن هناك أي حاجة لكل هذا التذكير والتنبيه!.

جواباً عن ذلك يجب القول: بما أنه ومنذ البداية اطلق هذا الاسم على مصحفهاﷺ وحينها لم يكن يعني القرآن، فقد استمرت هذه التسمية فيما بعد وتكررت. وقد أطلق الامام عليؑ اسم المصحف على كتاب فاطمةؑ:

(ولقد أعطيتْ زوجي مصحفاً فيه من العلم مالم يسبقها إليه أحدا..)[٤٧].

ولو قبلنا القول بأن لفظة المصحف أُطلقت فيما بعد على كتاب فاطمة وذلك في الوقت الذي كانت تستخدم بمعنى القرآن، فيمكننا القول بأن ذلك كان لبيان بأن مصحف فاطمة لا يفترق عن المصحف القرآن ويشبهه، وذلك لأنهما كلاهما نزل بهما جبرئيل، مع أن محتويهما مختلفان.

- لا يشتمل هذا المصحف على الاحكام الشرعية.
- يقول الامام الصادقؑ فيما يتعلق بالأحكام الشرعية.
- (ليس فيه شيء من الحلال والحرام)[٤٨].

المحتوى المؤكد عليه:

لم تذكر الروايات -بشكل تفصيلي- جميع محتوى مصحف فاطمةؑ، وإنما أعطت عناوين أو بيّنت بعض الكلمات. وهذه الروايات جاءت في مختلف المصادر الحديثية وتفرقت فيها وقد جاءت ببيان أن مصحف فاطمة يحتوي على هذه الموارد:

١. المنزلة الرفيعة للنبيﷺ:[٤٩] (ويخبرها عن أبيها ومكانه).
٢. مستقبل ذريّة الزهراءؑ:[٥٠] (ويخبرها بما يكون بعدها في ذرّيتها).
٣. الحوادث الواقعة:[٥١] (ولكن فيه علم ما يكون؛ ففيه ما يكون من حادث).
٤. أسماء الأنبياء والأوصياء[٥٢]. (ما

(٤٧) . بصائر الدرجات/ ٢٠٠، ح٢.

(٤٨) اصول الكافي، ١/ ٣٩٠، ح١.
(٤٩) بحار الأنوار، ٢٦/ ٤١، ح٧٢.
(٥٠) المصدر السابق.
(٥١) اصول الكافي، ١/ ٢٤٠، ح٢؛ بحار الأنوار، ٢٦/ ١٣، ح١.
(٥٢) بحار الأنوار، ٤٧/ ٣٢.

من نبيٍّ ولا وصيٍّ إلا وهو في كتاب عندي).

٥. اسماء الملوك وآبائهم.[٥٣] (وأسماء من يملك إلى أن تقوم الساعة؛ ليس من ملك يملك [الأرض] إلا وهو مكتوب فيه باسمه واسم أبيه).

٦. وصية السيدة فاطمة الزهراءعليها السلام:[٥٤] (وليخرجوا مصحف فاطمة؛ فإنَّ فيه وصيّة فاطمة).

كلام الملائكة مع الأشخاص الذين ليسوا بأنبياء

المحدّثة:-

«المحدثة» هو احد ألقاب السيدة فاطمةعليها السلام؛ أي التي كانت تحدّثها الملائكة. وقد قلنا بأن مصحف فاطمة هو مسموعاتها من الملائكة ومن جبرئيل والتي تمت كتابتها بيديها، ولكن هل يتكلم الملائكة مع غير الأنبياء؟.

في عقيدة الشيعة فإن الملائكة لا ينحصر كلامهم مع الأنبياء واوصيائهم فحسب وإنما كلمو الأئمةعليهم السلام والسيدة فاطمةعليها السلام كذلك. إن هذا الأمر يعتبر من الممكنات وليس مستحيلاً، وذلك لأنه وفي القرآن هناك آيات تقول: إن نزول الوحي، لا يختص بالأنبياء والرسل فقط، فقد كلم الله الناس عن طريق الملائكة أو مباشرة. ومن جملة اولئك الأشخاص هي السيدة مريم والدة السيد المسيحعليه السلام. ونقرأ في سورة آل عمران، الآيات ٤٢ و ٤٥ قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾

كما جاء في سورة مريم، الآيات ١٧-٢١: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[سورة مريم: ١٧] ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾.

ومن الأشخاص الذين كلمتهم الملائكة، سارة -زوجة النبي ابراهيمعليه السلام-. حيث نقرأ في سورة هود، الآيات ٧١ إلى ٧٧:

(٥٣) المصدر السابق، ٢٦/ ١٣، ح١، اصول الكافي، ١/ ٢٤٢، ح٣.
(٥٤) اصول الكافي، ١/ ٢٤١، ح٤.

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾.

وكذلك اوحي إلى ام النبي موسى عليه السلام. حيث نقرأ في سورة القصص، الآية ٧: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي ﴾[٥٥].

لذا فليست هناك ملازمة بين الوحي والنبوة؛ أي أنه من الممكن أن تتكلم الملائكة مع شخص وتوحي إليه والحال أنه لا يكون نبياً.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

(سُمِّيت فاطمة محدّثة، لأن الملائكة كانت تهبط من السماء فتناديها، كما كانت تنادي مريم بنت عمران)[٥٦].

يقول الامام الصادق عليه السلام في معنى «مُحَدَّثة»:

(والمحدّث الذي يسمع الصوت ولا يرى الصورة)[٥٧].

اذاً فإنه ليست هناك بين كلام الملائكة والنبوة ملازمة، وأن الملائكة كان بإمكانها أن تكلم من لم يكونوا أنبياء. على هذا الأساس فلا يمكننا القول: أن الشيعة تعتقد بأن فاطمة والأئمة عليهم السلام انبياء، وذلك بسبب قوله أنهم كانوا يكلمون الملائكة وتكلّمهم[٥٨].

ويقال بأن هناك في كتب أهل السنة أسماء لأشخاص تم عدّهم ممن يُعتقد بانهم كانت تكلمهم الملائكة؛ ومن جملة اولئك: الخليفة الأول[٥٩] والثاني[٦٠] وعمران بن

(٥٥) استفيد من ترجمة آية الله الشيخ مكارم لترجمة الآيات القرآنية.

(٥٦) دلائل الامامة/ ١٤.

(٥٧) المناقب، ابو جعفر رشيد الدين محمد بن علي بن شهر آشوب، ٧/ ٧٧٦.

(٥٨) هذه المقولة لعبد الله العصيمي في «الصراع بين الاسلام والوثنية»/ ٣٥:
«ففاطمة وعلي بن أبي طالب وأولادهما أنبياء رسل لدى هذه الفرقة»، فلو كانت هذه المقولة صحيحة، اذن يمكننا القول بأن السنة يعتقدون بأن الخليفة الاول والثاني و.. أنبياء، لانه وعلى اساس ما يعتقده أهل السنة فإن الملائكة كانت تكلمهم!.

(٥٩) صحيح البخاري، ٤/ ٢٤١، ح٧٦٧٩.

(٦٠) المصاحف، ابو بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني/ ٦، الرحمانية، مصر.

الحصين[٦١] وأبو المعالي الصالح[٦٢] وزكريا الناقد[٦٣].

هل نزل جبرئيل بعد موت النبي ﷺ؟

جاء في بعض الروايات: بعد وفاة رسول الله ﷺ، ودّع جبرئيلُ الأرضَ وقال:

(هذا آخر عهدي بالأرض بعدكَ وأن أهبط إلى الأرضِ لأحد بعدك).

في هذه الحالة كيف يمكن لجبرئيل أن يكون قد تكلّم مع فاطمة عليها السلام؟.

وقد أجاب جلال الدين السيوطي الشافعي (المتوفى ٩١١)، أحد أعلام علماء السنة، عن هذا السؤال. حيث يعتقد السيوطي بأن سند هذا الحديث وحديث آخر بنفس المضمون،[٦٤] كلاهما ضعيف جداً. بالاضافة إلى أنه يخالف ما أجمع عليه المسلمون، حيث أن جبرئيل ينزل في ليلة القدر في كل سنة، ـ مع فوج من الملائكة، ولم ينقطع وحي جبرئيل بوفاة النبي ﷺ، وإنما كانت هناك لجبرائيل واجبات اخرى يقوم بها؛ فمثلاً أنه وبعد قتل الدجال على يد عيسى عليه السلام، ينزل جبرئيل بالوحي عليه[٦٥].

ولا شك في أنه وبعد رحيل النبي ﷺ لن ينزل وحي بصفة وحي النبوة على أحد آخر. قال الامام علي عليه السلام بعد وفاة النبي ﷺ:

(وختم به الوحي، ..)[٦٦].

وكذلك: (لقد انقطع بموتك مالم ينقطع بموت غيرك من النبوة والإنباء وأخبار السماء..)[٦٧].

كما يقول الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء:

«ويعتقد الإمامية أن كل من اعتقد أو ادعى نبوة بعد محمد ﷺ، أو نزول وحي أو كتاب فهو كافر يجب قتله»[٦٨].

(٦١) طرح التثريب في شرح التقريب، الامام زين العابدين ابو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، ١/ ٩٠.

(٦٢) صفة الصفوة، ابن الجوزي، تحقيق اخوين عطا، ١٧/ ٧٢، دار الكتب العلمية.

(٦٣) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ٧/ ٤٦٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٦٤) المصدر السابق.

(٦٥) المصدر السابق.

(٦٦) نهج البلاغة عبدة، ٢/ ١٦، خ١٣٣، الاعلمي.

(٦٧) المصدر السابق، ٢/ ٢٣٣، خ٢٣٥.

(٦٨) اصل الشيعة واصولها/ ٢٢٠، مؤسسة

يُستشفُ من حديث الامام وقول العالم الشيعي بأن الوحي لا ينزل بعد رسول الله. ولكن نزول جبرئيل وكلامه مع أولياء الله ليس بالأمر المحال.

اسئلة حول المصحف:

لماذا تم املاء كلام المصحف على فاطمةعليها السلام؟.

١. عزاءاً لها:

إن أول سبب يمكن البت فيه هو أن يكون عزاءاً للسيدة فاطمةعليها السلام، وذلك لأنه وبموت أبيها، اصابها حزن وهم عظيم. يقول الإمام الصادقعليه السلام في رواية له:

(إن الله تعالى لمّا قبض نبيّه دخل على فاطمة من وفاته من الحزن ما لا يعلمه إلاّ الله عزوجل فأرسل الله إليها ملكاً يسلّي غمّها ويحدّثها)[٦٩].

٢. دليل الإمامة:

إن المصحف، يعتبر دليلاً وعلامة على الامامة. وهذا هو السبب الثاني في نزول المصحف. فقد شمل الفيض الإلهي السيدة فاطمة الزهراءعليها السلام وبعلها والأئمة المعصومين من نسلها، وهذا يقتضي أن ينزل المصحف -الذي يحتوي على العلوم الغيبية، حتى يكون دليلاً وعلامة على إمامة من يكون لديه. يقول الإمام الرضاعليه السلام في حديث له، إن علامات الإمامة يمكن عدّها في مجموعة امور، ومن جملتها حيازة مصحف فاطمةعليها السلام[٧٠].

أين مصحف فاطمةعليها السلام؟.

بما أن مصحف فاطمةعليها السلام يعتبر من دلائل الإمامة، فإن هذا الكتاب يجب أن يكون بين أيدي الأئمةعليهم السلام. وهناك العديد من الروايات في تأييد هذا الأمر؛ ومن جملتها ما قاله الإمام الصادقعليه السلام: **(ومصحف فاطمة عندنا..)**[٧١].

يقول الإمام موسى الكاظمعليه السلام: **(عندي مصحف فاطمة)**[٧٢].

وقد وصل مصحف فاطمةعليها السلام بعد الأئمةعليهم السلام إلى مولانا الإمام المهديعجل الله فرجه الشريف. يقول الإمام الباقرعليه السلام في حديث -بشكل

الامام عليعليه السلام، قم.

(٦٩) اصول الكافي، ١/ ٢٤٥، ح٢.

(٧٠) بحار الأنوار، ٢٥/ ١١٦، ح١.

(٧١) اصول الكافي، ١/ ٢٤٠، ح٧.

(٧٢) بحار الأنوار، ٢٦/ ٤٥، ح٧٩.

ضمني:

(إنّ قائمكم يقوم يوماً فأحب أن يعمل بما فيها)[٧٣].

يقول العلّامة الطهراني ـ مؤلف الذريعة:

«مصحف فاطمة من ودائع الإمامة بين يدي مولانا وإمامنا صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه؛ وقد جاء رواية هذا الأمر في العديد من روايات الأئمةعليهم السلام[٧٤].

خلاصة البحث:

١. لا يطلق عنوان المصحف على القرآن فحسب.

٢. مصحف (كتاب) فاطمة لا يشتمل على أي آية أو موضوع يتعلق بالقرآن أو الأحكام الشرعية أو الاخلاقية.

٣. نزل نص هذا الكتاب من الله عز وجل عن طريق جبرائيل على صدر فاطمةعليها السلام بعد موت النبيصلى الله عليه وآله. لذا تم تسميته باسمهاعليها السلام (مصحف فاطمة).

٤. كاتب هذا النص هو الإمام عليعليه السلام.

٥. يحتوي هذا الكتاب على، منزلة النبي ومستقبل ذرية السيدة فاطمةعليها السلام والحوادث الواقعة في مستقبل الأيام وأسماء الأنبياء والأوصياء وأسماء الملوك ووصيتهاعليها السلام.

٦. مواضيع ومحتوى هذا المصحف تعادل ثلاث أضعاف القرآن.

٧. الملائكة لا تحدث الأنبياء حصراً، وإنما تنزل بالوحي على أشخاص آخرين- مثل مريم (ام النبي عيسىعليه السلام)، سارة (زوجة النبي ابراهيمعليه السلام)، وام النبي موسىعليه السلام -بوحي غير ثبوتي. والسيدة فاطمةعليها السلام من ضمن هؤلاء الأفراد لذا فقد تم تسميتها بالـ«المحدثة» (وهي من يحدثها الملائكة).

٨. نزل جبرئيلعليه السلام على النبيصلى الله عليه وآله بوحي النبوة، وبعده نزل على أشخاص آخرين ليبلغهم وحياً غير وحي النبوة.

٩. كلام هذا المصحف، نزل من أجل أن يسلّي السيدة فاطمةعليها السلام -في موت أبيها-.

(٧٣) المصدر السابق/ ٥١، ح٩٧.

(٧٤) الذريعة، ٢١/ ١٢٦، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الثانية.

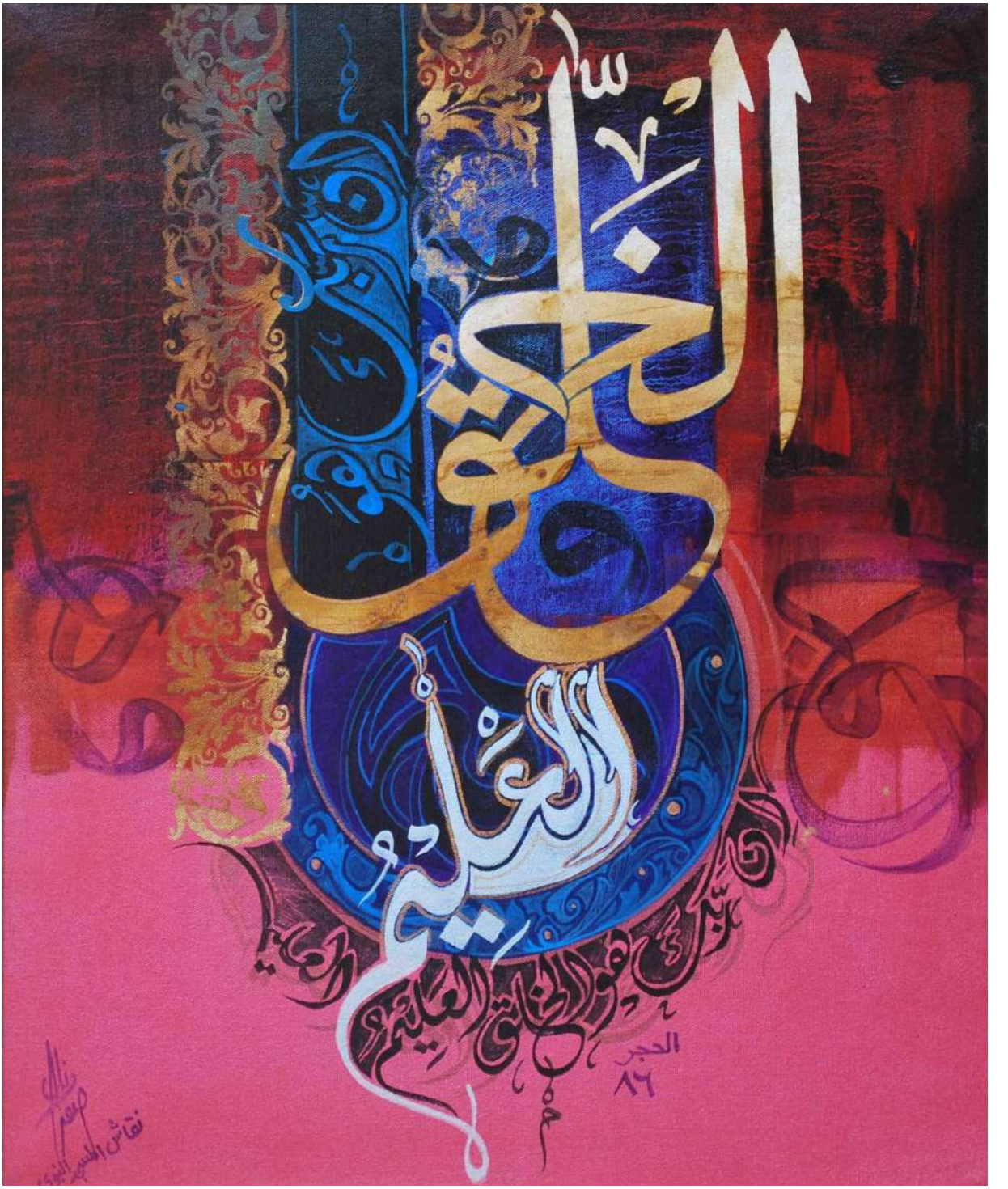
الحجر
٨٦

كَرَامَةُ المَرأَةِ فِي ضَوْءِ المُعْطَيَاتِ الشَّكْلِيَّةِ والدَّلالِيَّةِ لِلْآيَةِ (٣٤) مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ

أ.د. جهانگير أميرى
جامعة الرازي -كرمانشاه

د. نور الدين پروين
جامعة الرازي -كرمانشاه

د. كبرى روشنفكر
جامعة تربيت مدرس- طهران

فحوى البحث

سبق لمجلة المصباح نشر أبحاث تخوض وتحلل وتقرر مثل هذا الموضوع الذي يخص المرآة وحُسن التعامل معها ولم نجد في هذا البحث جديداً في عرض المعلومات اللهم الا في منهجية البحث واستقامة تبويبه واجتماع آراء العلماء من مفسرين ولغويين ونفسانيين على حصر الحديث في آية واحدة من سورة النساء وهي الآية ٣٤ والتي تنص على مراحل عقوبة الزواج الناشز والتي لاينفع معها الوعظ ولا الهجر في المضاجع والتي تنتهي بالضرب وهي العقدة التي اثيرت حولها الشبهات من قبل المهرجين الذي رأوا في العقدة امتهانا لكرامة المرآة. وقد ردّ السادة الباحثون على التساؤل بكل موضوعية واحتراف.

الملخّص:

قد توجد في القرآن الكريم آيات تتنافى في ظواهرها مع كرامة المراة المسلمة التي تعترف بها الشريعة الاسلامية. من قبيل الآيـة ال٣٤ من سـورة النساء المباركة التي تطرح قضايا مهمة فيما يتعلق بالحياة الزوجية و تتطرق في ضمنها الى مسالة قيمومة الرجل على المراة و هجره و ضربه لها حيث تقول ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ... فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ...﴾[سورة النساء: ٣٤] مما يتصوره بعضهم انه هدر لكرامة المرأة.

فلقد اثـار حكم الهجر و الـضرب و التصريح بقيمومة الرجال على النساء كما نجده في الآيـة الكريمة المذكورة أعلاه جدالا ساخنا عند المفسرين و الباحثين في كتاب الله العزيز. لقد قمنا في هذا البحث المتواضع واعتمادا على المنهـج الوصفي التحليلي، بـدراسـة الآيـة الكريمة التي نسميها في هذا المقال بآية القيمومة، للرد على الشكوك و التساؤلات الـواردة على الآية. و قد عولنا في هذه الدراسة على عدد من التفاسير القديمة و الحديثة لكي نعالج الموضوع من مختلف الجوانب الدينية و الاجتماعية و الحقوقية و النفسية. و من أبرز النتائج التي توصلنا اليها من خلال هذا البحث هو أنه و على الرغم من تصور البعض، ان آية القيمومة لا تتعارض مع المكانة التي رسمها الإسـلام للمرأة و لذا حاولنا ان نرد على هذه التساؤلات بالاستناد إلى ما تتضمنه آية القيمومة من دقائق لغوية و لطائف معنوية.

الكلمات الرئيســـة: القرآن الكريم، آية القيمومة، المـراة، الرجال، الضرب، الوجوه التفسيرية للآية.

المقدمة:

كانت ولاتـزال قضيّة معرفة النفس و كرامة الإنسان منذ بدء الخليفة و حتّى يومنا هـذا تحتلّ محـلاً واسعاً مِـن أفكار الإنسان. إنّ النهضة العلمية التي حدثت في القرون الأخـيرة في البلدان الأروبيّةِ أعطت سيرَ حقوق الإنسان زخمًا كبيراً فتوّلـــــدت إثرهـــا أنظمـة سياسيـــة و حقوقية أخـذت على عاتقها الدفاعَ عن حقوق الإنـسـان. كذلك أصبحت

المواثيـــق و الأعراف الدولية تعترف بها و تنصّ عليها رسمياً (مطهرى، ١٣٦٩ ش، ص ٥٨). كما جاء في مقدّمة الميثاق الدّولي لحقوق الإنسان: «كلّ أبناء البشر سواسية من حيث الكرامة و الحقوق الإنسانية منذ الولادة حتى الوفاة بغضّ النظر عن اختلافهم في اللون و اللغة و الجنس و غير ذلك (مهريزى، ١٣٨٢ ش، ص ١٧١). لقد شاعت في العقود الأخيرة فكرة الدفاع عن حقوق المرأة و كرامتها في الأوساط الدولية كما تشكّلت جمعيّات حقوقية و سياسية تطالب بحقوق المرأة و من أكثر هذه الجمعيات النسوية شهرةً و رواجاً جمعيّة «الوِمَنيَّة[1]» التي تدعو الى تساوي النساء مع الرجال في كلّ شى (وكيلي، ١٣٧٠ ش، ص ٤٩). إنّ الاهتمام بالمرأة و حقوقها و كرامتها لدى الإسلام أمرٌ لايتسرب إليه الشك و خيرُ دليلٍ على ذلك تخصيص سورة مطولة من العشر الطوال بالمرأة تبيّن من خلالها أحكام المرأة و حقوقها و وظائفها العائلية و لذلك سميّت السورة بالنساء.

(١) womenism

مما استرعى انتباه الباحثين في الآية ال٣٤ من سورة النساء المباركة ان الآية الكريمة أصدرت الحكم بجواز ضرب الرجال للنساء نظرا لقيمومـــة الرجل على المراة المنصوص عليها ضمن الآية ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾. وقد اصبحت الآية مثارا للبحث و الجدل من حيث ان حكم الضرب الوارد في الآية الكريمة لاينسجم مع شأن المرأة المسلمة و كرامتها في النظرة الأولى. فاهم التساؤلات التي قد تثيرها الآية في أذهان المفسرين و الباحثين هي كالتالي:

١. ماهو المفهوم الصحيح لقيمومـــة الرجال على النساء؟.
٢. ما هو المفهوم الصحيـــح لكرامة المراة؟.
٣. كيف تتلاءم مسألة قيمومة الرجل مع كرامة المراة؟.
٤. كيف يمكن تفسير حكم الضرب الوارد في الآية بما لا تاباه كرامة المراة؟.

انما يرمي هذا البحث الى دراسة التساؤلات المطروحة بشان الآية ال٣٤

من سورة النساء المباركة حول كرامة المراة اولا و الاجابة عنها في ضوء المعطيات الشكلية و الدلالية للآية ثانيا. ومن الجدير ذكره اننا استفدنا في مقالنا هذا من اهم الآراء التي ادلى بها علماء اللغة و المفسرون فيما يتعلق بالدلالات اللفظية و المعنوية للآية الكريمة.

خلفية البحث:

هناك دراسات وكتبٌ قد أنجزت حول القرآن الكريم و كرامة المرأة. من أهمّها:

١. مهدي رضوانيبور في مقالته المعنونة "كرامة الانسان في نظر القرآن" يستند إلى آيات القرآن الكريم، و الآراء القيمة للإمام الخمينى قدس سره، الذى يعدّ نموذجاً بارزاً للإنسان الكريم فى العصر الحاضر، فى محاولة لبيان عظمة الموجود الانسانى، و سرّ تفضيله على سائر الموجودات، حتّى ملائكة الله.

٢. الدكتور عبد الحكيم درقاوي في مقالته المعنونة بـ "الكرامة الانسانية في القرأن الكريم" يتطرّق إلى بعض مكرمات الله تعالى للانسان كتكريم الذات، خلقته على الفطرة، الخلافة و وإعمار الأرض و...

٣. مقال للسيدة صغير بانو بعنوان "كرامة المرأة في النظام الاسلامي"، سعت الكاتبة فى هذا البحث عن طريق مراجعة تاريخ الإسلام و بيان بعض الشواهد من حياة المعصومين عليهم السلام -إلى بيان موقع المرأة فى النظام الإسلامى، و توضيح رؤية الإمام الخميني بخصوص المرأة، المتطابقة مع تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، بالإستناد إلى أحاديث الإمام الخميني و عقائده و سيرته.

٤. الدكتورة كبرى روشنفكر و محمد بايزيدي في مقالتهما المعنونة بـ "المرأة المثالية في القرآن الكريم دراسة مقارنة مع الشعر الجاهلي"، هذا المقال يقوم بدراسة هذه الأوصاف من خلال الموازنة بين صورة المرأة المثالية "الحور العين" في القرآن الكريم و الشعر الجاهلي. النتائج تدلّ على

أنّ هناك تشابهات بينهما في الوصف المادي، إلا أنّ الوصف القرآني يقترن دائما بما يدلّ على جمال معنوي قلّما نراه في الغزل الجاهلي.

٥. محمد حسن روزبه في مقالته المعنونة بـ"موانع كرامة الانسان" يبحث عن موانع الكرامة الانسانية فى المجال الفردى و الإجتماعى، و إشارة إلى أنّ جهل الانسان البسيط و المركّب، و الصفات الذميمة نحو: قلّة البصيرة، و التعالى، و عبادة الهوى: من جملة الموانع الفرديـــة من تحقّق الكرامة، و أنّ الظلم، و الأسر، و الإستبداد، و فقدان الأَمـن، و عدم المساواة، و التمييز: من جملة الموانع الإجتماعية من تحقّق الكرامة.

٦. مقـال لنجف عـلي غـلامي بعنوان "الكرامة الانسانيـــة في نظر النبي الأعظمﷺ"، هذه المقالة محاولـــة لتحديد الموقع المتميز للكرامة الانسانية فى حكومة النبىﷺ، و لأجل ذلك تناولت تعامل هذه الحكومة لكلّ من اليهود و المسيحيين و حتّى المشركين ببحث مستقلّ، و أشارت أيضاً إلى اهتمام النبىﷺ الجادّ ببعض جوانب الكرامة الإنسانية.

لا شك أن كل البحوث والدراسات الـتـي تمّـت حـول الـكـرامـة في الـقـرآن الكريم تكون ذات قيمة وفـائـدة تمهّد الطريق للباحثين كما استفدنا منها نحن واعتمدناها في إعداد مقالتنا هذه، على أية حال فإنّنا نعتقد أنّ الآية ال٣٤ من سورة النساء المباركـة كثرة وضخامة الأعمال التي أُعدت حولها إلاّ أنها مازالت تحمل في طياتها المزيد من الجماليات والأسرار التي يمكن إزاحـة اللثام عنها في ظلّ الدراسات الحديثة.

لأنّ هذه الآية الكريمة لقد تطرّقت إلى مواضيع صارت مجالاً للنقاش لدى المدافعين عن حقوق المرأة فأشكلوا على الآية قائلين: كيف تنسجم مسألة قوامية الرجل على المرأة مع كرامتها المعترف بها رسميّاً في المجامع الدولية؟!.

ثمّ أنّ حكم الضرب المأموربه في الآية كيف يتلاءم مع شأن المرأة المعاصرة التي تطالبُ بالمساواة في الحقوق مع الرجل؟.

هـذه الأسئلة و مـا شابهها أرّقـت المفسّرينَ المعاصرين و جعلتهم يتدارسون الآية من مختلف الجوانب و في ضوء العلوم الحديثة كعلم النفس و علم الاجتماع و علم الحقوق و غيرها و يفسّرونها تفسيراً يتجاوبُ مع روح العصر و مكانة المرأة المعاصرة دون أن يتنافى مع أصول الشريعة الإسلامية و ضوابطها... و نحن الآن نستعرض هذه الوجوه التفسيرية تحت ثلاثة عناوين:

أ. كرامة الإنسان من منظور القرآن الكريم.

ب. قوّامية الرجل على المرأة.

ج. ضرب الرجل المرأة.

٢. الدراسة الشكلية والدلالية لآية القيمومة:

٢-١. مفهوم الكرامة في القرآن الكريم:

يحظى الإنسان في الرؤية الإسلامية بكرامة ذاتية منذ الولادة حسبما تُفيدنا قصّة آدم عليه السلام الواردة في القرآن الكريم. فقد جاء في هذه القصّة أنّ الله أرادَ أن يجعلَ في الأرض خليفةً له: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: ٣٠] فكلمة «الخليفة» هذه تحمل معها أعظم تكريم للإنسان. لأنّها تدّل على مماثلة الإنسان لله و مشابهته له. فإنّ الله خلقَ الإنسان على صورته و مثاله و أودَعَ فيه صفاتِه الإلهية من العلم و القدرة و الإبداع و الإرادة ليكون قادراً على أداء دَوره كخليفة لله في الأرض (مصطفوى، ١٣٨٠ ش، ١/ ١٨). ثمّ أمرَ اللهُ ملائكته بالسّجدة أمامَ الإنسان تعظيماً لشأنه و تكريماً لمكانتِه فأصبح الإنسانُ مسجوداً للملائكة: «و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدمَ فسَجَد الملائكة كلّهم أجمعون». ثمّ علّمَ الإنسانَ علوماً جمّةً عجزت من تعلّمها الملائكةُ. ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: ٣١].

ثمّ سخّر له السمواتِ و الأرض و أخضعَ له الكَونَ لِينفذَّ أوامرَ الله فيه.

فللإنسان كرامةٌ ما بعدَها كرامةٌ و قد صرّحَ القرآنُ الكريم بهذه الكرامة في أكثر من موضع و منها: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ إِلَى.. وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾. [سورة الإسراء: ٧٠].

كما يلاحَظ في الآيات المذكورة أنّ

الإنسان كائنٌ مكرّمٌ في ذاته» سواءٌ كان رجلاً أم امرأة. فالمرأةُ تساوى الرجلَ في هذه الكرامة و لاتقلّ منه شأناً. فإنّها مكلَّفة بما كُلِّف به الرجلُ (مغنية، ١٩٩٠ م، ١/ ٧٣) و كثيرٌ من الآيات تخاطبُ المرأة كما تخاطبُ الرجلَ و من هذه الآيات: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [سورة النساء: ١٢٤] فالجنسيّة لادخلَ لها في الكرامة و الكرامة تعمُّ الرجلَ و المرأة كليهما. إلاّ أنّ الكرامة في منظور الإسلام ناجمةٌ عن التّقوى (سيد قطب، ١٤١٢ ق، ٢/ ٦٤٤). فالأكثر إيماناً و تقوىً هو الأكثر كرامةً رجلاً كان أم امرأة و هذا ماصرّحت به الآية الكريمة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ... ﴾ [سورة الحجرات: ١٣].

فالمرأة إذا كانت تقيّةً و ورِعة تخافُ الله فهي خيرٌ من رجلٍ ليس له نصيبٌ من الإيمانِ و التّقى. فمن أجل ذلك جعل اللهُ امرأةَ فرعون و هي امرأة كانت تؤمن بالله مثالاً بارزاً للمؤمنين من الرجال و النساء: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ... ﴾ [سورة التحريم: ١١].

و جعلَ امرأةَ لوطٍ و هي كانت من الكافرين أنموذجاً رائعاً للكافرين رجالاً و نساءاً: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ [سورة التحريم: ١٠]. إذن فلا يولى القرآنُ الكريم عنايةً للجنس في مسألة الكرامة و لايقيم له وزناً.

خلاصة القول في هذا الصدّد: أنّ الإنسان في منظور القرآن محترمٌ و مُكرَّمٌ ذاتاً مادام يسير على منهج عبودية الله فلاكرامة حقيقيّةَ في الإسلام لِمَن ملأته الأنانيةُ و شغلَه الانغماسُ في الملاهي و الشهوات عن عبوديّة الله سواءٌ في ذلك الرجل و المرأة. فلا يعتبر الإسلامُ المرأةَ التي تتخبّط في الشهوات و تستولي عليها الميولُ النفسيّة ذاتَ كرامةٍ حقيقية و إن كانت بحسب الظاهر محتشمةً و متعلمةً تحمل أحياناً شهادات جامعية و تتولّى مناصَب عالية. (جوادى آملى، ١٣٦٩ ش، ص ١٣١).

فالكرامة الحقيقيّة في رؤية الإسلام

ناجمَة عن الإيمان بالله و التقوى الإلهى ليس إلاّ.

٢-٢. قوّامية الرجل على المرأة:

لقد جاء في مقطع من الآية: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ...﴾ [سورة النساء: ٣٤] فأكّبَ المفسّرون الجدُد على تفسير القوّامية و ذكروا فيها من الوجوه التفسيرية ما يمكن أن تدفع بها الشبهات التي تحوم حول الآية في خصوص كرامة المرأة و أهمّ الوجوه التفسيرية بهذا الصّدد كالّتالي:

١. القيامُ بأمور الأسرة و تنسيق الحياة العائلية (مصطفوي، ١٣٨٠ش ٥/ ٣٦٠ و فضل الله، ١٤١٦ ق ٧/ ٢٢٦ و مدرسى ١٣٧٧ ش، ٢/ ٦٨).

٢. التكفل بنفقة المرأة و تكاليف الأسرة. (مغنية، ١٩٩٠ م، ١/ ٣٧٨).

٣. الحفاظ على مصالح الأسرة (الجواهري، ١٣٨٨ ش، ٣/ ٢٧٦).

٤. التمكّن من تنفيذ شؤون الأسرة و احتمال مسئولياتها و تدبير شؤونها. (مكارم شيرازى، ١٣٧٤ ش).

٥. القوّاميّة ما تفتقر إليه المرأةُ و الحياةُ العائلية (فضل الله، ١٤١٦ ق ٧/ ٢٢٦).

يمكننا الاستنتاج من كلّ هذه المفاهيم أنّ... القوّامية تدلّ على القيام بأمور الآخرين أكثرتما تدلّ على التفوّق و السيادة و الهيمنة. و ممّا يؤتدِ هذا المعنى هو أنّ كلمة «القوّام مشتقّة من «قامَ» و القائمُ بالأمر هو من يتصدّى للأمر و يؤدّيه و يفعله بشكلٍ يتمّ الأمر به و القوّام صيغة مبالغةٍ لِلقائم و فيها نفس بالمعنى بزيادة: (الجواهري، ١٣٨٨ ش، ٣/ ٢٧٩).

٦. يَجبُ على الرجال و هم القوّامون على النساء أمورٌ لاتجب على النساء كالجهاد و النّفقة و المهر و ما تفتقر إليه الحياة العائلية. فتكون القّوامية مِن هذا المنظور بمثابة الأصل الذي تتفرّع منه فروعٌ عدّة. (الطنطاوي، ١٤٠٨ ق، ٤/ ٣١١).

٧. قوّاميّة الرجل أيّاً كان معناها لاتسلبُ المرأةَ حقوقَها الفرديةَ و الاجتماعية بل يحقّ لِلمرأة أن تحتفظ بحقوقها و تدافع عنها و تخطّط لتحقيقها (العلاّمة فضل الله) (١٤١٦ ق، ٧/ ٢٣٢).

٨. و للعلاّمة الطباطبائي في هذا الصدّد رأيٌ آخر هو: «... إنّ القوامية لهامعنىً ذو وجهين فهي بالنّسبة للرّجل تعني إعالة الأسرة و تأمين نفقاتها و بالنسبة للمرأة تعني التمكين للرجل و الحرص على مالِه و عرضه إذا غابَ عنها (طباطبائي، ١٣٧٤ ش، ٤/ ٥٤٤).

بعد أن ذكرنا الوجوه التفسيرية لمفهوم «القوامية» نتطرّق الآن إلى سؤالٍ مهم يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً ألا و هو: ما هو سبب قوّامية الرجل على المرأة؟.

لقد ذكرت الآيةُ نفسُها لهذه القواميّة سببين تاليين:

١. ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ ﴾: [سورة النساء: ٣٤].

نفهمُ مِن الآية أنَّ لكل مِن الرجل و المرأة تفوّقاً و فضلاً على الآخر.

لقد أوتي الرجلُ بسطةً في الجسم و زيادةً في القوّة لكي يتمكّن من احتمال تكاليف الحياة و مواجهة الصعوبات و الطوارئ بينما تتولّى المرأة من شؤون الأسرة ما لايتطلّب قوّة بدنية هائلة كالطبخ و التّنظيف و الترتيب و توفير الهدوء و الرّاحة (المكارم الشيرازي، ١٣٧٤ ش، ٣/ ٣٧٠).

من الجدير بالذكر أنّ جَعْلَ الرجلَ قوّاماً على المرأة لايعنى أنّ وظائف المرأة في الأسرة أقلّ خطورةً و أهميّةً من مهام الرجل بل لكلّ واحدٍ منهما مسؤوليات مهمة و خطيرةٌ لاتستغني عنها الأسرة. فالرجلُ يسعى جاهداً للحصول على لقمة العيش و سدّ احتياجات الآسرة من المطعم و المشرب و الملبس. و القوّة البدنية و الطاقة الجسدية التي منحَه اللهُ إيّاها تؤهلّه للقيام بهذا الدّور كما تُرشّحه أيضاً أن يكون هو المسؤول عن الدفاع عن الأسرة و الحفاظ عليها عند مواجهة الشدائد. و المرأة تتحمّل بَدورها وظائف شاقّة لا تقلّ عن وظائف الرجل خطورةً. إنّها توفّرُ بداخل الأسرة ظروفا ً معيشيّة طيّبة يعيشُ في ظلّها أفرادُ الأسرة في راحةٍ و سكينة. و لَعمري ليس هذا بالأمر الهيّن إذ صرّحت به هذه الآية الكريمة كنعمةٍ من أنعم الله العظيمة ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ

بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[سورة الروم: ٢١].

لقد مَنَّ اللهُ في الآية المذكورة على الرجال بجعل المرأة بجوارهم تكونُ لهم مصدرَ الحبّ و الحنان بحيث لولاها لما توفّرَ لهم هناءٌ و لاسكونٌ في الحياة العائلية. فإذا لم يكن دورُ المرأة أقلّ شأناً مِن دَور الرجل في الأسرة ِ فبالأحرى لاتكون نفسُها أقلَّ من الرجل في الكرامة و الإنسانية (جوادي آملي، ١٣٦٩ ش، ص١٢٢).

إذن للرّجل و المرأة دورٌ مهم و حياتيّ في بناء الأسرة و لكلّ واحدٍ منهما تفوّق و فضلٌ على الآخر. و في الآية ما يؤيّد ذلك حيث تقول: ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ فلا تقول الآية: «فضّلَهم عليهنَّ».

٢. «بما أنفقوا مِن أموالهم»: هذا المقطع من الآية يشيرُ إلى السبب الثاني الذي مكَّن الرجالَ للقوامية و هي كما أسلفنا مسؤولية تأمين المعاش و سدّ حاجات الأسرة من الطعام و الشراب و المسكن و ماشابه ذلك من مستلزماتٍ منزلية. و هذه المهمة عادةً ما تتمُّ في خارج المنزل و في معترك الحياة بحيث تتطلّبُ من الرجل قوّةً فائقة و جهوداً حثيثة لايُتوقّع مثلُها من المرأة. لِأنّها خُلِقت أضعف و ألطف من الرجال تكويناً كي تتولّى وظائف في الحياة تختلف تماماً عن وظائف الرجل (مدرسي، ١٣٧٧ ش ٢/ ٦٨). يجب الأخذ بعين الاعتبار أنّ المقطعين الأول و الثاني المشار اليهما في الآية لاينفصلان عن بعضهما البعض بل يُشكّلان وحدةً متماسكة لاتتجزأ: يكون حينئذٍ مغزى الآية: أنّ الرجال قوّامون على النّساء لِكونهم أقوياء أشدّاء جسماً و مكلَّفين بتأمين حوائج الأسرة و ما يقوِّمُ به أوَدَها. فتكاليف الأسرة تقتضي منه تحمّل المشاقّ و الصعوبات فَمن منهما يا تُرى الأصلح و الأنسب لِيكون قوّاماً أو قيّماً للأسرة حتّى يضمنَ سعادتها و نموّها و ازدهارها (فضل الله، ١٤١٦ ق ٧/ ٢٣٠).

لا شك أنّ الرجل هو الأفضل للقيام

بهذا الدّور لتلائمه مع هذه المسئولية تكويناً. و السؤال الآخر الّذي يرتبط بالقوّاميّة هو:

ما هي حدود القوّامية؟.

اختلفت الرّؤى التفسيرية في حدود القوامية. فمِن المفسّرين مَن ذهبَ إلى أنّ القوّامية لاتقتصر على نطاق البيت بل تتّسع و تشمَل الحياة الاجتماعية أيضاً.

فيعتقد هولاء المفسّرون أنّ المهام الاجتماعية كالرّئاسة و القضاء و الحرب و غيرها من الأمور الحياتية التي بها تدور عجلة المجتمع البشري أهّم من أمور الأسرة شأناً فلابدّ أن يتصدّى لها مَن هو الأفضل و الأصلح في تنفيذها و هو الرجل الذي أُعطاه الله مواهبَ و قابليّاتٍ للقيام بذلك (فضل الله، ١٤١٦ ق، ٧/ ٢٣٢) ثمّ أنّ الآية لاتقول: «الرجال قوّامون على نساءهم حتّى ينحصرَ حكم القوامية في إطار الأسرة بل أطلقت و قالت: «... قوّامون على النّساء...» (قرائتي، ١٣٨٣ ش، ٢/ ٢٧١) و من المفسّرين مَن يُخالف تطبيق الآية على الشؤون الاجتماعية و السياسية و ذلک للقرائن التي تحفّ بالآية و تُقيّدها بشؤون الأسرة فقط فمسئولية الرجل عن تأمين نفقة المرأة كما تحدّثت عنها الآيةُ أمرٌ يختصّ بالأسرة و الحياة العائلية دون سواها. فلا مبّررَ لنا إذن أن نعمِّم حكم القوامية لِيَطالَ الشؤونَ الاجتماعيّة و السياسية أيضاً. (الطباطبائي، ٤/ ٥٤٣ و الصادقي، ٧/ ٤٤).

ما هي حدود أفضليّة الرجل على المرأة؟.

لقد أسلفنا أنّ الرجل يفوق المرأة و يَفضُل عليها من حيث القوة الجسدية حسب الآية الكريمة و لكن هل يا تُرى أنّ هذه الأفضليّة تتناول الجانب العَقلي أم لا. قال بعضُ المفسّرين إنّ الأفضليّة في قوّة الجسم تستلزم الأفضليّة في قوة العقل أيضاً. ذلك لأنّ الحصول على المعاش الذي كُلِّف به الرجل يتطلّب منه أن يكون عاقلاً ذكيّاً فضلاً عن كونه قويّاً صلباً (الطنطاوي، ١٤٠٨ ق، ٣/ ٣٣٣) و لكن يعتقد أغلب المفسّرين أنّ تفوّق الرجل على المرأة يقفُ عند الحدّ الذي حدّدته الآيةُ الكريمةُ و هو التفوق في الجسم فلا يجوز تخطي حدود الآية.

و لاعبرة بالأدلة التي تـذرّعَ بها الفريق الأوّل لإثبات الشمولية لأنّـه أولاً: لا يستلزم الحصول على المعاش في كثير من الأحوال التفوقَ العقلي كما تصوّره بعض المفسّرين. فنحن نرى أنّ كثيراً من الحرَف و المهَن بها حاجة إلى القوّة الجسميّة أكثر ممّـا تحتاج إلـى القوة العقلية. ثانياً: لو سلّمنا بالالتزام فلا يدَل هذا الالتزام على أفضلية الرجل على المرأة في العقل لأنّه إذا أُتيح للمرأة و أفسح لها المجال للممارسة العقلية و الذهنية لَتمكنّت مِـن إنـما، طاقاتها الفكرية و بَلورة قابلياتها العقلية و بالتالي إثبات ذاتها و تفوّقها العقلي شأن الرجل (فضل الله، ٧/ ٢٣٦ الطباطبائى، ٤/ ٥٤٩). فكم من امرأةٍ فاقت الرجالَ في مجالاتٍ علمية و أنشطة فكرية و كم من امرأة خطت خطواتٍ بعيدةً في المجالات العلمية و الأدبيةِ فبلغت مرتبةً في العلم لم يبلغها رجالٌ كثيرونَ. فيتبيّنُ ممّا سبقَ:

الآية الكريمة أثبتت القوامية للرجال بما أنّهم متفوّقون في قوّة الجسم لِيتمكّنوا من سدِّ احتياجات الأسرة و الدّفاع عن كرامتها و لكن هذه القوامية كما رأينا هي مسئولية شاقّة تقع على عاتق الرجل دون المرأة و لا يكون معناها تفوّق الرجال على النساء في العقل و الشخصية و الكرامة الإنسانية.

لقد شاء اللهُ أن يتفوّق كلٌّ منهما من جهة تخصّه حتّى يتعاونا في إرساء قواعد الحياة السعيدة فإذا فاقَ الرجلُ المرأةَ في قوّة الجسم. فإنّ المرأة تفوق بِدوره الرجلَ في قوة الحبَ و الحنان. و ما أحوجَ الأسرةَ إلى الحبّ و الحنان!. و ما أقساها لو خلت منهما (صادقي، ١٣٦٥ ش، ٢/ ١٧٨)!.

ربّـما سـأَلَ سائلٌ إذا كـان الرجل و المرأة متساويين و متكافئين في الإنسانية و الكرامة فـ:

لماذا تختصّ القواميّـــة بالرجل دون المرأة؟.

ممّا لا شك فيه أنّ للأسرة في الإسلام أهميّـةً كـبرى فـالإسـلام يعتبرها الحجر الأسـاس للمجتمع الإنسـاني فـالأسرة رغم حجمها الصغير تلعب دوراً يكون في غاية الخطورة و بالغ الأهمية ذلك لأنّها بمثابة مدرسة تربوية تربّي و تنشيء جيلاً صالحاً يبنى بدَوره مجتمعاً سعيداً و صالحاً

فالأسرة تضمن فلاح الأمة و سعادتها. فمن الطبيعي أن يُعيرها الإسلامُ غاية الاهتمام و الاعتناء و يحرَص على صيانتها و سلامتها أشدّ الحرص. فمن الأحكام التي أسّسها الإسلام للحفاظ على الأسرة و مكانتها المرموقة هو «القوامية» (جوادي آملي، ١٣٨٣ ش، ص ٩١). و القوامية هذه تكون أكثر تناسباً مع طبيعة الرجال و ما فيهم من الطاقة الجسميّة و قوّة الصلابة و شدة المراس و ربّما لم نعدُ الحقّ لو شبّهنا دورَ الرجل في الأسرة بربّان السّفينة الذي يتولّى مسؤولية إنقاذ سفينته التي تتقاذفها الأمواجُ و تعصف بها العواصف و هدايتِها إلى شاطىء الأمن و السّلام (مكارم شيرازى، ١٣٧٤ ش، ٢/ ٢٠٧). فالقوامية إذن دلالة واضحة على حكمة الله الذي وضعَ كلَّ شيءٍ في محلِّه اللاّئق به و القوامية مسؤولية خطيرة تكون أنسب للرجال و مكوّناتهم الذاتية و لكن ليس معناها أفضلية الرجل على المرأة في الإنسانية و الكرامة (مطهّري، ١٣٦٩ش، ص ١٧٥).

٢ -٣. ضربُ المرأة:

جاء في مقطع من الآية: ﴿...وَاضْرِبُوهُنَّ...﴾ [سورة النساء: ٣٤] فأمرَ اللهُ فيه بضرب المرأة حيث أثار الشبهةَ حول كرامة المرأة إذ معلومٌ أنّ الضربَ بادئ ذي بدءٍ لايتلاءم مع إنسانية المرأة و تساويها مع الرجل في الشخصية و الكرامة فذهب المفسرون المعاصرون في توجيه الضرب مذاهب شتّى تختلف من حيث القوّة و الضعف فبعضها قويّة فتكون في غاية الإتقان و الاستقامة و بعضها ضعيفة حتى لاتكاد تغنى من الحق شيئاً إلاّ أنّنا نذكر هذه الوجوه التفسيريةِ تاركين الحكمَ في ضعفها أو قوّتها للقارئين الكرام:

١. الضربُ حكمٌ يخصّ من النّساء المرأةَ الناشزَ المستعصية التي لم تخضع للأساليب التربوية السلمية التي ذُكرت في الآية قبل الضرب و هي: «الوعظ» و «الهجر فى المضاجع»: «فعظوهنَّ واهجروهنّ فى المضاجع» (سيد قطب، ٢/ ٦٥٤).

٢. لايحقّ للرجل أن يضرب امرأتَه انتقاماً منها و حقداً عليها بل إنّ الضربَ

غايته الإصلاحُ و التنبيه (صادقي، ٧/ ٥١).

٣. إنّ حكم الضرب في الآية يُشعرنا بأنّ المرأة الخاطئة قد خرجت من إنسانيتها بسبب نشوزها و تمرّدها على الزوج و لذلك يجوز ضربها كما يجوز ضربُ الحيوان الجموح لكبح جماحه: (صادقي، ٧/ ٢٥٧) فكما هو معلومٌ أنّ صاحب تفسير الفرقان اختارَ مذهباً غريباً و حاولَ أن يبرّز حكم الضرب بإخراج المرأة الناشزة من مستواها الإنساني و هذا رأيٌ عجيب جدّا خاصّة في العصر الذي نعيشُه.

٤. إنّ الضرب لايختصّ بالإسلامَ بل نراه موجوداً في كثير من الأديان السماوية و المذاهب البشرية. ففي هذه النحل و الملل أحكام ٌو قوانين قد تكون أعنف و أشدّ من الضرب تُنفّذ بحق المجرمين الذين لم يكفوّا عن غيّهم و ضلالِهم بالطرق السلمية كحكم الإعدام مثلاً فالضرب إذن حكمٌ عاديٌّ و طبيعيٌ في الأديان و المذاهب لمعاقبة المجرمين الذين كانت الطرق السلمية كالموعظة و الحبس في حقّهم دون أثر و جدوى. (مكارم شيرازي، ٣/ ٣٧٣).

٥. هذا الضرب ممّا بحيث لايخلّف الجرحَ أو الكسرَ أو الحمرة أو ما شابه ذلك فليس في هذا اللون من الضرب ما يتعارض و كرامةَ المرأة (قطب، ٢/ ٦٥٤).

٦. لقد أثبتت بعض الدراسات الجديدة في علم النفس أنّ بعض النساء. مصابات بمرضٍ نفسيٍّ أطلق عليه علماءُ النفس تسمية «المازوخية[٢]» و هو يعني: الميل إلى الضرب و الشدّة. فإذا اشتدّ المرض بالمرأة لايهدأ بها بالٌ و لايقرّ لها قرارٌ إلاّ إذا ضُربت ضربات خفيفة أو شديدة حسب شدّة المرض أو ضعفه. و يعتبرُ هذا الضرب في حقّها طريقاً للعلاج النّفسي. يمكن القول بناءاً على هذا إنّ حكم الضرب في الآية الكريمة ينحصر في النساء اللواتى يرغَبن في الضرب كوسيلة

(٢) Mazokhism

تستخدم لاضفاء الهدوء و الاطمئنان عليهنّ. (مكارم شيرازي، ٣/ ٣٧٣).

هذا رأيٌ سديدٌ خاصّة و انّه مدعومٌ و مستندٌ بنظريّة نفسيّة جديدة إلاّ أنه لايتناسب مع عمومية حكم الضرب في الآية. فحكم الضرب في الآية يشمل جميع النساء و تخصيصه بالنساء المصابات بالمازوخية بحاجة إلى دليل هو مفقودٌ هنا.

و لألكسيس كارل في هذا المجال مقالة عجيبة تؤيّد النظرية السابقة إلى حدٍّ ما و هي: «ثمّة نساء يفضّلنَ الزواجَ مع رجال أقوياء أشدّاء يبادرون إلى ضرب زوجاتهنّ (سيّد قطب، ٢/ ٦٥٥).

٧. إنّ الذي سنّ حكمَ الضرب هو الله الخلاّق العليم الذي يحيط بكلّ أسرار الإنسان و رموزه فكلّ الأحكام التي شرعها الله تكون ذات مصالح قيّمة و مفيدة للإنسان و الأمة الإسلامية. فلابدّ أن يكون حكم الضرب متضمّناً لمصالح قيّمة أيضاً و إن كنّا جاهلين بهذه المصالح. (قطب، ٢٠/ ٦٥٥).

لا يخفى أنّ المفسّر الكبيرسيد قطب أغلقَ برأيه هذا بابَ النقاش لأنّه إذا ربطنا كلّ مسألة بعلم الله و حكمته إذن لايبقى مجالٌ للبحث و التحقيق و بالتالى لاتجُد هذه العلومُ فرصةً للنموّ و الازدهار. (الطباطبائى، ٤/ ٥٤٥).

فالمرأة و ما يتعلّق بها من أحكام كانت و لاتزال مجالاً خصباً للنقاش و الجدال. فكلّ عالمٍ و مفسّر قد أدلى بدلوه في هذا المضمار حتّى أدّى الأمرُ إلى ظهور آراء مختلفة و متضاربة. فلو كان باب البحث مسدوداً مغلقاً لما وصلت علومنا الدينية إلى هذا المستوى من النضج و الازدهار.

٨. هناك من العلماء و المفسّرين مَن ذهبَ إلى قول النسخ لحلّ مشكلة الآية و منهم سماحة آية الله معرفت حيث يقول: «إنّ حكم الضرب الموجود في الآية الكريمة منسوخة بسنّة المعصومين و سيرَهم النّيرة التي تؤكّد على سمّو شأن المرأة و كرامتها في الإسلام. فسنّة المعصومين قولاً و فعلاً و تقريراً حافلةٌ بما يدلّ على كرامة المرأة فإنّهم كانوا يحترمون المرأة و يكرّمون شأنها بنصائحهم القيّمة

و سلوكهم المُشرق فتكون سنّتهم الشريفة أسوة حسنة لنا في الحياة (معرفة، ١٣٨٢ ش، ص ٥٧٨) فنقول أولاً: نسخ القرآن بالسنة مما لايتّفق عليه علماء الإسلامية ثمّ أنّ النسخ يعطل حكم الآية و يَحرمُ الأمةَ الإسلامية من آثاره الإيجابية و فوائده الثمينة فلا يكون النسخ في الأولويّة ما دمنا نستطيع أن نمسك بوجوهٍ أقوى و أتقن. (مكارم شيرازي، ٢/ ٣٧٦).

٩. أوّل ما يتبادرُ إلى الذهن عند سماع كلمة «الضرب» هو الضرب بالخشب أو السّوط أو السّيف أو اللّكم أو الصّفقة و ماشابه ذلك من أنواع الضرب الأليمة و العنيفة التي تترك الجروحَ و الآلامَ و الإيذاء، عند المضروب بل ربّما تُودي بحياته لكنّ الضربَ الوارد في الآية الكريمة يختلف كثيراً عمّا ذكرنا من أنواع الضرب المبرّحة حسب ما نستفيده من الأحاديث و الروايات المأثورة من المعصومينﷺ. ذلك لأنّ الأخبار لم تُجوّز ضرب المرأة إلاّ بالأشياء التي لاتترك أيّ أثر سلبيٍّ عليها كالحمرة أو الإيلام أو الخدش ناهيك عن الجرح و الإهلاك. (الطباطبائى، ٤/ ٥٤٥) و من الطريف بمكانٍ أنّ الأحاديث ذكرت آلة السواك كوسيلة لضرب المرأة الناشزة التي لاتقبل النصح و الوعظ و الإرشاد. و آلة السواك هذه قطعةٌ صغيرة من الخشب الناعم مصقولةٌ تستخدَم لِتنظيف الأسنان و لاتُضرّ بالأسنان و اللثات لصغرها و نعومتها و صقلها. لايخفى أنّ الضربَ بهذه الآلة أشبه بالمداعبة منها إلى الضرب!. (الطوسى، ٣/ ١٩١، طبري، ٥/ ٤٤، سيوطي ٢/ ٥٢٢).

ربّما يكون أقرب إلى الصواب أن نقول إنّ الضرب المشروط بالشروط المذكورة يكون في الحقيقة رمزاً لإظهار السخط و الغضب تجاه المرأة الناشزة التي تمرّدت على زوجها أكثر ممّا يكون طريقاً للعقاب و المجازاة. من الواضح جدًّا أنّ الضرب الذي يتمّ بخشبٍ كخشب السواك لايُعقل أن يكون سبيلاً للمعاقبة.

و المعاقبة حسب ما يُفهم من معناها تتمّ باالأساليب العنيفة و الآلات القاسية التي تترك عادةً ما أثراً واضحاً على المرأة و لاينطبق هذا المعنى على الضرب الوارد في الآية و إذا كان الأمر كذلك فلا يكون هذا الضرب متنافياً مع كرامة المرأة. (فضل الله، ٧/ ٢٣٩).

و الوجه الذي ذكرناه آنفاً من أقوى الوجوه التفسيرية التي ذكرها المفسّرون لمعالجة شبهة «الضرب» و الوجه الذي يليه أيضاً من أحسن الوجوه و أتقنها.

١٠. يعتقد بعض المفسّرين أنّه من الممكن أن تكون كلمة «الضرب» في الآية الكريمة قد اُستعملت في المعنى المجازي (مغنية، ١٩٩٠ م، ٣/ ٤٣٠). و الذي حملَهم على الأخذ بهذا الوجه هو الاستعمال المكرّر لهذه الكلمة في القرآن الكريم على نحو المجاز و من جملتها:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾[سورة النحل: ٧٦] ﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[سورة النساء، ١٠١] ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ [سورة الزخرف: ٥]، ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾[سورة الرعد: ١٧]، ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [سورة النور: ٣١] ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا ﴾[سورة طه: ٧٧]، ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ [سورة البقرة: ٦١]. لو تأمّلنا في الآيات التي استخدمت فيها كلمة «الضَرب» استخداماً مجازيّاً لوجدنا أنّ هذه المعاني تشترك في معنى واحد ألا و هو.

«الانفصال و الابتعاد». فعلى سبيل المثال:

«ضربُ المَثَلِ للشيء» يعنى: إخراج و إبعاد الغموض عنه، «ضرب الحجر» يعنى: إخراج الماء منه» «الضرب في الأرض، يعنى: «الابتعاد و الانفصال بواسطة السّفر»، «ضرب الحقّ بالباطل و الفصل بينهما» يعنى: «تمييز الحق عن الباطل».

«ضرب الطريق في البحر» يعنى: «انشقاق البحر و اجتيازه».

من الجدير ذكره أنّ القرآن الكريم كلّما أرادَ استعمال كلمة «الضرب» في

معناها الحقيقي استعاضها و استبدلها بكلمة «الجلد» مثل»: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ... ﴾ [سورة النور: ٢] و الجَلد من الجِلد و هو البشرة التي تحسّ بالألم و الوجع. نأتي الآن إلى الآية الكريمة التي تأمر بالضرب و نقول إذا كانت كلمة الضرب فيها غير مستعملة في معناها الحقيقي شأن سائر مواردها في القرآن الكريم فماذا تعني يا تُرى الكلمة في آية الضرب؟!.

لقد أجابَ المفسّرون القائلون بالمعنى المجازي للضرب أنّ الكلمةَ تعطي ها هنا نفس المعنى الذي تعطيه في سائر الموارد و هو: الابتعاد و الانفصال. فالآية تأمرُ الرجلَ بترك امرأته و مغادرتها في البيت مدّة مّا تراجع فيها نفسَها و ضميرَها و تفكّر في سوء تصرّفاتها مع زوجها فتخاف من مغبّة نشوزها و تمرّدها على زوجها و هو الطلاق و تفكك أركان الأسرة و تلاشي كيانها و يُتم أولادها. و ربما يؤدّي بها الأمرُ إلى ترك النشوز و تفادي العصيان على زوجها فنعمَ المطولب (مغنية، ٣/ ٤٣٧).

ممّا يُقوي هذا الوجه أنّ الأمر بالضرب وليَ الأمَر بالهجر في المضجع و هذا التوالي إن دَلّ على شيءٍ فإنّه يدّل على أنّ الهجر و الضرب من سنخ واحدٍ إلاّ أنّ الثاني أشدّ و أخزى من الأول. لأنَّ تركَها لعدّة أيام (الضرب) أصعب عليها من هجرانها في المضجع كما أنّ الهجرَ في المضجع أصعب عليها من الوعظ. و في سِيرة النّبي الشريفة ما يؤيّد هذا الوجه التفسيري فحسبما ذكرته المصادر التاريخية في حياة النبيﷺ عند ما كان رسول اللهﷺ يرى من إحدى زوجاته ما لايُرضيه ينصُحها لِتكفَّ عن فعلتها فإذا لم تُجدِ النّصيحةُ نفعاً غادرَها في البيت و ذهبَ إلى موضع اسمه «مشربة» يُقيمُ به أيّاماً يخيّرُ امرأتَه في تلك الحقبة بين العودة إلى الصواب أو الطلاق (جوادي آملي، ١٣٨٣ ش، ص ٢٩١).

أضف إلى ذلك أنّ النّبي ﷺ كان يَنهى الرجالَ المسلمين من ضرب أزواجهم مهما كان سبب الضرب فكما ذُكر في كتب السيرة أنّهﷺ نهى أبا بكر و عمر عندما قاما بضرب بنتيهما اللتين كانتا

قد تشاجرتا مع زوجهما النّبيﷺ. سيرة النّبيﷺ و الأئمة المعصومينعليهم السلام، زاخرةٌ بطيب المعاملة و حسن العشرة مع النساء و هذا خيرُ دليل على أنّ الإسلام يرفض ضربَ الرجل امرأته مهما كان سبب الضرب. فالنبيﷺ فضلاً عن سيرته العمليّة كان يوصي بكلماته العطرة الرجالَ باحترام المرأة و توقيرها و هذه الأقوال الشريفة لهي خير شاهد على مكانة المرأة المرموقة في الإسلام: فكلمات النبيﷺ في المرأة نابضةٌ باللّطف و الحنان. فمن أجمل ما قاله النبيﷺ حول المرأة: «إنّي أحبُّ مِن دنياكم ثلاثة: الطيب و المرأة و قرّة عيني الصلاةَ (جوادي آملي، ١٣٨٨ ق، ٦/ ٣٦٩) ربّما تعني مقالة النّبيﷺ أنّ المرأةَ في لطفها و أُنسها و جمالها تُشبه الصلاةَ التي تكون محبوبةً من قلوب المسلمين و مأنوسةً لديهم.

و يقولﷺ أيضاً: «المرأةُ ريحانةٌ و ليست بقهرمانة» (المصدر السابق، ٦/ ٣٧٢).

فالرياحين تكون أجملَ ما خلقَ اللهُ في العالم فهي بجمال منظرها و طيب روائحها تُنعش الأرواحَ و تُريح النفوس و تملأ القلوبَ حُبّاً لخالقها: فالمرأة أيضا كائنٌ لطيف و جميل يشهد على جمال الخالق و لُطفه. فإنّها لو عوملت بقسوة و شقاء سرعانَ ما ذبُلت و افتقدت نضرتها و طراوتها شأنَ الزهرة التي لم تكد تُعامَل بعنف و غلظة حتّى ذوت و أصبحتَ هشيماً تذروه الرّياحُ. و لا يغيب عن بالنا أنّ الإسلامَ نشرَ هذه القيم الإنسانية في بيئة وحشية و جاهلية كان أبناءُها يتعاملون مع نسائهم أسوء مَعاملة فكانوا يعتبرون المرأةَ عاراً و خزيةً لابّد أن يتخلّصوا من شرها. فكانوا يقتلونها أو يدفنونها حيّةً دون رحمةٍ و لا إشفاق كما استنكرا القرآن الكريم هذه العادة الجاهلية السّيئة بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[سورة التكوير: ٢٨] و الموئودة من الوئد و هي تعني: «دفن البنت حية» (مصطفوي، ١٣٨٠ش، ٤/ ٢٨٠) و كانت تقوم بهذا الفعل الشفيع قبائل تعيش في العصر الجاهلي[٣]

(٣) سميّت فترة ماقبل الإسلام بالعصر الجاهلي

و يقول أيضاً: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [سورة النّحل: ٥٨ -٥٩] و لقد تربّت و نشأت في ظلّ الثقافة الإسلامية فيما بعد نساءٌ مؤمنات صالحاتٌ أصبحنَ مثالاً بارزاً لكلّ امرأة تُريد أن تعيشَ في عزّةٍ و كرامة و تربيّ في أحضانها رجالاً صالحين يساهمون في نشر الفضيلة و إذاعة العلم و الثقافة بين أبناء البشر. لقد صدقَ مَن قال: إنّ وراء كلّ رجلٍ ناجح امرأة ناجحة و ما أكثرَ الرجال الصالحين الّذين ربّتهم نساءٌ صالحاتٌ!.

٣. أهمّ النتائج التي توصَّلنا إليها في هذا البحث:

إنّ القرآن الكريم يحترم حقوق الإنسان و كرامته رجلًا كان أو امرأة: كرامة الإنسان من منظور الإسلام حصيلة الإيمان بالله و نتيجة التقوى و لافرق في هذا بينَ الرجل و المرأة. أنّ قوامية الرجل على المرأة لاتتنافى مع كرامة المرأة إذ أنّ القوامية هي مسئولية كبيرة و تكليفٌ شاقّ على عاتق الرجل و الذي يرشّحه للقيام بهذه المهمّة قدرته الجسميّة لمواجهة الصعوبات و الأخطار و وظيفته في تأمين المعاش و تكاليف الأسرة فإذا فاق الرجل المرأة في الطاقة الجسدية فالمرأة تفوقه في الحبّ و الحنان و هكذا فضّل اللهُ بعضَهم على بعضٍ ليتمَّ بهما الحياة السعيدة الراقية و أمّا فيما يتعلّقَ بحكم الضرب فقد ذهب المفسّرون الجدُد في توجيه ذلك مذاهب شَتّى تختلف قوّةً و ضعفاً و من أحسن هذه الوجوه التفسيرية و جهان:

١. الضرب لايجوز إلاّ بعد الوعظ و النصح و هجر المرأة في المضجعَ كما جاءَ في آية الضرب ثمّ أنّ الضرب لايجوز أن يتمّ بالآلات التي تترك الجرح و الحمرة، و الإيذاء على المرأة بل يلزم أن يتمّ بآلة تشبه خشب

لخلوّها من مظاهر الثقافة و الحضارة و انطواءها على أعمال وحشية و أفعال سيّئة تدل على بُعدها من أوصاف الأهم الراقية و المتحضّرة كالحلم و ضبط النفس و الصّبر و الأناة و الجاهلية تسمية قرآنية أطلقها القرآن الكريم على الآعراب التي تعيش قبل الإسلام نظراً لطبيعتها الجاهلية و القاسية. (مطهري، ١٣٦٩ ش، ص٣٠٨).

السواك من حيث الصغر و النعومة و الصقل حسبما جاء في الأخبار.

٢. كلمة «الضرب» استُعملت في الآيةِ على وجه المجاز شأن سائر الآيات التي استُخدمت فيها هذه الكلمة فالمعنى المجازي الذي تُفيده كلمة الضرب هو البُعد و الانفصال فإذا طبّقنا المعنى المجازيّ هذا على كلمة الضرب في الآية ٣٤ من سورة النساء يحصل للآية مفهوم جديد يتناسب مع الهجر الذي ذُكر قبل الضرب في الآيةً إلاّ أنّ الضربَ و هو البعد عن المرأة لعدة أيام أشدّ من هجرها في المضجع و لذلك أَمرت الآية بالضرب بعد ما أمرَ بالهجر في المضجع و لكنّ المعنى فيهما هو البُعد و الانفصال.

المصادر و المراجع:

القرآن الكريم.

١. ابن منظور، محمد بن مكرّم الأفريقي، لسان العرب، بيروت، دار الإحياء و للتراث العربي، ١٤٠٨ ق.

٢. أبو الفتوح رازي (حسين بن علي بن محمدبن احمد الخزاعي، تفسير أبوالفتوح رازي، قم، ١٤٠٤ ق.

٣. جوادي آملي، عبدالله، تسنيم، قم، مركز نشر إسراء، ١٣٨٥ ش.

٤. جوادي آملي، عبدالله، زن در آيينه جلال و جمال، قم، مركز نشر اسراء، ١٣٨٣ ش.

٥. جوادي آملي، عبد الله، كرامت در قرآن، قم، مركز نشر فرهنگى رجاء، ١٣٦٩ ش.

٦. الجوهري، اسماعيل بن حماد، الصحاح، تهران، انتشارات اميرى، ١٣٨٨ ش.

٧. سيّد قطب محمد، فى ظلال القرآن، بيروت، القاهرة، دار الشروق، ١٤١٢ ق.

٨. السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمان، الدر المنثور في التفسير المنثور، قم، منشورات مكتبة، آية الله العظمى المرعشي النجفي، ١٤٠٤ ق.

٩. ادقى تهرانى، محمد، الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، قم، انتشارات فرهنگ اسلامي، ١٣٦٥ ش.

١٠. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في

تفسير القرآن، قم، دفتر انتشارات اسلامي، جامعه مدرسين حوزه علميه قم، ١٣٧٤ ش.
١١. طبرسي، فضل بن حسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تهران، ناصرخسرو، ١٣٧٢ ش.
١٢. الطنطاوي، سيد محمد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، بيروت، عالم الكتاب، ١٤٠٨ ق.
١٣. الطوسي، أبوجعفر محمدبن الحسن، تفسير التبيان، نجف، مكتبة الأمين، ١٣٨١ش.
١٤. العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، تهران، المكتبة الإسلامية، ١٣٨٨ق.
١٥. قراءتي، محسن، تفسير نور، تهران، مركز فرهنگی درس هایی از قرآن، ١٣٨٣ ش.
١٦. المدرسي، محمد تقی، من هدي القرآن، (الترجمة بالفارسية)، مشهد، بنياد پژوهشهای اسلامی آستان قدس رضوی، ١٣٧٧ ش.
١٧. مصطفوي حسن، تفسير روشن، تهران، مركز نشر كتاب، ١٣٨٠ ش.
١٨. مطهري، مرتضى، نظام حقوق زن در اسلام، تهران، انتشارات صدرا، ١٣٦٩ ش.
١٩. معرفت محمد هادی، مجموعه مقالات اسلام و فمنيسم، تهران، دفتر نشر معارف، ١٣٨٢ ش.
٢٠. مغنية محمد جواد، تفسير الكاشف، بيروت، دارالعلم للملايين، ١٩٩٠م.
٢١. مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونه، تهران، دارالكتب الاسلامية، ١٣٧٤ ش.
٢٢. مهريزی مهدی، شخصيت و حقوق زن در اسلام، تهران، شركت انتشارات علمی و فرهنگی، ١٣٨٢ش.
٢٣. وكيلی، الهه، زن در آيينه قرآن، قم، مركز چاپ و نشر سازمان تبليغات اسلامی، ١٣٧٠ ش.
٢٤. http: // www. Library. concel. Edu / colldev. htm

مَفْهُومُ (إِلّا ما قَدْ سَلَفَ) في القُرآنِ المجيد

الشيخ الدكتور منصور مندور
من علماء الازهر الشريف
عضو الهيئة الاستشارية للمجلة

فحوى البحث

وردت عبارة (الا ما قد سلف) في القرآن المجيد وبالمفهوم نفسه في اربع مواضع:

- الآية الشريفة (٢٥٧) من سورة البقرة.
- الآية الشريفة (٢٢) و (٢٣) من سورة النساء.
- الآية الشريفة (٩٥) من سورة المائدة.

وقد عرض السيد الباحث لهذه المواضع في بحث استدلالي بروح سمحة تبسيطية مبتعداً عن المساجلات الفقهية والآراء الغريبة وبما اتفق عليه كل فقهاء المسلمين ومن دون ادنى خلاف بوصف العبارة مما يتفق والفطرة التي فطر الله -سحانه- عليها الانسان، وبما يعزز وحدة الرأي عند المذاهب الاسلامية في الأمور الفقهية التي وردت فيها نصوص صريحة من القرآن الكريم والسنة الشريفة.

تمهيد:

جاءت الدعوة الإسلامية وَالدُّنيا كاسِفَةُ النّورِ ظاهِرَةُ الغُرور، وكانت البشرية غارقةً في الظلام والشرور؛ فجاء الوحي الإلهي وشعاره: ﴿ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾، إنها مهمة الإسلام أن يخرج البشرية من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الشك إلى نور اليقين، ومن ظلمات الجَوْر إلى نور العدل، ومن نار العداوة إلى نور المحبة.

لقد كانت دعوة الإسلام دعوة إلى النور؛ أي أنها دعوة إلى العلم، وإلى الإنصاف، وإلى المحبة، وإلى الوحدة، وإلى العدالة، وهذه كلها أنوار في حياة المجتمعات البشرية.

والدنيا هي مزرعة الآخرة؛ فمن عاش فيها سويّاً مكتملَ الإيمان ملتزماً بأحكام الإسلام؛ سعد في الدارين، ومن عاش فيها على هواه يجري وراء شهواته ونزواته شقي ولم ينل منها إلا ما كتب الله له؛ تأمل هذه النهاية: ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٞ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴾[سورة هود: ١٠٥ -١٠٨].

الشيء اللافت للنظر في صياغة هذه العبارة أن لفظ «شَقُوا» في الآيات المتقدمة ورد بصيغة المبني للمعلوم، ولفظ «سُعدوا» ورد بصيغة المبني للمجهول، ولعلّ في هذا الاختلاف في التعبير إشارة لطيفة ودقيقة ينبغي الالتفات لها، وهي أنّ الإنسان يطوي طريق الشقاء رغبة منه بخُطاه، ولكن لا بُدَّ لطيّ طريق السعادة من الإمداد والعون الإلهي، وإلا فإنه لا يُوفَّق في مسيره.

أو على حد قول القائل:

اذا لم يكنْ عَونٌ من الله للفتَى

فأوّلُ ما يَجْني عليه اجتهادُهُ

وقد حملت الدعوة الإسلامية في طيّاتها التخفيف والرفق واللين لأتباعها ومعتنقيها من أهل الإسلام، وفرضت عليهم من الأحكام ما يضمن لهم حياة طيبة؛ قال تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن

ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[سورة النحل: ٩٧].

فمن الأصول التي بُنِيَتْ عليها الشريعة الإسلامية رفع الحرج عن المكلفين؛ فالشارع لم يكلف عباده بالشاق ولم يعنتهم في التكليف ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾[سورة البقرة: ٢٢٠].

فهذه الآية وما سبقها من آيات تدل على أن الله نفى الحرج عن الدين، ولم يُرد الله ليجعل على عباده من حرج، وأنه يريد اليسر بعباده، ويريد أن يخفف عنهم، ولا يكلفهم إلا ما في وسعهم. قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[سورة النساء: ٢٦ -٢٨].

وقد تضمنت الآيات أن جميع ما كلفهم به أمرًا أو نهيًا فهم مطيقون له قادرون عليه، وأن الله لم يكلفهم ما لا يطيقون، وأنهم في سعة ومنحة من تكاليفه، لا في ضيق وحرج ومشقة؛ فإن الوسع يقتضي أن ما كلفهم به مقدور لهم من غير عسر لهم ولا ضيق ولا حرج؛ لأن الله عز وجل لم يشرع حكمًا إلا وأوسع الطريق إليه، ويسره حتى لم يبق من دونه حرج ولا عسر؛ وفي الأحاديث النبوية ما يؤكد هذا المعنى فعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ للهِ بِهَا. متفق عليه".

وجه الدلالة من الأحاديث: في هذه الأحاديث بيان أن دين الله يُسر، وأن أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة، وأن النبي ﷺ إذا خير بين أمرين اختار أيسرهما مالم يكن إثمًا، والحرج يناقض اليسر، ويناقض الحنيفية السمحة، فإذا كان مناقضًا لها فهو مناقض للدين، ومناقض لما يحبه الله، والله لا يأمر به، والنبي ﷺ لا يختاره، وهو من أبعد الناس عنه، وكل أوامره يراعي فيها التوسيع على الأمة،

وعدم المشقة، لا يحب لهم المشقة أبدًا، ويحب لهم دائمًا التيسير عليهم، ولذلك جاءت شريعته سمحة سهلة.

ومما يؤكد أن هذه الشريعة جاءت برفع الحرج عن أتباعها؛ عند التأمل في القواعد الخمس الكبرى التي عليها مدار الفقه الإسلامي نجد أنها كلها تندرج تحت أصل رفع الحرج؛ فلا عمل من دون نية، ولو لم يتم اعتبار هذه النية لوقع الناس في حرج، فإعمال قاعدة «الأمور بمقاصدها» يرفع ذلك الحرج، وفي إعمال قاعدة «اليقين لا يزول بالشك» ثبات لحياة الناس بثبات اليقين، ولو زال اليقين بالشك لما استقرت حياتهم، ولوقعوا في حرج؛ لعدم ثبات الشكوك، وكثرتها، وكذلك في إعمال قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» حماية لحياة الناس من الضرر الذي يوقعهم في الحرج، إذن فرفع الحرج «من أعظم مقاصد التشريع؛ فقد جاءت الآيات القرآنية الدالة على رفع الحرج، والتيسير، والتخفيف، ونفي التكليف بما ليس في الوسع؛ كقول الله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾[سورة الحج: ٧٨].

إنه التكليف الإلهي المحفوف برحمة الله تعالى؛ وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وأحكامه وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته، ملحوظ فيه تلبيته تلك الفطرة وحاجاتها، وإطلاق هذه الطاقة بقدراتها، والاتجاه بها إلى البناء والتعمير والاستعلاء؛ فلا تبقى حبيسة القِدْر كالبخار المكتوم، ولا تنطلق انطلاق الحيوان الغاشم لا يدري ماذا يفعل!.

وهنا يتلألأ الإيمان في قلوب الصحابة فيسألون ويستفسرون عما أُحل لهم كما جاء في صدر سورة المائدة: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [سورة المائدة: ٤].

إن هذا السؤال: يسألونك ماذا أحل لهم؟. من الذين آمنوا؛ يصور الحالة النفسية لتلك الجماعة المختارة، التي سعدت بخطاب الله تعالى لها أول مرة، ويشي بما خالج تلك النفوس من التحرج

والتوقي من كل ما كان في الجاهلية؛ خشية أن يكون الإسلام قد حرمه، وبالحاجة إلى السؤال عن كل شيء للتثبت من أن المنهج الجديد يرتضيه ربّ العالمين ويقره ومن ثمّ يأتي الجواب واضحاً؛ قل: أحل لكم الطيبات... وهو جواب يستحق التأمل؛ إنه يلقي في حسهم هذه الحقيقة: إنهم لم يحرموا طيبا، ولم يمنعوا عن طيب؛ وإن كل الطيبات لهم حلال، فلم يحرّم عليهم إلا الخبائث؛ والواقع أن كل ما حرمه الله هو ما تستقذره الفطرة السليمة من الناحية الحسية. كالميتة والدم ولحم الخنزير والزنا والفواحش والقتل وغير ذلك مما ينفر منه القلب المؤمن كالذي أهل لغير الله به أو ما ذبح على النصب، أو كان الاستقسام فيه بالأزلام؛ وهو نوع من الميسر، وتأمل معي هذا الحوار، عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: يا رسول الله، أرأيت أشياء، كنت أتحنث بها في الجاهلية، من صدقة، أو عتاقة، وصلة رحم، فهل فيها من أجر؟. فقال النبيﷺ: (أسلمت على ما سلف من خير). [ش أخرجه مسلم في الإيمان، باب: بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده، رقم: ١٢٣.

فعبارة (على ما سلف) تعني: ما سبق منك من فعال حميدة مسجلة في صحيفة أعمالك وثابت لك أجرها عند من لا تغيب عنه غائبة في الأرض ولا في السماء؛ ويؤكد هذا المعنى ما جاء عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهّ قَالَ: قَالَ أُنَاسٌ لِرَسُولِ اللهّﷺ: يَا رَسُولَ اللهّ!. أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيّةِ؟. قَالَ: "أَمّا مَنْ أَحْسَنَ مِنْكُمْ فِي الإِسْلاَمِ فَلاَ يُؤَاخَذُ بِهَا. وَمَنْ أَسَاءَ أُخِذَ بِعَمَلِهِ فِي الْجَاهِلِيّةِ وَالإِسْلاَمِ". (صحيح البخاري: استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم وصحيح مسلم: كتاب الإيمان).

والناظر في تاريخ هذه الفترة يلمس ذلك التغيير العميق الذي أحدثه الإسلام في النفس العربية؛ لقد هزها هزًا عنيفًا نفض عنها كل رواسب الجاهلية، لقد أشعر المسلمين –الذين التقطهم من سفح الجاهلية ليرتفع بهم إلى القمة السامقة– أنهم يولدون من جديد، وينشأون من جديد. كما جعلهم يحسون إحساسًا عميقًا بضخامة النقلة، وعظمة الوثبة، وجلال المرتقى، وجزالة النعمة. فأصبح همهم أن

يتكيفوا وفق هذا المنهج الرباني الذي لمسوا بركته عليهم، وأن يحذروا عن مخالفته، وكان التحرج والتوجس من كل ما ألفوه في الجاهلية هو ثمرة هذا الشعور العميق، وثمرة تلك الهزة العنيفة.

وبعد هذه المقدمة التي طالت بعض الشيء نأتي لمفهوم (إلا ما قد سلف) حيث رفع سبحانه الحرج عن الأمة الإسلامية في مواطن عديدة وكثيرة.

فماذا يفعل الناس إذ جاءهم التكليف وهم واقعون في بعض المخالفات الشرعية أو أنهم قد ارتكبوا بعضها ولا يمكن إصلاحها.

ومن هنا يأتي التكليف الإلهي برفع الحرج عما قد سلف من تصرفات كانت تليق بالجاهلية لكنها لا تليق بالإسلام ولا تتفق مع طهارته وصفائه ونقائه.

معنى ومفهوم (سلف):

أولا: ما معنى سلف في اللغة؟.

السلف: يعني كلّ من تقدّم من الآباء وذوي القرابة في السنِّ أو الفضل، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾[سورة الزخرف: ٥٦].

وفي البقرة/ ٢٧٥ يقول تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

والسَّلَف الصَّالح: الآباء والأجداد المحترمون.

السَّلَف والخلف: أهل الإنسان الذين ينحدر منهم وذرِّيته التي تنحدر منه.

ومذاهب السَّلَف: مذاهب المتقدِّمين.

كلّ من شغل منصبًا قبل من يشغله حاليًّا يقال له: خيرُ خلف لخير سَلَف.

قال ابن منظور: «والسلف والسليف والسلفة: الجماعة المتقدمون.

والسَّلَفُ: جمعُ سالِفٍ.

وسلف الشّيء تقدّم وسبَق أي مضى وانقضى.

وسلَف له عملٌ صالح -كان ذلك في سالف الدهر -{عَفَا اللهُ عَما سَلَفَ}.

وقال ﷺ لحكيم بن حزام: [أسلمت على ما أسلفت من الخير]. سبق تخريجه.

ثانياً: مفهوم إلا ما قد سلف في القرآن المجيد!.

ونحن نتحدث عن مفهوم (إلا ما سلف) نجد أن:

هذه المادة (س ل ف) وردت في القرآن المجيد كما جاء في المعجم المفهرس (٨) مرات في (٧) سور من سور القرآن.

هي كالتالي:

وردت في سورة البقرة في الآية (٢٥٧).

وفي سورة النساء في الآية (٢٢) وفي الآية (٢٣).

وفي سورة المائدة في الآية (٩٥).

وفي الأنفال في الآية (٣٨).

وفي سورة يونس في الآية (٣٠).

وفي سورة الحاقة في الآية (٢٤).

وفي سورة الزخرف في الآية (٥٦).

في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ سورة البقرة.

وفي سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ سورة النساء.

وفي سورة المائدة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ سورة المائدة.

وفي سورة يونس في قوله تعالى:

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ سورة يونس.

وفي سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ سورة الأنفال.

وفي سورة الزخرف في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ سورة الزخرف.

وفي سورة الحاقة في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ سورة الحاقة "بما أسلفتم" قدمتم من الأعمال الصالحة. "في الأيام الخالية" أي في الدنيا.

والذي يعنينا هنا هو الحديث عن قول الله تعالى ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وقد ورد ذلك في القرآن المجيد في أربعة مواطن.

الموطن الأول: في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥].

الموطن الثاني: في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ٢٢].

والثالث: في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء: ٢٣].

الموطن الرابع: ورد في المائدة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

ومثل ذلك ورد في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

بيان ما قد سبق:

الموطن الأول: جاءت في سورة البقرة أثناء الحديث عن الربا وأثره السيئ على البشرية فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥] (فله ما سلف) أي ليس عليه ردّ ما أخذ من ربا قبل التحريم، أما الآن: وبعد ثبوت التحريم، فيجب عليه رد ما أخذه من زيادة لمن أخذه منه أو لورثته، وإن كان لا يعلمه، كمن يتعامل مع المصارف، فعليه أن يتصدق به في وجوه الخير ومصالح المسلمين، ولا يأكله لأنه كسب خبيث.

ومن رحمته سبحانه أن جعل سريان نظامه يبدأ مع ابتداء تشريعه؛ فمن سمع حكم ربه فاستجاب وانتهى عما هو واقع فيه فلا يسترد منه ما سلف أن أخذه من الربا وأمره فيه إلى الله عز وجل يحكم فيه بما يراه. . وهذا التعبيرله أهمته في تربية القلوب على منهج الله تعالى؛ فهو يوحي للقلب بأن النجاة من سالف هذا الإثم مرهونة بإرادة الله ورحمته؛ فيظل المرأ متوجساً خيفةً من الأمر حتى يقول لنفسه: كفاني هذا الرصيد من العمل السيىء، ولعل الله أن يعفو عني إذا أنا انتهيت وتبت، فلا أضف إليه جديدا بعد !.. وهكذا يعالج القرآن مشاعر القلوب بهذا المنهج الفريد. ومن ثم يأتي قوله سبحانه: ﴿وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهذا التهديد -بحقيقة العذاب في الآخرة-يؤكد ملامح المنهج التربوي الذي ربَّى القرآن المجيد أتباعه عليه.

الموطن الثاني: جاء في سورة النساء عند الحديث عن المحارم فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ٢٢] (ما قد سلف) أي في الجاهلية، فلا مؤاخذة عليه مع وجوب التفريق، وقد كان أكبر ولد الرجل يَخلُف على امرأة أبيه، وكان الرجل يَجمع بين

الأختَين، فنَهى -عزّ وجلّ- أن يكون منهم أحدٌ يجمع في عمره بين أختَين، أو ينكح ما نكح أبوه، إلا ما قد سلف في الجاهلية قبل عِلمهم بتحريمه.

قد ذُكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم كانوا يَخلفون على حلائل آبائهم، فجاء الإسلام وهم على ذلك، فحرم الله -تبارك وتعالى- عليهم المقام عليهنَّ، وعفا لهم عما كان سلف منهم في جاهليتهم وشِركهم مِن فعل ذلك، لم يؤاخذهم به، إن هم اتقوا الله في إسلامهم وأطاعوه فيه (تفسير الطبري) "جامع البيان" تحقيق شاكر (٨: ١٣٢).

قال ابن أبي حاتم: عن عدي بن ثابت، عن رجل من الأنصار، قال: توفي أبو قيس، وكان من صالح الأنصار، فخطب ابنُه قيس امرأتَه، فقالت: إنما أعدُّك ولدًا، وأنت من صالحي قومك، ولكن آتي رسول الله ﷺ فأستأمِره، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أبا قيس توفي، فقال خيرًا، إن ابنه قيس خطبني وهو من صالحي قومه، وإنما كنتُ أعدُّه ولدًا، فما ترى؟. قال لها: ((ارجعي إلى بيتك)).

قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾(تفسير ابن أبي حاتم)، (٣: ٩٠٩).

والمعنى: لا تعقدوا النكاح على من عقد عليها النكاح آباؤكم من الأب أب الصلب أو الأجداد الذين فوقه سواء كانوا من قبل الأم أو من قبل الأب فلا يجوز للرجل أن يتزوج مَنْ عقد عليها أبوه أو جده سواء كان جده من قبل الأب أو من قبل الأم وقوله تعالى﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يعني لكن ما قد سلف في الجاهلية من هذا الفعل فإنه معفو عنه.

وهذا استثناء منقطع، أي لكن ما قد سلف فاجتنبوه ودعوه.

وقيل: «إلا» بمعنى بعد، أي بعد ما سلف؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[سورة الدخان: ٥٦] أي بعد الموتة الأولى.

وقيل: «إلا ما قد سلف» أي ولا ما سلف؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾[سورة النساء: ٩٢] يعني ولا خطأ.

وقيل: في الآية تقديم وتأخير، معناه: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا إلا ما قد سلف.

وقيل: في الآية إضمار لقوله «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء» فإنكم إن فعلتم تعاقبون وتؤاخذون إلا ما قد سلف. (الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي) فالاستثناء عن الإثم لا عن جواز الفعل.

وخلاصة هذا الموضوع أن امرأة الأب في مكان الأم، فلا يتصور أن يخلف الابن أباه؛ فيصبح في خياله ندا له، وغالباً ما يكره الزوج زوج امرأته الأول فطرة وطبعا، فيكره أباه ويمقته!. وهو معنى كريه يهبط بإنسانية المرأة والرجل سواء؛ ومن ثم جعل الإسلام هذا العمل شنيعا غاية الشناعة، جعله فاحشة، وجعله مقتا: أي بغضا وكراهية، وجعله سبيلا سيئا إلا ما كان قد سلف منه في الجاهلية، قبل أن يرد في الإسلام تحريمه. فهو معفو عنه متروك أمره لله سبحانه.

الموطن الثالث: وجاء في الآية التي تليها ذكر السلف مرة أخرى في موضوع الجمع بين الأختين، قال تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ومعناه أن الله حرم المسلمين أن يجمع أحدهم بين الأختين من نسب أو رضاع (إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ) يعني لكن ما قد سلف لكم في الجاهلية فلا حرج عليكم فيه، والجمع بين الأختين محرم.

وقد يكون الجمع على صورتين:

الأولى: أن يتزوجهما في عقد واحد؛ بأن قال أبوهما: زوجتك ابنتيَّ. فكلا العقدين باطل.

الثانية: أن يسبق أحدهما الآخر فالعقد السابق هو الصحيح والثني باطل؛ فلو زوج الولي ابنته رجلا في أول النهار ثم زَوَّجَهُ أختها في آخر النهار مع بقاء الأولى فنكاح الثانية باطل.

وكذلك لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها فهؤلاء ثلاث لا يجمع بينهن الأختان والعمة وبنت أخيها والخالة وبنت أختها، وما عدا ذلك من الأقارب فإنه يجوز الجمع بينهن؛ فيجوز الجمع بين ابنتي العم وبين ابنتي الخالة، لكن لا ينبغي

أن يجمع بين القريبات لان ذلك قد يفضي إلى قطيعة الرحم بينهما؛ إذ إن المعروف عادة أن الضرة تغار من ضرتها ويحصل بينهما عداوة وبغضاء.

فعن ابن شهاب: أن عروة عن الزبير أخبره: أن زينب بنت أبي سلمة أخبرته: أن أم حبيبة قالت: قلت: يا رسول الله، انكحْ أختي بنت أبي سفيان، قال: (وتحبين). قلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي، فقال النبيﷺ: (إن ذلك لا يحل لي). قلت: يا رسول الله، فوالله إنا لنتحدث أنك تريد أن تنكح درة بنت أبي سلمة، قال: (بنت أم سلمة؟.). فقلت: نعم، قال: (فوالله لو لم تكن في حجري ما حلت لي، أنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن). (صحيح البخاري كتاب النكاح وصحيح مسلم كتاب الرضاع).

وهنا ينبغي الإشارة إلى أن هذه المحرمات كانت محرمة في عرف الجاهلية- فيما عدا حالتين اثنتين: ما نكح الآباء من النساء، والجمع بين الأختين، فقد كانتا جائزتين -على كراهة من المجتمع الجاهلي ولكن الإسلام -وهو يحرم هذه المحارم كلها -لم يستند إلى عرف الجاهلية في تحريمها؛ إنما حرمها ابتداء مستندا إلى سلطانه الخاص. ومن ثم جاء النص بهذا الوضوح حماية للأسرة المسلمة.

الموطن الرابع: جاءت في سورة المائدة عند الحديث عن آداب الإحرام وما ينبغي على المحرم أن يلتزم به أثنا تأدية فريضة الحج أو العمرة فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴾.

ومعنى (سلف) هنا: أي من قتل الصيد قبل تحريمه؛ فالنهيُ منصبٌ على قتل المحرم للصيد عمدًا، فأما إذا قتله خطأ فلا إثم عليه ولا كفارة، فإذا كان القتل عمدًا فكفارته أن يذبح بهيمة من الأنعام من مستوى الصيد الذي قتله؛ وينص السياق القرآني على حكمة هذه الكفارة؛

﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ﴾.

ففي الكفـارة معنى العقوبة، لأن الذنب هنا مخلٌ بحرمة المكان والزمان؛ لذا يشدد فيها الإسلام تشديدًا كبيرًا؛ لذلك يعقب عليها بالعفو عما سلف والتهديد بانتقام الله ممن لا يكف ولا ينزجر ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ فإذا اعتز قاتل الصيد بقوته وقدرته على نيل هذا الصيد الذي أراد الله له الأمان في مثابة الأمان فالله هو العزيز القوي القادر على الانتقام!.

جاءت هذه المرة في أثناء الحديث عن الكفر والكفار مبينًا أن الفرصة ما زالت أمامهم سانحة لترك ظلمات الكفر والدخول في نور الإيمان؛ فقال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ سورة الأنفال.

وهنا يتجه القرآن المجيد بالخطاب إلى رسول الله ﷺ لينذر الكافرين إنذاره الأخير؛ وهو إنذار يفتح لهم باب الأمل بالتجاوز عما سلف؛ قل للذين كفروا -في ضوء ما سبق من قرار الخالق الجبار عن خيبتهم في جمعهم، وحسرتهم على ما أنفقوا، وصيرورتهم بعد الخزي والحسرة في الدنيا إلى أن يراكم الخبيث منهم على الخبيث فيجعل الخبيث كله في جهنم..

فالفرصة أمامهم سانحة لينتهوا عما هم فيه من الكفر، ومن التجمع لحرب الإسلام وأهله، ومن إنفاق الأموال للصد عن سبيل الله. . والطريق أمامهم مفتوح ليتوبوا عن هذا كله ويرجعوا إلى الله، ولهم عندئذ أن يغفر لهم ما قد سلف.

فالإسلام يَجُبُّ ما قبله، ويدخله الإنسان بريئاً من كل ما كان قبله كما ولدته أمه. . فأما إن هم عادوا -بعد هذا البيان -إلى ما هم فيه من الكفر والعدوان فإن سنة الله في الأولين لا تتخلف. ولقد مضت سنة الله أن يعذب المكذبين بعد التبليغ والتبيين، وأن يرزق أولياءه النصر والعز والتمكين.. وهذه السنة ماضية لا تتخلف.. وللذين كفروا أن يختاروا وهم على مفرق الطريق!.

وفي الختام أقول:

إن نظرية الإسلام في الحل والحرمة تشمل كل شيء في الحياة الإنسانية، ولا

يخرج عن نطاقها شيء في هذه الحياة الدنيا؛ إنه ليس لأحد غير الله أن يحل أو يحرم؛ في نكاح، ولا في طعام، ولا في شراب، ولا في لباس، ولا في عمل، ولا في عقد، إلا أن يستمد سلطانه من الله؛ حسب شريعة الله.

إن هذا الدين يقرر أن التحليل والتحريم هو من شأن الله وحده، لأنهما أخص خصائص الألوهية فلا تحريم ولا تحليل بغير سلطان من الله، فالله -وحده- هو الذي يحل للناس ما يحل، ويحرم على الناس ما يحرم، وليس لأحد غيره أن يشرع في هذا وذاك، وليس لأحد أن يدعي هذا الحق، لأن هذا مرادف تماما لدعوى الألوهية!.

إن العقيدة الإيمانية هي وحدها التي ترفع النفوس، وترفع الاهتمامات، وترفع الحياة الإنسانية عن نزوة البهيمة، وطمع التاجر، وتفاهة الفارغ!.

وبهذا ينتشل الإسلام أتباعة من الدرك الهابط ومن الجاهلية إلى تلك العلاقة إلى ذلك المستوى العالي الكريم اللائق بكرامة بني آدم؛ الذين كرمهم الله وفضلهم على كثير من العالمين.

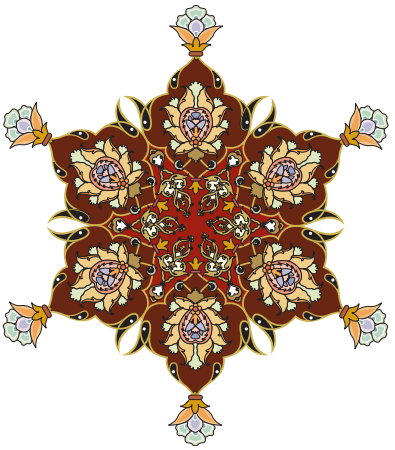

عَطْفُ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ في القُرآنِ الكَرِيمِ

أ.د. وائل عبد الأمير الحربي
كلية الآداب-جامعة بابل

فحوى البحث

مَوضُوعُ البحث هَذَا هُو صُورَةٌ مِن صُوَرِ القِرَاءَةِ الفَاحِصَةِ عِندَ عُلَمَائِنَا السَّابِقِينَ، إذ لَفَتَ نظر الباحث في أَثْنَاءِ قراءته في بَعضِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ إِشَارَاتُهم المتَفَرِّقَةُ إِلَى هَذَا الموضُوعِ، وَلَمَّا لَم يجد مَن سَلَّط الضَّوْءَ عَلَيه- عَلى حَدِّ علمه- عمد إِلَى جَمْع هَذِه الإِشَارَاتِ المتَفَرِّقَةِ، واعاد تَرْتِيبَهَا وَتَشذِيبَهَا، وَقَدَّم لَهَا بِمُقدِّمَةٍ مُوجَزَةٍ، يحتاج اليها البحث لِبيَانِ مَوقِعِ هَذِه الظَّاهِرَةِ مِن الأَنمَاطِ التَّركِيبيَّةِ الأُخرَى، عَن العَطفِ في اللُّغَةِ وَالاصْطِلَاحِ وَأَنمَاطِهِ التَّركِيبيَّةِ الَّتي حَدَّدَهَا النَّحوِيُّونَ، ثُم عَرَض هَذَا الموضُوعَ بَدْءًا بِالإِشَارَاتِ الأُولَى وَمَا تَلاهَا، وَشَفَعْهَا بِنَمَاذِجَ كَاشِفَة لِهَذا الأُسلُوبِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، بِالاسْتِنَادِ، فِي كُلِّ هَذَا، إِلَى أَقوَالِ عُلَمَاءِ العَرَبِيَّة وَالمفَسِّرِينَ، تَجلِيَةً لِلظَّاهِرَةِ وَتَثْبِيتًا لِلفِكْرَةِ.

تَرَكَ اللُّغَوِيُّونَ العَرَبُ القُدَامَى تُرَاثًا لُغَوِيًّا ضَخمًا في قِـراءَةِ النَّصِّ الـقـرآنيِّ الكَرِيم، امْتَازَ بِالتَّنَوُّعِ وَالشُّمُولِ، وَقَد أَحَاطَتْ هَـذِه الـقِـرَاءَةُ التُّراثِيَّةُ بِالنَّصِّ القُرآنيِّ مِن زَوَايَاهُ المُخْتَلِفَة، بَدءًا بِالصَّوتِ اللُّغَوِيِّ؛ فَوَصَفُوا صِفَتَه وَمَخرَجَه وَأَثَرَه وَتَأَثُّرَه، وَدَرَسُوا الكَلِمَةَ وَحَلَّلُوهَا صَرْفِيًّا مُعَالِجِينَ مَا يُصِيبُهَا مِن تَغَيُّرَاتٍ، ثُمَّ انْتَقَلُوا إِلَى دِرَاسَةِ التَّركِيبِ وَأُسُسِ تَحلِيلِه وَإِعرَابِه وَكَشَفُوا عَن جَمَالِيَّاتِه المُخْتَلِفَة، وَحَظِيتِ الدَّلالَةُ بِاهْتِمَامٍ كَبِيرٍ مِنهُم تَجَلَّى بِالتَّفَاسِيرِ الَّتِي تَنَاوَلَت المَعْنَى وَإِشْرَاقَاتِه المتَنَوِّعَة.

وَمَـوضُـوعُ بَحْثِنَا هَـذَا هُـو صُـورَةٌ مِن صُوَرِ القِرَاءَةِ الفَاحِصَةِ عِندَ عُلَمَائِنَا السَّابِقِينَ، إِذ لَفَتَ نَظَرِي فِي أَثْنَاءِ قِرَاءَتِي فِي بَعضِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ إِشَارَاتُهم المتَفَرِّقَةُ إِلَى هَذَا الموضُوعِ، وَلَمَّا لَم أَجِد مَن سَلَّطَ الضَّوْءَ عَلَيه- عَلَى حَدِّ عِلمِي -عَمَدْتُ إِلَى جَمْعِ هَذِه الإِشَارَاتِ المتَفَرِّقَة، وَأَعَدْتُ تَرْتِيبَهَا وَتَشذِيبَهَا، وَقَدَّمْتُ لَهَا بِمُقدِّمَةٍ مُـوجَـزَةٍ، وَجَـدْتُ أَنَّ البَحْثَ يَحتَاجُهَا لِبيَانِ مَوقِعِ هَـذِه الظَّاهِرَةِ مِن الأَنـمَاطِ التَّركِيبِيَّةِ الأُخرَى، عَنِ العَطفِ فِي اللُّغَةِ وَالاصْطِلَاحِ وَأَنمَاطِهِ التَّركِيبِيَّةِ الَّتِي حَدَّدَهَا النَّحوِيُّونَ، ثُم عَرَضتُ هَذَا الموضُوعَ بَدْءًا بِالإِشَارَاتِ الأُولَى وَمَا تَلاهَا، وَشَفَعْتُهَا بِنَمَاذِجَ كَاشِفَةٍ لِهَذَا الأُسلُوبِ فِي القُرآنِ الكَرِيم، بِالاسْتِنَادِ، فِي كُلِّ هَذَا، إِلَى أَقوَالِ عُلَمَاءِ العَرَبِيَّةِ وَالمفَسِّرِينَ، تَجلِيَةً لِلظَّاهِرَةِ وَتَثْبِيتًا لِلفِكْرَةِ.

العَطْفُ فِي العَرَبِيَّةِ:

تَذكُرُ المعجَمَاتُ اللُّغَوِيَّةُ لِمَادَّةِ (عطف) فِي اللُّغَةِ مَعَانِيَ عِدَّة، مِنهَا: الإِمَالَة وَالثَّنْي وَالـلَّـيّ وَالـعَـودَة وَالـرُّجُـوعُ والإِشـفَـاق وَالحَدَبُ وَالحِنْو وَالعُكُوفُ وَالكَرّ[1].

وَقَد أَرْجَعَ ابْنُ فَارِس (ت٣٩٥هـ) هَذِه الدَّلالاتِ إِلَى أَصلٍ وَاحِدٍ هُو: الثَّنْيُ وَالإِمَالَة وَالانْعِيَاج[2]، وَلا شَكَّ فِي أَنَّ

(١) ينظر (عطف) في: كتاب العين: ٢/ ١٧، وجمهرة اللُّغة: ٢/ ٩١٤، ومعجم ديوان الأدب: ٢/ ١٧٣، وتهذيب اللُّغة: ٢/ ١٠٦، والصِّحاح: ٤/ ١٤٠٥، والمحكم: ١/ ٥٥١، وأساس البلاغة: ١/ ٦٦٢، ولسان العرب: ٩/ ٢٤٩ -٢٥٠، وتاج العروس: ٢٤/ ١٦٥ -١٦٧، ومعجم متن اللغة ٤/ ١٣٦، والمعجم الوسيط: ٢/ ٦٠٨.

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللُّغة، (عطف): ٤/ ٣٥١.

الصِّلَةَ بَينَ جَذرِ الكَلِمَةِ وَمَعنَى الإِمَالَة وَالثَّنيِ وَثِيقَةٌ[٣].

وَالعَطْفُ عِندَ النَّحوِيِّينَ أَحَدُ التَّوَابِعِ، وَيُطلَقُ عَلَى نَوعَيْنِ، أَحَدهمَا: عَطْفُ النَّسَقِ، وَهُوَ العَطفُ بِالحَرفِ، وَعَلَيْهِ مَدَارُ بِحْثِنَا هَذَا، وَالآخَر: عَطفُ البَيَانِ.

وَيُعرِّفُ النَّحوِيُّونَ العَطْفَ بِالحَرْفِ بِتَعرِيفَاتٍ عِدَّةٍ، مِن أَهَمِّهَا وَأَكثَرِهَا وُضُوحًا تَعرِيفُ ابنِ الحَاجِبِ (ت٦٤٦هـ) لِلْعَطْفِ بِأَنَّه: ((تَابِعٌ يَتَوسَّطُ بَينَه وَبَينَ مَتبُوعِه أَحَدُ الحُرُوفِ العَشَرَة))[٤]. وَتَعرِيفُ الرَّضِيِّ الاستِرَابَادِيِّ (ت٦٨٦هـ) لَه بِأَنَّه: ((تَابِعٌ يَتَوَسَّطُ بَينَه وَبَينَ مَتبُوعِه أَحَدُ الحُرُوفِ العَشَرَة))[٥].

وَمِمَّا يُسَهِّلُ تَحدِيدَ بَابِ العَطفِ عَلامَتُهُ الَّتِي تَتَمَثَّلُ بِوُجُودِ أَحَدِ حُرُوفِ العَطْفِ، لِذَا ذَهَبَ أَبُو حَيَّان الأَندلُسِيّ (ت٧٤٥هـ) إِلَى أَنَّه لا يَحتَاجُ إِلَى تَعرِيفٍ؛ قَالَ: ((تَابِعٌ بِأَحَدِ الحُرُوفِ، وَلا يَحتَاجُ إِلَى حَدٍّ))[٦].

وَيُعَدُّ مُصطَلَح (العَطف) مِن مُصطَلَحَاتِ البصرِيِّينَ، فِي حِين يَستَعمِلُ الكُوفِيُّونَ فِي مُقَابِلِه مُصطَلَحَ (النَّسَق)؛ قَالَ ابنُ يَعِيش (ت٦٤٣هـ): ((العَطفُ مِن عِبَارَاتِ البصرِيِّينَ، وَالنَّسَقُ مِن عِبَارَاتِ الكُوفِيِّينَ))[٧].

وَقَد كَانَ سِيبَوِيه (ت١٨٠هـ) يُعَبِّرُ عَنهُ بِالعَطفِ تَارَةً وَبِالشِّرْكَةِ تَارَةً[٨].

وَقَد وَقَف ابنُ السَّرَّاج (ت٣١٦هـ) عِندَ أُسلُوبِ العَطفِ وَعَلَّلَه بِأَنَّه نَاتِجٌ مِن الحَاجَةِ إِلَيه بِسَبَبِ اخْتِلافِ الأَسْمَاء، قَالَ: ((وَإِنَّمَا احْتِيجَ إِلَى العَطْفِ لاخْتِلافِ الأَسمَاء، تَقُولُ: جَاءَنِي زَيدٌ وَعَمرٌو لَمَّا اختَلَفَ الاسمَانِ وَلَو كَانَ اسمُ كُلٍّ وَاحِدٍ

(٣) ينظر: شرح المفصَّل: ٥/ ٣، وحروف العطف بين الدَّرس النَّحويِّ والاستعمال القرآنيِّ: ٣٢.

(٤) أمالي ابن الحاجب: ٢/ ٦٠٨-٦٠٩. وينظر: شرح الرَّضيِّ على الكافية: ٢/ ٣٣١.

(٥) شرح الرَّضيِّ على الكافية: ٢/ ٣٣٢. وينظر: أوضح المسالك: ٣/ ٣١٧، وشرح التَّصريح: ٢/ ١٥٣، والنَّحو الوافي: ٣/ ٥٥٥.

(٦) ارتشاف الضَّرَب: ٤/ ١٩٧٥.

(٧) شرح المفصَّل: ٢/ ٢٧٦. وينظر: ارتشاف الضَّرَب: ٤/ ١٩٧٥.

(٨) ينظر: كتاب سيبويه، العَطْف في: ١/ ٢٩٩، ٢/ ١٩٤، ٣/ ٤١، والشِّركَة في: ١/ ٦٠، ٣/ ٣٢، ٣/ ٥٠٢.

منهُمَا عَمْرًا لَقُلْتَ: جَاءَنِي العَمْرَانِ))[٩].

وَهُو تَعليلٌ عَقليٌّ يُحَاولُ تَفْسيرَ الوَاقعِ اللُّغَويِّ، وَلَا يُقَدِّمُ مِثْلَ هَذَا التَّعْليلِ فِي دِرَاسَةِ اللُّغَاتِ أَسَاسًا لُغَويًّا مُنْتِجًا.

وَحُرُوفُ العَطْفِ فِي العَرَبِيَّةِ، عَلَى مَا هُوَ مَشْهُورٌ، عَشَرَةٌ، وَهِيَ: الوَاو، وَالفَاء، وَثُمّ، وَأَو، وَلَا بَعْدَ الإِيجَابِ، وَبَل، وَلَكِنْ الْخَفِيفَة بَعْدَ نَفْيٍ أَو نَهْيٍ، وَأَم، وَإِمَّا مَكْسُورَة مُكَرَّرَة، وَحَتَّى[١٠].

وَقَد دَرَسَ بَعضُ المعَاصِرِينَ العَطْفَ فِي العَرَبِيَّةِ، وَعَالَجُوا كَثِيرًا مِن جَوَانِبِه وَمَسَائِله، فَظَهَرتْ، فِي الْعَصْرِ الحَدِيثِ، دِرَاسَاتٌ مُهِمَّةٌ تَنَاوَلَت هَذَا البَابَ، وَمِنهَا: كِتَابُ أَسَاليب العَطفِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، للدّكتُورِ مُصطَفَى حميدَة، وَكِتَاب حُرُوف العَطفِ بَينَ الدَّرسِ النَّحويِّ وَالاستعمَالِ القُرآنيِّ، للدّكتُور عَبد السَّتَّار مَهدِي عَليّ، وَكِتَاب بَلاغَة العَطْفِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ: دِرَاسَة أُسلُوبيَّة للدّكتُور عِفّت الشَّرقَاوِيّ، وَغَيرهَا مِن الدِّرَاسَاتِ[١١].

أَنمَاطُ العَطْفِ فِي الجُملَةِ العَرَبِيَّة:

وَمِن المهِمِّ، هُنَا، أَن نَقِفَ عَلَى الأَنمَاطِ التَّركِيبِيَّةِ للعَطفِ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّـــــة، وَذَلِكَ بِحَسبِ نَوعِ المتَعَاطِفَين، أَي نَوع المعطُوف وَالمعطُوف عَلَيه، مِن حَيثُ كَونُهُمَا اسمًا أَو فِعلا أَو جُمْلَة أَو غَير ذَلِكَ؛ فَقَد نَبَّهَ النُّحَاةُ القُدَمَاءُ عَلَى تَنَوُّعِ الأَنمَاطِ التَّركِيبِيَّةِ لأُسلُوبِ العَطفِ فِي العَرَبِيَّة، فَقَد جَعَلَ الزَّمَخشَرِيُّ (ت٥٣٨هـ) العَطفَ عَلَى ضَربَيْن، قَالَ: ((العَطفُ عَلى ضَربَين: عَطف مُفرَد وَعَطف جُملَة

(٩) الأُصُول في النَّحو: ١/ ١٨٥. وينظر: البديع في علْم العربيَّة: ١/ ٣٤١.

(١٠) ينظر: المقتضب: ١/ ١٠، والأُصُول في النحو: ٢/ ٥٥، واللُّمع في العربيَّة: ٩١، وشرح المقدّمة المحسبة: ١/ ٢٥٨، وشرح المفصَّل: ٥/ ٤، وشرح الرَّضيِّ على الكافية: ٤/ ٣٨١، وشرح التَّسهيل: ٣/ ٣٤٣، وارتشاف الضَّرَب: ٤/ ١٩٧٥، والنَّحو المصفَّى: ٦٠٨، وحروف العطف بين الدَّرس النَّحويِّ والاستعمال القرآنيِّ: ٣٧.

(١١) مثل كتاب: من أسرار حروف العطف في الذِّكر الحكيم للدُّكتور محمد الأمين الخضريّ. ودُرس العطف ضِمنًا أَيضًا في: التَّوابع في النَّحو العربي للدكتور محمود سليمان ياقوت، والتَّوابع والأساليب النَّحويَّة للدكتور حسن محمد نور المبارك، والتَّوابع في كتاب سيبويه للدُّكتور عدنان محمد سلمان.

عَلَى جُملَة))[١٢]. في حِين جَعَل ابْنُ يَعِيش العَطفَ ثَلاثَةَ أَضرُب، قَالَ: ((واعلَم أَنَّ العَطفَ عَلى ثَلاثَةِ أَضرُب: عَطفُ اسم عَلَى اسم إِذَا اشْتَرَكَا في الحَال، كَقَولِك: قَامَ زَيدٌ وعَمرٌو،... ، وعَطْفُ فعل عَلَى فعل إِذَا اشْتَرَكَا في الزَّمَان، كَقَولِكَ: قَامَ زَيدٌ وَقَعَد،... ، وَعَطْفُ جُملَة عَلَى جُملَة، نَحوُ: قَامَ زَيدٌ، وَخَرَجَ بَكرٌ، وَزَيدٌ مُنطَلِقٌ، وَعَمرٌو ذَاهِبٌ))[١٣]. وَبيَّن ابنُ يَعِيش أَنَّ المرَادَ من عَطْفِ الجُملَة عَلَى الجُملَة هُوَ رَبْطُ إِحدَى الجُملتَيْن بِالأُخرَى، وَالإِيذَانُ بِحُصُولِ مَضمُونِ الجُملتَين، حَتَّى لا يَظُنّ المخَاطَبُ أَنَّ المرادَ الجُملَةَ الثَّانِيَةَ، وَأَنَّ المتَكَلِّمَ ذَكَرَ الأُولَى غَلَطًا، مِمَّا يُسَاعِدُ في إِزَالَة هَذَا التَّوَهُّم من ذِهْنِ المخَاطَب[١٤].

وَتَحتَ هَـذِهِ التَّصنِيفَاتِ الأَسَاسِيَّةِ هُنَاكَ تَصنِيفَاتٌ فَرعِيَّةٌ أُخرَى[١٥]، بِحَسبِ نَوعِ المفْرَدِ أَو نَوعِ الجُملَة. وَيُمكِنُنَا تَجرِيدهَا عَلَى النَّحوِ الآتِي:

١. عَطْف الظَّاهِر عَلَى الظَّاهِر، يُعطَف الاسمُ الظَّاهِر عَلَى الاسم الظَّاهِر، كَمَا في نَحو: رَأَيتُ مُحَمَّداً وَزُهَيراً.

٢. عَطْف المضمَر عَلَى المضمَر، وَيُعطَف الضَّمِيرُ عَلَى الضَّمِير، كَمَا في نَحو: أَنَا وَأَنتَ صَدِيقَان.

٣. عَطْف المضمَر عَلَى الظَّاهِر، وَيُعطَف الضَّمِيرُ عَلَى الاسم الظَّاهِر، كَمَا في نَحو: جَاءَ عَلِيٌّ وَأَنتَ.

٤. عَطْف الظَّاهِر عَلَى المضمَر، يُعطَف الاسمُ الظَّاهِرُ عَلَى الضَّمِير، مِثل: مَا جَاءَنِي إِلَّا أَنتَ وَعَلِّي. وَلِلنَّحوِيِّينَ، هُنَا، مَسَائِلُ وَتَفرِيعَاتٌ في دِرَاسَة العَطف عَلَى الضَّمَائِر، بِحَسب نَوع الضَّمِير، ضَمِير رَفْع أَو نَصْب أَو جَرٍّ.

٥. عَطْف الفِعل عَلَى الفِعل: يُعطَفُ الفِعلُ عَلَى الفِعل، في العَرَبِيَّة، بِشَرط أَن يَتّحِدَ الفِعلان في الزَّمَان، نَحو قَولِه تَعَالَى: ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ [سورة محمَّد: ٣٦].

٦. عَطْف الفِعل عَلَى اسمٍ يُشْبِهُهُ، فَقَد

(١٢) المفصَّل في صنعة الإعراب: ٤٠٣. وينظر: شرح كتاب سيبويه للرّمّاني: ٦٦١، والبديع في علْم العربيَّة: ١/ ٣٧٤، وتوجيه اللُّمع: ٥١٦، والفصول المفيدة: ٥٥.

(١٣) شرح المفصَّل: ٥/ ٥.

(١٤) ينظر: شرح المفصَّل: ٥/ ٥-٦، والبديع في علْم العربيَّة: ١/ ٣٧٤-٣٧٥.

(١٥) ينظر: شرح الرَّضِي على الكافية: ٢/ ٣٥٤.

يُعطَفُ الفعلُ عَلَى الاسم الْمُشْبِه للفعلِ في المعنَى، كَاسْم الفَاعِلِ، وَاسم المفعُولِ، وَالصِّفَةِ المشَبَّهَة، كَمَا في قَولِه تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[سورة الحديد: ١٨]، فَقَد عُطِفَ الفعلُ (أَقْرَضُوا) عَلَى اسْمِ الفَاعِلِ (الْمُصَّدِّقِينَ)[١٦].

٧. عَطْف الاسم الْمُشْبِه للفعلِ عَلَى الفعلِ، نَحو قَولِه تَعَالَى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [سورة الأنعام: ٩٥].

٨. عَطْف الْمُضَارِعِ عَلَى المصدَرِ الصَّرِيحِ، نَحو: الصَّبرُ وَأُدْرِكُ غَايَتِي خَيرٌ من الرَّاحَةِ مَعَ الفَشَلِ[١٧].

٩. عَطْف جُملَةٍ فِعليَّةٍ عَلَى جُملَةٍ فِعليَّةٍ، نَحو: قَامَ زَيدٌ وَخَرَجَ خَالِد[١٨].

١٠. عَطْف جُملَةٍ اسْميَّةٍ عَلَى جُملَةٍ اسْميَّةٍ، نَحو: زَيدٌ مُنطَلِقٌ وَعَمرٌو ذَاهِبٌ.

١١. عَطْف جُملَةٍ اسْميَّةٍ عَلَى جُملَةٍ فِعليَّةٍ، نَحو: أُحِبُّ الزِّرَاعَةَ وَالصِّنَاعَةُ تُفِيدُنِي.

١٢. عَطْف جُملَةٍ فِعليَّةٍ عَلَى جُملَةٍ اسْميَّةٍ، نَحو: الصِّنَاعَةُ مُفِيدَةٌ لَنَا وَأُحِبُّ الزِّرَاعَة[١٩].

١٣. عَطْف المفْرَدِ عَلَى الجُملَةِ، نَحو: أَلْفَيتُ الشُّجَاعَ يَهزِمُ خَصمَه وَفَاتِكًا بِه[٢٠].

١٤. عَطْف الجُملَةِ عَلَى المفْرَدِ، نَحو قَولِه تَعَالَى: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٤]، أَي: فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَو قَائِلِينَ.

١٥. عَطْف المفرَدِ عَلَى شِبهِ الجُملَةِ، نَحو قَولِه تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ [سورة يونس: ١٢]، فَـ(قَاعِدًا) عَطفٌ عَلَى (جَنبه)؛ لِتَأوِيلِ شِبْهِ الجُملَةِ بِمُفرَدٍ، وَهُوَ: مَجْنُوب[٢١].

١٦. عَطْف شِبْهِ الجُملَةِ عَلَى المفرَدِ، نَحو قَولِهم: لا يَصِحُّ مُخَالَفَةُ القَاعِدَةِ

(١٦) ينظر: النَّحو الوافي: ٣/ ٦٤٨.
(١٧) ينظر: النَّحو الوافي: ٣/ ٦٥٠.
(١٨) للتَّفرِيقِ بَينَ عَطْفِ الفِعلِ عَلَى الفِعلِ وَعَطفِ جُملَةٍ فِعليَّةٍ عَلَى مِثلِهَا، ينظر: النحو الوافي: ٣/ ٦٤٥.
(١٩) النَّحو الوافي: ٣/ ٦٥٤.
(٢٠) شرح الرَّضِي على الكافية: ٢/ ٣٥٤.
(٢١) النَّحو الوافي: ٣/ ٦٥٨.

المطَّردَةِ إلَّا شُذُوذًا أَو فِي ضَرُورَةٍ[٢٢].

١٧. عَطْف شِبْه جُملَةٍ عَلَى فِعلٍ، نَحو: جَاءَ الطِّفلُ يَبكِي وَعَلَى عَجَلٍ.

١٨. عَطْف فِعلٍ عَلَى شِبْه جُملَةٍ، نَحو: جَاءَ الطِّفلُ عَلَى عَجَلٍ وَيَبكِي[٢٣].

١٩. عَطْف شِبْه جُملَةٍ عَلَى شِبْه جُملَةٍ، نَحو: لَنَا وَلَهُم مَوَاقِفُ مُختَلِفَةٌ.

يَتَبَيَّنُ مِن هَذَا أَنَّ النُّحَاةَ العَرَبَ دَرَسُوا الحَالاتِ الَّتِي يُمكِنُ أَنْ يَأْتِي فِيهَا المتَعَاطِفَانِ، وَذَلِكَ فِي سِيَاقِ جُهُودِهم لِاسْتِقرَاءِ كَلامِ العَرَبِ، وَبَيَانِ الجَائِزِ وَالمُمْتَنِعِ، أَو المستَعْمَلِ وَغَيرِ المستَعْمَلِ.

وَيَبدُو أَنَّ الاتِّسَاقَ أَو الانسِجَامَ بَينَ المتَعَاطِفَينِ هُوَ ضَابِطٌ مُهِمٌّ فِي تَحَقُّقِ العَطفِ وَسَلامَتِه تَركِيبِيًّا وَدَلالِيًّا، فَالأَسْمَاءُ تُعطَفُ عَلَى الأَسمَاءِ مَعَ وُجُودِ ضَوَابِطَ مُحَدَّدَةٍ لِذَلِكَ، وَالأَفعَالُ تُعطَفُ عَلَى الأَفعَالِ، وَمَا خَرَجَ عَن ذَلِكَ فَلابُدَّ مِن رَدِّه إِلَى بَابِه عَن طَرِيقِ التَّأوِيلِ.

وَفِي هَذَا السِّيَاقِ كَانَ لِلنُّحَاةِ العَرَبِ وَقْفَةٌ مُهِمَّةٌ فِي تَنَاسُبِ المتَعَاطِفَينِ مِن حَيثُ المعنَى، وَلا سِيَّمَا فِي عَطفِ الجُمَلِ، ((فَإِذَا كَانَ هُنَاكَ تَعَلُّقٌ مَا بَينَ الجُملَتَينِ تَمَّ وَصلُهمَا بِحَرفٍ مِن حُرُوفِ العَطفِ، أَمَّا إِذَا لَم تَكن هُنَاكَ عَلاقَةٌ أَو كَانَت العَلاقَةُ شَدِيدَةً حَتَّى لَيُؤَدِّي وَصْلُ مَا بَينَهُمَا إِلَى إِخلالٍ بِالمعنَى كَانَ الفَصْلُ))[٢٤].

وَقَد عُنِيَ البَلاغِيُّونَ العَرَبُ بِدِرَاسَةِ العَطفِ بَينَ الجُمَلِ فِي الكَلامِ، فَخَصَّصُوا لِهَذَا النَّوعِ مِن الدَّرسِ مَبحَثًا مُستَقِلًا فِي دِرَاسَاتِهِم أَطْلَقُوا عَلَيْهِ الوَصلُ وَالفَصلُ، وَوَضَعُوا لَهُ قَوَاعِدَ وَضَوَابِطَ كَثِيرَةً تَتَنَاوَلُ دَقَائِقَهُ وَتَفَاصِيلَهُ، مَعَ الاسْتِنَادِ فِي هَذِهِ الضَّوَابِطِ كَافَّةً إِلَى المَعنَى وَارْتِبَاطِه بَينَ

(٢٢) المصدر السابق: ٣/ ٦٥٩.

(٢٣) للتَّفصِيلِ فِي شُروطِ وَضَوَابِطِ هَذِهِ الأَنمَاطِ أَو الأَضْرُبِ التَّركِيبِيَّةِ لِلعَطْفِ، يُمكِنُ الرُّجُوع إِلَى: البديع في علْم العربية: ١/ ٣٧٥، وتوضيح المقاصد والمسالك: ٢/ ١٠٣٥، وهمع الهوامع: ٣/ ٢٢٤، وحاشية الصَّبان: ٣/ ١٨٠ -١٨١، والنَّحو الوافي: ٣/ ٦٤٥ -٦٥٨، وأُسلُوب العطف إِعادة صِياغة، (بحث) للدُّكتور شوقي المعريّ، مجلة التُّراث العربيِّ السُّوريَّة، العدد ١١١، لسنة ٢٠٠٨م، ص: ١٠٢ -١٠٨.

(٢٤) المَنَاسَبَة بَيَن المعَاني وأَثرها في عطف الجمل، (بحث) للدكتور الحسن المثنَّى عمر الفاروق، مجلة مركز البحوث في الآداب والعلوم التربويَّة، العدد الثَّامن، ١٤٢٨هـ، ص: ٢٤.

الجُمَل[٢٥].

وَكَانَ عُلَمَاءُ البَلاغَةِ يَعُدُّونَ دِرَاسَةَ الفَصْلِ وَالوَصْلِ من أَهَمِّ مَبَاحِثِ عِلْمِ الْمَعَانِي، حَتَّى إِنَّ بَعضَهُمَ قَصر البَلَاغَةَ عَلَى مَعرِفَةِ مَوَاضِعِ الفَصلِ وَالوَصلِ[٢٦]، وَقَد عُنُوا بِدِرَاسَةِ مَوَاضِعِ كُلٍّ منهُمَا، وَقد تَطَوَّرَت دِرَاسَتُهُم لِمَوَاضِعِ الوَصلِ فِي العَرَبِيَّةِ حَتَّى انْتَهَتْ عِندَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَالْمُحْدَثِينَ عَلَى النَّحوِ الآتي[٢٧]:

الأَوَّل: إِذَا اتَّفَقَت الجُملَتَانِ فِي الخَبَرِيَّةِ وَالإِنشَائِيَّةِ من حَيثُ اللَّفظُ وَالمعنَى أَو من حَيثُ المعنَى فَقَط، وَلَم يَكُن هُنَاكَ سَبَبٌ يَقتَضِي الفَصلَ بَينَهُمَا، وَكَانَ بَينَهُمَا تَنَاسُب تَامٌّ فِي المعنَى، وَمِثَالُ الخَبَرِيَّتَينِ قَولُه تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[سورة الانفطار: ١٣-١٤]، وَمِثَالُ الإِنشَائِيَّتَينِ قَولُه تَعَالَى: ﴿فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[سورة الشّورى: ١٥]، وَقَولُه تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[سورة النّساء: ٣٦]، فَقَد وُصِلَتْ جُملَةُ (وَلا تُشْرِكُوا) بِجُملَةِ (وَاعْبُدُوا) لِاتِّحَادِهِمَا فِي الإِنشَاءِ، وَلِأَنَّ المطلُوبَ بِهِمَا مِمَّا يَجِبُ عَلَى الإِنسَانِ أَنْ يُؤَدِّيَه لِخَالِقِه، وَيَختَصَّهُ بِه.

الثَّاني: دَفعُ تَوهُّمِ غَيرِ المرَادِ، وَذَلِكَ إِذَا اختَلَفَتِ الجُملَتَانِ فِي الخَبَرِيَّةِ وَالإِنشَائِيَّةِ، وَكَانَ الفَصلُ يُوهِمُ خِلافَ ذَلِكَ.

الثَّالث: إِذَا كَانَ لِلجُملَةِ الأُولَى مَحلٌّ من الإِعـرَابِ، وَقُصِدَ تَشرِيكُ الجُملَةِ الثَّانِيَةِ لَهَا فِي الإِعرَابِ حَيثُ لا مَانِعَ من ذَلِكَ، نَحو: عَلِيٌّ يَقُولُ وَيَفعَلُ[٢٨].

وَيُمكِن أَن يَنتَهِي الدَّارِسُ إِلَى أَنَّهُ ((لا بُدَّ فِي وَصلِ الجُمَلِ مَعَ بَعضِهَا من الخُضُوعِ إِلَى نِظَامٍ مُعيَّنٍ تَتَآلَف مَعَه هَذِه الجُمَل فِي سِلسَلَةٍ من التَّرابُطِ وَالانْسِجَام، فَلا بُد من مُسَوِّغٍ لِلجَمْعِ بَينَ الجُمَلِ وَقَد ذَكَرَ

(٢٥) ينظر في أَهَمِّيَّة الفَصلِ وَالوَصلِ: الفَصْل والوَصْل في القرآن الكريم للدكتور منير سلطان، وكتاب: في البلاغة القرآنيَّة؛ أسرار الفَصْل والوَصْل للدُّكتور صباح عبيد دراز.

(٢٦) ينظر: دلائل الإعجاز: ١/ ٢٢٢، وعروس الأفراح: ١/ ٤٧٩، والفَصْل والوَصْل في القرآن الكريم: ٦٨.

(٢٧) ينظر: دلائل الإعجاز: ١/ ٢٢٢، والإيضاح في علوم البلاغة: ٣/ ١٢٦، وجواهر البلاغة: ١٨١ -١٨٢، والبلاغة العربيّة: ١/ ٥٧٩، والفَصْل والوَصْل في القرآن الكريم: ٦٨.

(٢٨) ينظر: جواهر البلاغة: ١٨١ -١٨٢.

أَكثرُ البَلاغِيِّينَ فِي ذَلِكَ شَرْطَ (المَنَاسَبَة) حَتَّى يَصحَّ نَسق الكَلام وَتَلاؤُمُه وَيَشتَدَّ الامْتِزَاجُ بَينَ الجُملَتَين))[٢٩].

وَلَيسَ غَرِيبًا أَن تَكُونَ الإِشَـارَاتُ الأُولَى إِلَى عَطف القِصَّة قَد وَرَدَتْ فِي سِيَاق وَصْفِيٍّ غَايَتُهُ التَّوْجِيهُ النَّحْوِيُّ وَالتَّركِيبِيُّ، وَمِن هَذه الإِشَارَات مَا جَاءَ عِندَ الزَّجَّاج (ت٣١١ هـ) فِي تَوجِيه العَطف فِي قَولِه تَـعَـالَى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[سورة الشُّعراء: ١٠]، إِذْ قَالَ: ((مَوضِعُ (إِذْ) نَصبٌ، عَلَى مَعنَى: وَاتْلُ هَذه القِصَّةَ فِيمَا تَتْلُو. وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَولُه عَطفًا عَلَى هَذِه القِصَّة: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [سورة الشُّعراء: ٦٩]))[٣٠].

وَمِن تِلكَ الإِشَـارَاتِ الوَصفِيَّةِ أَيضًا مَا وَرَدَ عِندَ السِّيرَافِيِّ (ت٣٦٨هـ) فِي تَوجِيهِ العَطفِ فِي قَولِ الشَّاعِرِ(٣١):

إِنِّي إِذَا خَفِيَت نَارٌ لمرملة
أُلْفَى بِأَرْفَع تَلٍّ رَافِعًا نَارِي
ذَاكَ وَإِنِّي عَلَى جَارِي لَذُو حَدَب
أَحْنُو عَلَيْهِ بِمَا يُحْنَى عَلَى الجَارِ

إِذْ بَيَّنَ أَنَّ قَولَه: ذَاكَ وَإِنِّي، شَائِعٌ فِي كَلام العَرَب؛ فَهُم يَقُولُونَ: (ذَاكَ وَأَنَّ من الأَمر كَذَا وَكَذَا)، وَقَالَ فِي تَوجِيهِه: ((إِنَّمَا يَتَكَلَّمُ بِه المتَكَلِّمُ بِقِصَّة، ثُمَّ يُؤَكِّدُهَا لِيَعطفَ عَلَيهَا قِصَّةً أُخرَى زِيَادَةً عَلَى القِصَّة الأُولَى فِي مَعنَى مَا قَصدَت بِه كَقَولِكَ للرَّجُل: (أَنَا أُكْرِمُ مَن قَصَدَنِي من أَمثَالِكَ وَأَنَّ لَكَ عِندِي مَا أَحبَبْتَ)؛ تَقدِيرُه (وَالأَمرُ ذَلِكَ) وَهُـو تَقدِيرٌ لِمَا ذَكَـرَه أَوَّلا وَعَطَفَ (أَنَّ لَكَ عِندِي مَا أَحبَبتَ) عَلَى (ذَلِكَ)، لِأَنَّ (ذَلِكَ) مَصدَر هُو خَبَر الابْتِدَاء وَهُو كَأَنَّه قَالَ: فَالأَمرُ كَمَا ذَكَرتُه أَوَّلاً وَالأَمرُ أَيضًا أَنَّ لَكَ عِندِي مَا أَحبَبتَ))[٣٢].

وَقَد نَمَت هَذِه الإِشَـارَاتُ إِلَى عَطف القِصَّة عَلَى القِصَّة وَتَطَوَّرَتْ فَظَهَرَتْ عِندَ

(٢٩) المَنَاسَبة بَيَن المعَاني وَأَثرها في عطف الجمل، (بـحث) للدكتور: الحسن المثنّى عمر الفاروق، مجلة مركز البحوث في الآداب والعلوم التربويَّة، العدد الثَّامن، ١٤٢٨هـ، ص: ٢٧.

(٣٠) معاني القرآن وإعرابه: ٤/ ٨٤.

(٣١) البيتان للأَحوص في: ديوانه: ١٣٣، وكتاب سيبويه: ٣/ ١٢٥ -١٢٦، وخزانة الأدب: ١٠/ ٢٦٨، ولرجل من تيم قريش في ذيل الأمالي: ١٢٢، والبيت الثَّاني بلا نِسبة في: الخصائص: ٣/ ١٧٥. ينظر: المعجم المفصَّل في شواهد العربيَّة: ٣/ ٣٩٩.

(٣٢) شرح كتاب سيبويه: ٣/ ٣٤٣ -٣٤٤.

الزَّمَخْشَرِيِّ، وَذَلِكَ فِي حَدِيثِهِ عَنِ العَطفِ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [سورة التّوبة: ١٠٧]، إِذْ قَالَ فِي تَوجِيهِهِ: ((فِي مَصَاحِفِ أَهلِ المَدِينَةِ وَالشَّامِ: الَّذِينَ اتَّخَذُوا بِغَيرِ وَاوٍ[٣٣]، لِأَنَّهَا قِصَّةٌ عَلَى حِيَالِهَا. وَفِي سَائِرِهَا بِالوَاوِ عَلَى عَطفِ قِصَّةِ مَسجِدِ الضِّرَارِ الَّذِي أَحدَثَهُ المُنَافِقُونَ عَلَى سَائِرِ قِصَصِهِم))[٣٤].

وَقَد وَرَدَ مُصْطَلَحُ عَطْفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ عَلَى نَحوٍ أَكثَرَ وُضُوحًا فِي مَوضِعٍ آخَرَ مِن تَفسِيرِ الكَشَّافِ؛ وَذَلِكَ فِي بَحثِهِ عَن عِلَّةٍ تَعبِيرِيَّةٍ لِاستِعمَالِ الوَاوِ فِي سِيَاقٍ وَاستِعمَالِ الفَاءِ فِي سِيَاقٍ آخَرَ مُشَابِهٍ، إِذْ اسْتَعْمَلَ القُرآنُ الكَرِيمَ الوَاوَ فِي سِيَاقِ قِصَّةِ عَادٍ، وَفِيهَا: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾[سورة هود: ٥٨]، وَمِثلُ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ مَدْيَنَ، إِذْ جَاءَ فِيهَا: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾[سورة هود: ٩٤]، فِي حِينِ اسْتَعْمَلَ الفَاءَ فِي سِيَاقِ قِصَّةِ ثَمُودَ وَفِيهَا: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا ﴾[سورة هود: ٦٦]، وَمِثلُ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ لُوطٍ، إِذْ جَاءَ فِيهَا: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾[سورة هود: ٨٢]. وَعَلَّلَ اسْتِعمَالَ الوَاوِ فِي القِصَّتَينِ الأُولَيَينِ، بِأَنَّهُمَا وَقَعَتَا مُبْتَدَأَتَينِ، فَجِيءَ بِالوَاوِ الَّذِي يُفِيدُ الجَمعَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عَطفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ، قَالَ: ((فَإِنْ قُلتَ: مَا بَالُ سَاقَتَي قِصَّةِ عَادٍ وَقِصَّةِ مَدينَ جَاءَتَا بِالوَاوِ، وَالسَّاقَتَانِ الوُسطَيَانِ بِالفَاءِ؟. قُلت: قَد وَقَعَت الوُسطَيَانِ بَعدَ ذِكرِ الوَعدِ، وَذَلِكَ قَولُه: إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَجِيءَ بِالفَاءِ الَّذِي هُوَ لِلتَّسبِيبِ، كَمَا تَقُولُ: وَعَدتُه فَلَمَّا جَاءَ المِيعَادُ كَانَ كَيت وَكَيتَ. وَأَمَّا الأُخرَيَانِ فَلَم تَقَعَا بِتِلكَ المَثَابَةِ. وَإِنَّمَا وَقَعَتَا مُبتَدَأَتَينِ، فَكَانَ حَقُّهُمَا أَن تُعطَفَا بِحَرفِ الجَمعِ عَلَى مَا قَبلَهُمَا كَمَا تُعطَفُ قِصَّةٌ عَلَى قِصَّةٍ))[٣٥]. وَقَد وَصَفَ

(٣٣) هي قراءة نَافِع وَابْن عَامر، ينظر: السَّبعة في القِراءات: ٣١٨، والحجَّة في القِراءات السَّبع: ١٧٨، ومعاني القِراءات: ١/ ٤٦٤، والمحرّر الوجيز: ٣/ ٨٠، ومَفاتيح الغَيب: ١٦/ ١٤٦، وتفسير القرطبيِّ: ٨/ ٢٥٣، والبحر المحيط: ٥/ ٥٠٣.

(٣٤) الكشَّاف: ٢/ ٣٠٩.

(٣٥) الكشَّاف: ٢/ ٤٢٥. وينظر: تفسير

السَّمينَ الحَلَبيُّ (ت٧٥٦هـ) هَذَا التَّوجيهَ بِأَنَّهُ من غُرَرِ كَلام الزَّمَخشَريِّ[٣٦].

وَوَرَدَ هَذَا المصطَلَحُ عِندَ الشَّيخ شَرَف الدِّين الحُسَين بن عَبد الله الطِّيبيِّ (ت ٧٤٣ هـ)، في حَديثِه عَن العَطف في أَوَّل قَولِه تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾[سورة الأعراف: ١٤٨]، إِذْ ذَهَبَ الشَّيخُ الطِّيبيُّ، هُنَا، إِلَى أَنَّ (وَاتَّخَذَ) مَعطُوفٌ عَلَى قَولِه تَعَالَى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[سورة الأعراف: ١٤٢]، من عَطف القِصَّة عَلَى القِصَّة، قَالَ: ((قَولُهُ (من بَعْدِه): من بَعد فِرَاقِه إِيَّاهُم إِلَى الطُّور، فيَكُون: (وَاتَّخَذَ قَومُ مُوسَى) عَطْفًا عَلَى قَولِه: (وَوَاعَدْنَا مُوسَى) عَطف قِصَّةٍ عَلَى قِصَّة. وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَخبَرَ أَنَّ بَنِي إِسرَائِيلَ لما جَاوَزُوا البَحرَ، بَعدَ إِغرَاقِ فِرعونَ، وَرَأَوا قَوماً يَعكِفُونَ عَلَى أَصنَام لَهُم، فَطَلَبُوا من مُوسَى عليه السلام أَن يَجعَلَ لَهُم إِلَهًا،... ، أَخبَر بَعدَ ذَلِكَ عَن حَالِه عليه السلام مَعَ رَبِّه عَزَّ وَجَلَّ وَفِرَاقِه إِيَّاهُم إِلَى الطور، وَعَن حَال قَومِه بَعدَه))[٣٧].

وَرَكَنَ الزَّركَشيُّ (ت٧٩٤هـ) إِلَى هَذَا المصطَلَح لِتَوجِيهِ العَطف في قَولِه تَعَالَى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٩]، حَيثُ جَعَلَهُ مَعطُوفًا عَلَى أَوَّل الآيَة السَّابِقَة، وَهِيَ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى

النَّسفيّ: ٢/ ٨٢، وحاشية الطّيبيّ على الكشاف (فتوح الغيب): ٨/ ١٨٤، والبحر المحيط: ٦/ ٢٠٣، واللُّباب في علوم الكتاب: ١٠/ ٥٥٥. والفَصْل والوَصْل في القرآن الكريم: ١٣٢.

(٣٦) الدّر المصون: ٦/ ٣٨٠.

(٣٧) حاشية الطّيبيّ على الكشاف (فتوح الغيب): ٦/ ٥٧٩. وينظر: روح المعاني: ٥/ ٦٠.

﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[سورة البقرة: ٢٥٨].

قَالَ: ((قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ عَطَفَ قِصَّةً عَلَى قِصَّةٍ مَعَ أَنَّ شَرْطَ الْعَطْفِ الْمُشَاكَلَةُ فَلَا يَحْسُنُ فِي نَظِيرِ الْآيَةِ (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّك) (وَ كَالَّذِي) وَوَجْهُ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُشَابَهَةِ أَنَّ (أَلَمْ تَرَ) بِمَنْزِلَةِ هَلْ رَأَيْتَ كَالَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ))[٣٨]. وَهُوَ يَبحَثُ، هُنَا، عَنِ المشَابَهَةِ بَينَ المعطُوفِ وَالمعطُوفِ عَلَيهِ، الَّذِي دَفَعَ المفَسِّرِينَ إِلَى القَولِ بِأَنَّ الأَولَى فِي تَوجِيهِهِ أَنْ يَكُونَ مِن عَطْفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ.

وَيَظهَرُ مُصطَلَحُ عَطفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ وَاضِحًا عِندَ مُفَسِّرٍ آخَرَ، هُوَ أَبُو السُّعُودِ (ت٩٨٢هـ) فِي تَفسِيرِهِ قَولَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٣٤]، إِذْ ذَكَرَ أَنَّ (إِذْ) مَعطُوفٌ عَلَى الظَّرفِ (إِذْ) فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[سورة البقرة: ٣٠]، يَحتَمِلُ أَن يَكُونَ مَنصُوبًا بِالفِعلِ المضْمَرِ الَّذِي نَصَبَ الظَّرفَ الأَوَّلَ، وَيَحتَمِلُ أَن يَكُونَ مَنصُوبًا بِنَاصِبٍ مُستَقِلٍّ مَعطُوفٍ عَلَى نَاصِبِ الظَّرفِ الأَوَّلِ مِن بَابِ عَطفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ، قَالَ: (((وَإِذْ قُلْنَا للملائكة): عَطفٌ عَلَى الظَّرفِ الأَوَّلِ مَنصُوبٌ بِمَا نَصَبَهُ مِن المضْمَرِ أَو بِنَاصِبٍ مُستَقِلٍّ مَعطُوفٍ عَلَى نَاصِبِهِ عَطْفَ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ أَي وَاذْكُر وَقْتَ قَولِنَا لَهُم))[٣٩].

وَاستَعمَلَ الشَّيخُ أَبُو السُّعُودِ هَذَا المصطَلَحَ فِي تَوجِيهِهِ عَطفَ (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ) عَلَى قَولِهِ تَعَالَى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾، وَذَلِكَ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[سورة البقرة: ٢١٩]، بِأَنَّهُ مَعطُوفٌ عَطفَ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ، قَالَ: ((﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾: عَطْفٌ عَلَى يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ

(٣٨) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٤٥ -٤٦.

(٣٩) إرشاد العقل السَّليم: ١/ ٨٧.

الخ عَطْفَ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ أَي: أيُّ شَيءٍ يُنْفِقُونَهُ))[٤٠].

وَصَرَّحَ أَبُو السُّعُودِ بِهَذَا المصطَلَحِ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى مِن تَفسِيرِهِ[٤١]، كَمَا قَالَ بِهِ، بَعدَ ذَلِكَ، عُلَمَاءُ وَمُفَسِّرُونَ آخَرُونَ[٤٢].

وَقَدَ اسْتَعْمَلَ الشَّيخُ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور (ت١٣٩٣هـ) مُصطَلَحَ عَطفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِن تَفسِيرِهِ، غَيرَ أَنَّهُ كَانَ يُعَبِّرُ عَنهُ أَحيَانًا بِمُصطَلَحِ عَطفِ الغَرَضِ عَلَى الغَرَضِ، قَالَ فِي تَفسِيرِ قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾: ((وَالْوَاوُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ عَطْفُ غَرَضٍ عَلَى غَرَضٍ. وَهُوَ الْمُسَمَّى بِعَطْفِ قِصَّةٍ عَلَى قِصَّةٍ))[٤٣].

وَذَكَرَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور أَنَّ وَاوَ عَطْفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ تُسَمَّى أَيضًا بِوَاوِ الابْتِدَاءِ، قَالَ فِي تَوجِيهِ الوَاوِ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[سورة هود: ٢٥]، قَالَ: ((انْتِقَالٌ مِنْ إِنْذَارِ الْمُشْرِكِينَ وَوَصْفِ أَحْوَالِهِمْ وَمَا نَاسَبَ ذَلِكَ إِلَى مَوْعِظَتِهِمْ بِمَا أَصَابَ الْمُكَذِّبِينَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمَصَائِبِ،...، فَالْعَطْفُ مِنْ عَطْفِ الْقِصَّةِ عَلَى الْقِصَّةِ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْوَاوَ الابْتِدَائِيَّةَ))[٤٤]. فَكَأَنَّ هَذِهِ (الـوَاوَ) تُؤَدِّي وَظِيفَةً دَلَالِيَّةً مُزْدَوَجَةً؛ فَهِيَ -من جِهَةٍ -ابْتِدَائِيَّةٌ أَو اسْتِئْنَافِيَّةٌ لأَنَّهَا تَبدَأُ قِصَّةً جَدِيدَةً، غَيرَ أَنَّهَا- من جِهَةٍ أُخْرَى -تَربطُ القِصَّةَ الجَدِيدَةَ بِسَابِقَتِهَا بِرَابِطٍ دَلَالِيٍّ هُوَ الخَيطُ الدَّلالِيُّ النَّاظِمُ لِنَسِيجِ النَّصِّ كَامِلًا؛ أَي: النَّصّ الَّذِي يَجمَعُ القِصَّتَينِ كِلْتَيْهِمَا.

(٤٠) إرشاد العقل السَّليم: ١/ ٢١٩.

(٤١) ينظر: إرشاد العقل السَّليم: ١/ ١٢٨، ١/ ١٥٥، ٧/ ١٧٤.

(٤٢) ينظر مثلا: حاشية الشِّهاب على تفسير البيضاويِّ: ١/ ٢٤١، ١/ ٤٠٧، ٢/ ٥٦، ٢/ ٢٥٨، ٦/ ١٦٩، ٦/ ٢٢٩، ٧/ ٤٣٧، وروح البيان: ٧/ ٤٢٠، وروح المعاني: ١/ ١٢٨، ١/ ٢٢٠، ١/ ٢٣٠، ١/ ٣٣٦، ١/ ٣٦٤، ١/ ٣٧٢، ٢/ ٣٣٠، ٣/ ٧٨، ٨/ ٤٣٠، والتَّحرير والتَّنوير: ١/ ٦٢٤، ١/ ٦٢٥، ٩/ ١٢٣، ٩/ ١٦٦، ١١/ ١٢٤، ١٦/ ٧٨، ١٦/ ١٣٩، ٢٠/ ٣٨، ٢٣/ ٥٦، ٢٥/ ١٦٥، ٢٦/ ٥٧.

(٤٣) التَّحرير والتَّنوير: ٢٨/ ١٧٧. وينظر فيه: ٨ -ب/ ١٥١، و١٨/ ٢١، و٢٣/ ٥٦.

(٤٤) التَّحرير والتَّنوير ١٢/ ٤٣.

ويُفهَم، مِمَّا سَبَقَ، أَنَّ عَطفَ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ هُو نَوعٌ مِن العَطفِ يَكُونُ المعطُوفُ فِيهِ كَلَامًا كُلِّيًّا مَعطُوفًا عَلَى كَلام كُلِّيٍّ، أَو يُمكِن القَول إِنَّه عَطْف مَوضُوع كُلِّيٍّ عَلَى مَوضُوع آخَرَ كُلِّيٍّ، وَمِن ثَمَّ فَهُو لا يَدخُلُ تَحتَ أَيِّ نَوعٍ مِن الأَنماطِ التَّركِيبِيَّةِ السَّابِقَةِ للعَطف، الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي الأَنمَاطِ السَّابِقَة، لِذَا لا يُمكِنُ وَضْعُه فِي أَنمَاطِ عَطف المفْرَدِ عَلَى المفْرَدِ أَو أَنمَاطِ عَطف الجُملَةِ عَلَى الجُملَة. يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ هَذَا النَّوعَ مِن العَطف لا يُشْتَرَطُ فِيهِ التَّنَاسُبُ أَو المُشَاكَلَةُ بَينَ المُتَعَاطِفَين، مِن حَيثُ الخَبَر وَالإِنشَاءُ أَو الاتِّحَادُ فِي الضَّمَائِر؛ قَالَ الخَطِيبُ القَزْوِينِيُّ (ت٧٣٩هـ): ((قَد تُعطَفُ القِصَّةُ عَلَى القِصَّةِ وَهُو وَاضِحٌ وَذَلِكَ أَنَّ تَعْطِفَ مَضمُونَ كَلام عَلَى مَضمُونِ كَلام آخَرَ إِذَا وُجِدَتْ مُنَاسَبَةٌ بَينَ هَذَين المَضمُونَين وَإِنْ لَمْ تُوجَد تِلكَ المَنَاسَبَة بَينَ جَزَاءِ الكَلامَين: فَإِذَا لَم تَجِد مَعطُوفًا عَلَيهِ صَرِيحًا يُنَاسِبُ المَعطُوفَ فَلَكَ اعْتِبَارُ العَطف بَينَ مَضمُونَي الكَلامَين أَو تَقدِير مَعطُوفٍ عَلَيهِ مُنَاسِبٍ لِلمَعطُوف أَو تَقدِير قَولٍ كَذَلِكَ))[٤٥]. وَمِن ثَمَّ يَكُونُ كَافِيًا لِتَسوِيغِ العَطف فِي هَذَا النَّوعِ مُجَرَّدُ مُلَاحَظَةِ عَطف كَلام مَا عَلَى كَلام مَا، أَو عَطف قِصَّةٍ مَا عَلَى قِصَّةٍ مَا[٤٦]، قَالَ أَبُو البَقَاءِ الكَفَوِيّ (ت٨١٦هـ): ((وَفِي عَطْفِ الْقِصَّة عَلَى الْقِصَّةِ لَا يُطْلَبُ التَّنَاسُبُ فِي الخَبرِيَّة وَالإِنشَائِيَّة وَلَا الْمُشَارَكَةُ فِي الْفَاعِلِ الْمُخَاطَب،... ، بَل يُطْلَبُ التَّنَاسُبُ بَينَ الْقِصَّتَيْنِ الْمُعْتَبَرُ فِي عَطف الْقِصَّة عَلَى الْقِصَّةِ أَن يَكُونَ كُلٌّ مِنْهُمَا جُمَلا مُتَعَدِّدَة))[٤٧].

جَوَازُ الاخْتِلَافِ خَبَرًا وَإِنْشَاءً فِي عَطْفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّة:

وَتَوضِيحًا لِهَذا الأَمرِ نَذكُرُ، هنا، بَعضَ الشَّوَاهِدِ لِهَذا النَّوعِ مِن العَطف الَّتِي اخْتَلَفَ فِيهَا المَعطُوفُ عَن المَعطُوفِ عَلَيهِ خَبَرًا وَإِنْشَاءً، مِمَّا دَفَعَ المُفَسِّرِينَ إِلَى التَّخَلُّصِ مِن هَذَا الإِشكَالِ إِلَى القَولِ بِأَنَّهُ

(٤٥) الإيضاح في علوم البلاغة: ٣/ ١١٦.

(٤٦) ينظر: روح المعاني: ٢/ ٣٣٩، والبلاغة العربيَّة: ١/ ١٨٥، والفَصْل والوَصْل في القرآن الكريم: ١٨٧.

(٤٧) الكلّيّات: ٦٠٩ -٦١١. وينظر: التَّحرير والتَّنوير: ١/ ٣٥٠.

مِن عَطفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ، وَمِن ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴾ [سورة مريم: ١٦]، الَّتِي جَاءَتْ مَعطُوفَةً عَلَى قَولِهِ تَعَالَى فِي آيَةٍ سَابِقَةٍ: ﴿ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴾[سورة مريم: ٢ -٣]، فَالعَطفُ الوَارِد، هُنَا، فِيهِ اخْتِلَافٌ بَينَ المُتَعَاطِفَينِ مِن حَيثُ الخَبَرُ وَالإِنْشَاءُ، فَالأُوْلَى خَبَرِيَّةٌ وَالثَّانِيَةُ إِنشَائِيَّةٌ؛ لِذَا نَجِدُ أَنَّ الطَّاهِرَ بنَ عَاشُور مَثَلًا وَجَّه هَذَا العَطفَ بِأَنَّهُ مِن عَطفِ القِصَّةِ حَتَّى يَتَخَلَّصَ مِن شَرطِ التَّنَاسُبِ بَينَهُمَا خَبَرًا وَإِنشَاءً، قَالَ: ((جُمْلَةُ (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ) عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ (ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ)، عَطْفَ الْقِصَّةِ عَلَى الْقِصَّةِ فَلَا يُرَاعَى حُسْنُ اتِّحَادِ الْجُمْلَتَيْنِ فِي الْخَبَرِيَّةِ وَالْإِنْشَائِيَّةِ، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الِاتِّحَادَ لَيْسَ بِمُلْتَزَمٍ))[٤٨]. وَلَعَلَّ قَولَ الطَّاهِرِ بنِ عَاشُور بِأَنَّ هَذَا العَطفَ هُوَ مِن عَطفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ قَد سَبَقَ الإِلْمَاحُ إِلَيهِ عِندَ القُرطُبِيِّ (ت٦٧١هـ) فِي تَفسِيرِهِ لِهَذِهِ الآيَةِ، إِذ قَالَ: ((قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴾، الْقِصَّةَ إِلَى آخِرِهَا. هَذَا ابْتِدَاءُ قِصَّةٍ لَيْسَتْ مِنَ الْأُولَى. وَالْخِطَابُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، أَيْ عَرِّفْهُمْ قِصَّتَهَا لِيَعْرِفُوا كَمَالَ قُدْرَتِنَا))[٤٩]، يَتَبَيَّنُ، مِن كَلَامِهِ هَذَا، أَنَّ هَذَا الجُزءَ مِن النَّصِّ يُمَثِّلُ بِدَايَةً لِقِصَّةٍ جَدِيدَةٍ غَيرِ الأُولَى وَلَكِنَّهُ لا يُنَاقِشُ سَبَبَ الرَّبطِ بَينَهُمَا بِالوَاوِ، وَهُوَ مَا فَسَّرَهُ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور لَاحِقًا.

وَمِن ذَلِكَ مَا نَجِدُه فِي عَطفِ قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴾[سورة طه: ١١٥]، الَّتِي تُعَدُّ جُمْلَةً إِنشَائِيَّةً مَعطُوفَةً عَلَى جُملَةِ (وَصَرَّفْنَا) الخَبَرِيَّةِ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴾ [سورة طه: ١١٣]، وَهُوَ مِمَّا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى عَطفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ يَدعمُ ذَلِكَ أَنَّ العَطفَ جَاءَ بَينَ قِصَّتَينِ، قَالَ البَيضَاوِيُّ (ت٦٨٥هـ): ((وإِنَّمَا عَطَفَ قِصَّةَ آدَمَ عَلَى قَولِه (وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ) لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ أَسَاسَ بَنِي آدَمَ [بُنِي] عَلَى العِصيَانِ

(٤٨) التَّحرير والتَّنوير: ١٦/ ٧٨.

(٤٩) تفسير القرطبيِّ: ١١/ ٩٠.

وَعِرقَهُم رَاسِخٌ فِي النِّسْيَانِ))[٥٠]. فَفِي كَلام البَيضَاوِيِّ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ النَّصَّ الكَرِيمَ بَدَأَ، هُنَا، بِقِصَّةٍ جَدِيدَةٍ، وَهِيَ قِصَّةُ آدَمَ عليه السلام، وَقَد جَاءَ بِهَا مُتَّصِلَةٌ بِمَا قَبْلَهَا عَن طَرِيقِ العَطفِ بِالوَاوِ، حَتَّى يَبقَى النَّسِيجُ المَعنَوِيُّ مُتَمَاسِكًا فِي سِيَاقِ النَّسِيجِ القَصَصِيِّ الأَوسَعِ لِلنَّصِّ الكَرِيمِ. وَقَد زَادَ الشِّهَابُ الخَفَاجِيُّ (ت ١٠٦٩هـ) كَلَامَ البَيضَاوِيِّ تَوضِيحًا، فَأَفصَحَ عَن أَنَّ العَطفَ، هُنَا، عَطْفُ قِصَّةٍ عَلَى قِصَّةٍ، وَمِن ثَمَّ فَلا يَضُرُّ اختِلَافُهُمَا خَبَرًا وَإِنشَاءً، قَالَ: ((هُوَ مِن عَطفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ فَلا يَضُرُّ تَخَالُفُهُمَا خَبَرًا، وَإِنشَاءً مَعَ أَنَّ المَقصُودَ بِالعَطفِ جَوَابُ القَسَمِ، وَجَعَلَه مَعطُوفًا عَلَى (صَرَّفْنَا) دُونَ (أَنزَلْنَا) وَإِنْ كَانَ هُوَ المُتَبَادِرَ لِتَمَامِ المُنَاسَبَةِ بَينَهُمَا))[٥١].

وَمِن ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي عَطفِ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [سورة يس: ٥٩]، عَلَى قَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ [سورة يس: ٥٥ -٥٦]، فَقَد وَضَّحَ الآلُوسِيُّ (ت١٢٧٠هـ) أَنَّ هَذَا العَطفَ مِن بَابِ عَطفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ فَلا يَضُرُّ اختِلَافُهُمَا مِن حَيثُ الخَبَرُ وَالإِنشَاءُ، قَالَ: ((وَالجُملَةُ عَطفًا عَلَى الجُملَةِ السَّابِقَةِ المَسُوقَةِ لِبَيَانِ أَحوَالِ أَصحَابِ الجَنَّةِ مِن عَطفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ فَلا يَضُرُّ التَّخَالُفُ إِنْشَائِيَّةً وَخَبَرِيَّةً، وَكَأَنَّ تَغيِيرَ السَّبكِ لِتَخيِيلِ كَمَالِ التَّبَايُنِ بَينَ الفَرِيقَينِ وَحَالَيْهِمَا))[٥٢].

نَمَاذِجُ قُرآنِيَّةٌ

مِن عَطْفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ:

وَلِتَكوِينِ صُورَةٍ وَاضِحَةٍ عَن عَطفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ لابُدَّ مِن ذِكرِ بَعضِ النَّمَاذِجِ القُرآنِيَّةِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا عَطفٌ؛ وَجَّهَهُ العُلَمَاءُ بِأَنَّهُ مِن عَطفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ، وَمِن هَذِهِ النَّمَاذِجِ مَا جَاءَ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗا ﴾[سورة آل عمران: ٧٥]، إِذْ إِنَّ

(٥٠) أنوار التَّنزيل: ٤/ ٤٠.

(٥١) حاشية الشِّهاب على تفسير البيضاويِّ: ٦/ ٢٢٨.

(٥٢) روح المعاني: ١٢/ ٣٨.

العَطفَ في أَوَّلِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ هُوَ مِن بَابِ عَطفِ القِصَّةِ، فَهُوَ مَعطُوفٌ، هُنَا، عَلَى قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ٧٢]. قَالَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور في تَوجِيهِهِ: ((عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: (وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ)،...، عَطْفُ الْقِصَّةِ عَلَى الْقِصَّةِ وَالْمُنَاسَبَةُ بَيَانُ دَخَائِلِ أَحْوَالِ الْيَهُودِ فِي مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ النَّاشِئَةِ عَنْ حَسَدِهِمْ وَفِي انْحِرَافِهِمْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ ادِّعَائِهِمْ أَنَّهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِهِ، فَقَدْ حَكَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ خِيَانَةَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ))[٥٣].

وَمِن صُوَرِ عَطْفِ القِصَّةِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ مَا جَاءَ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [سورة فصّلت: ٣٧]، إِذْ إِنَّهَا مَعطُوفَةٌ عَلَى قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة فصّلت: ٩] وَمَا بَعْدَهَا مِن آيَاتٍ كَرِيمَاتٍ؛ قَالَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور: ((عُطِفَ عَلَى جُمْلَة (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ) الْآيَةَ عَطْفَ الْقِصَّةِ عَلَى الْقِصَّةِ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذِكْرِ خَلْقِ الْعَوَالِمِ أَنَّهَا دَلَائِلُ عَلَى انْفِرَادِ اللَّهِ بِالْإِلَهِيَّةِ، فَلِذَلِكَ أَخْبَرَ هُنَا عَنِ الْمَذْكُورَاتِ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ بِأَنَّهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ انْتِقَالًا فِي أَفَانِينِ الِاسْتِدْلَالِ فَإِنَّهُ انْتِقَالٌ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ بِذَوَاتٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ بِأَحْوَالٍ مِنْ أَحْوَالِ تِلْكَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَابْتُدِئَ بِبَعْضِ الْأَحْوَالِ السَّمَاوِيَّةِ وَهِيَ حَالُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَحَالُ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَطُلُوعِ الْقَمَرِ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَهُ بَعْضَ الْأَحْوَالِ الْأَرْضِيَّةِ))[٥٤]. وَفِي تَعبِيرِ ابنِ عَاشُور، فِي هَذَا النَّصِّ، بِالفِعلِ (ابْتُدِئَ) إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ يَرَى فِي عَطفِ القِصَّةِ دَلَالَةً عَلَى الابْتِدَاءِ وَالاسْتِئنَافِ لِأَنَّ هَذَا النَّوعِ مِن العَطْفِ يُوحِي -مِن اسْمِهِ- بِالْبَدْءِ بِقِصَّةٍ جَدِيدَةٍ لَهَا تَعَلُّقٌ بِالقِصَّةِ السَّابِقَةِ.

وَمِن صُوَرِهِ الأُخْرَى فِي القُرآنِ الكَرِيمِ

(٥٣) التَّحرير والتَّنوير: ٣/ ٢٨٥.

(٥٤) التَّحرير والتَّنوير: ٢٤/ ٢٩٨.

مَا وَرَدَ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾[سورة الأعراف: ١٤٨]، إِذْ ذَهَبَ الشَّيخُ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور إِلَى أَنَّ الآيَةَ الكَرِيمَةَ مَعطُوفَةٌ عَلَى قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٢]، قَالَ: ((عُطِفَ عَلَى جُمْلَةِ: (وَواعَدْنا مُوسى) عَطْفَ قِصَّةٍ عَلَى قِصَّةٍ، فَذُكِرَ فِيهَا تَقَدَّمَ قِصَّةُ المُنَاجَاةِ، وَمَا حَصَلَ فِيهَا مِنَ الآيَاتِ وَالعِبَرِ، وَذُكِرَ فِي هَذِهِ الآيَةِ مَا كَانَ مِنْ قَومِ مُوسَى، فِي مُدَّةِ مَغِيبِهِ فِي المُنَاجَاةِ، مِنَ الإِشْرَاكِ))[٥٥].

وَمِن شَوَاهِدِ هَذَا العَطفِ مَا جَاءَ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ﴾ [سورة البقرة: ١١٤]، إِذْ تَحتَمِلُ الآيَةُ الكَرِيمَةُ أَن تَكُونَ مَعطُوفَةً عَلَى قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ [سورة البقرة: ١١٣]، مِن عَطفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ، وَتَحتَمِلُ أَن تَكُونَ اعْتِرَاضًا بِأَكثَرَ مِن جُملَةٍ بَينَ المَعطُوفِ وَالمَعطُوفِ عَلَيهِ[٥٦].

وَمِن عَطفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ مَا نَجِدُهُ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾[سورة يونس: ١٨]، فَقَد عَطَفَ النَّصُّ الكَرِيمُ (وَيَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ) عَلَى قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾[سورة يونس: ١٥]، قَالَ أَبُو السُّعُودِ: (((وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ): حِكَايَةٌ لِجِنَايَةٍ أُخرَى لَهُم نَشَأَتْ عَنْهَا جِنَايَتُهُم الأُولَى، مَعطُوفَةٌ عَلَى قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾الآيَةَ عَطفَ قِصَّةٍ عَلَى قِصَّةٍ))[٥٧].

وَمِن عَطفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ مَا جَاءَ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾، فَهِيَ مَعطُوفَةٌ عَلَى قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [سورة الواقعة: ١١ -١٢]؛ قَالَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور: ((فَجُمْلَةُ (وَأَصْحابُ الْيَمِينِ)

(٥٥) التَّحرير والتَّنوير: ٩/ ١٠٩.

(٥٦) روح المعاني: ١/ ٣٦١.

(٥٧) إرشاد العقل السَّليم: ٤/ ١٣١.

عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ (أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) عطف الْقِصَّة على الْقِصَّة))[٥٨].

وَيُلْحَظُ عَلَى بَعضِ هَـذِهِ النَّمَاذِجِ أَنَّ الْمُفَسِّرِينَ قَد لَجَـؤُوا إِلَى القَولِ بِعَطفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ بِوَصفِهِ أَحَدَ الأَوجُهِ النَّحوِيَّةِ فِي التَّحلِيلِ وَلَيسَ الوَجْهَ الوَحِيدَ، فَكَانَ عَطفُ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ وَسِيلَةً مِن وَسَائِلِ التَّأْوِيلِ النَّحوِيِّ، لِإِحْسَاسِ النُّحَاةِ بِالتَّعَارُضِ بَينَ القَوَاعِدِ النَّحوِيَّةِ وَالنَّصِّ الفَصِيحِ، فَلَم يَكُنِ القَولُ بِعَطفِ القِصَّةِ وَجْهًا وَحِيدًا مُقتَصَرًا عَلَيهِ، فَقَد يَحتَمِلُ العَطفُ أَكثَرَ مِن تَوجِيهٍ بِحَسَبِ المعنَى وَالتَّفسِيرِ.

التَّنَاسُب فِي المَعنَى بَينَ المُتَعَاطِفَين:

كَـانَ المعنَى دَلِيلًا أَسَاسِيًّا فِي تَوجِيهِ العَطفِ، وَالقَـولِ بِأَنَّهُ مِن بَـابِ عَطفِ القِصَّةِ عَـلى القِصَّةِ، وَقَـد بَـيَّنَ الشِّهَابُ الخَفَاجِيُّ أَنَّ عَطفَ القِصَّةِ هُـو عَطْفٌ لِمَجمُوعِ جُمَلٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَلَى مِثْلِهَا، وَمِن ثَمَّ فَلا بُدَّ مِن التَّنَاسُبِ بَينَ القِصَّتَينِ دُونَ الجُمَلِ المُفرَدَةِ، قَالَ عَنِ العَطفِ: إِنَّهُ قَد ((يَكُونُ بَينَ قِصَّتَينِ بِأَنْ يُعطَفَ مَجْمُوعُ جُمَلٍ مُتَعَدِّدَةٍ مَسُوقَةٍ لِمَقصُودٍ عَلَى مَجْمُوعِ جُمَلٍ أُخرَى مَسُوقَةٍ لِغَرَضٍ آخَرَ فَيُعتَبَرُ حِينَئِذٍ التَّنَاسُبُ بَينَ القِصَّتَينِ دُونَ آحَادِ جُمَلِهَا))[٥٩]. وَمِن هُنَا كَانَ المُفَسِّرُونَ يَبحَثُونَ عَنِ التَّنَاسُبِ المَعْنَوِيِّ وَالاتِّسَاقِ الدَّلَالِيِّ بَينَ القِصَّتَينِ. وَمِن أَمثِلَةِ ذَلِكَ مَا نَجِدُه فِي تَوجِيهِ عَطفِ (وَإِذْ قَالَتِ المَلَائِكَةُ) فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[سورة آل عمران: ٤٢]، عَلَى قولِهِ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[سورة آل عمران: ٣٥]، إِذْ نَجِدُ المُفَسِّرِينَ يَحْتَكِمُونَ إِلَى المَعنَى وَيَجعَلُونَهُ مِعيَارًا يَقُودُهُم إِلَى أَن يَعُدُّوا العَطْفَ، فِي مِثْلِ هَـذا، عَطفَ قِصَّةٍ عَلَى قِصَّةٍ؛ قَالَ أَبُو السُّعُودِ: ((وَإِذْ: مَنصُوبٌ بِمُضمَرٍ مَعطُوفٍ عَلَى المُضمَرِ السَّابِقِ عَطْفَ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ، وَقِيلَ مَعطُوفٌ عَلَى الظَّرفِ السَّابِقِ أَعنِي قَولَه إِذْ

(٥٨) التَّحرير والتَّنوير: ٢٧/ ٢٩٨.

(٥٩) حاشية الشِّهاب على تفسير البيضاويِّ: ٢/ ٥٦.

قَالَت امْرَأَةُ عمرانَ مَنصُوبٌ بِنَاصِبِه))[٦٠].

وَيَذكُرُ الآلُوسيُّ أَنَّ بَينَ المَعطُوفِ وَالمَعطُوفِ عَلَيهِ هُنَا مُنَاسَبَةً مَعنَوِيَّةً نَابِعَةً مِن تَرَابُطِ القِصَّتَينِ لِذَا كَانَ مِن المُنَاسِبِ وُجُودُ العَطفِ بَينَهُمَا، قَالَ: ((وَالجُملَةُ مَعطُوفَةٌ عَلَى الجُملَةِ السَّابِقَةِ عَطفَ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ وَبَينَهُمَا كَمَالُ المُنَاسَبَةِ لِأَنَّ تِلكَ مَسُوقَةٌ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ لِشرحِ حَالِ الأُمِّ وَهَذِهِ لِشَرحِ حَالِ البِنتِ))[٦١].

وَمِن هُنَا كَانَ المُفَسِّرُونَ يَبحَثُونَ عَن رَابِطٍ وَلَو خَفِيًّا يَربطُ القَصَصَ القُرآنِيَّ بِأَنْ يَكُونَ بَعضُهَا مَعطُوفًا عَلَى بَعضٍ، مِن خِلالِ النَّظَرِ إِلَى النَّصِّ عَلَى أَنَّهُ وَحْدَةٌ كَامِلَةٌ مُتَرَابِطَةٌ دَلَالِيًّا، وَمِن ذَلِكَ مَا نَجِدُهُ فِي العَطْفِ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[سورة البقرة: ٢٥]. فَهَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ مَعطُوفَةٌ عَلَى قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة: ٨] وَمَا بَعدَهَا مِن آيَاتٍ، عَطْفَ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَجْمُوعَةٍ مِن الآيَاتِ الكَرِيمَاتِ تُمَثِّلُ قِصَّةً وَنَصًّا مُستَقِلًّا دَلَالِيًّا؛ فَالمَجمُوعَةُ الأُولَى تَتَنَاوَل فَرِيقَ المُؤمِنِينَ وَأَحوالَهُم، وَالمَجمُوعَةُ الثَّانِيَةُ تَتَنَاوَلُ حَالَ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ وَدَوَاخِلَهُم النَّفْسِيَّةَ وَحِيَلَهُم الَّتِي يَستَعمِلُونَهَا فِي خِدَاعِ المُؤمِنِينَ، وَقَد وَضَّحَ الآلُوسيُّ الرَّابِطَ المَعنَوِيَّ بَينَ القِصَّتَينِ الَّذِي دَعَاهُ إِلَى القَولِ بِأَنَّهُ مِن عَطْفِ القِصَّةِ، قَالَ: ((لَمَّا ذَكَرَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى فِيمَا تَقَدَّمَ الكُفَّارَ –وَمَا يَؤُولُ إِلَيهِ حَالُهُم فِي الآخِرَةِ،... ، عَقَّبَ بِالمُؤمِنِينَ وَمَا لَهُم جَرْيًا عَلَى السُّنَّةِ الإِلَهِيَّةِ مِن شَفْعِ التَّرغِيبِ بِالتَّرهِيبِ وَالوَعدِ بِالوَعِيدِ،... ، فَكَأَنَّ هَذَا وَمَا بَعْدَهُ مَعطُوفٌ عَلَى سَابِقِهِ عَطْفَ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ، وَالتَّنَاسُبُ بَينَهُمَا بِاعْتِبَارِ أَنَّه بَيَانٌ لِحَالِ الفَرِيقَينِ المُتَبَايِنَينِ وَكَشْفٌ عَن الوَصفَينِ المُتَقَابِلَينِ))[٦٢].

حُرُوفُ العَطْفِ فِي عَطْفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ:

لَيسَ غَرِيبًا أَنْ تَكُونَ الوَاوُ هِيَ الحَرفَ

(٦٠) إرشاد العقل السَّليم: ٢/ ٣٤.

(٦١) روح المعاني: ٢/ ١٤٨. وينظر: إعراب القرآن وبيانه: ١/ ٥٠٧.

(٦٢) روح المعاني: ١/ ٢٠٢.

الأَكْثَرَ تَكْرَارًا فِي عَطْفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ، لِأَنَّهَا أَصْلُ حُرُوفِ العَطْفِ وَأُمُّ البَابِ فِي أُسْلُوبِ العَطْفِ[٦٣]، وَذَلِكَ لِمَا فِيهَا مِن دَلَالَةٍ عَلَى الابْتِدَاءِ وَالاسْتِئْنَافِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الانْتِقَالُ مِن قِصَّةٍ وَالابْتِدَاءُ بِقِصَّةٍ أُخْرَى. وَمَا مَرَّ بِنَا مِن نَمَاذِجَ قُرآنِيَّةٍ لِعَطْفِ القِصَّةِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ يُوحِي بِأَنَّ هَذَا النَّوعَ مِن العَطْفِ لا يَكُونُ إِلَّا بِحَرفِ العَطْفِ: الوَاوِ، غَيرَ أَنَّ ثَمَّةَ إِشَارَاتٍ عِندَ النَّحوِيِّينَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا العَطْفَ قَد يَأْتِي بِحُرُوفٍ أُخْرَى، فَقَد يَأْتِي بِحَرفِ العَطْفِ (ثُمَّ)، وَمِن هَذِهِ الإِشَارَاتُ مَا جَاءَ عِندَ الرَّضِيِّ الاسْتِرَابَادِي، إِذْ ذَكَرَ أَنَّ التَّاءَ قَد تَلْحَقُ (ثُمَّ) إِذَا وَلِيَهَا مُؤَنَّثٌ، ((وَذَلِكَ إِذَا عَطَفْتَ بِـ(ثُمَّ) قِصَّةً عَلَى قِصَّةٍ، قَالَ[٦٤]:

[وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي]

فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ: لا يَعْنِينِي

وَلَا تَقُولُ: جَاءَنِي زَيدٌ ثُمَّت عَمْرٌو، وَقَد جَوَّزَه ابنُ الأَنبَارِيِّ، وَلَا أَدْرِي مَا صِحَّتُهُ))[٦٥]. وَالرَّضِيُّ الاسْتِرَابَادِيُّ يَشتَرِطُ دُخُولَ التَّاءِ عَلَى (ثُم) بِأَنْ تَكُونَ فِي سِيَاقِ عَطْفِ قِصَّةٍ عَلَى قِصَّةٍ. وَفِي كَلَامِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ (ثُمَّت) تَكُونُ لِعَطْفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ، وَلا يُمْكِنُ اسْتِعْمَالُهَا فِي عَطْفِ المفرَدِ عَلَى المفرَدِ، كَمَا فِي المِثَالِ الَّذِي مَثَّلَ بِهِ.

فِي حِينِ بَيَّنَ عَبدُ القَادِرِ البَغدَادِيُّ (ت١٠٩٣هـ) أَنَّ (ثُمَّ) إِذَا لَحِقَتْهَا التَّاءُ اخْتَصَّتْ بِنَوعٍ مُحَدَّدٍ مِن العَطفِ هُوَ عَطْفُ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ، قَالَ: ((ثُمَّ، إِذَا لَحِقَتْهَا التَّاءُ، اخْتَصَّت بِعَطفِ قِصَّةٍ عَلَى قِصَّةٍ))[٦٦].

وَقَد جَعَلَ أَبُو السُّعُودِ وَالآلُوسِيُّ (ثُمَّ) فِي قَولِهِ تَعَالَى ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ [سورة يونس: ٧٥] دَالَّةً عَلَى عَطْفِ قِصَّةٍ عَلَى

(٦٣) ينظر: عِلل النَّحو: ٣٧٧، واللُّباب في علل البناء والإعراب: ١/ ٤١٦.

(٦٤) يُنسَب إلى رجل من سلول في: الكتاب ٣/ ٢٤، وشرح التَّصريح: ٢/ ١١٤، وإلى شمر بن عمرو الحنفيّ في: الأصمعيّات: ١٢٦، وبلا نِسبة في: الخصائص: ٣/ ٣٣٣، وأمالي ابن الحاجب: ٢/ ٦٣١، وأوضح المسالك: ٣/ ٢٧٦، ومغني اللبيب: ١/ ١٣٨، وهمع الهوامع: ١/ ٤٢، وخزانة الأدب: ١/ ٣٥٧. وينظر: المعجم المفصَّل في شواهد العربيَّة: ٨/ ٢٧١.

(٦٥) شرح الرَّضِّي على الكافية: ٤/ ٢٤١.

(٦٦) خزانة الأدب: ٩/ ٣٨٣.

قِصَّةٍ[٦٧]، إِذْ عَطَفَت قِصَّةَ مُوسَى عليه السلام عَلَى قِصَصِ الأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ فِي الآيَةِ السَّابِقَةِ الَّتِي تَبْدَأُ بِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم ﴾[سورة يونس: ٧٤].

وَوَقَفَ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُور عِندَ قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾[سورة الروم: ٣٥]، فَذَهَبَ إِلَى أَنَّ (أَمْ)، فِيهَا، قَد تَكُونُ مُنْقَطِعَةً مِثلَ (بَلْ)، وَقَد تَكُونُ حَرفَ عَطْفٍ يَدُلُّ عَلَى الإِضْرَابِ جَاءَ لِعَطْفِ قِصَّةٍ عَلَى قِصَّةٍ، قَالَ: ((أَمْ مُنْقَطِعَةٌ، فَهِيَ مِثْلُ (بَلْ) لِلْإِضْرَابِ هُوَ إِضْرَابٌ انْتِقَالِيٌّ. وَإِذْ كَانَ حَرْفُ أَمْ حَرْفَ عَطْفٍ فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا بَعْدَهَا إِضْرَابًا عَنِ الْكَلَامِ السَّابِقِ فَهُوَ عَطْفُ قِصَّةٍ عَلَى قِصَّةٍ بِمَنْزِلَةِ ابْتِدَاءٍ))[٦٨].

وَفِي الخِتَامِ فَإِنَّ هَذَا البَحْثَ يَكْشِفُ، فِي وَجْهٍ مِن وُجُوهِهِ، عَن مَدَى تَدقِيقِ المُفَسِّرِينَ وَعُلَمَاءِ العَرَبِيَّةِ القُدَمَاءِ فِي لُغَةِ القُرآنِ الكَرِيمِ وَالغُوصِ فِي تَرَاكِيبِهَا وَعِبَارَاتِهَا مِن زَاوِيَةٍ تَحلِيلِيَّةٍ فَاحِصَةٍ تَنْظُرُ إِلَى النَّصِّ الكَرِيمِ فِي أَصْغَرِ جُزْئِيَاتِهِ نَظْرَةً مُتَمَعِّنَةً تَسْعَى لِبَيَانِ الرَّوَابِطِ اللُّغَوِيَّةِ بَينَ أَجزَائِهِ وَمُكَوِّنَاتِهِ، فَلا تَغْفُلُ عَن شَيءٍ فِيهِ، إِذْ تَجِدُ اللُّغَوِيَّ يَبحَثُ عَن الصِّلَاتِ وَالوَشَائِجِ الرَّابِطَةِ لِجَمِيعِ مَحَاوِرِ النَّصِّ وَأَبْعَادِهِ، مِمَّا يُفصِحُ عَن عُمْقِ هَذِهِ النَّظْرَةِ وَدِقَّتِهَا وَتَتَبُّعِهَا لِكُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ بِمَا يَخْدُمُ النَّصَّ وَجَمَالَهُ وَقُوَّتَهُ.

وَعَطْفُ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ نَمَطٌ تَركِيبِيٌّ يَقُومُ عَلَى عَطْفِ كَلَامٍ كُلِّيٍّ فِيهِ فِكْرَةٌ كَامِلَةٌ عَلَى كَلَامٍ كُلِّيٍّ آخَرَ فِيهِ فِكْرَةٌ تَامَّةٌ أَيضًا، بِشَرطِ أَنْ يَكُونَ بَينَ الكَلَامَينِ الكُلِّيَّينِ أَو القِصَّتَينِ خَيْطٌ دَلَالِيٌّ يَربطُ بَينَهُمَا وَيَجْمَعُهُمَا. وَقَد بَدَأَت الإِشَارَاتُ الأُولَى إِلَى هَذَا النَّمَطِ التَّركِيبِيِّ لِأُسلُوبِ العَطْفِ فِي كُتُبِ مَعَانِي القُرآنِ وَتَفسِيرِهِ، إِذْ ظَهَرَتْ أَوَّلًا عِندَ الزَّجَّاجِ وَتَطَوَّرَتْ عِندَ الزَّمَخْشَرِيِّ وَغَيرِهِ مِن العُلَمَاءِ الَّذِينَ ذَكَرَهُم البَحْثُ، كَالطِّيبِيِّ وَالزَّرْكَشِي وَأَبِي السُّعُودِ.

المصادر والمراجع:

- الأحرف السبعة للقرآن، أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ)، تح: د. عبد

(٦٧) إرشاد العقل السَّليم: ٤/ ٧٦١، وروح المعاني: ٦/ ١٥٣.

(٦٨) التَّحرير والتَّنوير: ٢١/ ٩٩.

المهيمن طحان، مكتبة المنارة-مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٨ه.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (ت ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي -بيروت.
- أساس البلاغة، الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية -بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.
- أسلوب العطف: إعادة صياغة (بحث)، د. شوقي المعري، مجلة التراث العربي السورية، العدد ١١١، لسنة ٢٠٠٨ م.
- الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج (ت ٣١٦هـ)، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان-بيروت.
- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش (ت ١٤٠٣هـ)، دار الإرشاد للشؤون الجامعية -سورية، ط ٤، ١٤١٥ هـ.
- أمالي ابن الحاجب، عثمان بن عمر ابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ)، تح: د. فخر صالح سليمان قدارة، دار عمار-الأردن، ١٩٨٩م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، جمال الدين عبد الله ابن هشام (ت ٧٦١هـ)، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، د. ط، د. ت.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل-بيروت، ط٣.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر -بيروت، ط: ١٤٢٠هـ.
- البديع في علم العربية، ابن الأثير

(ت ٦٠٦ هـ)، تح: د. فتحي أحمد علي الدين، جامعة أم القرى -مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٠هـ.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم،، دار إحياء الكتب -القاهرة، ط١، ١٩٥٧م.
- البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (ت ١٤٢٥هـ)، دار القلم -دمشق، ط١، ١٩٩٦م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد الحسيني، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية -تونس، ١٩٨٤هـ.
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، شمس الدين محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية-القاهرة، د. ط، د.ت.
- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي (ت ٧١٠هـ)، تح: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب -بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، (ت ٣٧٠هـ)، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- التوابع في النحو العربي للدكتور محمود سليمان ياقوت، مصر، د. ط، د. ت.
- التوابع والأساليب النحوية للدكتور حسن محمد نور المبارك، جامعة قناة السويس، ٢٠٠٦م.
- توجيه اللمع، أحمد بن الحسين بن الخباز (ت٦٣٩ه)، تح: د. فايز زكي محمد دياب، دار السلام -القاهرة، ط٢، ٢٠٠٧م.
- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، بدر الدين حسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ)، تح: عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر

العربي-ط١، ٢٠٠٨م.
- جمهرة اللغة، ابن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ)، تح: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين -بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي (ت ١٣٦٢هـ)، المكتبة العصرية -بيروت، د. ط، د. ت.
- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (عناية القاضي وكفاية الرّاضيي)، شهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ)، دار صادر -بيروت، د. ط، د. ت.
- حاشية الصبان على شرح الأشموني، محمد بن علي الصبان (ت ١٢٠٦هـ)، دار الكتب العلمية -بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- حاشية الطيبي على الكشاف (فتوح الغيب)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت ٧٤٣ هـ)، تح: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، دبي، ط١، ٢٠١٣م.
- الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ)، تح: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق -بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ.
- حروف العطف بين الدرس النحوي والاستعمال القرآني، د. عبد الستار مهدي علي، دار الرضوان -عَمّان، ط١، ٢٠١٤م.
- خزانة الأدب، عبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط٤، ١٩٩٧م.
- الخصائص، ابن جني، (ت ٣٩٢هـ)، تح: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، د. ت.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، تح: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم -دمشق.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني -القاهرة، ط٣، ١٩٩٢م.
- روح البيان، إسماعيل حقي بن

مصطفى الخلوتي (ت ١١٢٧هـ)، دار الفكر-بيروت، د. ط، د. ت.

- روح المعاني، شهاب الدين الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ)، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية -بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.
- السبعة في القراءات، ابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ)، تح: د. شوقي ضيف، دار المعارف-مصر، ط٢، ١٤٠٠هـ.
- شرح التصريح على التوضيح، الشيخ خالد الأزهري (ت ٩٠٥هـ)، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- شرح الرضي على الكافية، رضي الدين الاستراباذي (ت ٦٨٦ هـ)، تح: د. يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس -ليبيا، ١٩٧٥م.
- شرح المفصل، ابن يعيش (ت٦٤٣هـ)، تح: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية -بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- شرح كتاب سيبويه، علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٤ هـ)، تح: سيف بن عبد الرحمن العريفي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض، ١٩٩٨م.
- شرح كتاب سيبويه، أبو سعيد السيرافي (ت ٣٦٨ هـ)، تح: أحمد حسن مهدلي، دار الكتب العلمية -بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.
- الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين -بيروت، ط٤، ١٩٨٧م.
- عروس الأفراح، بهاء الدين السبكي (ت ٧٧٣ هـ)، تح: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية -بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
- علل النحو، ابن الوراق (ت ٣٨١هـ)، تح: د. محمود جاسم الدرويش، مكتبة الرشد- الرياض، ط١، ١٩٩٩م.
- الفصل والوصل في القرآن الكريم، د. منير سلطان، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط٢، د. ت.
- الفصول المفيدة في الواو المزيدة، صلاح الدين العلائي (ت ٧٦١هـ)،

تح: د. حسن موسى الشاعر، دار البشير -عمان، ط١، ١٩٩٠م.
- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ)، تح: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د. ط، د. ت.
- كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان المشهور بسيبويه (ت ١٨٠هـ)، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي -القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٤٠٧ هـ.
- الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، تح: عدنان درويش-محمد المصري، مؤسسة الرسالة -بيروت، د. ط، د.ت.
- اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء العكبري (ت ٦١٦هـ)، تح: د. عبد الإله نبهان، دار الفكر -دمشق، ط١، ١٩٩٥م.
- اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي الدمشقي (ت ٧٧٥هـ)، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر -بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية -بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
- المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده (ت: ٤٥٨هـ)، تح: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- معاني القراءات، أبو منصور الأزهري، مركز البحوث -جامعة الملك سعود، ط١، ١٩٩١م.
- معاني القرآن وإعرابه، الزجاج (ت ٣١١هـ)، عالم الكتب -بيروت، ط١،

١٩٨٨م.
- المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية، د. اميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية -بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة.
- معجم ديوان الأدب، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي (ت ٣٥٠هـ)، تح: د. أحمد مختار عمر، مؤسسة دار الشعب -القاهرة، ٢٠٠٣م.
- معجم متن اللغة، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة -بيروت، ط١، ١٩٥٨م-١٩٦٠م.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تح: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر -دمشق، ط٦، ١٩٨٥م.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط٣، ١٤٢هـ.
- المفصل في صنعة الإعراب، الزمخشري، تح: د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال -بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- المناسبة بين المعاني وأثرها في عطف الجمل، (بحث)، د. الحسن المثنَّى عمر الفاروق، مجلة مركز البحوث في الآداب والعلوم التربويَّة، العدد الثامن، لسنة: ١٤٢٨ه.
- النحو الوافي، عباس حسن (ت ١٣٩٨هـ)، دار المعارف -القاهرة، ط١٥، د. ت.
- همع الهوامع، السيوطي (ت ٩١١هـ)، تح: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية -مصر، د. ط، د. ت.

دَوْرُ العِلْمِ في تَطْوِيرِ التَّفْسِيرِ وَتَصْحِيحِهِ..

هاشم ابوخمسين

الاحساء- المملكة العربية السعودية

فحوى البحث

للبحث هدف أساس يتمثل في التعرف على دور العلم في تطوير التفسير وتصحيحه.

أما الأهداف الثانوية، فتتمثل في ثلاثة أمور هي:

١. التعرف على أمثلة من مساهمة العلم في التعمق في التفسير، واكتشاف مصاديق أو معانٍ جديدة فيه.
٢. التعرف على أمثلة من أنموذجات استعمال بعض المفسرين للعلم خارج الضوابط التفسيرية المعهودة.
٣. التعرف على أمثلة من مساهمة العلم في تصحيح الخاطيء للآيات.

ويقوم السيد الباحث بعرض بعض المعلومات من التفسير على قلَّتها ثم يحللها لمعرفة دور العلوم البشرية وأثر تطورها في تطوير التفسير من جهة، ولتوضيح كيف أن نتائج تلك العلوم أثَّرت في تصحيح بعض المعلومات التفسيرية المخطوءة في كتب المتقدمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

محاور الدرس:

أولا: أمثلة على أن العلم ساهم في التعمق في التفسير واكتشاف مصاديق أو معان جديدة.

ويجدر التنبيه -قبل الدخول -على هذه اللنقطة وهي أن ما أشار إليه القرآن الكريم في هذه الآيات القرآنية العلمية المشار أليه في هذا المبحث، وإن كانت تبدو للنظر محسوسة وملموسة يمكن أن يدركها عامّة الناس، إلا أنه مع تطور العلم وتقدمه تبدو للبشر لطائف جديدة في هذا المجال، وتتضح للعلماء أمور ذات أهمية كبرى[1].

١. تطور علم الفلك وتأثيره في تفسير بعض الآيات:

إن تطور العلم والتكنولوجيا الحديثة كشف الكثير من الحقائق القرآنية، ولعل من ذلك أن الشمس وردت في القرآن الكريم ٣٣ مرّة وبمعان فلكية رائعة تحكي الحقيقة العلمية بكلّ وضوح، ولعل أهمها تلك الآيات التي تتحدث عن حركاتها الكثيرة وبأسلوب علمي جمالي يخلب الألباب، وتلك الآيات التي تتحدث عن هرم الشمس وشيخوختها وموتها في آخر الأمر كبقيّة المخلوقات التي نشرها الله تعالى في كونه الكبير.

وردت الشمس كما وردت بقية الأجرام الكونية والظواهر السماوية الأخرى ضمن أسلوب وهدف القرآن، وهو الهداية وإخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم والحياة. ولأن القرآن ليس كتابا علميا خاصا، لم يتعرض إلى قطرها، ولا إلى حجمها، ولا إلى كثافتها، ولا إلى درجة حرارتها أو جاذبيّتها، ولا لأي رقم علمي محدّد مما تتعرض له الدراسات الكونية المعاصرة، ولكن يمكن لقارئ القرآن والباحث في الآيات الكونية أن يحصل على بعض المعلومات الممتازة عن الشمس وان كانت قليلة، ويمكن أن يأتي باحث آخر ويلتقط معلومات أخرى ضمن حدود معينة أخرى، ويبقى الباحثون الجادّون غائصين في بحر القرآن، كلّ يلتقط ما يستطيع من لآلئه، مستفيدين

(١) الشيخ مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٢/ ٤٩٣.

من علوم عصرهم، فهي أضواء إضافية تنير الطريق للغوص في طرق الشمس والآيات الكونية الأخرى الزاخرة في القرآن الكريم، فإن ما يتوصل إليه العلماء في مجال الفلك في هذا العصر الحديث المملوء بالاكتشافات الباهرة حول هذا الجرم السماوي هو يؤكد ويؤيد يوما بعد آخر ما ذكره ديننا الإسلامي حول الشمس في جميع خصوصياتها[٢].

تعالوا بنا لنتأمل في جانب آخر من جوانب الإعجاز القرآني في إثباته لحقائق علمية لم تظهر إلا في زماننا هذا. ففي نهاية سنة ١٩٩٨م أعلن في إذاعة لندن -القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية -خبر مهم عن أهم اكتشاف في هذا العام حيث توصل علماء الفلك إلى أن الكون يزداد ويتسع. فتوارد إلى ذهني قول الله تعالى في سورة الذاريات؛ ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[سورة الذاريات: ٤٧].

ولكن هل فطن المفسرون المتقدمون إلى ذلك؟.

لنرجع معاً إلى ما كتبه الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية، حيث قال:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ ﴾ [سورة الذاريات: ٤٧]، لما بين هذه الآيات قال: وفي السماء آيات وَعِبرَ تدل على أن الصانع قادر على الكمال، فعطف أمر السماء على قصة قوم نوح لأنهما آيتان. ومعنى «بأيد» اي بقوة وقدرة؛ عن ابن عباس وغيره. «وإنا لموسعون»، قال ابن عباس: لقادرون. وقيل: اي وإنا لذو سعة، وبخلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شيء نريده. وقيل: اي وإنا لموسعون الرزق على خلقنا. عن ابن عباس أيضا. الحسن: وإنا لمطيقون. وعنه أيضا: وإنا لموسعون الرزق بالمطر. وقال الضحاك: أغنيناكم؛ دليله: ﴿ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٦]. وقال القتبي: ذو سعة على خلقنا. والمعنى متقارب. وقيل: جعلنا بينها وبين الأرض سعة. الجوهري: وأوسع الرجل اي صار ذا سعة وغنى، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[سورة الذاريات: ٤٧] اي

(٢) السيد محمد الحسيني الشيرازي، تقريب القرآن إلى الأذهان:١/ ٥٥. الناشر: دار العلوم. الطبعة الأولى١٤٢٤هـ، بيروت.

أغنياء قادرون. فشمل جميع الأقوال[٣].

ما تعنيه السماء، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ [سورة الطارق: ١١].

ورد عن ابن عباس في هذه الآية، قال: المطر بعد المطر[٤]. وهو وإن كان تفسيرا علميا بل ولعله أشار إلى دورة المياه الكبرى، ولكن مع تطور العلم اكتشف أن السماء ترجع أشياء كثيرة غير المطر.

فذات الرجع، إذ تعكس ما يتصاعد إليها من بخار ماء، كما أن الطبقة الأعلى منها (ستراتوسفير) أيضا ذات رجع، ويحدث فيها معظم عمليات إنزال المطر، ويعود فيها غاز الأوزون بتأثير الأشعة فوق البنفسجية إلى غاز الأوكسجين، والطبقتان العلويتان (أيونوسفير وسيزوسفير) ذواتا رجع أيضا، لأنهما تعكسان وتردان موجات الراديو الطويلة والمتوسطة وبعض الموجات القصيرة المتأينة، الصاعدة إليها من سطح الأرض. كما تعكس هاتان الطبقتان أيضا الموجات الساقطة على الغلاف الجوي من الفضاء الخارجي، وتعيدها إليه[٥].

٢. تطور علم الطب وتأثيره في تفسير بعض الآيات:

في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [سورة الطارق: ٥-٧] فسروا «فلينظر الإنسان» بالمكذب المنكر للبعث، فلينظر وليفكر وليستدل؛ «ممّ خلق» وان الذي خلقه من نطفة قادر على إعادته وبعثه؛ «خلق من ماء دافق» يعني المني الذي تكون منه الولد؛ «يخرج من بين الصلب والترائب» صلب الرجل وترائب المرأة، والمشهور في كلام العرب أن الصلب والترائب هي عظام الصدر والنحر[٦].

والطب أثبت والتشريح يثبت خروجه من منطقة أسفل الحوض حيث يستقر الجهاز التناسلي الذكري.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٨/ ٥٢.

(٤) السيوطي، الدر المنثور في تفسير المأثور: ٦/ ٣٣٧.

(٥) خالد فائق العبيدي، الفلك: ٦١. دار الكتب العلمية الأولى، ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م. بيروت.

(٦) محمد باقر الناصري، مختصر مجمع البيان: ٣/ ٥٤٨. مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم. الطبعة الثانية ١٤١٣هـ، قم.

لقد كان تفسير قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾[سورة العلق: ٢] بمعنى دم. وقال «من علق» بلفظ الجمع -جمع علقة، والعلقة الدم الجامد، وإذا جرى فهو المسفوح -لأنه أراد بالإنسان الجمع، وكلهم خلقوا من علق بعد النطفة. والعلقة قطعة من دم رطب، سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه، فإذا جفت لم تكن علقة[٧].

اكتشف الطب الحديث أن هذا السائل من منيّ الإنسان يحوي حيوانات صغيرة تسمى الحيوانات المنوية، وهي لا ترى بالعين المجرّدة، إنما ترى بالمكرسكوب. وكل حيوان منها له رأس ورقبة وذيل يشبه دودة العلق في شكلها ورسمها، وأن هذا الحيوان يختلط بالبويضة الأنثوية فيلقحها، فإذا ما تمّ اللقاح انطبق عنق الرحم فلم يدخل شيء من بعده إلى الرحم، وأمّا بقية الحيوانات فتموت.

وهذه الناحية العلمية وهي أن الحيوان المنوي يشبه العلق في الشكل والرسم فقد أثبتها القرآن، استمع إلى قوله جلّ وعلا: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [سورة العلق: ١ -٢] فهذه الآية معجزة بليغة من معجزات القرآن لم تظهر وقت نزولها ولا بعده بمئات السنين إلى أن اكتشف المجهر المكبّر (المكرسكوب) وعرف كيف يتكون الإنسان بقدرة الله[٨].

وكنتيجة لزيادة عدد الاكتشافات العلمية فقد تغير التفسير والفهم لكلمة «علق» من الدم إلى الشيء المعلق -وبداية الجنين عبارة عن شيء معلق في جدار الرحم -والشيء الماص -وبداية الجنين عبارة عن موجود يتغذى بطريقة المص من جدار الرحم -والشيء المتغذي على الدم- وبداية الجنين عبارة عن موجود يتغذى على الدم فقط -[٩].

- البصمات، في قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ [سورة القيامة: ٤].

(٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٢١/ ١١٩.

(٨) محمد علي الصابوني، التبيان في علوم القرآن: ١٣٤، عالم الكتب، الأولى. ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م. بيروت.

(٩) محمد على رضايى اصفهاني، پژوهشى در اعجاز علمى قرآن: ٢٩١، ناشر: كتاب مبين، ١٣٨١ ايران.

عند إحاطتنا بدلالات الكلمة اللغوية-الحقيقة والمجازية -واستعمالات العرب لها، إن وجدنا أن حقيقة علمية تؤيد إحدى هذه الدلالات، لا بأس عندئذ أن نرجح الدلالة التي أيدتها الحقيقة العلمية، على أن لا نحكم بالبطلان والفساد على الدلالة التي رجحناها من جهة أخرى، فقد تكون الحقيقة العلمية التي رجحنا في ضوئها هذه الدلالة إحدى وجوه دلالات الآية، وظلالها ممتدّة إلى حقائق أخرى لم نتمكن من التوصل إليها حسب ثقافة عصرنا، إلا أن التقدم العلمي والحضاري كفيل أن يميط اللثام لنا عن جوانب أخرى.

فمثلا قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ [سورة القيامة: ٤] كان إلى ما يقرب من مائة سنة ينظر إلى دلالة تسوية البنان، نظرة تختلف عن نظرتنا لها الآن بعد معرفة قضية البصمات، إلا أننا لا نبطل كلام السلف في معنى الآية، فالآية تدل على ما قالوه وما فهموه، والشعور الذي استقر في نفوسهم عن أن هنالك حكمة عظيمة في خلق البنان وتسويته على هذه الشاكلة شعور مرهف وصحيح، وإن كان فهمنا الآن لدلالة الآية في ضوء معطيات العلم الحديث أعمق وأدل، وشعورنا في دقة صنعة الخالق سبحانه وتعالى وحكمته سليم وصحيح، ولكن لا نستطيع أن نقول أن معنى الآية هو هذا فحسب، وليس بعد فهمنا لها فهم آخر، بل قد يكشف لنا المستقبل عن أسرار إلهية في البنان فوق ما تصورناه ووصلت إليه مداركنا العصرية، وتبقى الآية الكريمة مجال بحث الباحثين واستنباط المفكرين وبصمة إعجاز على جبين العصور؛ ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ [سورة القيامة: ٤].

٣. التطورات السياسية وتأثيرها في تفسير بعض الآيات:

- لقد فرض على العالم الإسلامي الكثير من التحديات التي لم تكن في الحسبان، منها الاحتلال الصهيوني لفلسطين. ومن كان يظن أن اليهود ستكون لهم قوة وسطوة، ويصبح لهم كيان!. وتقام لهم دولة!. يهاجرون إليها من كل حدب وصوب!؟.

والمتأمل في آيات القرآن الكريم يجد إشارات صريحة إلى هذا الواقع المرير الذي نعيشه، فضلا عن اشتماله على جوانب متعددة من الإعجاز العلمي الذي يسبق به كل عصر، ولا عجب فهو المعجزة الخالدة والعطاء المتجدد والنهر المتدفق الذي لا ينقطع إمداده ولا تنقضي عجائبه، وصدق المولى إذ يقول: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[سورة الكهف: ١٠٩].

ولنتأمل، على سبيل المثال، ما ذكره القرطبي في تفسير قوله تعالى في سورة الإسراء، والتي تسمى أيضا سورة بني إسرائيل: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾[سورة الإسراء: ١٠٤]، قال: «وقلنا من بعده» اي من بعد إغراق فرعون؛ «لبني إسرائيل اسكنوا الأرض» اي أرض الشام ومصر؛ «فإذا جاء وعد الآخرة» اي القيامة؛ «جئنا بكم لفيفا» اي من قبوركم مختلطين من كل موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيّه. وقال ابن عباس وقتادة: جئنا بكم جميعا من جهات شتى. والمعنى واحد. قال الجوهري: واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى، يقال جاء القوم بلفهم ولفيفهم اي وأخلاطهم، وقوله تعالى ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ اي مجتمعين مختلطين، وطعام لفيف إذا كان مخلوطا من جنسين فصاعدا، وفلان لفيف فلان اي صديقه. قال الأصمعي: اللفيف جمع وليس له واحد، وهو مثل الجميع، والمعنى أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر، مختلطين لا يتعارفون. وقال الكلبي: «فإذا جاء وعد الآخرة» يعني مجيء عيسى عليه السلام من السماء[١٠].

وها نحن رأينا الآن الهجرة الجماعية لليهود إلى إسرائيل وعملية اغتصاب أراضي إخواننا الفلسطينيين وتحويلها إلى مستوطنات لليهود!. أليس لهذا الواقع اعتباره حين نمر بهذه الآيات ونفسرها في ضوء واقعنا المعاصر؟. أليس هذا من

(١٠) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢١٩. ويراجع جامع البيان، للطبري: ١٥/ ١٧٦-١٧٧.

إعجاز القرآن الكريم حيث أخبرنا عن حاضرنا ومستقبلنا؟. فهو رسالة صالحة لكل زمان ومكان.

٤. **تطور علم المكانيك وتأثيره في تفسير بعض الآيات:**

- لما تحدث القرآن الكريم عن وسائل المواصلات -من سيارات وقطارات- التي هيأها المولى لنا، لم تتوقف الآيات عند حد الوسائل القديمة التقليدية ولكنها حلقت بنا في أجواء أخرى أمام وسائل أخرى أسفر عنها زماننا ولا يزال الباب مفتوحا والتحدي قائما والقرآن سابقا لكل عصر. قال تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[سورة النحل: ٨].

ومما يحسب للمتقدمين من المفسرين أنهم تجاوزوا حدود هذه الدنيا الفانية ليحدثونا عن نعيم الجنة وما فيه من مراكب عجيبة خلقها ليستمتع بها أهل الجنة، ما قاله الطبري والقرطبي: وقوله «ويخلق ما لا تعلمون» اي ما لا تعلمون مما أعد في الجنة لأهلها وفي النار لأهلها، مما لم تره عين ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر[١١].

ثانيا: نماذج من استعمال بعض المفسرين للعلم خارج الضوابط التفسيرية.

نذكر لكم أمثلة على أن بعض المفسرين استخدموا العلم بغير ضوابطه التفسيرية، فكان تفسيرا بالرأي وتفسيرا خاطئا.

١. قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ [سورة الهمزة: ٤-٧]، فهناك من فسر هذه النار بالأشعة السينية (أشعة إكس)[١٢] التي تكشف جوف الإنسان!!.

فإنّ «تطّلع» -التي فسرها القدامى بالوصول إلى القلوب لإحراقها -وإن

(١١) جامع البيان، للطبري: ١٤/ ٨٣. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٥٣-٥٤.

(١٢) يوسف حسن نوفل. المكتبة القرآنية: ١٧٠، الناشر: دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، القاهرة.

تحتمل معنى الإطلاع والمعرفة، ولكن سياق الآيات يرجح أن هذه هي نار جهنم لا غير. ولا مجال لتحميل النص هذا التأويل المبالغ فيه، اضف الى ذلك انه من قال أن أشعة إكس تطلّع على ما في القلوب؟!.

٢. إستدل أحد الباحثين -والكلام للشهيد محمد حسين بهشتي -على حركة الأرض السريعة أن قام بإعداد بحث حول الطبيعة في القرآن واستند إلى مفاهيم عصرية غير متناسبة مع نزول القرآن، حيث يستدل بالآية الكريمة: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ [سورة المرسلات: ٢٥] على أن الله تعالى وصف الأرض بالطائر السريع الطيران، وبذلك بيّن حركة الأرض السريعة[١٣].

وقد قلتُ له -اي الشهيد بهشتي -: عليك أن ترى هل أن لفظ «كفات» كان يملك معنى الطائر السريع في عصر نزول القرآن وبيئته؟. أم أن اللفظ اكتسب هذا المعنى بالتدريج؟. ثم عليك ثانيا أن تلاحظ أن هذه الآية متصلة بالآية التي تليها؛ ﴿ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾ [سورة المرسلات: ٢٦]، فماذا يعني الطائر السريع الطيران للأحياء والأموات؟. فهل ثمة معنى واضح؟. وبالرجوع إلى المعاجم يتبين أن «كفاتا» في الأصل هي الأرض التي تضم الأشياء الأخرى؛ ألم نجعل الأرض تضم الأحياء والأموات. نعم، يقال فرسٌ كفتٌ وكفيتٌ اي سريع[١٤]، ولكن طائر سريع اسمه كفات من أين؟.

ولعل هذا الباحث استند إلى أحد كتب اللغة الحديثة وهو كتاب المنجد، حيث يقول المؤلف فيه: وكفت كفتاً وكفيتاً وكفتاناً الطائرة وغيره، أسرع في الطيران أو العدو وتقبّض فيه[١٥]. وألف هذا الكتاب وطبع في القرن العشرين لا غير. هذا أقرب مستند وجدته للباحث

(١٣) الشهيد بهشتي، في مقال في مجلة رسالة الثقلين. العدد: ٩، ص: ٢٤.

(١٤) لسان العرب لابن منظور، أو المقاييس لابن فارس (كنت).

(١٥) المنجد في اللغة والأعلام، لويس معلوف، مادة (كفت) كما لابد ان اشيران بعض هذه المعاني أشار أليها ابن منظور في لسان العرب.

وهو كما ترى بعيد جداً عن تفسير الآية الكريمة.

ثالثا: أمثلة على أن العلم ساهم في تصحيح التفسير الخاطئ.

إن من أسباب اختلاف المفسرين تنوع ثقافة كل مفسر وما لديه من علوم ومعطيات وما يستجد في عصره من قضايا، ففي عصرنا هذا -عصر التقدم العلمي والتطور التقني -ظهرت مخترعات وانكشفت حقائق علمية ثابتة في عالم الأنفس والآفاق، التي لم تخطر على بال السابقين أصلا.

١. حركة الأرض.

الفخر الرازي طبّق بعض المسائل العلمية على القرآن، فاستدلّ على سكون الأرض[١٦] بالآية الكريمة: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾[سورة البقرة: ٢٢].

يقول الفخر الرازي: اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر هاهنا أنه جعل الأرض فراشا، ونظيره قوله: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾[سورة النمل: ٦١] وقوله: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾[سورة الزخرف: ١٠]، واعلم أن كون الأرض فراشا مشروط بأمور، الشرط الأول كونها ساكنة، وذلك لأنها لو كانت متحركة لكانت حركتها إما بالإستقامة أو بالإستدارة، فإن كانت بالإستقامة لما كانت فراشا لنا على الإطلاق، لأن من طفر من موضع عال كان يجب أن لا يصل إلى الأرض لأن الأرض هاوية وذلك الإنسان هاو، والأرض أثقل من الإنسان، والثقيلان إذا نزلا كان أثقلهما أسرعهما والأبطأ لا يلحق الأسرع فكان يجب أن لا يصل الإنسان إلى الأرض، فثبت أنها لو كانت هاوية لما كانت فراشا، أما لو كانت حركتها بالإستدارة لم يكمل انتفاعنا بها، لأن حركة الأرض مثلا إذا كانت إلى المشرق والإنسان يريد أن يتحرك إلى جانب المغرب ولا شك أن حركة الأرض أسرع فكان يجب أن يبقى الإنسان على مكانه وأنه لا يمكنه الوصول إلى حيث يريد، فلما أمكنه ذلك علمنا أن الأرض غير متحركة لا بالإستدارة ولا بالإستقامة، فهي ساكنة[١٧].

(١٦) مفاتيح الغيب: ٢/ ٩٤.

(١٧) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: ٢/ ٣٣.

٢. كروية الأرض.

فاستدل بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ ﴾[سورة الرعد: ٣] على كون الأرض مسطحة. قال الآلوسي: «وهو الذي مد الأرض» اي بسطها طولا وعرضا، قال الأصم: البسط، المد إلى ما لا يرى منتهاه، ففيه دلالة على بعد مداها وسعة أقطارها. وقيل: كانت مجتمعة فدحاها من مكة من تحت البيت. وقيل: كانت مجتمعة عند بيت المقدس فدحاها وقال -سبحانه -لها: اذهبي كذا وكذا، وهو المراد بالمد. واستدل بالآية على أنها مسطحة غير كروية[١٨].

واليوم وبفضل عدسات وتصوير الأقمار الصناعية باتت كروية الأرض من الأمور البديهية التي يتعلمها الأطفال والكبار.

خلاصة البحث:

تبيّن مما سبق مساهمة العلم التجريبي في التعمّق في التفسير ودوره في تطويره، وقد تمّ ذكر عدة أنموذجات من حيثيات مختلفة، ومقارنة بين تفاسير القدماء والمتأخرين، فكانت النتيجة أن معاني القرآن الكريم أوسع ممّا كان يتصوره المتقدمون، وأن الزمان يساهم في تفسير القرآن الكريم وبيان مفاهيمه ومصاديقه عن طريق علمي مؤيد ببراهين واضحة، وإن كان هناك بعض المفسرين استخدموا العلم بغير ضوابطه التفسيرية فكان تفسيرا بالرأي وتفسيرا خاطئا.

وكذلك قد ساهم العلم أيضا في تصحيح التفسير الخاطئ عند بعض المفسّرين في تفسير الآيات العلمية.

(١٨) السيد محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم: ٧/ ٨٨. دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، تاريخ الطبع: ١٤١٥هـ. بيروت.

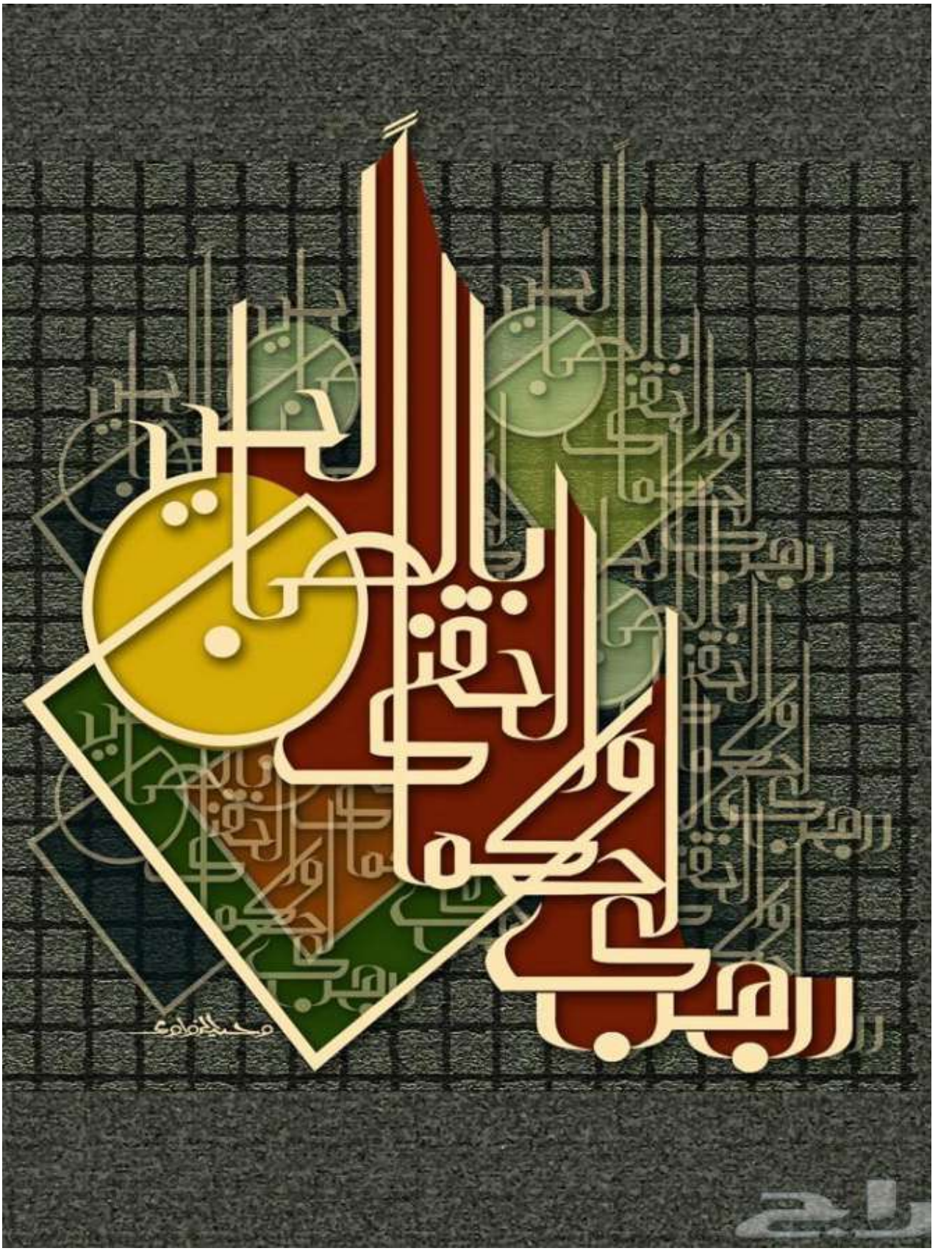
رب زدني علما

أَلاسَالِيبُ العَرَبِيَّةُ وَجَمَالِيَّتُهَا فِي القُرآنِ الكَرِيمِ

د. مصطفى عباسى مقدم عبد الحر زيدان حمزة

جامعة كاشان -جمهورية ايران الاسلامية

فحوى البحث

الاسلوب: هو الطريق او المنهج الذي يستعمل الاداة او الألفاظ، ليصفها بعضها مع البعض لا نتاج معنى بدلالة مراد الله تعالى المطلوب، والاساليب عديدة منها بواسطة الاداة، كما في ادوات الاستفهام والقسم والتوكيد.

شمل البحث عدة بحوث، لبعض الاساليب العربية في القران الكريم، حيث تناول في طيات البحوث الجمالية والصورة الفنية للأساليب في التعبير القرآني الشريف، والذي اضفى جمالا اخر على النص القرآني، إذ جرى توضيح ادوات الاساليب وورودها مبثوثة في النصوص القرآنية، وكيف جرى تعامل النص معها تناسبا مع الألفاظ والسياقات الاخرى، ليظهر النص بهذا التنسيق وهذه الدلالة بصورة مؤثرة تبعث الشوق والتأثر في النفس لهدايتها السبيل قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾ [سورة الأحزاب: ٤].

المقدمـــــــة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [سورة الحجرات: ١٣]. وشرف الله تعالى لغة العرب بنزول القران الكريم بها لوسع الفاظها ودقة معانيها وكونها افصح اللغات وابلغها. ودليل هذه المميزات التحدي الذي ورد في القران الكريم كقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[سورة الإسراء: ٨٨]. والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا وحبيبنا وشفيعنا: محمد الي تنحل به العقد وتنفرج به الكرب وتقضى به الحوائج وتنال به الرغائب وحسن الخواتم ويستسقى الغمام بنور بوجهه الكريم وعلى اله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما كثيرا.

جرى البحث في جمال من جمالات القران الكريم، حيث خص بعض اساليب اللغة العربية، فقد راينا الصور الفنية الجمالية القرآنية التي افاضها القران الكريم باستخدامه للأساليب العربية وبأسلوب دقيق ورائع، وبصور متنوعة، وقد يؤدي اسلوبٌ عدة اساليب في نقس النص وكما يتضح لنا من خلال سير الابحاث الاتية.

الاساليب العربية وجماليتها في القرآن الكريم:

عُرُفَتْ اللغة العربية بأساليبها المتعددة، وقوة التعبير بها، رسمت حروفها لتدل على اصوات من ينطق بها؛ ولأصوات حروفها جرس موسيقي، يجعل للكلام نبرات مناسبة لحدث الخطاب والتكلم؛ واللغات اداة التفاهم بين الشعوب، وتعكس حضاراتها. ومما زاد في لغة العرب اختيار الالفاظ المناسبة لمعاني دقيقة لتدل على مدلولات منتجة معتبرة: نزول القران الكريم بها مما زادها رصانة وجمالا وبلاغة واسلوبا، وجعل لها التأثير الوجداني فأطربت له النفوس خانعة لكلام الله تعالى المنزل، مقرة ومعترفة بانه: كلام ما بعده كلام، من حيث النظم والاسلوب والتركيب واللفظ والمعنى، وفي بحثنا هذه الذي اشتمل على بحوث جزئية، سلط الضوء على بعض جوانب الجمال في بعض

الاساليب اللغوية النحوية والبلاغية.

الأول: اسلوب التوكيد وجماليـــــة صوره:

١. معنى واهمية التوكيد:

التوكيد احد اساليب اللغة العربيـة ورد في القرآن الكريم بصوره الفنية التي اكسبت نصوصه جمـالا خـاصـا، وجـاء اسلوب التوكيد معززا وداعما ومقويـا للمعنى الـدلالي للنص، وكذلك تكرار اللفظ يزيد في اقـراع اللفظ وتقويته، مما جعل من النص القرآني اكثر يقينا واقناعا للمخاطَب والسامع، وبهذا يكسب النص جمالية التوكيد، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [سورة النحل: ٩١].

وعرف الدكتور زاهد التوكيـد لغة واصطلاحـا قائلا: ((التوكيد في اللغة: التقريـــر والتوثيق. وفي الاصطـــلاح: اسلوب من اساليب العربية يؤدّى بطرق وصـور تكـون حينا بـأدوات للتوكيد واحيـانـا بـاستعـمالات وبنيـات يـؤدي استعمالها الى دلالة التوكيد، كتقديم ماحقه التأخير وتكرار الكلمـة او الجملة وغير ذلك))[١].

واضـافـة نـبراس عباس: ((التأكيد والتوكيد لغتان، والتوكيد أفصح وبها جـاء الـقـران: ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [سـورة النـحـل: ٩١]؛ للتوكيد ضربان احدهما: اللفظي؛ والاخر المعنوي، ولكل منهما له اسلوبه الخاص به. فاللفظي يكونُ بإعادةِ المُؤكّدِ بلفظهِ أو بمرادفه، سـواءٌ أكـان اسـماً ظاهراً، أم ضميراً، أم فعلاً، أم حرفاً، أم جملةً. فالظاهرُ نحو جاءَ عليٌّ عليٌّ. والضمير نحو جئتَ أنتَ. وقُمنا نحنُ. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٣٥] والفعلُ نحو جاءَ جاءَ عليٌّ. والحرفُ نحو لا، لا أبـوحُ بالسرّ؛ والجملةُ نحو قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾

(١) زاهد: زهير غازي (الدكتور)، في اعراب القران الكريم، الكلية الاسلامية الجامعة- النجف الاشرف، ص: ٦٤.

[سورة الشرح: ٥ -٦]. والمرادفُ نحو أتى جاءَ عليٌّ.

وفائدةُ التوكيدِ اللفظيِّ تقريرُ المؤكدِ في نفسِ السامعِ وتمكينُهُ في قلبِهِ، وإزالةُ ما في نفسهِ من الشُّبهة فيه))[٢].

اما التوكيد المعنوي: فيكون باستعمال ادوات يذكرونها علماء النحو، فيقول الغلاييني: ((التّوكيدُ المعنوي يكونُ بذكرِ النّفسِ أو العينِ أو جميع أو عامّةٍ أو كلاَ أو كلتا، على شرطِ أن تُضاف هذه المؤكّداتُ إلى ضميرٍ يُناسِبُ المؤكّدَ، نحو جاءَ الرجلُ عينُه، والرجلانِ أنفُسهُما. رأيتُ القومَ كلّهم. أحسنتُ إلى فُقراءِ القريةِ عامَّتِهم. جاءَ الرجلانِ كلاهما، والمرأتانِ كلتاهما. وفائدةُ التوكيدِ بالنفس والعينِ رفعُ احتمالِ أن يكون في الكلام مجازٌ أو سهوٌ أو نسيانٌ. إذا أُريدَ تقوية التوكيدِ يُؤتى بعدَ كلمة كله بكلمة أجمع، وبعدَ كلمةِ كلها بكلمة جمعاء، وبعدَ كلمة كلهم بكلمة أجمعينَ، وبعدَ كلمة كلهنَّ بكلمة جُمَع، تقولُ جاءَ الصفُّ كلُّهُ أجمعُ و جاءَت القبيلةُ كلُّها جمعاءُ، قال تعالى ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [سورة ص: ٧٣]، وتقولُ جاءَ النساءُ كلُّهنَّ جُمَعُ. وقد يُؤكدُ بأجمعَ وجمعاءَ وأجمعينَ وجُمَعَ، وإن لم يَتقدَّمهنَّ لفظ كلّ))[٣]. ومنه قوله تعالى: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة الحجر: ٣٩].

٢. الجمال في حالات التوكيد:

بين زاهد كذلك استعمال القران الكريم التوكيد قائلا: ((لقد استعمل القران الكريم ضروب التوكيد وصوره بالأدوات وبغيرها مبثوثة في نصوصه، فالتوكيد من وظائف الكلام ومعانيه يؤديه المتكلم حين يكون المتلقي في حالة شك أو انكار، أما اذا لم يكن كذلك فيلقى الكلام على صورة الإخبار لا يحتاج الى توكيد، وأمّا اذا كان المتلقي في شك فيكون اخباره بمؤكد واحد، واذا كان منكرا فبأكثر من مؤكد لإزالة الإنكار. وهنا تتمثل مقولة البلاغة العربية: "لكل مقام مقال" وقد اجتمعت هذه الحالات المذكورة في قوله

(٢) الغلاييني: مصطفى (الشيخ)، جامع الدروس العربية، دار الكرخ والنشر، ٢٠٠٤م: ج ٣، ص: ٥٦٧ -٥٦٨.

(٣) ن. م، ص: ٥٦٨.

تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [سورة يس: ١٣ -١٨]، فحين جاء اهل القرية المرسلون شكوا بهم فجاء توكيد الخطاب بمؤكد واحد وهو (إنّ): لإزالة الشك، ثم أنكروا قول رسل عيسى فجاء الخطاب مؤكدا بثلاثة مؤكدات: هي القسم و(إنّ) ولام التوكيد))[٤]. وتتحصل الصورة الفنية من جمالية التوكيد في رفد وتكثر المعاني، حيث كلما ازداد اللفظ ازداد المعنى وبتكرار المؤكدات تتعدد المعاني وتتكثر، ولكل تأكيد يحمل معنا وغرضا وإيقاعا خاصا به. يكسب النص جماليته.

وينقل الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز رواية مروية عن الانباري ليبين فيها اختلاف المعنى باختلاف الالفاظ: ((واعلمْ أنَّ ممَّا أغمضَ الطريقَ إلى معرفةِ ما نحنُ بصَددِه أن هاهنا فروقاً خفيةً تَجْهلها العامَّةُ وكثيرٌ من الخاصة ليس أنهم يجهلونَها في موضعٍ ويعرفونَها في آخَرَ بل لا يدرون أنها هي ولا يعلمونَها في جملةٍ ولا تفصيلٍ. رُوي عن ابن الأَنباري أنه قال: رَكِبَ الكِنْدي المتفلسِفُ إلى أبي العباس وقال له: إني لأَجِدُ في كلامِ العرب حَشْواً: فقال له أبو العباس: في أيِّ موضعٍ وجدتَ ذلك فقال: أَجِدُ العربَ يقولون: عبدُ الله قائمٌ. ثم يقولون: إنَّ عبد الله قائمٌ ثم يقولونَ: إن عبد اللهَ لقائمٌ فالألفاظ متكرِّرةٌ والمعنى واحدٌ. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلِفةٌ لاختلافِ الألفاظِ فقولُهم: عبدُ الله قائمٌ إخبارٌ عن قيامه وقولُهم: إنَّ عبد الله قائمٌ جوابٌ عن سؤالِ سائلٍ. وقولُهم: إنَّ عبدَ الله لقائمٌ جوابٌ عن إنكارِ منكرٍ قيامَه فقد تكرَّرتِ الألفاظُ لتكرُّرِ المعاني. قال: فما أَحَارَ المتفلسفُ جواباً. وإذا كان الكنديُّ يذهبُ هذا عليه حتى يركَبَ فيه ركوبَ مُستفهِمٍ أو معترِضٍ فما ظنُّك بالعامةِ ومَن هو في عِدادِ العامَّة ممن لا يخطُر شِبْهُ هذا

(٤) زاهد: في اعراب القران، م. س، ص: ٦٤.

بباله))[٥].

ويصور لنا الأستاذ حسين: الجانب الفني الجمالي الرائع، جوابا لسؤال: لماذا كثرت المؤكدات في الآية؟: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [سورة يوسف: ٣٢]؛ فأجاب: لان مضمون الكلام يتناقض تناقضا تاما مع حال المتكلم: وهو شدة الولع والحب ليوسف، وهذا يتناقض تماما مع سجنه واهانته، مما يدفع السامع الى إنكار الكلام وتكذيبه، فاحتاج الى هذا العدد من المؤكدات. والملاحظة الثانية: استعملت مع السجن نون التوكيد الثقيلة، لان السجن أشد من الإذلال، فهو إذلال وزيادة، هي الحبس والعزلة عن الناس؛ وايضا بدأت بالعقوبة الاقوى، قدمت العقوبة الاقوى مع النون الثقيلة لمزيد من التخويف حتى يرتدع وينصاع لكلامها).

(٥) الجرجاني، تحقيق: التنجي: محمد (الدكتور)، دلائل الاعجاز، دار الكتاب العربي بيروت، ١٩٩٥م: ج ١، ص: ٢٤٢.

٣. مواصفات التوكيد وصوره الجمالية في القرآني:

اولا: جاء التوكيد في القران الكريم كله كوحدة متكاملة، مراعيا المناسبة التي يأتي فيها، محافظة على الصورة الفنية، بل أضفت اليها جمالا زائدا على جمالها وكما ورد على لساني: الخفاجي وعبداللطيف في التعبير القرآني: ((ان التوكيد القرآني كله وحدة متكاملة منظورة اليه نظرة شاملة وقد روعيه في ذلك جميع مواطنه فهو يؤكد في موطن ما مراعي موطن اخر قرب أو بعد، فتدرك انه اكد في هذا الموطن لسبب اقتضى التوكيد، ولم يؤكد في موطن اخر يبدو شبيها به بمؤكد واحد لسبب دعا الى استعمال كل تعبير في موطنه المناسب له. وكذلك باختيار المؤكدات فهو يؤكد هنا بالنون الخفيفة مثلا وفي موطن اخر بالنون الثقيلة. وهنا بان المشددة وفي موطن اخر بان المخففة، ويستبدل حرفا بحرف، كل ذلك بحسب منظور فني كامل متكامل في القران، فجاء التوكيد كله في القران كله كانه لوحة فنية واحدة فيها من عجائب الفن، وليس فيها الا العجب،

ما يجعل امهر الفنانين يقف مبهورا دهشا مقرا بعجز الخلق اجمعين عن استخلاص عجائبه فضلا عن الاتيان به))[٦]. وكما جاء في آيات كثيرة في القران، ونمثل لها في هذه الآيات الثلاث: ﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [سورة النحل: ٢٩]، ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾[سورة الزمر: ٧٢]، ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [سورة غافر: ٧٦]؛ ويقول الخطيب الإسكافي: للسائل ان يسأل عن هذه الآيات الثلاثة حول التوكيد في احدها وعدمه في الآخرتين: ((فيقول: ما بال الآية في سورة النحل خصت وحدها بدخول اللام على قوله (لبئس) فيها وإخلاء الآيتين من السورتين منها؟. والجواب أن يقال: إن الآية من هذه السورة في ذكر قوم قد ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم، وهم الذين أخبر الله تعالى عن أتباعهم أنهم سألوهم عن القرآن فقالوا: ليس من عند الله، وإنما هو أساطير الأولين، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۙ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [سورة النحل: ٢٤-٢٥]، وهؤلاء أكثر الناس وأشدهم آثاما، وأشدهم عقابا ومن هذه صفته احتيج عند تغليظ العقاب له إلى المبالغة في تأكيد لفظه، فاختيرت اللام هنا لذلك، ولأن بعدها في ذكر أهل الجنة قوله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [سورة النحل: ٣٠]، فاللام في «ولنعم» بإزاء اللام في «لبئس»))[٧]؛ وفي قوله تعالى: ﴿لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ ﴾

(٦) الخفاجي: محمود شاكر عبود (الدكتور)، وعبد اللطيف سنشول (الدكتور)، التعبير القرآني، الكلية الاسلامية الجامعة –النجف الاشرف، اصدار وحدة الدراسات والبحوث، ٢٠١٤م، ص: ١٤٩.

(٧) الاسكافي: محمد بن عبدالله (ت٤٢٠هـ)، ابو عبدالله الخطيب الاصبهاني، درة التنزيل وغرة التأويل، جامعة ام القرى، معهد البحوث العلمية –مكة المكرمة، ٢٠٠١م: ط ١، ج ١، ص: ٨٣٧ –٨٣٨.

[سورة الأعراف: ١٥٥]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة النحل: ٩]، فهنا أكد سبحانه وتعالى اية الهداية بلام التوكيد، ولم يؤكد اية الاهلاك؛ فأجاب السامرائي: ((فلم يذكر الام في جواب (لو) في الآية الاولى بخلاف الثانية، وذلك لان هداية الناس أصعب وأعسر من الاهلاك. فإهلاك الالوف وألوف الالوف ممكن بوسائل الفتك والتدمير والظواهر الطبيعية؛ ولكن هدايتهم عسيرة، فجاء بالأم لما هو شاق عسير ونزعها مما هو أيسر))[٨].

ثانيا: والتوكيد في الآيتين من سورة الواقعة: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ [سورة الواقعة: ٦٥]، ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة الواقعة: ٧٠] ادخل لام التوكيد على الحطم ونزعها عن الاجاج؛ فأجاب الزمخشري في كشافه: ((ويجوز أن يقال: إنّ هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب، للدلالة على أن أمر المطعوم مقدّم على أمر المشروب، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب، من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم))[٩]، والقران الكريم فيه الكثير من هذه الالتفاتات الفنية التوكيدية الجميلة والتي تضفي جمالا من جمال الاساليب القرآنية الى القران الكريم، ومن حيث استخدام الاساليب التوكيدية المناسبة، والمتجانسة مع سياق النص القرآني.

الثاني: اسلوب القَسَم وجماليته الفنية في القران الكريم:

١. معنى القسم:

قال الدكتور محمد بكر اسماعيل في تعريف القسم: ((أسلوب القسم في اللغة: طريق من طرق توكيد الكلام وإبراز معانيه ومقاصده على النحو الذي يريده المتكلِّم، إذ يؤتي به لدفع إنكار المنكرين أو إزالة شك الشاكِّين))[١٠]. وجاء في: ((تهذيب اللغة؛

(٨) السامرائي: التعبير القرآني، م. س، ص: ١٢٩.

(٩) الزمخشري: محمود بن عمرو بن أحمد جار الله (ت٥٣٨هـ)، الكشاف، المكتبة الشاملة، ج٦، ص: ٤٨٧.

(١٠) اسماعيل: محمد بكر(الدكتور)، دراسات في علوم القران، دار المنار، ١٩٩٩م: ط ٢، ص: ٣١٧

والقسم: اليمين))[11]. وأكد اسماعيل على ان الخبر وتأكيده يعتمد على غرض المتكلم وحال المخاطب؛ ((فالأساليب الخبرية تختلف باختلاف غرض المتكلِّم وحال المخاطب؛ فإذا كان المخاطَب خالي الذهن، جاءه الخبر من المتكلم من غير توكيد بالقسم ولا بغيره؛ وإذا كان المتكلم قد رأى أن المخاطب يشك في كلامه أكَّدَ له القول بنوع من أنواع التوكيد، وأهمها: القسم؛ وإذا كان قد رأى المخاطَب ينكِرُ قوله، كان التوكيد أولى وألزم))[12].

وقال ابن الجوزية في تبيانه: ((وهو سبحانه يقسم بأمور على أمور وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته وآياته المستلزم لذاته وصفاته وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته. فالقسم إما على جملة خبرية وهو الغالب كقوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[سورة الذاريات: ٢٣]؛ وإما على جملة طلبية كقوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٩٢ -٩٣]، مع أن هذا قد يراد به تحقيق المقسم عليه فيكون من باب الخبر وقد يراد تحقيق القسم. والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه فلابد أن يكون بما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها فأما الأمور الظاهرة المشهورة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها وما أقسم عليه الرب فهو من آياته فيجوز أن يكون مقسما به ولا ينعكس))[13].

٢. جمالية القسم والصورة الفنية الواردة في القرآن الكريم:

اولا: ورد القسم في القران الكريم بصور فنية رائعة لها بعدا عميقا وله تأثير شديد في نفس المخاطب، وإذعانه للتصديق والتيقن من الاخبار الذي جاء به مقسوما عليه، يميل اليه الوجدان يهزه

(١١) الهروي: محمد بن أحمد بن الأزهري، (ت ٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ٢٠٠١م: ج ٨، ص: ٣١٩.

(١٢) ن. م.

(١٣) ابن القيم الجوزية: محمد بن ابي بكر(ت ٧٥١ هـ)، التبيان في اقسام القران، دار الفكر، المكتبة الشاملة، ص: ٦.

شعورا، يستطيب له القلب، تارة رغبة وطمأنينة وسكينة وبشرى، قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٦]، واخرى رهبة وخوفا ونذيرا: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [سورة التغابن: ١٠].

ثانيا: جمال القسم في التحقيق والتوكيد: ذكر السيوطي في اتقانه، بان القسم لتحقيق الخبر وتوكيده، حيث قال: ((والقصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده حتى جعلوا مثل والله يشهد أن المنافقين لكاذبون قسماً وإن كان فيه إخبار بشهادة، لأنه لما جاء توكيداً للخبر سمى قسماً. وقد قيل ما معنى القسم منه تعالى: ؟.. فإنه إن كان لأجل المؤمن فالمؤمن مصدق بمجرد الإخبار من غير قسم، وإن كان لأجل الكافر فلا يقيده. وأجيب: بأن القرآن نزل بلغة العرب، وان عادتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً))[١٤].

ثالثا: جمال القسم والاشهاد في اكمال الحجة: وكذلك اكد السيوطي، بان القسم والاشهاد من باب اكمال الحجة: ((بان الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها، وذلك أن الحكم يفصل باثنين: إما بالشهادة، وإما بالقسم، فذكر تعالى في كتابه: النوعين حتى لا يبقى لهم حجة: فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[سورة آل عمران: ١٨]، وقال: ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾[سورة يونس: ٥٣]؛ وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [سورة الذاريات: ٢٢ -٢٣]: صرح وقال: من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين ولا يكون القسم إلا باسم معظم، وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن وقسم بمخلوقاته))[١٥].

رابعا: جمال معنى القسم في سبقه "لا"

(١٤) السيوطي: جلال الدين، الاتقان في علوم القرآن، المكتبة الشاملة، ج ١، ص: ٣٨٩.

(١٥) السيوطي: الاتقان، م. س، ج١، ص: ٣٩٠.

النافية: سبقت "لا" النافية القسم مقترنة بالفاء في ستة مواضع عدها المفسرون والنحويون جملا استئنافية لما قبلها، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[سورة النساء: ٦٥]، ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [سورة الواقعة: ٧٥]، ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ [سورة الحاقة: ٣٨]، ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾[سورة المعارج: ٤٠]، ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴾[سورة التكوير: ١٥]، ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ [سورة الانشقاق: ١٦]، والصورة الجمالية يرسمها لنا المعنى الدقيق لتوكيد القسم، أي بمعنى اقسم.

فصَّل الاقسام لهذه الصور الفنية ابن شهر اشوب (ت ٥٨٨هـ) في متشابه القران ومختلقه حول المشارق والمغارب قائلا: ((قوله تعالى ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾و في موضع ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾و في موضع ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ أراد بالأول موضع الشروق والغروب لأن المفعل من يفعل ويفعل اسم الموضع منهما، كالمذهب والمدخل، وأما الثاني عنى به مشرق الشتاء ومشرق الصيف وكذلك المغرب وذلك أن مشرق الشتاء قريب فالليل أطول من النهار، وكذلك المغرب، وأما الثالث عنى به منازل الشمس في الشروق والغروب لأن للشمس ثلاث مائة وستين منزلا تطلع كل يوم من منزل وتغرب في منزل وكذلك القمر لأن القمر يجاوز المنازل في شهر والشمس تجاوزها في سنة))[١٦].

ووردت بدون اقتران بموضعين في القران الكريم وكان لها اكثر من توجيه فلنتأمل ذلك مستشعرين الصورة الفنية لكل توجيه، قال تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [سورة القيامة: ١ -٢]، ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ [سورة البلد: ١].

وقد وجه السيد الطبطبائي في تفسيره الميزان هذا القسم لهذه الآيات قائلا: ((قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

(١٦) ابن شهر اشوب: محمد بن علي (ت٥٨٨هـ)، متشابه القران ومختلفة، انتشارات بيدار، ١٣٢٨هش: ج ١، ص: ٥.

إقسام بيوم القيامة سواء قيل بكون «لا أقسم» كلمة قسم أو بكون لا زائدة أو نافية على اختلاف الأقوال. قوله تعالى: «و لا أقسم بالنفس اللوامة» إقسام ثان على ما يقتضيه السياق ومشاكلة اللفظ فلا يعبأ بما قيل: إنه نفي الأقسام و ليس بقسم، والمراد أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة؛ وجواب القسم محذوف يدل عليه الآيات التالية، والتقدير ليبعثن، وإنما حذف للدلالة على تفخيم اليوم و عظمة أمره قال تعالى: ﴿ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾[سورة الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [سورة طه: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [سورة النبأ: ١ -٢]))[١٧].

وجاء في التحرير والتنوير لابن عاشور: ((وصيغة: {لا أقسم} صيغة قسم، أدخل حرف النفي على فعل: {أقسم} لقصد المبالغة في تحقيق حُرْمة المقسَم به بحيث يُوهِم للسامع أن المتكلم يهم أن يقسم به ثم يترك القسم مخافة الحنث بالمقسم به فيقول: لا أقسم به، أي ولا أقسم بأعزَّ منه عندي، وذلك كناية عن تأكيد القَسم وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [سورة الواقعة: ٧٥]، وفيه محسن بديعي من قبيل ما يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم؛ {والقسم بيوم القيامة} باعتباره ظرفاً لما يجري فيه من عدل الله وإفاضة فضله وما يحضره من الملائكة والنفوس المباركة))[١٨].

وقد اجمل الدكتور سلمان في بحثه الموسوم: من اسرار القسم في القرآن الكريم، اجابته لمعنى "لا اقسم" بمعنى: اقسم حيث قال: ((ومن هنا فان معنى "لا اقسم" هو "اقسم" كما قال القدماء ولكن مع افادة التأكيد، ومعنى ذلك كله ان الله سبحانه وتعالى قد اقسم بمواقع

(١٧) الطبطبائي: محمد حسين، الميزان في تفسير القران، مؤسسة المجتبى للمطبوعات، ط١ المنقحة، ٢٠٠٥م: ج٢٠، ص: ٥٧

(١٨) ابن عاشور: محمد الطاهر التونسي، التحرير والتنوير، المكتبة الشاملة، موقع التفاسير ج١٥، ص: ٤٣٣ رابط النت: http: // www. altafsir. com

النجوم حقا في هذه الآية. وكما يدل على ذلك ايضا انه جاء بعدها مباشرةً: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[سورة الواقعة: ٧٦]، فدل على انه قسمٌ لا نفيٌّ له، ويؤكده كذلك قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ [سورة البلد: ١]، و «لا» ليست لنفي القسم بل لتأكيده، بدليل ان الله تعالى قد اقسم بهذا البلد في موضع اخر وهو قوله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [سورة التين: ١ – ٤]))[١٩].

خامسا: للقسم صور جمالية في المقاصد والعظة والعبرة: للقسم اضافة لجوانبه التوكيدية صور اخرى ولطائف، يصفها اسماعيل قائلا: ((اعلم أن الله- عز وجل-لا يقسِمُ بشيء إلا وفيه موضع للعبرة، وموطن للعظة والذكرى، ومجال رحب للتأمُّل والنظر، وكان من ورائه مقصد يطلبه المؤمن المتدبِّر والعاقل المستبصر. وكثيرًا ما يحمل المقسم عليه خصائص المقسَم به وسماته، فتكون المناسبة بينهما جدّاً قوية. فقد يقسِمُ الله بالشيء لتعظيمه، أو للتهويل من شأنه، والتحذير من شره، أو للتذكير بنعمه، أو لدعوة العقلاء إلى التأمُّل فيه، والتعرُّف على أسراره، وقد تجتمع هذه الأغراض كلها في القسَم، وقد يجتمع بعضها دون البعض الآخر، ولكن المقصد الأصيل من القسم هو توكيد المقسَم عليه وتقريره وتثبيته في قلوب العباد ليستيقنوه حق الإستيقان، على أن توكيد المقسَم عليه بالمقسَم به يُعَدُّ ضربًا من الإيجاز، فهو دائمًا يأتي بالدعوة مصحوبة بدليلها، فيوفر للقارئ منطلقًا رحبًا، ويفتح له أبوابًا واسعة للتأمل والنظر))[٢٠]، ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ [سورة الذاريات: ١-٥]، وجاء في تفسير هذه الآيات في الدر المنثور: ((عن علي

(١٩) بن علي: سليمان (الدكتور)، من اسرار القسم في القران الكريم، مجلة جامعة ام القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، العدد ٣١، رمضان ١٤٢٥هـ: ج ١٩، ص: ٥٦١.

(٢٠) اسماعيل: دروس في علوم القران، م. س، ص: ٣٢٣-٣٢٤.

بن أبي طالب عليه السلام في قوله: {والذاريات ذروا} قال: الرياح، {فالحاملات وقرا} قال: السحاب، {فالجاريات يسرا} قال: السفن، {فالمقسمات أمرا} قال: الملائكة))[٢١].

فلو تدبر القارئ لهذه الآيات الكونية العظيمة، ((أيقن أن من بيده تصريف هذه الآيات الكونية قادرًا على كل شيء. فالمشركون لما أنكروا الرسالة والوحدانية، والبعث والجزاء، واستبعدوا ذلك كله أيما استبعاد، اقتضى توكيد ما أنكروه، وتقرير ما جحدوه بشتَّى أنواع التوكيد، ولا شكَّ أن القسَم من أقوى هذه الأنواع، وقد جرت عادة العرب توكيد عظائم الأمور به، فجاء القرآن الكريم على وفق ما جرت به عادتهم من جهة. ففي الذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات، عظات بالغة، وآيات ناطقة بوحدانية الله تعالى وعظيم قدرته على تصريفها، وإرسالها نعمة على قوم، ونقمة على آخرين، وجعل فيها الحياة للإنسان والحيوان والنبات، وصنَّفها وفق حكمته أصنافًا شتَّى، وجعل لكل صنف منها وظيفة كونية خاصة. فمنها ما يذرو النبات ويحركه لينمو ويزدهر، ومنها ما يحمل السحب المثقَلَة بالماء. ومنها ما يجري بهذه السحب في يسر وخِفَّةٍ إلى حيث شاء الله، ومنها ما ينزِّل المطر من هذه السحب بقدر معلوم إلى أماكن محدودة، ومنها... ومنها. وما هذه الأقسام التي أقسم الله بها إلّا دعوة للتأمل والنظر. فمن نظر أبصر، ومن أبصر عرف))[٢٢]، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[سورة ص: ٢٩]؛ وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ نَفْسٍ ... وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾[سورة الطارق: ١ -١٤].

واوضح سيد قطب خصائصا للقسم لسورة الطارق، منها: ((ففي إيقاعاتها حدة يشارك فيها نوع المشاهد، ونوع الإيقاع الموسيقي، وجرس الألفاظ، وإيحاء المعاني. ومن مشاهدها: «الطارق.

(٢١) السيوطي: الدر المنثور في التأويل بالمأثور، المكتبة الشاملة -موقع التفاسير، ج٩، ص٢٩٦.

(٢٢) اسماعيل: م. س، ص: ٣٢٤ -٣٢٥.

والثاقب. والدافق. والرجـع. والصدع». ومن معانيها: الرقابة على كل نفس: {إن كل نفس لما عليها حافظ}، ونفي القوة والنـاصر: {يوم تبلى السرائر فما له من قـوة ولا ناصر}، والجـد الـصـارم: {إنه لقول فصل وما هو بالهزل}، والوعيد فيها يحمل الطابع ذاتـه: {إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً. فمهل الكافرين أمهلهم رويداً}))[٢٣]، ويعقب على افتتاح السورة بالقسم بأمور كونية لها وقعها واثرها في ادارة الكون ونظمه، قائلا: ((هذا القسم يتضمن مشهداً كونياً وحقيقة إيمانية... وفي التعبير بصيغته هذه معنى التوكيد الشديد.. ما من نفس إلا عليها حافظ. يراقبها، ويحصى عليها، ويحفظ عنها، وهو موكل بها بأمـر الله. ويعين النفس لأنها مستودع الأسرار والأفكـار. وهي التي يناط بها العمل والجـزاء. ليست هنالك فوضى إذن ولا هيصة!. والناس ليسوا مطلقين في الأرض هكذا بلا حارس. ولا مهملين في شعابها بلا حافظ، ولا متروكين يفعلون كيف شـاءوا بلا رقيب. إنما هو الإحصاء الدقيق المباشر، والحساب المبني على هذا الإحصاء الدقيق المباشر))[٢٤].

سادسـا: قسم غير مباشر: والقسم ليس بالمباشر من قبل الله تعالى بل بخطاب منه الى رسولهﷺ، قال تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [سورة التغابن: ٧]، وقـال الشهيد الصدر: ((ان الخلق يقسم بـالله تعالى، والله تعالى يقسم بما شاء من خلقه. فالمسألة هنا اختيارية من قبله سبحانـه. فهو قسم لأجل التوصل الى نتيجة قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾[سورة العاديات: ٦ -٧]، فالقسم لأجل التركيز والتأكيد على ذلك))[٢٥].

سابعـا: قسم الله تعالى بالنبيﷺ: لتبيين عظمته وتشريفه للناس، قال تعالى:

(٢٣) سيد قطب: ابراهيم حسن الشاذلي، في ظـلال الـقـران، المكتبة الشاملة، ج ٨، ص٦.

(٢٤) سيد قطب: م. س، ج٨، ص: ٦.

(٢٥) الصدر: محمد صادق الشهيد الثاني، منة المنان في الدفاع عن القران، دار الاضواء للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م: ط ٢، ص: ٢٩١.

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[سورة الحجر: ٧٢].

ثامنا: يقسم الله تعالى بالقران الكريم على احقية الرسول ﷺ ورسالته الخالدة: قال تعالى: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[سورة يس: ١ -٣].

تاسعا: يقسم الله تعالى على ان القران عظيم وحق: قال تعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ [سورة الواقعة: ٧٥ -٧٧].

عاشرا: يقسم الله تعالى بمخلوقاته الكونية: لأهميتها وعظمها وكونها آيات علمية تدل وترشد على ان للكون خالق واحد حكيم مدبر، والانسان بطبيعة الحال يحس بهذه الموجودات ويشعر بعظمتها، فيكون هناك استشعاراً وتيقنا في القسم، فمن الاقسام بالمخلوقات السماوية وهي كثيرة في القران منها، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾[سورة النجم: ١]، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾[سورة الذاريات: ٧]، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾[سورة البروج: ١].

احدى عشر: وردت اقسام كثيرة في سورة الشمس متعلقة بسماواته وارضه وازمنتها، لعلَّه لأقناع النفس وترويضها على الايمان والفطرة، لأنها سبب سعادة الانسان، قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[سورة الشمس: ١ -١٠].

وهناك صور وجمالات من الاقسام كثيرة مبثوثة في نصوص القران الكريم الشريفة، يطول المقام بذكرها، فاختصرنا على ما ذكر، والباقي على المطولات ان شاء الله تعالى.

٣. المناسبة في صور القسم ومناسبته الجمالية:

لو تدبرنا الاقسام في القران الكريم ودققنا في جملة القسم وجملة جوابه، وبدقة متناهية، لوجدنا الترابط الوثيق والمناسبة بينهما، توحي لرسم صورة فنية جميلة، يضفيها القسم الى صور جمالياته الاخرى، فنجد ترابط التركيب والفاظه، وغايته المثمرة لهذه التركيبة العجيبة،

والعلاقة بين المقسم به والمقسم عليه، ففي قوله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [سورة الضحى: ١ -٣]، ((فالضحى والليل مقسم بهما وقوله: {ما ودّعك ربّك وما قلى} هو جواب القسم الذي نعبّر عنه بالمقسم عليه، فهناك صلة في الواقع بين المقسم به والمقسم عليه، وهو أنّه لماذا لم يقسم بالشمس ولا بالقمر ولا بالتين ولا بالزيتون بل حلف بالضحى والليل لأجل المقسم عليه أعني قوله: {ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى}؟. وصفوة القول: إنّ كلّ قسم جدير لتحقيق الخبر، ولكن يقع الكلام في كلّ قسم ورد في القرآن الكريم أنّه لماذا اختار المقسم به الخاص دون سائر الاَمور الكثيرة التي يقسم بها؟. فمثلاً: لماذا حلف في تحقيق قوله: {ما ودّعك} بقوله: (والضحى والليل} ولم يقسم بالشمس والقمر؟.))[٢٦]؛ وبين اسماعيل جانبا من هذه العلاقة والمناسبة بينهما ملفتاً النظر الى نظم القران واعجازه بصورة عامة والى ما ينتجه اسلوب القسم من لوحة فنية، لها القدرة على اقناع الاحاسيس والمشاعر الوجدانية، مما ينتج عنها تغيير، ربما عقيدة ضالة منحرفة الى عقيدة حقة نورانية، تخرج صاحبها من الظلمات الى النور، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[سورة الحديد: ٩]، ((فهو كتاب محكَم النَّسْجِ، لا تجد فيه خللًا بين كلماته، ولا تنافر بين حروفه، ولا تناقض في معانيه ولا في مراميه. مع أنه نزل منجَّمًا في نحو ثلاث وعشرين سنة، فانظر كيف رتَّبه الله ترتيبًا فريدًا غاية في الحسن والجمال، والجلال والكمال، بهر العقول ببراعة نظمه، وسلاسة أسلوبه، ودقة تصويره، وروعة تعبيره، وعذوبة بيانه. فإذا تأمَّلنا مثلًا في آيات القسَم وجدنا الصلة جدَّ قوية بين المقسَم به والمقسَم عليه، وأدركنا أن بينهما تناسبًا وثيقًا؛ بحيث لو جيء مكان أحدهما بشيء آخر لاختلَّ النظام،

(٢٦) السبحاني: جعفر(الشيخ المحقق)، الاقسام في القران الكريم، رابط النت: http: // www. alseraj. net / maktaba / kotob / quran / agsim / ags13. html.

وذهبت مواطن الجمال والجلال))[٢٧]. فيكمن الجمال والجلال بهذا التناسب لهذه العلاقة، بارتباط المقسم به بالمقسم عليه بمناسبة لا تنفك عنهما، بحيث لو استبدل اي منهما بغير هذه التركيبة من النظم واللفظ والدلالة، لما صلح القسم، ((فقد أقسم الله مثلًا بطوائف من الملائكة على وحدانيته وربوبيته، لنفي ما زعمه المشركون من وجود صلة نسبية بينه وبينهم، فقال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾[سورة الصافات: ١ -٤]، فقد زعموا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا بينه وبين الجِنَّة نسبًا، فأقسم بهم لبيان وظائفهم، وتحديد مكانتهم، وإثبات كماله في ذاته، وبيان أنه الواحد الأحد، رب السماوات والأرض وما بينهما. فلو جيء بمقسَم به آخر غير الملائكة، فقيل مثلًا: «والذاريات ذروًا» أو قيل: «والنجم إذا هوى» لاختلَّ نظم الكلام ونسق المعاني، ولذهب وجه فريد من وجوه الإعجاز البياني))[٢٨]. وفي سورة المدثر ورد اسلوب القسم: في قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ﴾ [سورة المدثر: ٣٢ -٣٦]، ((أقسم سبحانه بالقمر الذي هو آية الليل وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه وحكمته وعلمه وعنايته بخلقه -ما هو معلوم بالمشاهدة. وهو سبحانه أقسم بالسماء وما فيها مما لا نراه من الملائكة وما فيها مما نراه من الشمس والقمر والنجوم وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر: من الليل والنهار وكل ذلك آية من آياته ودلالة من دلائل ربوبيته))[٢٩]. ويقب ابن الجوزية على القسم بهذه المخلوقات ويصف الشمس والقمر وحركتهما وانتظام الحركة الدقيقة العجيبة والتي منها يتكون الليل والنهار، وعدد السنين والايام... قال تعالى:

(٢٧) اسماعيل: م. س، ص: ٣٢٥.

(٢٨) اسماعيل: م. س، ص: ٣٢٥-٣٢٦.

(٢٩) ابن القيم الجوزية: محمد بن ابي بكر (ت٧٥١هـ)، تحقيق، الفقي: محمد حامد، التبيان في اقسام القرآن، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ص: ١٦٣.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾

[سورة يس: ٣٧ -٤٠]، فلتعظيم هذه الآيات، اقسم الله بها ليكون لها الاثر في الوقع وتأكيد الخبر في قلوب الكافرين والمعاندين والمنكرين، مصوراً اياها بهذه الصور المرتسمة من خلال التعبير الاتي: ((ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين وجدهما من أعظم الآيات في خلقهما وجرمهما ونورهما وحركتهما على نهج واحد لا ينيان ولا يفتران دائبين ولا يقع في حركتهما اختلاف بالبطء والسرعة والرجوع والاستقامة والانخفاض والارتفاع ولا يجري أحدهما في فلك صاحبه ولا يدخل عليه في سلطانه ولا تدرك الشمس القمر ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار بل لكل حركة مقدرة ونهج معين لا يشركه فيه الآخر كما أن له تأثيرا ومنفعة لا يشركه فيها الآخر وذلك مما يدل من له أدنى عقل على أنه بتسخير مسخر وأمر آمر تدبير مدبر بهرت حكمته العقول وأحاط علمه بكل دقيق وجليل وفرق ما علمه الناس من الحكم التي في خلقهما مالا تصل إليه عقولهم ولا تنتهي إلى مباديها أوهامهم فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما وكمال حكمته ولطف تدبيره وأن نقول ما قاله أولوا الألباب قبلنا {ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار}، فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسنين وحساب آجال العالم: من مواقيت حجهم وصلاتهم ومواقيت أجائرهم ومداياناتهم ومعاملتهم التي لا تقوم مصالحهم إلا بها فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة))[٣٠].

الثالث: جماليات أسلوب الاستفهام في القران الكريم:

١. **معنى الاستفهام:**

استفهام مصدر استفهم؛ قال ابن فارس في كتابه الصاحبي في فقه اللغة، تحت باب الاستخبار: ((الاستخبارُ: طلب خُبْر ما ليس عند المستخبر، وهو الاستفهام.

(٣٠) ن. م، ص: ١٢.

وذكر ناس أن بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرق. قالوا: وذلك أن أولى الحالين الاستخبار لأن تستخبر فتجابُ بشيء، فربّما فهمته وربّما لم تفهمه، فإذا سألت ثانيةً فأنت مستفهم)[٣١]. (وهو طلب الفهم او العلم من السائل العاقل عن المسؤول عنه، وهو من الاساليب الانشائية الطلبية، ويقول زاهد: ((الاستفهام: من اساليب العربية ويعني السؤال وطلب العلم وهذا المعنى الحقيقي، لكنه قد يخرج عن هذا المعنى الى معان اخرى مجازية يحددها السياق))[٣٢].

٢. اقسام وصور جمال الاستفهام في القرآن الكريم:

يعتبر اسلوب الاستفهام من اكثر اساليب القران الكريم وروداً فيه واوسعها، فهو يشكل نسبة عالية جدا بين نصوصه القرآنية عن باقي الاساليب الاخرى، ويحمل صورا متعددة ومختلفة من حيث المعنى والدلالة، كذلك تتعدد وتكثر صوره الابداعية الجمالية، يرسمها الخيال، متنقلا من صورة الى اخرى... وجاء الاستفهام في القران الكريم على قسمين:

الاول: الاستفهام الحقيقي:

وهو الاستفهام الصادر ممن يجهل العلم والفهم للمستفهم عنه، ويكون بين العاقلين؛ وجاء في ((وهو ما يطلب به معرفة المستفهم عنه، والله سبحانه وتعالى منزه عن أن يسأل سؤالا حقيقيا، لان السؤال الحقيقي يستلزم الجهل بما يسأل عنه، والله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء لا تخفى عليه خافية، وما ورد في القران الكريم من سؤال حقيقي "وهو قليل جداً" جاء محكيا عن غير الله تعالى، كقول –نبي الله –سليمان عليه السلام لمن حوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [سورة النمل: ٣٨]))[٣٣]. وقوله تعالى عن لسان الرجل الذي جاء من اقصى المدينة يسعى، (يروى انه حبيب النجار)

(٣١) ابن فارس: احمد بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، الصاحبي في فقه اللغة، المكتبة الشاملة، ج١، ص: ٤٤.

(٣٢) زاهد: اعراب القران، م. س، ص: ٧٢.

(٣٣) اللبَدي: عبدالرؤوف سعيد عبد الغني، همزة الاستفهام في القران الكريم، فهرست المكتبة الوطنية، عمان –الاردن، ١٩٩٢م: ص: ج ١، ص: ٨ .

قال: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[سورة يس: ٢٢].

الثاني: الاستفهام المجازي:

وهو الصادر ممن كان عالما ومتفهما للاستفهام عنه مسبقاً، أو كان موجهاً لغير العاقل، وهو ما يخرج عن معناه الحقيقي الى معان وصور جمالية اخرى، وهو ما ورد في القران الكريم كثيرا، ويرد الاستفهام المجازي: على لسان الله سبحانه وتعالى، او الملائكة، او الانبياء، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ﴾[سورة البقرة: ٢٤٦]؛ ويرد على لسان الكافرين في حالة العذاب في القبر او البرزخ او القيامة. ويرد اذا كان يتناول حصول شيء مستحيل فهو يدل على العجب... وكما سياتي في معاني الاستفهام المجازية وامثلتها.

٣. المعاني المجازية للاستفهام وصورها الجمالية في القرآن الكريم:

خرج الاستفهام من معناه الحقيقي الى معانٍ مجازية كثيرة تفهم من سياق الكلام، ذكر منها الدكتور مطلوب خمسة وعشرون معناً بإيجاز اذكر منها تسعة معانٍ وكما يلي[٣٤]:

١. **النفي:** كقوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [سورة الرحمن: ٦٠].

٢. **التمني:** كقوله تعالى: ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ ﴾ [سورة الأعراف: ٥٣].

٣. **التحقير:** كقوله تعالى: ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾[سورة الفرقان: ٤١].

٤. **الاستبطاء:** كقوله تعالى: ﴿ ... مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ... ﴾[سورة البقرة: ٢١٤].

٥. **الاستبعاد:** كقوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾[سورة الدخان: ١٣].

٦. **الوعيد:** كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[سورة المرسلات: ١٦].

٧. **التشويق:** كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ

(٣٤) مطلوب: أحمد (الدكتور)، البصير: كامل حسن (الدكتور)، البلاغة والتطبيق، مطابع بيروت الحديثة، ٢٠١١م: ط ٣، ص١٣٢-١٣٧.

أَلِيمٍ ﴾ [سورة الصف: ١٠]. ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[سورة الأنعام: ٧٤]، ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [سورة الصافات: ٨٥ –٩٥].

٨. **الامر**: كقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[سورة المائدة: ٩١].

٩. **النهي**: كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [سورة الانفطار: ٦].

وهناك تقسيم اخر اختص به علماء علوم القران، فذهب الزركشي الى تقسيم الاستفهام الى استفهام بمعنى الخبر، واستفهام بمعنى الانشاء؛ وقسم الاستفهام بمعنى الخبر الى ضربين: ((احدهما نفي، والثاني اثبات فالوارد للنفي يسمى استفهام انكار والوارد للأثبات يسمى استفهام تقرير لأنه يطلب بالأول انكار المخاطب وبالثاني اقراره به، وكما يلي:

الاول: استفهام الانكار: فالأول المعنى فيه على ان ما بعد الاداة منفي ولذلك تصحبه «الا» كقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[سورة الأحقاف: ٣٥]، ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سورة سبأ: ١٧]؛ ويعطف عليه المنفي كقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[سورة الروم: ٢٩]: أي لا يهدي، وهو كثير ومنه: ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾[سورة الزمر: ١٩]، أي لست تنقذ من في النار. ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة يونس: ٩٩].

الثاني: استفهام التقرير: والتقرير حملك المخاطب على الاقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده. والكلام مع التقرير موجب، ولذلك يعطف عليه صريح

الموجب، كقوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾[سورة الضحى: ٦ -٧]، وقوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾[سورة الشرح: ١ -٢]؛ ويعطف على صريح الموجب، كقوله: ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾[سورة الفيل: ٢]))[٣٥].

٤. الاستفهام بمعنى الانشاء:

بين الزركشي الاستفهام الانشائي: وهو من الأساليب العربية، ويستعمل لأغراض متعددة، منها الطلب والدعاء والترغيب والتمني والتحذير و...؛ وبين الزركشي في برهانه؛ الاستفهام المراد به الانشاء، ((وهو على ضروب:

أ. مجرد الطلب: وهو الامر كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[سورة يونس: ٣]، وقوله: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[سورة آل عمران: ٢٠] أي اسلموا.

ب. الدعاء: وهو كالنهي الا انه من الادنى الى الاعلى كقوله تعالى: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّا ﴾[سورة الأعراف: ١٥٥]، وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٣٠]: وهم لم يستفهموا لان الله قال إني جاعل في الأرض خليفة))[٣٦]. وغيرها من المعاني كثير.

الرابع: اسلوب النداء وجماله الفني في القرآن الكريم:

وهو اسلوب من الاساليب العربية لتنبيه المخاطَب ودعوته لأمر ما بواسطة احد حروف النداء السبعة، وهي: ((أ، أي، يا، آ، ايا، هيا، وا))[٣٧]؛ وصيغة "اللهم". واستعمل الله سبحانه وتعالى

(٣٥) الزركشي: بَدْر الدِّين مُحَمَّد (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، البرهان في علوم القران، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٥٧م: ج ٢، ص: ٣٢٨ -٣٣٢.

(٣٦) الزركشي، البرهان، م. س، ج ٢، ص٣٣٩-٣٤١.

(٣٧) الغلاييني: جامع الدروس، م. س، ج ٣، ص: ٥٠٨.

في كتابه العزيز منها الحرف "يا" فقط، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم ﴾[سورة البقرة: ٣٣]، ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[سورة الصافات: ١٠٢]، او محذوفة قال تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ﴾ [سورة يوسف: ٢٩]؛ ولكافة انواع الخطاب القرآني، للقريب والبعيد سواء. يمتلك حرف النداء خاصية فنية وهي اطالة الصوت عند التلفظ به ليعطي مساحة ذوقية اطول من باقي حروف النداء ليمهد للسامع المتلقي المخاطَب تلقي الخطاب والتفاعل معه. ((وتتعين «يا» في نداء اسم الله تعالى، فلا ينادى بغيرها، وفي الاستغاثة، فلا يستغاث بغيرها، وتتعين هي و «وا» في الندبة، فلا يندب بغيرهما، الا ان «وا» في –الندبة–اكثر استعمالا منها، لان "يا" تستعمل للندبة اذا امن الالتباس بالنداء الحقيقي))[٣٨]. ففي القران الكريم: ((نادى الله تعالى جميع أنبيائه ورسله بأسمائهم، ونادى نبينا محمدًا ﷺ بوصفه الشريف))[٣٩]؛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾[سورة الأنفال: ٦٥]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ [سورة المائدة: ٤١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴾ [سورة المزمل: ١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾ [سورة المدثر: ١].

١. الصورة الجمالية لحذف ياء النداء:

اسلوب جميل يضفي لأساليب القران الكريم جمالا اخر وهو حذف ((اداة النداء ويعوض عنها التنغيم والسياق يحدد دلالته))[٤٠]، واكثر ما حذفت "يا" النداء في القران الكريم مع لفظ "رب" حيث ذكرت معها في بعض المواضع، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾[سورة الفرقان: ٣٠]، ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٨٨]، وحذف «يا « في نداء «الرب» في مواضع اخرى، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا ﴾[سورة البقرة: ١٢٦]، ﴿ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم ﴾[سورة الأعراف: ١٥٥]. واشار السيوطي في اتقانه نقلا

(٣٨) ن. م، ج ٣، ص: ٥٠٨.

(٣٩) عظيمة: م. س، ج ٣، ص: ٥٩٩.

(٤٠) زاهد: اعراب، م. س، ص: ٨٦.

عن الكرماني في معاجزه: ((كثر حذف «يا» في القرآن من الرب تنزيها وتعظيما لأن في النداء طرفا من الأمـر))[٤١]؛ واضاف الدكتور المطعني إن هذه الكلمة "رب" أكثر استعمالاً من غيرها في الدعاء، فروعي فيها من جهات التخفيف ما يجعلها أطوع في الألسنة، وأسهل في مجارى الحديث، ولم يقتصر حذف أداة النداء في القرآن الكريم على كلمة رب فحسب، بل جاء ذلك في مواضع كثيرة غيرها مثل: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾[سورة يس: ١ -٢]، ومثل: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾[سورة طه: ١ -٢]، والأصل يا يس و يا طه. وقد كسا الحذف هنا العبارات فخامة وخلابة))[٤٢].

٢. دلالة النداء وصورة جمال المعنى:

بلا شك ان النداء الحقيقي يحصل بين عاقلين، احدهما "المخاطَب": غافل وغير منتبه، يحتاج الى تنبيه ودعوته الى امر، من قبل المخاطِب، على ان يكون المخاطَب بعيد، فهنا يخرج النداء الى معاني حقيقية قـال تـعـالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنَ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾[سورة الأعراف: ١٩]، اما اذا كان الخطاب (النداء) متوجه الى القريب او الملتفت او كان لغير العاقل: فيخرج الى صور لمعاني ودلالات تنبيهية تختلف عن معنى النداء الحقيقي، يحددها السياق القرآني؛ ذكر دكتور زاهد بعضا منها وكما يلي[٤٣]:

١. التـنـبـيـه: قـال تـعـالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[سـورة الكافرون: ١]، ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾[سـورة النمل: ٩ -١٠]، ﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ ﴾[سورة يوسف: ٢٩]، جاء النداء هنا بحذف حرف النداء وتقديره «يا يوسف».

٢. دلالـة الـدعـاء: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ

(٤١) السيوطي: الاتقان، م. س، ج ٢، ص: ١٧٠.

(٤٢) المطعني: عبد العظيـــم ابراهيم محمد (الدكتور)، مكتبة وهبة، ١٩٩٢: ط ١، ج٢، ص: ٨.

(٤٣) زاهد: م. س، ص ٨٦ -٨٨.

﴿ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[سورة النمل: ١٩]: حذف هنا اداة النداء كما حذف ياء المتكلم وبقيت الكسرة تشير لها وهذا في القران كثير. وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [سورة البقرة: ٢٠١]، وقوله تعالى: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[سورة الشعراء: ٨٣].

٣. دلالة التمني: قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانٗا خَلِيلٗا ﴾[سورة الفرقان: ٢٧-٢٨]، ﴿ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [سورة الأنعام: ٢٧]، فدلالة النداء على التمني يكون باستعمال أداة النداء التي تدخل على ما لا ينادى، او يراد بها الابداع في التعبير الفني، لان النداء الحقيقي يكون للبشر ودخول أداة النداء على «ليت» التي هي أصلا تستعمل للتمني، فدخول أداة النداء عليها مع ما يؤلف التعبير من كلمات يكون أسلوب التمني. والتمني في التعبير القرآني على صورتين: احداهما التمني في اظهار الندم كما جاء في الآيات السابقة، قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾[سورة الأحزاب: ٦٦]. والأخرى التمني للوصول الى مستحيل كقوله تعالى: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾ [سورة النساء: ٧٣]، ﴿ يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ [سورة القصص: ٧٩].

٤. دلالة الندبة: وهي فرع في النداء للحسر في قوله تعالى: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[سورة يس: ٣٠] وقوله: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴾ [سورة يوسف: ٨٤]، ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

﴿ جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٣١].

٥. الامر والموعظة بالتقوى: في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة النمل: ٤٦]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[سورة المؤمنون: ٢٣]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الحجرات: ١٢].

٦. التعجب: في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة يوسف: ١٩].

٧. دلالة الامر التكويني: أضاف هذه الدلالة الأستاذ أسامة في محاضراته للمرحلة الرابعة للدراسات القرآنية: ويكون في خطاب الله تعالى لغير العقلاء من مخلوقاته مثل السماء والارض والجبال كقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة هود: ٤٤]: وأيضا فيها افادة التعبير عن الاستجابة الفورية والامتثال المباشر من السماء والأرض كانهما من العقلاء يفهمون النداء ويمتثلون له؛ فالصورة الجمالية تكمن في استجابة الارض للنداء، وامتصاصها الماء بسرعة كبيرة، مما دعا الى استخدام فعل الامر ابلعي المناسب للموقف، بديلا عن أي لفظ؛ وقابل ذلك صورة جمالية للنداء المتوجه للسماء بفعل الامر اقلعي الملائم للتوقف السريع ومن اصله لنزول المطر.

الخامس: أساليب التعجب وجمالياته في القران الكريم:

١. معنى التعجب:

التعجب لغة: مصدر الفعل تعجّب، وورد في مفردات الفاظ القران: ((العجب والتعجب: حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء، ولهذا قال بعض الحكماء: العجب ما لا يعرف سببه، ولهذا قيل: لا يصح على الله التعجب؛ إذ هو علام الغيوب لا تخفى عليه خافية. يقال: عجبت عجبا، ويقال للشيء الذي يتعجب منه: عجب، ولما لم يعهد مثله عجيب. قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ [سورة يونس: ٢]، تنبيها أنهم قد عهدوا مثل ذلك قبله، وقوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوا ﴾ [سورة ق: ٢]، ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾[سورة الرعد: ٥]، ﴿كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا ﴾[سورة الكهف: ٩]، أي: ليس ذلك في نهاية العجب بل في أمورنا أعظم وأعجب منه. ﴿ قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ [سورة الجن: ١]، أي: لم يعهد مثله، ولم يعرف سببه))[٤٤].

اما في الاصطلاح: ((هو شعورٌ داخليٌّ، تنفعلُ به النفسُ، حين تستعظِمُ أمرًا نادرًا، أو لا مثيلَ لهُ، مجهولَ الحقيقةِ، وقد يكونُ للشعور الداخليِّ آثارٌ خارجيةٌ، كالتي تظهرُ على الوجهِ، أو غيرُ ذلك؛ ولهذا يقالُ: إذا ظهرَ السببُ بَطلَ العَجَبُ))[٤٥]، وعرفه مكناسي بانه: ((روعة تأخذ الإنسان عند استعظام الشيء... وقد يكون إنكارَ الأمر لقلّة اعتياده إياه. وهو ردة فعل محمودة العواقب إن كانت إيجابية عن تفكير وتدبر. ومذمومة العواقب إن كانت سلبية عن رفض للحقيقة ناتجة عن المعاندة والاستكبار))[٤٦].

٢. صور وأقسام فنية للتعجب في القرآن الكريم:

ومن امثلة مارد في القران الكريم عن

(٤٤) الاصفهاني: الراغب (ت ٤٢٥هـ)، مفردات ألفاظ القران، تحقيق: داوودي: صفوان عدنان، طليعة النور، ١٤٢٦ هـ: ط١ ص: ٥٤٧.

(٤٥) شملاوي: حاتم عثمان يوسف، التعجب السماعي في معجم لسان العرب دراسة نحوية دلالية، جامعة النجاح الوطنية – كلية الدراسات العليا –نابلس، ٢٠٠٨ م: ص: ١١.

(٤٦) مكناسي: عثمان قدري(الدكتور)، أساليب التربية في القران الكريم، انترنت، برابط: http: // www. alhiwar. net / ShowNews. php?Tnd=15344

الحالة الإيجابية قوله تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ [سورة هود: ٧١ -٧٣]، وتعجب زكريا حينما بشر بيحيى قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾[سورة مريم: ٨ -٩]، ومن الأمثلة تعجب الناس من تكلم عيسى عليه السلام وهو في المهد صبيا، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَىٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴾ [سورة مريم: ٢٨ -٣٢].

ومن امثلة التعجب للحالة السلبية للاستنكار والمعاندة لرفض الحقيقة قوله تعالى: ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴾ [سورة ق: ٢]، ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾ [سورة ص: ٤]، ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴾[سورة يونس: ٢]؛ فمن خلال سياق الآيات نجد ان الكافرين يتعجبون من كون المبعوثين اليهم منهم ومن رجالاتهم وليس من الملوك والاغبياء والمتجبرين.

ويأتي التعجب في القران الكريم بصور متعددة، فتارة يأتي حاملا لفظة من لفظ الفعل الثلاثي عجب، او أحد مشتقاتها، حيث ورد كثيرا، كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[سورة الأعراف: ٦٣]، ﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ

عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾[سورة التوبة: ٢٥]، ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾[سورة يونس: ٢]، ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾[سورة هود: ٧٣]، ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[سورة الرعد: ٥]، ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾[سورة الكهف: ٩]، ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾[سورة الصافات: ١٢].

وتارة يرد بألفاظ وأدوات تدل على التعجب من السياق، كما في لفظة «كبر» في قوله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[سورة الصف: ٣]، وقال الزمخشري في كشافه: ((قصد في «كَبُرَ» التعجب من غير لفظه... ومعنى التعجب: تعظيم الأمر في قلوب السامعين؛ لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله، وأسند إلى أن تقولوا. ونصب {مَقْتاً} على تفسيره، دلالة على أنّ قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه، لفرط تمكن المقت منه؛ واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه))[٤٧]. وفي قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾[سورة الفرقان: ٧]، ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [سورة ص: ٤]، ويتعجبون من البعث والميعاد كما في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ ([سورة يس: ٧٨-٧٩]، ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ [سورة الصافات: ٥٣]، ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا

(٤٧) الزمخشري: الكشاف، م. س، ج ٧، ص٤٨.

﴿ نُرَابٌ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾[سورة ق: ٣].

٣. اساليب التعجب:

للتعجب في العربية أساليب متعددة منها:

أولا: الأساليب القياسية: وهي أساليب جاءت بصيغ وزنية ذكرتها كتب النحو والعربية، ومنها:

ما جاء في كتاب النحو الأساسي ما نصه: ((ويقصد بها تلك التراكيب التي تستعمل أصلا في التعجب، وتدل بلفظها ومعناها عليه. وهي صيغتان: صيغة «ما أفعل»، وصيغة «أفعل به»))[٤٨]: ووردت امثلة قرآنية لهاتين الصيغتين: فلصيغة "ما افعل" ورد في قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾[سورة البقرة: ١٧٥]، ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [سورة عبس: ١٧]. ووردت آيات قرآنية على صيغة «أفعل به» كما في قوله تعالى: ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ ﴾[سورة الكهف: ٢٦]، ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[سورة مريم: ٣٨]، ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [سورة الانفطار: ٦].

ثانيا: الأساليب السماعية: وهو أسلوب تعجبي اخر يحصل بالفاظ وأدوات ليس بلفظ التعجب ولا تدل عليه بمفردها، لكن السياق القرآني دل عليه، ويطلق عليه التعجب المجازي، ووردت في القران الكريم وبصور وصيغ متعددة، كما في: ((استعمال المصدر: «سبحان» مضافا الى لفظ الجلالة لإظهار التعجب والدهشة. «سبحان الله». قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾[سورة الإسراء: ١]، ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[سورة الطور: ٤٣]، ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١١٦]، ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [سورة

(٤٨) عبد اللطيف: محمد حماسة (الدكتور)، زهران: مصطفى النحاس (الدكتور)، عمر: احمد مختار (الدكتور)، النحو الأساسي، ذات السلاسل -الكويت، ١٩٩٤م: ط ٤، ص: ٥٩٧ -٥٩٨.

الإسراء: ٩٣]، ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٩١]))[٤٩].

٢. **الاستفهام الذي يتضمن معنى التعجب وجماله الفني:**

أ. الاستفهام «بكيف»: كما في قوله: ﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[سورة البقرة: ٢٨]. ويقول القزويني في ايضاحه معقبا لخروج الاستفهام الى التوبيخ والتعجب في هذه الآية: ((أي كيف تكفرون والحال أنكم عالمون بهذه القصة أما التوبيخ فلأن الكفر مع هذه الحال ينبئ عن الانهماك في الغفلة أو الجهل، وأما التعجيب فلأن هذه الحال تأبى ألا يكون للعاقل علم بالصانع وعلمه به يأبى أن يكفر وصدور الفعل مع الصارف القوي مظنة تعجب))[٥٠]. قال تعالى: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴾[سورة النساء: ٥٠].

ب. الاستفهام بالهمزة: كما في الاستفهام الانكاري، كما في قوله تعالى: ﴿ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [سورة الأنعام: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴾[سورة النمل: ٦٧]: قول الفراهيدي في جمل النحو: ((ويقال إن قول الله عز وجل حكاية عن الكفار، إن هذه الألف ألف التعجب لأن الكفار لا تستفهم))[٥١]. وفي موضع اخر للتعجب بالهمزة قوله تعالى: ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن

(٤٩) مدلل: على (استاذ في معهد الآداب واللغات -المركز الجامعي بالوادي)، اسلوب التعجب القياسي بين الدرس النحو والاستعمال القرآني، مجلة البحوث والدراسات، ٢٠٠٩م: العدد ٧، ص: ٣.

(٥٠) القزويني: جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين(ت ٧٣٩هج)، الايضاح في علوم البلاغة، دار إحياء العلوم -بيروت، ١٩٩٨م.

(٥١) الفراهيدي: الخليل بن احمد، تحقيق: قباوة: فخر الدين(الدكتور)، الجمل في النحو، المكتبة الشاملة، ١٩٩٥م: ط ٩، ص: ٢٦٣.

﴿ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾[سورة البقرة: ٣٠]، ويصور الزمخشري هذا التعجب: ((تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير ولا يريد إلا الخير))[٥٢]. قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[سورة البقرة: ٤٤]، ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [سورة هود: ٧٢]. ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[سورة النحل: ٧١].

ج. الاستفهام بـ «أيٌّ» في القران الكريم: كما في قوله تعالى: ﴿ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ [سورة المرسلات: ١٢]، فالاستفهام هنا خرج للتعظيم والتعجيب، كقول الصابوني في صفوته: ((استفهامٌ لتعظيم ذلك اليوم، والتعجيب لما يقع فيه من الهول والشدة أي لأي يومٍ عظيم أُخرت الرسل))[٥٣].

د. الاستفهام "بما": الخارج بالمعنى المجازي لما الاستفهامية، كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾[سورة الواقعة: ٨ -٩].

ويقول البيضاوي في تفسيره: ((أصحاب اليمن والشؤم فإن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم. والجملتان الاستفهاميتان: معناهما التعجب من حال الفريقين))[٥٤]. وفي قوله تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [سورة النبأ: ١]؛ عمَّ: أصلها(عن ما)، ويقول الصابوني: ((وليس المراد هنا مجرد الاستفهام وإنما المراد تفخيم الأمر وتعظيمه، وقد كان المشركون يتساءلون عن البعث فيما بينهم، ويخوضون فيه إنكاراً واستهزاءً فجاء اللفظ بصيغة الاستفهام للتفخيم والتهويل وتعجيب السامعين من أمر

(٥٢) الزمخشري: م. س، ج ١ ص: ٧٩.
(٥٣) الصابوني: محمد علي، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ١٩٩٧م: ط١، ص: ٤٧٦.
(٥٤) البيضاوي: ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المكتبة الشاملة، ج ٥، ص: ٢٥٩.

المشركين))[٥٥]. قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [سورة الحجر: ٣٢].

٥. الاستفهام بـ «أنى»: يأتي بصور مختلفة منها قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴾ [سورة مريم: ٨]، وقال ابن الاثير في تفسيره: ((هذا تعجب من زكريا عليه السلام، حين أجيب إلى ما سأل، وبُشِّر بالولد، ففرح فرحًا شديدًا، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته (كانت) عاقرًا لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا، أي عسا عظمه ونحل، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع. تقول العرب للعود إذا يبس: «عَتا يَعْتو عِتيا وعُتُوا، وعَسا يَعْسو عُسوا وعِسيا»))[٥٦]. قال تعالى: ﴿ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴾ [سورة مريم: ٢٠]. قال تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٥].

٤. **هل يجوز العجب على الله تعالى:**

العجب: روعة ودهشة تصيب الانسان عند مواجهة امر تخفى عليه أسبابه، والله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء، ففي قوله تعالى: ﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴾ [سورة الصافات: ١٢]، يعقب عليها الزمخشري في كشافه قائلا: ((بل «عجب» من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة وهم {يسخرون} منك ومن تعجبك وما تريهم من آثار قدرة الله، أو من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث. وقرئ: بضم التاء، أي: بلغ من عظم آياتي وكثرة خلائقي أني عجبت منها، فكيف بعبادي وهؤلاء بجهلهم وعنادهم يسخرون من آياتي أو عجبت من أن ينكروا البعث ممن هذه أفعاله، وهم

(٥٥) الصابوني: ن. م، ص: ٤٨٢.

(٥٦) ابن كثير: إسماعيل بن عمر أبو الفداء (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: سلامة: سامي محمد، تفسير القران العظيم، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م: ط ٢، ج ٥، ص: ٢١٤.

يسخرون ممن يصف الله بالقدرة عليه. فإن قلت: كيف يجوز العجب على الله تعالى، وإنما هو روعة تعتري الإنسان عند استعظامه الشيء، والله تعالى لا يجوز عليه الروعة؟. قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يجرد العجب لمعنى الاستعظام، والثاني: أن يتخيل العجب ويفرض))[٥٧]؛ وذكر السيد الطبأطبائي في تفسيره الميزان: ((قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾، أي بل عجبت يا محمد تكذيبهم اياك مع دعوتك اياهم الى كلمة الحق، وهم يسخرون ويهزؤن من تعجبك منهم او من دعائك اياهم الى الحق، واذا ذكروا بآيات الله الدالة على التوحيد ودين الحق لا يذكرون ولا يتنبهون))[٥٨].

السادس: جمالية أسلوب القصر في القرآن الكريم:

١. معنى القصر:

وهو أسلوب من أساليب العربية، ورد في القران الكريم وبصور فنية جميلة وفي مواضع كثيرة منه، وجاء تعريفه لغة واصطلاحا في التعريفات للجرجاني وكما يلي: ((في اللغة: الحبس، يقال، قصرت اللقحة على فرس، إذا جعلت لبنها له لا لغيره؛ وفي الاصطلاح: تخصيص شيء بشيء وحصره فيه، ويسمى الأمر الأول: مقصوراً والثاني: مقصوراً عليه. والقصر الحقيقي: تخصيص الشيء بالشيء بحسب الحقيقة وفي نفس الأمر بأن لا يتجاوزه إلى غيره أصلاً. والقصر الإضافي: هو الإضافة إلى شيء آخر، بألا يتجاوزه إلى ذلك الشيء، وإن أمكن أن يتجاوزه إلى شيء آخر في الجملة))[٥٩].

والقصر يكون اما بواسطة أداة، كأداة الحصر (إنّما)، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾[سورة المائدة: ٥٥]. او يكون أسلوب كما في تقديم من حقه التاخير، قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[سورة الفاتحة: ٥]، ﴿ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾[سورة الرعد: ٣١].

(٥٧) الزمخشري: الكشاف، م. س، ج ٥، ص٤٥٧.

(٥٨) الطبأطبائي: الميزان، م. س، ج ١٧، ص١٣٠.

(٥٩) الجرجاني: التعريفات، م. س، ص: ٥٦.

﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ ﴾[سورة إبراهيم: ١٠].

والجمالية في القصر: هو اثبات شيء ونفي ضده في نفس الوقت.

٢. **طرق القصر وصوره الفنية في القران:**

للقصر طرق وصور أهمها أربعة ذكرها الدكتور احمد مطلوب والدكتور كامل حسن البصير في البلاغة والتطبيق وكما يلي(٦٠):

أولا: الاستثناء بعد النفي:

ويكون المقصور عليه في هذه الطريقة بعد أداة الاستثناء كقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٤]، ﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[سورة هود: ٨٨]، ﴿ إِنۡ أَنَآ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[سورة الأعراف: ١٨٨]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴾[سورة يس: ١٥]: أي لستم في دعواكم للرسالة عندنا بين الصدق والكذب كما يكون ظاهر حال المدعي اذا ادعى بل انتم عندنا كاذبون.

وتستعمل: «غير» في القصر استعمال «الا» قال تعالى: ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ ﴾[سورة النساء: ٩٥]. ثانيا: إنَّما: ويكون المقصور عليه مؤخرا وجوبا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ﴾ [سورة فاطر: ٢٨]: والدليل على انها تفيد القصر امور:

١. كونها متضمنة معنى: «ما» و«الا» لقول المفسرين في قولع تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٣]: بالنصب معناه «ما حرم عليكم الا الميتة» قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾ [سورة الحجرات: ١٠]: يعني ما المؤمنون الا اخوة. وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ ﴾[سورة محمد: ٣٦]: يعني ما الحياة الدنيا الا لعب ولهو.

٢. لقول النحاة ان: «انما» لأثبات ما يذكر بعدها ونفي ما سواه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ

(٦٠) مطلوب: م. س، ص: ١٧٣ -١٧٦.

﴿ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [سورة التوبة: ١٨].

٣. لصحة انفصال الضمير معها: مثل قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [سورة مريم: ١٩].

ثالثا: العطف:

ويكون بأدوات العطف: «لا، بل، لكن»: فان كان العطف بـ «لا» كان المقصور عليه مقابلا لما بعدها كقوله تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [سورة محمد: ١٩] وقول الشاعر:

بيض الصفائح لا سود الصحائف

في متونهن جلاء الشك والريب

جلاء الشك والريب مقصور على بيض الصفائح. وان كان العطف بـ «لكن و بل» كان المقصور عليه ما بعدهما مثل: ما الفخر بالمال بل بالعلم، ما الفخر بالنسب بل بالتقوى.

رابعا: تقديم ما حقه التأخير: وهنا يكون المقصور عليه هو المقدم قال تعالى: ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ ﴾ [سورة يونس: ٧١] أي قصر التوكل على الله تعالى، قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [سورة الفاتحة: ٥]: قصر العبادة والاستعانة على الله تعالى.

النتائج:

١. القران الكريم بحر مترامي الاطراف لا يمكن الغور فيه من خلال هذه السطر فهو فيه كل شيء، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنًا لِّكُلِّ شَيۡءٍ وَهُدًى وَرَحۡمَةً وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [سورة النحل: ٨٩].

٢. تعدد الاساليب فيه يؤدي الى كثرة المعاني ومدلولاتها النحوية والتركيبية والصوتية و..

٣. الاسلوب يأتي بعدة اساليب، فمثلا اداة الاستفهام (هل)، مع اداة الحصر (الا)، تشكل اسلوب جميلا ذات صورة فنية رائعة، يسمى بالاستفهام الاستنكاري، قال تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [سورة الرحمن: ٦٠].


الله
سبحان ربي العظيم
وهو رب العرش العظيم
التوبة ١٢٩

أُصُولُ التَّفْسِيرِ عِنْدَ أَهْلِ البَيْتِ عليهم السلام

الشيخ كاظم الدلام العبادي

الحوزة العلمية- قم

فحوى البحث

أهل بيت النبيﷺ هم عِدْل القرآن بوصيتهﷺ في ماترك في هذه الأمة. فكان جديراً بها ان تقدمهم عند محاولة فهم القرآن الكريم وتفسيره لانه نزل في أبياتهم وعلى صدر جدهم النبي المرسلﷺ فتوارثوا علمه كابراً عن كابر.

والبحث التالي يعرض للقاريء ما لايدع شكاً في أن الأخذ من أهل البيت اولى من أن يشرّق المسلم أو يغرّب في متاهات الروايات التي يأتي اكثرها مجهولاً.

حقانية اهل البيت عليهم السلام في التفسير من دون سواهم:

القران هو مصدر التشريع للأمة الاسلامية ولايخفى على المتتبع لعلوم القران ان القران فيه: ظاهر وباطن ومحكم ومتشابه وهو حمال وجوه قال رسول الله صلى الله عليه وآله : (ان للقرآن ظاهراً وباطناً، ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن). لأن المراد من الظاهر هو ما دلّ عليه اللفظ بالمطابقة، والباطن ما دل عليه اللفظ بالالتزام، ولما كانت اللوازم متعددة تعدّد الباطن بتعددها وذلك يظهر ويخفى بالنسبة الى قوة الفهم وضعفه و يقول الامام الصادق عليه السلام: (ان في كتاب الله أموراً أربعة: العبارات، والاشارات، والحقائق واللطائف، فالعبارات: للعوام، والاشارات للخواص، واللطائف: للأولياء، والحقائق: لأنبياء الله)[1].

واحتجّ الإمام الباقر عليه السلام على قتادة، بقوله: «يا قتادة!. إنما يعرف القرآن من خوطب به»[2].

من هنا كان من الضروري البحث عن من لهم احقانية التفسير والتبيين للنصوص القرانية بما تضمنته من مفاهيم واحكام.

اقول:

لقد تضافرت الأدلة من الآيات والروايات على أن أهل البيت عليهم السلام عدل القرآن الكريم، وهما طريقان في هدف واحد، ويشتركان معاً في إضاءة عقل الإنسان وروحه وقلبه، ويوجّهانه إلى حيث سعادته وبناء حياته وحضارته الحرة الكريمة، فلولا القرآن لم يكن للحياة هدى، ولا للإنسان رشد، ولولا أهل البيت عليهم السلام لم يكن للرشد مرشد، ولا للعلم معلم أو تعليم، فالقرآن أصل العلم، وأهل البيت عليهم السلام معرفته ومعدنه وبيانه؛ لذلك إن من يتتبع أحاديث العترة النبوية الطاهرة يجدها تسير جنباً إلى جنب مع القرآن، تتمسك بآياته، وتستدل بإشاراته، كما أن القرآن الكريم نفسه يشيد بمواقفهم وأقوالهم عليهم السلام؛ إذ وصفهم بالطهارة من الرجس المعنوي والمادي ذلك الوصف المؤكد الذي يقتضي تنزيههم عن أي خطأ وخطل، ومخالفة للكتاب، بل يقتضي كونهم مع القرآن في هدف واحد وعلى

(١) تفسير نور الثقلين للحويزي ٥/ ٣٤٥).
(٢) تفسير الصافى ١: ١٢.

جاده واحدة، ولا غرابه إذا قيل: إنهم عليهم السلام ورثوا الكتاب وعلمه وفهمه وفقه أسراره ومقاصده وأبعاده وبطونه دون غيرهم.

ونذكر هنا جملة من الأحاديث الواردة بهذا الشأن:

١. عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة النحل: ٤٣]. قال عليه السلام «الذكر القرآن، ونحن أهله»[٣].

٢. وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٩] قال: «هم الأئمة عليهم السلام»[٤].

٣. عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين، ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي: كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[٥].

٤. وعن علي عليه السلام قال: «سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به واسألوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل»[٦].

٥. وعنه عليه السلام قال: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت وأين نزلت... إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً»[٧].

٦. وعنه عليه السلام قال: «سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن كتاب الله فما من آية إلا وأعلم حيث نزلت بحضيض جبل أو سهل أرض»[٨].

٧. وعن أبي الصباح قال: والله لقد قال لي جعفر بن محمد عليه السلام: «إن الله علَّم نبيه صلى الله عليه وآله التنزيل والتأويل، فعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام قال: وعلمنا

(٣) بحار الأنوار: ج٢٣، ص١٨١، ج٣٧.
(٤) أصول الكافي: ج١، ص٢١٤، ح٢.
(٥) مستدرك الوسائل: ج٧ ص٢٥٤ -٢٥٥، ح٨١٨١، باب ٤٧ من كتاب الزكاة؛ بحار الأنوار: ج٢، ص١٠٠، ح٥٩؛ وانظر الإرشاد: ج١، ص٢٣٣.
(٦) الإتقان في علوم القرآن: ج٢ ص١٢٢٧؛ وانظر الغدير: ج٦، ص١٩٣؛ بحار الأنوار: ج٤٠، ص١٧٩، ح٦١.
(٧) المناقب: ج٢، ص٤٣ الإتقان في علوم القرآن: ج٢ص١٢٢٧.
(٨) بحار الأنوار: ج٤٠ ص١٩٠، ح٧٤.

والله»[٩].

٨. وعن عبد الأعلى مولى آل سام قال: سمعت أبي عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «والله إني لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره، كأنه في كفي، فيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر ما كان وخبر ما هو كائن»، قال الله عز وجل: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[١٠].

٩. وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام في تفسير قول الله عز وجل: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر: ٩]، قال عليه السلام: «إنما نحن الذين يعلمون، والذين لا يعلمون عدونا، وشيعتنا أولو الألباب»[١١].

١٠. وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: «نحن الذين اصطفانا الله عز وجل، وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كل شيء»[١٢].

١١. وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إن الله تبارك وتعالى طهَّرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه، وحجته في أرضه، وجعلنا مع القرآن وجعل القرآن معنا لا نفارقه ولا يفارقنا»[١٣].

هذه مجموعة من الروايات التي نقلت في التراث الشيعي اما الأخبار الدالة على كونهم عليهم السلام عدل القرآن والثقل الذي أوصى به النبي الأعظم صلى الله عليه وآله من طرق العامة ما أورده العلامة البحراني في تفسيره[١٤].

ومن هنا اتفق أصحابنا على أن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة الطاهرين عليهم السلام، وحرموا القول في بالرأي والاجتهاد، وهذا ما رواه العامة أيضاً عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من فسر القرآن برآية وأصاب الحق فقد أخطأ»[١٥].

اصول التفسير عند اهل البيت عليهم السلام:

من بين المدارس التفسيرية المتعددة

(٩) الكافي: ج٧، ص٤٤٢، ح١٥؛ التهذيب: ج٨، ص٢٨٦، ح١٠٥٢، وسائل الشيعة: ج٢٣، ص٢٢٤، ح٢٩٤٢٦، باب ١٢ من أبواب كتاب الأيمان.

(١٠) أصول الكافي: ج١، ص٢٢٩، ح٤٤.

(١١) أصول الكافي: ج١، ص٢١٢، ح١.

(١٢) أصول الكافي: ج١، ص٢٢٦، ح٧٧.

(١٣) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٣٤٣، ح٢٦.

(١٤) البرهان في تفسر القرآن: ج١، ص٩ ـ ١٥ و٢٦ ـ ٢٨. وغيره.

(١٥) التبيان في تفسير القران، للطوسي: ج١، ص٤.

التي لها مناهج وقواعد تفسيرية مختلفة ظهرت مدرسة بنت اسسها على نص النبي ﷺ الذي قال فيه: «تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وعترتي اهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض » يطمئن جميع المؤمنين وينجيهم من التحريفات والتزيفات التي نقلت ودست لاغراض لاتنفك ان تكون من الدعاية والاعلام الاموي والعباسي الحاقد على أهل البيت عليهم السلام، فالائمة عليهم السلام لهم منهج متميز في التفسير، قائم على تحرير الاصول والقواعد التي تزيل كل الشبهات عن المتلقي ثم يشرعون من خلالها الى تفسير القران حسب مقتضى ما عندهم من روايات عن الرسول الاكرم ﷺ ومن بين هذه الاصول:

١. نزيه الله تعالى عن التجسيم:

فقد دعا اهل البيت عليهم السلام إلى نفي التشبيه والتجسيم والتعطيل جميعاً، وتفسير آيات القرآن المباركة المتعلقة بهذا الموضوع على هذا المنهج.

قال الإمام الصادق عليه السلام: (ان المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله عز وجل، فانف عن الله تعالى البطلان والتشبيه فلا نفي ولا تشبيه، هو الله الثابت الموجود)[١٦].

وقال ايضا عليه السلام: (لو كان في مكان لكان محدثاً)[١٧].

وعن الكرسي والعرش قال عليه السلام: (العرش هو العلم الذي أطلع الله عليه أنبياءه ورسله وحججه، والكرسي هو العلم الذي لم يطلع عليه أحداً من أنبيائه ورسله وحججه)[١٨].

وعن الحسن بن عبد الرحمن الحماني قال: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: إن فلاناً زعم أن الله جسم ليس كمثله شيء، عالم، سميع، بصير، قادر، متكلم، ناطق، والكلام والقدرة والعلم يجري مجرى واحد، ليس شيء منها مخلوقاً.

فقال عليه السلام: قاتله الله أما علم أن الجسم محدود والكلام غير المتكلم معاذ الله وأبرأ إلى الله من هذا القول، لا جسم ولا صورة

(١٦) بحار الانوار، للمجلسي: ج ٣، ص ٣٢٧.
(١٧) نفس المصدر.
(١٨) نفس المصدر.

ولا تحديد وكل شيء سواه مخلوق، إنما تكون الأشياء بإرادته ومشيئته من غير كلام ولا تردد في نفس ولا نطق بلسان. إن الله لا يشبهه شيء)[١٩].

٢. تنزيه الأنبياء عن المعاصي:

إنّ الرأي في مدرسة اهل البيت عليهم السلام هو عصمة الأنبياء عليهم السلام جميعاً عن المعاصي الكبيرة والصغيرة قبل النبوة وبعدها ومن السهو والخطأ في التبليغ. وعلى أساس الرأي في عصمة الأنبياء عليهم السلام فسر أهل البيت عليهم السلام كل آيات القرآن المتعلقة بحياة الأنبياء عليهم السلام وهو إتجاه معروف لأهل البيت في تفسير القرآن.

قال جعفر بن محمد عليه السلام: والأنبياء والأوصياء عليهم السلام لاذنوب لهم، لأنهم معصومون مطهرون... ولا يفرض الله عزوجل على عباده طاعة من يعلم أنه يغويهم ويضلهم، ولا يختار لرسالته ولا يصطفى من عباده من يعلم أنه يكفر به ويعبد الشيطان دونه، ولا يتخذ على خلقه حجة إلا معصوماً... الخ)[٢٠].

(١٩) الكافي، ج١، ص١٠٦.

(٢٠) الخصال للصدوق ص٦٠٣.

٣. إستحالة رؤية الله تعالى:

أكّد أئمة أهل البيت عليهم السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله على إستحالة رؤية الله تعالى، وفسروا الروايات والآيات التي إستظهر منها أهل الحديث والأشاعرة إمكانية الرؤية، بمعان مناسبة لجو الآيات والروايا وفي حديث اخر عنه عليه السلام: (أما ربنا جل جلاله فلا تدركه أبصار الناظرين ولا تحيط به أسماع السامعين)[٢١].

محمد بن يعقوب، عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد بن خالد، عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر، عن أبي الحسن الموصلي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء حبر إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربّك حين عبدته؟. قال: فقال: ويلك ما كنت أعبد رباً لم أره، قال: وكيف رأيته؟. قال: ويلك لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان)[٢٢].

(٢١) بحار الأنوار للمجلسي: ٤/ ٤٤.

(٢٢) الكافي ١: ٩٨؛ توحيد الصدوق، باب ما جاء في الرؤية: ١٠٩ ح٦؛ وفي البحار ٤: ٤٤؛ جامع السعادات ٣: ١٦٧؛ الفصول المهمة: ٤٩.

وفي روايـة اخـرى عن محمّد بن أبي عبد الله رفعه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: بينا أمير المؤمنين عليه السلام يخطب على المنبر، إذ قام إليه رجل يُقال له ذِعلِب، ذو لسان بليغ في الخطب، شجاع القلب، فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربّك؟. قال عليه السلام: ويلك يا ذِعلب ما كنت أعبد ربّاً لم أره، فقال يا أمير المؤمنين كيف رأيته؟. قال: ويلك يا ذعلب لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان، ويلك يا ذعلب إنّ ربّي لطيف اللطافة لا يوصف باللطف، عظيم العظمة لا يوصف بالعظم، كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر، جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ، قبل كلّ شيء لا يُقال شيء قبله، وبعد كلّ شيء لا يقال له بعد، شاء الأشياء لا بهمّة، درّاك لا بخديعة، في الأشياء كلّها غير متمازج لها ولا بائن منها، ظاهر لا بتأويل المباشرة، متجلّ لا باستهلال رؤية، ناء لا بمسافة، قريب لا بمداناة، لطيف لا بتجسّم، موجود لا بعد عَدَم، فاعل لا باضطرار، مقدّر لا بحركة، مريدٌ لا بهمامة (بهمّة)، سميع لا بآلة، بصير لا بـأداة، لا تحويه الأماكن، ولا تضمّنه الأوقات، ولا تحدّه الصفات، ولا تأخذه السنات، سبق الأوقـات كونه والعدم وجوده والإبتداء أزله، بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، وبتجهيزه الجواهر عـرف أن لا جوهر لـه، وبمضادته بين الأشياء عرف أن لا ضدّ له، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له، ضاد النور بالظلمة واليبس بالبلل، والخشن باللّين والـصرد بالحرور، مؤلف بين متعادياتها ومفرّق بين متدانياتها، دالّة بتفريقها على مفرّقها، وبتأليفها على مؤلّفها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[سورة الذاريات: ٤٩] ففرّق بين قبل وبعد ليُعلم أن لا قبل له ولا بعد له، شاهدة بغرائزها أن لا غريزة لمغرّزها، مخبرة توقيتها أن لا وقت لموقّتها، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا حجاب بينه وبين خلقه، كان ربّاً إذ لا مربوب، وإلهاً إذ لا مألوه، وعالماً إذ لا معلوم، وسميعاً إذ لا مسموع)[٢٣].

(٢٣) الكافي ١: ١٣٨؛ روضة الواعظين، باب معنى التوحيد والعدل: ٣١؛ البحار ٤: ٣٠٤؛ تفسير البرهان ٤: ٢٣٦.

٤. رأي أهل البيت عليهم السلام في الجبر والتفويض:

روى الصدوق عن المفضل بن عمر، عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين» قال: فقلت: «وما أمر بين أمرين؟.» قال: «مَثَلُ ذلك مَثَلُ رجل رأيته على معصيةٍ فَنَهَيْتَه فلم ينته، فتركْتَه، ففعل تلك المعصية فليس حيث لم يَقْبَلْ منك فتركته أنت الذي أمرته بالمعصية»[٢٤].

وفي رواية اخرى عن يزيد بن عمير ابن معاوية الشامي قال: دخلت على علي بن موسى الرضا بمرو فقلت له: يا بن رسول الله روي لنا عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: لا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين فما معناه؟. فقال: من زعم أن الله يفعل أفعالنا ثم يعذبنا عليها فقد قال بالجبر و من زعم أن الله عز وجل فوض أمر الخلق و الرزق إلى حججه فقد قال بالتفويض، فالقائل بالجبر كافر و القائل بالتفويض مشرك.

(٢٤) التوحيد، للصدوق: باب ٥٩، ص ٣٦٢، ح٨.

فقلت له: يا بن رسول الله فما أمر بين أمرين؟.

فقال: وجود السبيل إلى إتيان ما امروا به و ترك ما نهوا عنه. فقلت له: فهل لله عز وجل مشيئة و إرادة في ذلك؟. فقال: أما الطاعات فإرادة الله و مشيئته فيها الامر بها، و الرضا لها، و المعاونة عليها، و إرادته و مشيئته في المعاصي النهي عنها، و السخط لها، والخذلان عليها[٢٥].

٥. تفسير القرآن بالقرآن:

من يتبع طريقة أهل البيت عليهم السلام في تفسير القرآن يلمس عندهم طريقة متميزة ومبتكرة في تفسيرالقرآن بالقرآن، وهذه الطريقة من أفضل الطرق لفهم القرآن، لأنّ القرآن خير دليل على القرآن.

يعتمد هذا المنهج على توضيح آيات القرآن بواسطة آيات أخرى وهي طريقة منسجمة مع سيرة العقلاء في فهم اي كلام من حيث مراعات القرائن الموجودة من نفس الكلام، والقرآن الكريم غير

(٢٥) النوري الموسوي، محسن، القصص العقائدية في التوحيد و العدل و النبوة و الإمامة و المعاد، ص ١٠٣.

مستثنى، من هذه القاعدة، وهذا هو نفس الشيء الّذي يُعرف باسم تفسير القرآن بالقرآن، يعني الاستفادة من بعض الآيات كقرائن لفهم وتفسير آيات أخرى، والشارع المقدّس لم يمنع من هذه الطريقة العقلائية، بل قام بتأييدها.

الادلة على رجحان هذا الاصل في التفسير:

١. **الدليل القرآني:**

أ. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[سورة النحل: ٨٩].

استدلّ العلّامة الطباطبائي قدس سره بهذه الآية على تفسير القرآن بالقرآن فقال: "وحاشا أن يكون القرآن تبياناً لكلّ شيء ولا يكون تبياناً لنفسه"(٢٦).

ب. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[سورة النساء: ١٧٤].

قال العلّامة الطباطبائي قدس سره عند استدلاله بهذه الآية: "كيف يكون القرآن هدى وبيّنة وفرقاناً ونوراً مبيناً للناس في جميع ما يحتاجون إليه ولا يكفيهم في احتياجهم إليه وهو أشدّ الاحتياج"(٢٧).

٢. **الدليل الروائي:**

أ. ورد رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ القرآن ليصدّق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض»(٢٨).

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «وكتاب الله بين أظهركم ناطق لا يعي لسانه، وبيت لا تُهدم أركانه، وعزّ لا تهزم أعوانه.. كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله»(٢٩).

نماذج تطبيقية:

١. عن ابي الاسود الدئلي إنّ عمر بن الخطّاب أُتي بامرأة وضعت لستّة أشهر فهمّ برجمها، فبلغ ذلك عليّاً

(٢٦) تفسير الميزان، العلّامة الطباطبائي، ج ١، ص ١٤ -١٥.

(٢٧) تفسير الميزان، العلّامة الطباطبائي، ج ١، ص ١٤.

(٢٨) كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتّقي بن حسام الدين الهندي (ت ٩٧٥)، ج ١، ص٦١٩، ح ٢٨٦١، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٩هـ.

(٢٩) نهج البلاغة، شرح الشيخ محمّد عبده، ج٢، ص ١٦.

فقال: ليس عليها رجم. فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه يسأله، فقال عليؑ: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٣] وقال: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [سورة الأحقاف: ١٥] فستّة أشهر حمله، وحولان تمام الرضاعة، لا حدّ عليها ولا رجم عليها. قال: فخلّى عنها)[٣٠].

٢. عن أمير المؤمنين عليؑ في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ.. ﴾ [سورة الفاتحة: ٧]، قال: أقولوا: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك و طاعتك، لا بالمال فسّاقا... و هم الذين قال اللّه تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [سورة النساء: ٦٩][٣١].

٣. عن الفضيل و زرارة و محمّد بن مسلم، عن حمران أنّه سئل أبا جعفرؑ عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ... ﴾ [سورة الدخان: ٣]، قال: نعم، ليلة القدر و هى فى كل سنة من شهر رمضان فى العشر الأواخر، فلم ينزل القرآن إلاّ في ليلة القدر؛ قال اللّه عزّ و جلّ: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [سورة الدخان: ٤][٣٢].

٤. عن زُرقان صاحب ابن أبي داود قال: «رجع ابن أبي داود ذات يوم من عند المعتصم وهو مغتمّ، فقلت له في ذلك، فقال: وددتُ اليوم أنّي قد متُّ منذ عشرين سنة. قال: قلت له: ولِمَ ذاك؟. قال: لِما كان من أبي جعفر محمّد بن علي بن موسى اليوم بين يدي أمير المؤمنين المعتصم. قال: قلتُ له: وكيف كان ذلك؟. قال: إنّ سارقاً أقرّ على نفسه

(٣٠) أنظر: بحار الأنوار، العلّامة المجلسّي، ج٤٠، ص ١٨٠، الدرّ المنثور ٦: ٤٠.

(٣١) تفسير الميزان ١: ٢٩.

(٣٢) الكافى للكلينى ٢: ١٥، مطبعة الحيدرى طهران.

بالسرقة وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحدّ عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه، وقد أحضر محمّد بن علي، فسألنا عن القطع في أي موضع يجب أن يُقطع؟.

قال: فقلتُ من: الكُرسوع (وهو طرف الزند الذي يلي الخنصر). قال: وما الحجّة في ذلك؟.

قال: قلت: لأنّ اليد هي الأصابع والكف إلى الكرسوع؛ لقول الله تعالى في التيمّم: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ﴾ [سورة النساء: ٤٣] واتّفق معي على ذلك قوم.

وقال آخرون: بل يجب القطع من المِرفق. قال: وما الدليل على ذلك؟. قالوا: لأنّ الله لمّا قال: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [سورة المائدة: ٦] في الغَسل، دلّ ذلك على أنّ حدّ اليد هو المِرفق.

قال: فالتفت إلى محمّد بن علي، فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟.

فقال: قد تكلّم القوم فيه. قال: دعني ممّا تكلّموا به، أيّ شيء عندك؟.

قال: أعفني عن هذا. قال: أقسمت عليك بالله لمّا أخبرت بما عندك فيه. فقال: أمّا إذا أقسمت عليَّ بالله إنّي أقول إنّهم اخطأوا فيه السُنّة، فإنّ القطع يجب أن يكون من مَفصل أُصول الأصابع، فيُترك الكفّ. قال: وما الحجّة في ذلك؟.

قال: قول رسول الله ﷺ: «السجود على سبعة أعضاء: الوجه، واليدين، والركبتين، والرجلين» فإذا قطعت يده من الكُرسوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [سور الجنّ: ١٨] وما كان لله لم يُقطع.

قال: فأعجب المعتصم ذلك وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكفّ.

قال ابن أبي داود: قامت قيامتي وتمنّيتُ أنّي لم أكُ حيّاً»[٣٣].

٥. عن زرارة ومحمّد بن مسلم أنّهما قالا: «قلنا لأبي جعفر الباقر عليه السلام: ما تقول في الصلاة في السفر كيف هي؟. وكم هي؟.

(٣٣) تفسير الميزان ٥: ٣٣٥-٣٣٦.

فقال: إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾[سورة النساء: ١٠١] فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب التمام في الحضر. قالا: قلنا له: إنّما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ولم يقل: افعلوا فكيف أوجب ذلك؟. فقال عليه السلام: أوليس قد قال الله عزّ وجلّ في الصفا والمروة: ﴿ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾[سورة البقرة: ١٥٨] ألا ترون أنّ الطواف بهما واجب مفروض لأنّ الله عزّ وجلّ ذكره في كتابه وصنعه نبيّه صلى الله عليه وآله، وكذلك التقصير في السفر شيء صنعه النبي صلى الله عليه وآله وذكره في كتابه»[٣٤].

٦. سُئل الرسول صلى الله عليه وآله عن معنى «الظلم» في الآية الكريمة: ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾فأجاب صلى الله عليه وآله وبالاستناد إلى الآية ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ بأنّ المقصود بالظلم في الآية الأولى هو الشرك المذكور في الآية الثانية[٣٥].

(٣٤) من لا يحضره الفقيه جلد ١ أَبْوَابُ الصَّلَاةِ وَ حُدُودِهَا -بَابُ الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ -(كد ٥٠٨٨١).

اهم المصـــــــادر:

القران الكريم.

١. نهج البلاغة.

٢. السيوطي، جلال الدين، الاتقان في علوم القرآن مطبعة دار احياء العلوم.

٣. الطبرسي، الفضل بن الحسن مجمع البيان في تفسير القرآن، الناشر رابطة الثقافية والعلاقات الإسلامية، موسسة الهدى للنشر والتوزيع ١٩٩٧م.

٤. الخوئي، ابو القاسم، البيان في تفسير القرآن، الناشر مؤسسة السيد الخوئي.

٥. علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم: موسسة تراث الشهيد الحكيم. المطبعة العترة الطاهرة.

٦. الحويزي، عبد العلي بن جمعة العروسي، تفسير نور الثقلين مؤسسة إسماعيليان قم المقدسة.

٧. المفيد محمد بن محمد بن النعمان الإرشاد مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث الطبعة: الثانية سنة الطبع:

(٣٥) مسند أحمد، ج١، ص٣٧٨.

١٤١٤ -١٩٩٣ م.
٨. الأميني، عبد الحسين، الغدير، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات الطبعة: الاولى المميزة ١٩٩٤.
٩. الخوارزمي، الموفق بن احمد بن محمد المكي تحقيق: الشيخ مالك المحمودي الناشر: مؤسسة النشر الاسلامية الطبعة: الثانية ١٤١١ المناقب.
١٠. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، طبع ونشر مؤسسة الوفاء بيروت.
١١. الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، طبع ونشر دار احياء التراث العربي بيروت.
١٢. كليني، محمد بن يعقوب اصول الكافي، دار الكتاب الاسلامية.
١٣. البحراني، هاشم الحسيني، البرهان في تفسر القرآن، الناشر: مؤسسة البعثة.
١٤. الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القران، مكتب الاعلام الاسلامي.
١٥. الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، الخصال، منشورات جماعة المدرسين في قم المقدسة.
١٦. النيسابوري، الفتال، روضة الواعظين، الناشر: منشورات الشريف الرضي -قم.
١٧. الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، التوحيد، منشورات جماعة المدرسين في قم المقدسة.
١٨. النوري الموسوي، محسن، القصص العقائدية في التوحيد و العدل و النبوة و الإمامة و المعاد، ص ١٠٣.
١٩. كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتّقي بن حسام الدين الهندي (ت ٩٧٥)، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٩هـ.
٢٠. نهج البلاغة، شرح الشيخ محمّد عبده.
٢١. السيوطي الدرّ المنثور، الناشر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية،
٢٢. الكليني، محمد بن يعقوب، مطبعة الحيدري طهران.
٢٣. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القران، الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.


بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
اهدنا الصراط المستقيم
صراط الذين أنعمت عليهم
غير المغضوب عليهم ولا الضالين
آمين
الفاتحة
نقاش المسجد النبوي

القَصَصُ القُرْآنيُّ حَقائِقٌ واقِعَةٌ
(نقد فكرة وجود الأساطير في القرآن)

عبد الرؤوف حسن الربيع
جامعة المصطفى العالمية

اشراف:
الشيخ الدكتور أحمد الازرقي

فحوى البحث

يتناول البحث مسألة حساسة وذات أهميّة كبيرة، وذلك بلحاظ الآثار السيّئة التي يمكن أن تترتب عليها لو تمّت وانتشرت في أوساط الناس والشباب، وهي دعوى وجود الخيال والتمثيل والخرافة والأساطير في قصص القرآن الكريم، وحجم خطرها يتضاعف إذا عرفنا أن قسماً من الذين يتبنوّنها هم من المسلمين أو المهتمّين بقضايا التفسير والقرآن، وبذلك يلتقون في قاسم مشترك وواسع مع المستشرقين الذين تعجبهم هذه الموضوعات وتتناغم مع نظرتهم الخاصة الى الاسلام والقرآن.

وبما أن مؤلف كتاب الفن القصصي في القرآن الكريم -محمد أحمد خلف الله- صاحب نظريّة شاذّة ومثيرة في هذا الموضوع، وهي احتواء القرآن على الخيال والأساطير، فقد وقعت عليها ردود أفعالٍ صاخبة وقويّة من قبل مختلف علماء ومفكّري العالم الإسلامي، وكتابه يحوي تنظيراً وضمّنه جملة من المستندات التي يؤمن بها، وقع الاختيار أن يكون هذا البحث ردّاً تفصيليّاً على آرائه وبشكلٍ مغاير عن الردود السائدة التي حرّرت عليه، فكان الترتيب يستوجب عرض أفكاره بنوع من التنظيم والترقيم أولاً حتى يسهل معرفتها ومن ثمّ ردها مع بيان الآثار التي تترتب عليها وتوضيح حجم خطورتها، وبعد الفراغ من كلّ ذلك تم جمع الأدلّة على الرأي المختار، وهو أن جميع القصص القرآنية هي من الحقائق والأحداث الواقعة.

المقدّمـــــــة:

من الخصائص الأساسيّة التي يتّصف بها الوحي القرآني -ومنه القصص -هو الاتّسام بالصدق والواقعيّة التي لا يعتريها الشكّ والباطل ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾[سورة الجاثية: ٢٩]، وبهذا البيان عدّت الأحداث التي يقصّها الكتاب الكريم من الحقائق الثابتة التي يكفي دليلاً على وقوعها أنها كلام الله تعالى الذي لا يضاهيه في المنزلة والصيانة والقدرة والأداء والأمانة مثيلٌ على الإطلاق، إلا أنّ ثمّة آراء وأفكار تظهر بين فينةٍ وأخرى، وبدواعٍ حسنةٍ أو سيّئة، تلوّح أو تصرّح بفرضيّة وخياليّة القصص القرآنيّة، وأنها إنما سيقت وذكرت لأجل التمثيل وتوصيل الأفكار التربويّة وحسب، ولا غرض لها بالواقع أصلاً في الغالب، وما الطابع السردي الذي تحكيه إلا من باب التفنّن الأدبيّ والأسلوب الجذّاب في التأثير على القلوب وتقريب المعاني العالية إلى الأذهان، وهذا ما نلحظه في كلمات الدكتور محمد أحمد خلف الله المصري الذي كان من المتحمّسين لذلك، بل ترقّى في المسألة أكثر عندما ادّعى إحتواء القرآن على الأساطير بقوله في رسالته للدكتوراه التي أصبحت كتاباً مثيراً للجدل بعد ذلك: «فإنّا لا نتحرّج من القول بأن في القرآن أساطير، لأنّا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصّاً من نصوص القرآن»[١].

ونظراً لخطورة هذا المدّعى وفداحة هذه الأفكار وتناغمها إلى حدّ كبير مع ما يروّجه المستشرقون حول القرآن من مطاعن ونواقض[٢] يصبح من الضروري الوقوف على حيثيّات وأبعاد المسألة وتقييم ونقد المباني التي ارتكزت عليها، وسيكون محور الحديث منصبّاً بالدرجة الأساس على مناقشة أقوال خلف الله وذلك ضمن

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ص٢٠٧.

(٢) يوجد قاسم مشترك بين بعض أفكار خلف الله وبين أفكار المستشرقين، منها تأثر القرآن بما لدى العرب وذكره للأساطير وأن العبرة في القصص في مضمونها لا في سردها ووقوعها وغير ذلك مما يمكن ملاحظته أكثر في تضاعيف البحث. انظر: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، فضل حسن عباس، ص٥٩؛ آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، عمر بن إبراهيم رضوان، ج٢، ص٦٠٢.

المطالب التالية.

أولاً: المراد من القصّة الواقعيّة والقصّة الخياليّة والأساطير:

القصّة مأخوذة من مادّة قَصَصَ وهو التتبّع، فاقتصّ أثره بمعنى تتبّعه[٣]، والقصّ هو البيان والإخبار[٤]، والقصّة رواية لما هو واقعٌ[٥].

ويراد منها هنا القصص القرآنيّة التي تذكر شطراً من حياة الأمم السابقة والأنبياءﷺ وحواراتهم ومواقفهم.

والقصص الواقعيّة هي الثابتة التي حصل مضمونها[٦]، وتقابلها القصص الخياليّة، وهي التي تصوّر على هيئة الجارية والحاصلة وإن لم تجر، حالها من حيث التشبّه والتلوّن كحال ما يشاهد في المنامات[٧].

نعم، قد يقال أن أصل القصّة هو حكاية لما هو واقعٌ واستعمالها في غير ذلك يكون من باب التجوّز، بمعنى أنه أخذ في مفهومها الوقوع، ويمكن استفادة ذلك من نفس معنى التتبّع الذي هو اقتفاء للأثر، أي الذي حدث وجرى، ومنه جاء معنى القِصاص، يقول ابن فارس: «ومن ذلك اشتقاقُ القِصاص في الجِراح، وذلك أنَّه يُفعَل بهِ مثلُ فِعلِه بالأوّل، فكأنَّه اقتصَّ أثره. ومن الباب القِصَّة والقَصَص، كلُّ ذلك يُتَتَبَّع فيذكر»[٨].

ويقول الجوهري: «قد اقْتَصَصْتُ الحديثَ: رويتُه على وجهه»[٩]، ولربما إلى هذا يشير العلامة المصطفويﷺ: «والتحقيق أنّ الأصل الواحد في المادّة: هو رواية واقعة جارية مضبوطة بأيّ وسيلة كانت، قراءةً أو سماعاً، على ما طابق

(٣) الصحاح (تاج اللغة و صحاح العربية)، الجوهري، ج٣، ص: ١٠٥١؛ معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٥، ص١١.
(٤) مجمع البحرين، الشيخ الطريحي، ج٤، ص١٧٩.
(٥) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، السيد المصطفوي، ج٩، ص٢٧٥.
(٦) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص٨٨٠.
(٧) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٢، ص٢٣٥؛ مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص٣٠٤.
(٨) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٥، ص١١.
(٩) الصحاح (تاج اللغة و صحاح العربية)، الجوهري، ج٣، ص: ١٠٥١.

الواقع»[10].

وأما الأساطير فهي جمعٌ لأسطورة، وهي الحديث الباطل المفتعل، يقول الخليل: «ويقال: سطر فلان علينا تسطيراً إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل. والواحد من الأساطير إسطارة وأسطورة، (و هي) أحاديث لا نظام لها بشيء. ويسطّر معناه يؤلّف ولا أصل له"[11].

ثانياً: خلاصة آراء خلف الله[12] حول القصص القرآنيّة:

عرض خلف الله أفكاره حول الموضوع باستعراضه ثلاثة ألوان من القصص القرآنية انتخبها وعنونها- بحسب نظره وذوقه وتقسيمه -لتمثّل شواهد حيّة على مبتغاه[13]، وهي:

١. **اللون التاريخي**: ويعني به المرتبط بالشخصيات التاريخيّة كالأنبياء والمرسلين عليهم السلام نظير قوله تعالى حكاية عن قصّة لوط عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [سورة هود: ٧٧].

ويعتقد أن أصل القصّة في هذا اللون متحقّق تاريخيّاً ولكن طبيعة العرض القرآني لأحداثها لا ينظر إلى المجريات وتفاصيلها وتسلسلها المنطقي أساساً بقدر ما يرتكز وينصبّ على الأسلوب الفنّي والأدبي الرفيع في البيان الذي يجتذب الأفئدة ويؤثّر في النفوس، وكأنّ هذا هو المهمّ والهدف من القصص بنحوٍ عام وليس الصدق فيها من عدمه، يقول في

(١٠) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، السيد المصطفوي، ج٩، ص٢٧٥.

(١١) كتاب العين، الخليل الفراهيدي، ج٧، ص٢١٠.

(١٢) د. محمد أحمد خلف الله (١٩٠٤ -١٩٨٣)، أديب مصري وعالم باللغة العربية، تخرج في مدرسة دار العلوم العليا ١٩٢٨، ثم درس الفلسفة وعلم النفس بجامعة لندن وعاد إلى مصر ليشتغل بالتعليم، وتدرج في المناصب الجامعية حتى صار رئيساً لقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ١٩٤٧ فعميداً للكلية ١٩٥١ ثم وكيلاً لجامعة عين شمس ١٩١٦. وبعد بلوغه سن التقاعد عين مديراً لمعهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية... [راجع: موقع الموسوعة الحرّة (ويكيبيديا): ar. wikipedia. org].

(١٣) الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ص١٥٢.

هذا الإطار:

«يأخذ القرآن مواد القصص فيه (اللون التاريخي) من أحداث التاريخ ووقائعه لكنّه يعرضها عرضاً أدبيّاً ويسوقها سوقاً عاطفيّاً، يبيّن المعاني ويؤيّد الأغراض ويؤثّر بها التأثير الذي يجعل وقعها على الأنفس وقعاً استهوائيّاً خطابيّاً يستثير منها العاطفة والوجدان»(١٤).

«القصّة التاريخيّة ليست عرضاً تاريخيّاً تطلب فيه المطابقة الواقعيّة المحقّقة للصدق العقلي... وانتهينا إلى أن القصّة التاريخية في القرآن قصّة أدبيّة يقصد منها غير ما يقصد من التاريخ»(١٥).

ويرى أن القرآن يجيز لنفسه أن ينقل القصص التاريخيّة بالخلفيّة المنطبعة عند الناس المخاطبين حفاظاً على التأثير في نفوسهم وانسجاماً مع التفنّن الأدبي: «على أنا نستطيع أن نمعن في الدلالة على أن القصّة التاريخيّة في القرآن قصّة أدبيّة يعتمد فيها القرآن على تصوير الأحداث كما يعتقدها المخاطبون، وهو الأمر الذي أجازه بعض القدماء، بل رآه بعضهم أمراً لابد من القول به ليسلم القرآن من المطاعن ويستقيم الأسلوب الأدبي في قصص القرآن الكريم»(١٦).

٢. **اللون التمثيلي**: ويريد به ذاك الذي يقصد منه البيان والإيضاح وزيادة الشرح والتفسير لفكرةٍ ما عبر المثال والفرض والخيال، وهو: «العمل الأدبي الذي يكون نتيجة تخيّل القاص لحوادث وقعت من بطلٍ لاوجود له، أو من بطلٍ له وجود ولكن الأحداث التي ألّمت به لم تقع أصلاً»(١٧).

وحينئذٍ: «لا يلزم أن تكون أحداثه من الحقائق، فقد يكتفى فيه بالفرضيّات والمتخيّلات»(١٨)، بل المتعيّن لديه أنها من نسج الخيال: «لن نجد من يعارض في وجود القصّة التمثيليّة في القرآن الكريم وأنها وليدة الخيال»(١٩).

ومن أمثلة هذا اللون التي ذكرها قصة

(١٤) الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ص١٥٦.
(١٥) المصدر السابق، ص١٦٣.
(١٦) المصدر نفسه، ص١٧٢.
(١٧) المصدر نفسه، ص١٩٨.
(١٨) المصدر نفسه، ص١٥٣.
(١٩) المصدر نفسه: ١٩٨.

نبي الله عزير عليه السلام: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ... ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٩]، وقصّة طالوت: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٣][٢٠].

٣. **اللون الأسطوري**: وهو من استنباطاته التي تفرد بها وخالف فيها إجماع المسلمين، وقد عرّفه باللون الذي يستعين به القرآن في تفسير غاية أو ظاهرة معيّنة أو شرح مسألة بالأساطير المحكيّة لدى الناس فيضمّنها الآيات كأداةٍ ووسيلة لتحقيق ذلك، وبهذا تصبح الأساطير أحد المواد الأدبيّة التي تتشكّل منها القصص في القرآن[٢١].

يقول: «وإذا ما قال المستشرقون إن بعض القصص القرآني كقصّة أصحاب الكهف أو قصّة موسى في سورة الكهف قد بنيت على بعض الأساطير. قلنا: ليس في ذلك على القرآن من بأس، فإنما هذه السبيل سبيل الآداب العالميّة والأديان الكبرى، ويكفينا فخراً أن كتابنا الكريم قد سنّ السنن وقعّد القواعد وسبق غيره في هذه الميادين»[٢٢].

هذه زبدة الآراء التي صوّرها خلف الله حول قصص الكتاب الكريم، والجامع لها أن الغاية والقصد من ذكر القصص في القرآن هي التأثير في النفوس وتطويعها على الهداية، ولا يتم ذلك دون الاستفادة من جمال اللغة والأدب والتفنّن في أساليب البلاغة وسحرها حتى لو استغرقت في الخيال، وحينئذٍ لا غرابة في احتواء الآيات على الأساطير ومثيلاتها إذا كانت توصل المضامين بنحوٍ أوقع في القلوب -كما هو كذلك بحسب اعتقاده -، وحتى الأحداث التاريخيّة التي حصلت لا غضاضة في ذكرها بالصورة التي توجد في

(٢٠) الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ص١٩٢.

(٢١) المصدر السابق، ص١٥٣.

(٢٢) المصدر نفسه، ص٢٠٩.

أذهان الناس لا التي كانت عليه في الواقع تماماً، وبعبارة أخرى: إن ذكر القصص غير الواقعيّة أسلوب أدبيّ مقصود من الخالق تعالى لمخاطبة الناس وتبليغهم المعارف، وذلك لحاجتهم إلى ذلك وليس لحاجته.

ثالثاً: الآثار المترتبة على هذه الآراء:

من أجلى وأوضح الآثار والنتائج التي تترشّح من الاعتقاد بهذه الأفكار حول القصص القرآنيّة هو ضمور التفاعل الحيّ والصادق بين القارئ وهذه القصص، بل مع جميع آيات القرآن بنحوٍ عام؛ لأن القرآن بالنسبة إلى المسلم هو الدستور والخطاب الإلهي المعصوم والمعجز الذي لا يضاهى ويقاس بغيره، ويمثّل النصّ المقدّس الذي يجزم بحقّانيّته وصدقه ومطابقة آياته للواقع، وبسبب شدّة استيثاقه به وبالخالق الذي أرسله يقبل أن يستقي منه الأحكام والحجج، ويستلهم منه ومن قصصه المواعظ والدروس والعبر، ويقتدي بالشخصيّات العظيمة المذكورة في ثناياه، أما لو تزلزل هذا الوثوق وتزعزع مستوى هذا الاعتقاد فالنتيجة الحتميّة لذلك هي ضعف التصديق بالقرآن وبمرجعيّته في حياة وسلوك الإنسان وصلاحيّته في إدارة شؤونه، ومن الواضح أن مسايرة آراء خلف الله -والقبول ولو في قسم من الآيات الشريفة بأنها متأثّرة بالاعتقادات والأساطير المنتشرة عند البيئة الجاهليّة، وباحتوائها على الخيالات والقصص المفتعلة -كفيلة في عدم التفاعل الحقيقي والجدّي مع المجريات التاريخيّة والقصصيّة في القرآن، وفي الإحساس بعدم قابليّتها للانطباق التام على الواقع المعاش، وبابتعادها عن المساس بصلب الأحداث الطبيعيّة والتجارب والابتلاءات التي تعصف بالإنسان، فينشأ نوع من الفاصلة والانقطاع بين واقع الفرد المسلم والقصّة التي تصوّر له -وفق رأي خلف الله -أنها خيال، وبطبع الإنسان أنه إذا فقد الثقة والتفاعل والتصديق مع جزءٍ من كلامٍ يسحبه عليه بالكامل، وبعبارة صريحة: إذا أحسّ المسلم باضطرابٍ وريبةٍ اتجاه القصص القرآنيّة التي تمثّل بعضاً من القرآن فسوف يرتاب ويفقد الثقة في القرآن كلّه.

والقول بأن هذا ضرب من الفن الأدبي

الساحر الذي يأخذ بمجامع القلوب هو قياسٌ للقرآن بالقصص الأدبيّة المتداولة، وهو قياسٌ فاسدٌ جدّاً؛ فإن هذه الحكايات والروايات لا غاية من ورائها أكبر من الإثارة واستعمال البلاغة وبيان الغرض من سردها في أحسن التقادير، ولا تتطلّب من القارئ قمّة التصديق بها واعتبارها مصدراً لا يأتيه الباطل من قبل ومن بعد، بخلاف القصص القرآنيّة التي هي جزء من القرآن المعجز المعصوم عن الخطأ، والذي لا يَقْصُر عن إيصال فكرةٍ وتقريبها عبر التوسّل بما عند الناس من خرافات وأباطيل، ويراد له أن يكون آية على صدق النبوّة ودستوراً خالداً للبشريّة ومرجعاً لها في الحلال والحرام والسلوك من لدن خالق الوجود المقتدر!!.

وهل يتصوّر أن أغراض واستعمالات الآيات وحتى تراكيبها البلاغيّة والأدبيّة هي من قبيل أغراض الكتّاب والأدباء البشر الذين يستعيرون الكنايات والأوصاف الكاذبة لإيصال أفكارهم حتى قيل في شعرهم أن أكذبه أعذبه؟!!.

لم يعرف القرآن أبداً من ساوى بين الاستعمالين والغرضين، ويكفي في ذلك قول الامام علي عليه السلام: ((**وَ اعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ وَ الْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ وَ الْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ، وَ مَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، زِيَادَةٍ فِي هُدًى أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى، وَ اعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ وَ لَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنًى... فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَ أَتْبَاعِهِ وَ اسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ وَ اسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَ اتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ وَ اسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ**))[٢٣].

ثمّ أن هذه الأفكار تنسجم كثيراً مع النظريّة التي يذهب إليها الفريق الواسع من المستشرقين وبعض المنفتحين بأن القرآن الكريم قد تأثّر بالثقافة والبيئة التي ظهر فيها[٢٤]، وأنه انفعل بالجو السائد آنذاك بنحوٍ واضح، حتى صار يستعمل أمثلة الجاهليّين العرب وآدابهم ورسومهم وأساليب قصصهم وحكايات

(٢٣) نهج البلاغة، ترتيب د. صبحي الصالح، الخطبة ١٧٦.

(٢٤) انظر مثلًا: قرآن وفرهنگ زمانه، السيد محمد علي أيازي، ص١٠٥.

أساطيرهم، ولا يخفى أن هذا الرأي العليل أحد أبرز لوازمه وأغراضه هو القول ببشريّة القرآن وعدم إعجازه، وأنه مؤطّر بالزمن الذي نزل فيه، ولم يعد صالحاً لهذا العصر، وبالتالي لابد من طرحه والتحوّل عنه إلى القوانيين الحديثة الأرضيّة، وهو لازمٌ خطيرٌ ومهم ولا يبقي للقرآن وزناً، ويدعو صراحاً إلى هجر التعامل والتعاطي الإيجابي معه.

رابعـــاً: مستندات خلف الله حول آرائه ونقدها:

أ. مستنده حول رأيه في اللون التاريخي:

عمد خلف الله في هذا اللون على التركيب بين مجموعة من الأفكار اعتبرها مستنداً ودليلاً على رأيه، وأوّلها: أن القرآن تخلّى عن ذكر الكثير من التفصيلات التاريخيّة مما يعني عدوله عن قصد النقل التاريخي، ففي قوله تعالى -مثلاً- حكاية عن قصّة قوم عاد: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [سورة القمر: ١٨ -٢١] لم يذكر لنا القرآن شيئاً عن صفة عاد أو بيوتها أو ما دار بين قومها وبين نبي الله هود عليه السلام، والنتيجة: «ومن هنا لا نستطيع أن نقول بأن هذه القصّة تقصد إلى تعليم الوقائع والتعريف بالتاريخ... عدل القرآن عن كلّ هذا لسببٍ بسيطٍ هو أنه يقصد للموعظة والعبرة ولا يؤرّخ للأفراد والجماعات والأمم والشعوب»[٢٥].

وثانيها: أن سرد القصّة وطبيعة ما يذكر فيها لا يتوقّف أساساً على السير التاريخي وإنما يعتمد على مناسبتها للأغراض البلاغيّة المؤثّرة، فقضيّة أحداث الطوفان مع نبي الله نوح عليه السلام -مثلاً- رغم كونها مفصلاً مهمّاً في قصّته وتعدّ زاخرة بالمواقف لم يشر القرآن إليها إلا بمقدار الآية والآيتين ونحو ذلك ممّا يدخل في الغرض والمقصد المرجو بيانه من الآية.

يقول: «... المقاصد والأغراض هي التي تدفع إلى ذكر بعض الأحداث وحذف بعضها الآخر،... وإن هذا الاختيار إنما يقوم على الاعتبارات البلاغيّة الأدبيّة التي

(٢٥) الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ص١٥٤ -١٥٥.

نردّها إلى منطق العاطفة لا إلى منطق النظر العقلي»[٢٦].

وثالثها: وجود الاختلاف أحياناً في ترتيب الأحداث في القصص من سورة إلى أخرى، وهو الذي جعل المفسّرين يختلفون ويتحيّرون في كيفيّة التوفيق بين مجرياتها والتوحيد بينها[٢٧]، من قبيل قصّة نبي الله لوط عليه السلام الواردة في سورة الحجر وقصّته الواردة في سورة هود.

«لقد خالف بينها في الترتيب ليشعرنا بأن هذه القصّة مستقلّة وتلك قصّة مستقلّة، وأن ترتيبه للأحداث يختلف لاختلاف المقاصد حتى ولو أدّى هذا الاختلاف إلى إهمال أهم مقوّمات التاريخ وهو الزمان»[٢٨].

ورابعها: تصوير القرآن للأحداث كما يعتقدها المخاطبون، وأن هذا الأمر لابد من الالتزام به «ليسلم القرآن من المطاعن ويستقيم الأسلوب الأدبي»[٢٩].

وكشاهد على ذلك ذكر أن القرآن في قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴾ [سورة الكهف: ٢٢]، ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾ [سورة الكهف: ٢٥] لم يقم بالتنصيص على عدد أهل الكهف أو بيان المدّة التي لبثوا فيها لأن مرجع هذا التحديد إلى قول السائلين من القوم، وأما موقفه فهو الرد بـ ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾، وحينئذٍ يصبح بيان هذا المقدار تمشّياً لما هو منتشرٌ عند الناس ولما يعتقده المخاطبون:

"فالقوم يسألون النبي عن العدد وعن المدّة وقد جعلوا آراء اليهود قياساً يقيسون به صدق النبي عليه السلام، ولو نزل القرآن بغير هذه الآراء وبخلاف هذا المقياس لكذّبوا النبي ولما آمنوا به أو بالقرآن»[٣٠].

نقد وتقييم هذه المستندات:

(٢٦) المصدر السابق، ص١٥٥.
(٢٧) المصدر نفسه، ١٥٨.
(٢٨) المصدر نفسه، ص١٥٧.
(٢٩) المصدر السابق، ص١٧٢.

(٣٠) الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ص١٧٤.

يلاحظ على ما تقدّم الأمور التالية:

١. القرآن الكريم هو كتاب هداية وإرشاد، وهذا هو هدفه الأساس الذي جاء في نفس الآيات: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة النحل: ٦٤]، وبالتالي فما يرد فيه من قصص وأخبار الماضين فالغاية منه بيان ما فيه العبرة والاعتبار والهداية وليس ذكر ما جرى على الأمم السابقة بالنحو الموجود في كتب التأريخ وأحوال الشعوب، وحينئذٍ فمن الطبيعي أن يختار من الأحداث ما يناسب هدفه وغرضه وإن أدّى ذلك إلى إغفال التسلسل الزمني أو الترتيب المنطقي لجريانها، ولا يدلّ هذا على عدم تحقّق الوقائع، ولا يصلح كشاهد على كون الأحداث متناقضةً في النسق الذي اعتبره صاحب الدعوى علامة على استقلالها وكونها صنيعاً للأدب والخيال الفنّي، فمن أين أتى بالملازمة بين اختيار القرآن للأحداث -الذي هو بداعي الهداية -وبين أن يكون ذلك تمشّياً مع الأسلوب البلاغي المؤثر بمنطق العاطفة لا العقل -كما يدّعي -وإن كان عبر التوسّل بالخيال والمبالغات والاستعارات الكاذبة؟!!.

٢. اختلاف المفسّرين في تسلسل أحداث بعض القصص ناتج من تفاوتهم في إدراك وفهم بعض النكات والقرائن المعينة في اكتشاف الترتيب بينها، ومن عدم التفاتهم أحياناً إلى الزاوية والمصبّ الذي تركّز عليه الآية حين ذكرها للموقف؛ فقد تدخل فيه عنصر الزمان مثلاً وتعتبره ضرورياً وقد تغفله، وهذا لا يسوّغ وصف القرآن بأنه لجأ إلى ذلك طوعاً من باب التخيّل والتوسّع الأدبي، والنتيجة: أنه لا يوجد تهافت في ترتيب أحداث القصص واقعاً، وإنما الاختلاف هو في فهمها وتفسيرها من قبل المفسّرين أنفسهم، ولأسباب راجعة إليهم لا إلى القرآن.

٣. تصوير القرآن للأحداث كما يعتقدها المخاطبون لا كما هي في الواقع هي

دعوى فاقدة للدليل، ولا يملك أصحابها برهاناً شافياً بدرجة من الإحكام، وكلّ ما يذكرونه لا يعدو بعض الاحتمالات الذوقية الخاصّة والتأويلات البعيدة عن الارتكازات العرفيّة الواضحة في بعض الآيات، ومن المؤسف أن يؤسّس رأي مهمّ كهذا بهذه البساطة؛ ففي مثال عدد أصحاب الكهف أو مدّة لبثهم في الكهف صوّر لنا خلف الله أن القرآن كان مضطراً لذكر العدد الذي هو محكيٌّ عن اليهود ليسلم عن المطاعن ويستقيم أسلوبه الأدبي الذي يراعي حال المخاطب ليؤثر فيهم -أي لو ذكر غير هذا العدد لما استطاع القرآن أن يؤدّي دوره ويسلم من محاججة واعتراض اليهود -وهذا الاستظهار في غاية الركاكة، فمن أين عرفنا-مثلاً-أنّ قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [سورة الكهف: ٢٥] هو حكاية عن اليهود وليس إخباراً من الله تعالى بمدّة اللبث؟!.

أوليس اختيار الحكاية والخروج عن الإخبار-الذي هو أصل -يحتاج إلى قرينة قويّة وساطعة؟!.

وهل القول بالحكاية والتأثّر باليهود هو أقوى من سياق الآية الذي يتحدّث عن عقيدة البعث وقدرة الله العجيبة وآياته الباهرة التي يناسبها التنصيص على المدّة بجلاء؟!!.

يقول العلامة الطبرسي رحمه الله في تقريع وجه الحكاية: "وقد ضعّف هذا الوجه بأن أخبار الله لا ينبغي صرفها إلى الحكاية، إلا بدليل قاطع، ولو كان الأمر على ما قاله، لم تكن مدّة لبثهم مذكورة. ومن المعلوم أن الله سبحانه أراد بالآية الاستدلال على عجيب قدرته، وباهر آيته، وذلك لا يتم إلا بعد معرفة مدّة لبثهم»[٣١]، وبالتالي يصبح مفاد الآية التي بعدها -﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[سورة الكهف: ٢٦] -إبطالاً لقول اليهود وأمثالهم عبر الأخذ بالمدّة التي صرّح بها الله سبحانه، فأين هذا

(٣١) مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ الطبرسي، ج٦، ص٣٣٤.

المعنى المتّزن والقويم والمناسب للسياق مع الدعوى المذكورة؟!!.

ثم أننا لو تنزّلنا وقلنا أن العدد هنا ذكر للحكاية فكيف لنا أن نفسّر ذلك باستسلام القرآن لليهود واضطراره لذكر عقيدتهم الخاطئة وترجيحها على ذكر الحقيقة؟. أهو ضعفٌ في القدرة الإلهيّة وهي التي لا يعوزها شيء و: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ [سورة الطلاق: ٣]؟!. أم هو أسلوبٌ وديدنٌ في الكتاب وقد صدحت آياته: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ..﴾ [سورة المائدة: ٤٨]؟!!. ألا يوجد غرض عقلائي ومنسجم مع مضمون هذه الآيات والنماذج غير هذه الدعوى حتى نقصر استفادتنا وتحليلنا عليها؟!!. والخلاصة: إن هذا التصوير باطلٌ من أساسه، وقد سبق وأن ألمحنا الى أنه يتّسق مع القول بتأثر القرآن بثقافة عصره، وهو الآخر رأيٌ غير قويم وذو لوازم فاسدة، ويصوّر لنا القرآن وكأنه وليد فكر وعادات الجاهليّة، ويتعامى عن الفوارق الجوهريّة والاختلاف الشاسع بين الحضارة الذي أسسها القرآن وخالف بها عقائد وعادات المشركين في زمن النزول وبين ثقافتهم المتخلّفة.

٤. استعمال القرآن الكريم لقوّة الأدب والفنّ والبلاغة في إيصال مطلوبه وأغراضه أمرٌ لا ينكر، بل إن من أوائل معاني الإعجاز فيه هو الإعجاز البياني، ولكن لا يكون بميزان العاطفة المجرّدة عن الحكمة والعقل؛ فاستعمال الخيال والتصرّف في الأحداث التاريخيّة والزيادة فيها إذا اعتبرناه معزّزاً للأسلوب الأدبي المقنع والمؤثّر في تحقّق الغرض كما يشير خلف الله فإنه يقابله في الوقت ذاته ما ينقض الفائدة منه ويبعّد عن إصابة غرضه من ناحيةٍ أخرى وهو عدم الصدق والواقعيّة، وهذا خلاف الحكمة والهادفيّة الإلهيّة التي هي من أبرز سمات وصفات المدبّر والمرسل للقرآن، ولا يتناسب مع قدرته على البلاغ.

ب. مستنده حول رأيه في اللون التمثيلي:

يقتنص من مجموع كلام خلف الله حول هذا اللون أنه يرتكز على عدّة حيثيّات، وهي بإعادة صياغة وترتيب كالتالي:

الأولى: أن التمثيل يمتاز عن الكلام العادي المجرّد عنه أنه يوضّح المعنى بصورة أجلى، إذ قد تذكر معنىً فلا يتّضح للسامع، فتردفه بمثال وتشبيه فيرتفع الإبهام فيه ويصبح الأداء أرقى وأتمّ كمالاً، فإذا كان كذلك فالقرآن بحكم كونه تبياناً لكل شيء وكونه كاملاً فيجب أن تحتوي قصصه على التمثيل، ويجدر بنا أن نتعامل مع قصصة بهذا النحو[٣٢].

الثانية: بالرغم من اتفاق الكلّ على وجود الأثر النفسي للتمثيل إلا أن البعض لا يتعاطى مع القرآن والنصوص الدينيّة إلا بمنطق الصدق العقلي وينكر أو ينسى ما عداه، ويعتبر القول بالتمثيل والخيال حينئذٍ ضرباً من الكذب، وهذا الصنف لم يكتشف الحقيقة الأدبيّة، ولم يوفّق لهضم أن استعمال التشبيهات لا يعد في البلاغة كذباً وإن عدّ كذلك في المنطق[٣٣].

الثالثة: إذا عرفنا أن المتحدّث يسلك التمثيل ويستعمله فلنا أن نتعامل مع كلامه بالأسلوب الأدبي وبما يجول في نفوسنا وخيالاتنا من معنى جرّاء قراءتنا أو سماعنا لألفاظه؛ إذ هو قاصدٌ لذلك ونحن نعلم به، فنصبح جميعنا على تواطئٍ بالأمر، ولا يعدّ صنيعنا كذباً وخلافاً للواقع؛ لأنه يطابق ما بنفوسنا ومشاعرنا من خيال:

«إذا كان هناك مذهب أدبي أو بلاغي تجري عليه اللغة في التعبير عن العواطف والأفكار وكان هذا المذهب لا يعنى بمطابقة لحق فإن للأديب الحق في أن يجري على هذا المذهب وليس للقارئ أو السامع عليه اعتراض ما دام قد عرف مذهبه في هذا ولا يستطيع أن يجعل صنيعه هذا من باب الكذب بحال من الأحوال. ونعتقد أن هذا يوضح أموراً كثيرةً و يجعلنا نقول بوجود القياس الشعري والتعبير عن الصور التي يخلقها الذهن أو الخيال في

(٣٢) الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ص١٨٦.

(٣٣) المصدر نفسه، ص١٨٦ -١٨٧.

القرآن وفي كلام الأنبياء»[٣٤].

الرابعة: كما أن البيان العربي يقوم على الواقع كذلك يتّكئ على العرف والخيال والعاطفة والمبالغة: «فليس يلزم في الأحداث أن تكون قد وقعت وليس يلزم في الأشخاص أن يكونوا قد وجدوا وليس يلزم في الحوار أن يكون قد صدر وإنما قد يكتفى في كل ذلك أو في بعض ذلك بالفرض والخيال ومن هنا كانت القصة التمثيلية عند المفسّرين قصّة بيانية، أي قصة فنية»[٣٥]. وهذا يعرف باقتفاء أقوالهم (المفسّرين) في التفسير، والكثير ممّن اعتبر القصص التمثيليّة من الآيات المتشابهة هو عاجزٌ عن فهم التمثيل واستخراج المعاني منه[٣٦].

ومن الشواهد التي اقتبسها خلف الله من كلمات المفسّرين انتصاراً لرأيه:

أ. ما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٦٧] نقلاً عن الكشاف:

«لما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته وقدره في نفسه حق تقديره عظمه حق تعظيمه قيل ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ وقرئ بالتشديد على معنى: وما عظموه كنه تعظيمه، ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل فقال ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز... ولا ترى باباً في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب»[٣٧].

ب. في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ

(٣٤) المصدر نفسه، ص١٨٧.
(٣٥) المصدر نفسه، ص١٨٣.
(٣٦) المصدر نفسه، ص١٨٣.
(٣٧) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، ج٤، ص١٤٢.

مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٩] نقلاً عن تفسير المنار: «ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل والله أعلم»[٣٨].

ج. في قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ ۗ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [سورة المائدة: ٢٧ – ٣٠] نقلاً عن تفسير المنار –أيضاً–:

«والحق فيما قصّه علينا الوحي من قتل قابيل أنه بيان لما في استعداد البشر من التنازع بين غرائز الفطرة بالتعارض بين عاطفة وشيجة الرحم وحب العلو والرجحان والامتياز على الأقران في رغائب النفس ومنافعها وما قد يلد من الحسد وما قد يتبع الحسد من البغي العدوان فضرب الله مثلاً لبيان هاتين الحقيقتين ليرتّب عليه بيان كون غريزة الدين بل هدايته هي المهذبة للفطرة البشرية بترجيح الحق على الباطل والخير على الشر فكان قابيل مثلا لمن غلبت عليه النزعة الثانية وهابيل مثلاً لمن غلبت عليه الأولى بترجيح هداية الدين...»[٣٩].

د. في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٣] نقلاً عن تفسير ابن كثير: «وقال ابن جريج عن عطاء قال: هذا مثل»[٤٠].

(٣٨) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، السيد محمد رشيد رضا، ج٣، ص٤٤.

(٣٩) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، السيد محمد رشيد رضا، ج١٠، ص٢٠٥.

(٤٠) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج١، ص٥٠٢.

الخامسة: أن وجود الخيال في القرآن هو بسبب حاجة البشر إليه في محادثاتهم وتعابيرهم وأحاسيسهم، فلا يحتج بأنه مستحيلٌ على الله تعالى لغنائه عنه: «وهنا أمر آخر لا بد من توضيحه هو أن الحاجة إلى الخيال في القصص القرآني أو في التمثيل القرآني لم تأت لحاجة المولى سبحانه وتعالى إلى الخيال في التعبير عن المراد. وحاشا لله أن يحتاج إلى الخيال. وإنما جاءت لحاجة البشرية لهذا الخيال ولأن ذلك هو الأسلوب الذي تجري عليه في التعبير عن الأحاسيس والأفكار»[٤١].

وبمجموع هذه الحيثيّات يتوصّل خلف الله إلى أن القصّة التمثيليّة موجودة في القرآن، وقد اعترف بوجودها أهل التفسير، وأنها أسلوبٌ فنيٌّ وأدبيٌّ ينسجم مع طبيعة الإنسان في التعبير وإطلاق الخيال والعواطف.

التعليق والملاحظة على هذه الحيثيّات والمستندات:

ويرد على هذه الحيثيّات -الخمس- النقاط والمؤاخذات التالية:

١. ليس الكلام الأكمل والأصوب هو المرتبط بالتمثيل دائماً؛ فيمكن أن يوسم بالتمام والكمال من ناحية جودة تأليفه وقوّة بيانه ووضوح مقصده من دون دخلٍ لوجود المثل فيه، بل قد يصبح اقترانه به أحياناً علامة وآية على ضعف تركيبه وركاكته، ولو كان الأداء الكامل لا يتم إلا به لأصبح هو الأصل في محادثاتنا وتعابيرنا، ولكان كلّ تمثيل يحتاج في كماله إلى تمثيل أيضاً؛ لنفس النكتة.

وبناء على ذلك لا يصحّ التعامل مع القصص والإخبارات القرآنية على أنها خيال بمجرّد ادّعاء أن تمام بيانها بالتمثيل، وكأن المدّعي يريد بفكرته أن يقول: أن الأصل في حكاية المواقف والقصص في القرآن هو عدم وقوعها لعدم إرادة المتحدّث -وهو الله تعالى- الصدق الوقوعي، وإنما تتعلّق إرادته بالتبيين الذي لا يحصل إلا بضرب الأمثال الخياليّة، إلا إذا ثبت العكس بالقرينة، وهو قولٌ مجانب للصواب ومخالف لما عليه العرف

(٤١) الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ص١٨٨.

ونظام اللغة والاستعمال.

٢. تخطئة خلف الله لمن وصفهم بالتعاطي مع القصص القرآنيّة بمنطق الصدق العقلي فقط مع اعترافه باتفاق الجميع على وجود الأثر والنفع في استعمال المثال ليس في محلّها؛ لأن تعاطيهم هذا لا يعني رفضهم لتضمين بعض الآيات للأمثال، كيف وقد صرّح القرآن نفسه في بعض الآيات بـ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الحشر: ٢١]، وإنما كان موقفهم هذا مبنيّاً على عدم صحّة التعامل مع القصص والإخبارات على أنها تمثيل وخيال مع عدم وجود قرينة صارفة عن إرادة الوقوع الذي هو الأصل، سواء كانت القرينة لفظيّة متضمّنة في نفس السياق القرآني أو قرينة لبّيّة، وهذا هو مقتضى ظهور أيّ إخبار وحكاية في العرف، والخروج عن هذه الطريقة يعدّ خلافاً لقصد المتكلّم الحكيم الذي لا يقصر في تبيين مراده، وبالتالي إذا لم تصرّح الآيات بالتمثيل أو يستشف من سياقها ولم ينهض دليل عقلي صارف عن إرادة الجدّ والتحقّق فلا يمكن رفع اليد عن الصدق والوقوع في الأحداث.

٣. كيف علمنا أن المتحدّث -وهو الله سبحانه- يسلك التمثيل والأسلوب الأدبي في قصصه بحيث نتواطأ معه في مقصده ونتعاطى معها بنفس النيّة؟!!. وحتى لو عرفنا أنه يستعمل المثال في بعض المواضع-من باب الفرض -فمن أين لنا القطع بإرادته واستعماله التمثيل في سائر المواضع؟!!. والخلاصة: طالما أنه سبحانه لم يفصح عن إرادة الخيال ولم يظهر ذلك من قرينة لا طريق لنا إلى القول بعدم واقعيّة القصص فكيف وقد صرّح في آيات الكتاب العزيز بأنه أنزل القرآن -بما فيه من إخبارات وقصص -مصاحباً للحق والأمر الثابت الذي لا يخالطه الباطل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة آل

عمران: ٦٢]، ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٢]، ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [سورة آل عمران: ٣]؟!!.

٤. قوله بأن المفسّرين يتعاملون مع القصص التمثيلية على أنها مقطع فنيّ أشبه بالمصادرة؛ فأصل القصص التمثيليّة لم يثبت بعد، وأن ديدن المفسّرين هو التعامل مع قصص القرآن بالخيال مجافٍ للواقع؛ إذ الغالبيّة العظمى منهم يسلّمون بواقعيّتها، وإنما النزر اليسير منهم توقّف عند بعض المواضع التي احتار في كيفيّة تفسيرها أو التوفيق بينها وبين نظائرها أو قام بالاستيحاش منها واستبعادها فاحتمل التمثيل أو لجأ إليه، وتصرّفهم هذا ناتجٌ من ضيق خناقهم وعجز قدرتهم عن الوصول إلى التفسير القويم والمعقول ولا يقلب النتيجة على الأغلب ويصيّرها هي الصواب، فمجرّد استيحاش بعض المفسّرين بشكل شخصي من مثل قصّة عزير عليه السلام أو قصّة طالوت وغيرها لا يعدّ دليلاً علميّاً صارفاً للمعنى الحقيقي طالما أنه لا يصادم استحالة عقليّة أو يخالف أمراً قطعيّاً، خاصة إذا نظرنا إلى سعة قدرة الله المطلقة وحكمته وتدبيره الغير محدود، والخروج عن ظاهر الآيات وإرادة المعاني البعيدة منها لا يعدّ تفسيراً، ومنه يظهر الإيراد على ما ذكره خلف الله حول قصّة ابني نبي الله آدم عليه السلام -من تفسير قابيل بنزعة الشرّ الموجودة في البشر وتفسير هابيل بنزعة الخير والصفاء -نقلاً عن تفسير المنار فهو تكلّفٌ واضحٌ ولا يعد تفسيراً للظاهر.

ثم أن قسماً من الأمثلة التي ساقها خلف الله ليست من قبيل القصص، وإنما هي ضربٌ من بيان بعض معاني التوحيد والعقيدة والدين وما شاكل ذلك، والتي تكون القرينة في إرادة التمثيل فيها بارزة وجليّة، وهي خارج نطاق موضوعنا أصلاً، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٦٧]، حيث استعملت الآية الشريفة القبضة للكناية عن السلطنة الإلهيّة على الموجودات، وأين هذا من القول بوجود الخيال في القصص القرآنيّة؟!!.

٥. حاجة الناس إلى الخيال بالمعنى الذي أشار إليه خلف الله لا تعدو استفادتهم للمعاني المجازيّة عند توجّههم للقرينة المكتنفة للكلام لتصرفه عن معناه الحقيقي، وهي لا تحصل مع فقدان القرينة، وليست أمراً مغايراً لما هو المعهود في أساليب المحاورة المتعارفة، وحينئذٍ لا تكون الحاجة إلى الخيال واطلاق العواطف من البشر مصاحبة لكل كلام وقصّة وإخبار يطرق أسماعهم، وإنما في الموارد التي توجد بها علائم وقرائن تحفّزهم للتحليق في المعاني الخياليّة والمجازيّة، أي: ليست الحاجة إلى الخيال عند الناس هي السبب في لجوء المتحدّث إلى استعمال التمثيل، وإنما نفس المتكلّم إذا أراد المثال يقرن كلامه بما يشعر بذلك فيفهم منه المستمعون أنه يريد الخيال لا الواقع، وهذه نقطة جوهريّة فلا يقع اللبس فيها.

فيتضح مما تقدّم أن جميع الحيثيّات التي ساقها خلف الله لاثبات فكرة التمثيل في القصص القرآنيّة مردودة وليست تامّة.

ج. مستنده حول رأيه في اللون الأسطوري:

رغم اعترافه بإجماع المفسّرين على رفض وجود الأساطير في القرآن وأنه ينحى منحىً منفرداً وشاذّاً عن مسلكهم بدأ خلف الله تمهيده لرأيه بالتفريق بين هيكل القصّة -ويسمّى جسم الحكاية أيضاً- وهدفها الذي يحوي الحكمة والتوجيه والإرشاد، وأن الأدباء وأهل الفن أجازوا أن تكون مادة الهيكل باطلة وخرافيّة وغير صحيحة في نفسها ولا يعتقد بها المتكلّم بينما هدف القصّة يكون مقصوداً منه بداعي الوعظ والتوجيه وبيان المبادئ، ثم علّق -مستفيداً من نصّ للرازي في تفسيره[٤٢] وآخر لصاحب

(٤٢) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، الفخر الرازي، ج١٧، ص٢٥٥.

المنار[٤٣] -قائلًا: «إذ الواضح أن الأستاذ الإمام يجيز أن يكون في التعبير القرآني قصصاً وغير قصص أثر للأساطير إجراء للعبارات على تلك الظواهر الخرافية لأنه يحكي من عقائدهم الحق والباطل كما يجيز أن يكون القرآن قد أجرى أساليبه كما هو المعروف عند الأدباء فجعل الخرافات الوثنية أداة للتعبيرات البلاغية»[٤٤].

ثم قام بجمع كل الآيات التي ورد فيها ذكر (أساطير الأوّلين) في القرآن- وعددها تسع -وذكر أن بها أربع دلالات تقود إلى القول بنظريّته حول الأساطير، وهي بنحوٍ من التلخيص[٤٥]:

الدلالة الأولى: أن جميع الآيات التسع المتناولة لمفردة الأساطير هي من القرآن المكّي، حتى التي تضمّنتها سورة الأنفال المدنيّة؛ إذ رجّح كون بعض آياتها مكيّة.

ويترتّب عليها تالٍ، وهو أن الحديث حول الأساطير كان من أهل مكّة وجمهرتهم من المشركين ولا ربط له بأهل المدينة.

الدلالة الثانية: أن القائلين بالأساطير غالبهم من الذين ينكرون البعث واليوم الآخر.

وهو ظاهرٌ من مثل قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٨٢ -٨٣]، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [سورة النمل: ٦٧-٦٨] وغيرهما.

الدلالة الثالثة: أن المشركين لمّا جادلوا النبيﷺ واعترضوا عليه كانوا يؤمنون بوجود الأساطير في القرآن بعقيدة صلبة وصادقة لا يعتريها شكٌّ أو تردّد، وإلى درجة أنهم كانوا يتحدّون: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا

(٤٣) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، السيد محمد رشيد رضا، ج١، ص٣٣٠.

(٤٤) الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ص٢٠٠.

(٤٥) لاحظ: المصدر نفسه، ص٢٠٢ -٢٠٨.

حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [سورة الأنفال: ٣١-٣٢].

يقول خلف الله: «ونحن إذ نعتقد بصدق القرآن ودقّته في تصوير إحساساتهم لابد لنا من التسليم بأن هذه العقيدة كانت قوية عندهم وتقوم على أساس يطمئنون إليه من حيث وسعهم معه أن يقرروا بهذه القوة وجود الأساطير في القرآن ذلك لأنهم لا يستطيعون هذا القول إلا إذا كان هناك ما يبرّر فعلا هذا القول في تقديرهم ويجعلهم يؤكّدونه هذا التأكيد»(٤٦).

الدلالة الرابعة: أن القرآن لم يحرص أن ينفي عن نفسه وجود الأساطير فيه؛ فالآيات إما أنها لم تعقّب على ذلك، أو اكتفت بالتهديد على إنكار البعث أو الصدّ عن اتباع النبي ﷺ، وإما أنها ردّت وعقّبت ولكن من أجل نفي كون الأساطير من عند النبي ﷺ يكتتبها ويملّيها وإثبات أنها من عند الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [سورة الفرقان: ٥-٦].

والنتيجة من مجموع هذه الدلالات- بحسب زعمه -هو ثبوت نظرّيته و: «إذا كان إحساس القوم بورود الأساطير في القرآن قوياً عنيفاً وعقيدتهم في ذلك قوية ثابتة. وإذا كان القرآن لا ينفي ورود الأساطير فيه وإنما ينفي أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد ﷺ وليس من عند الله. إذا كان كلّ هذا ثابتا فإنّا لا نتحرّج من القول بأن في القرآن أساطير لأنّا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصاً من نصوص القرآن»(٤٧).

مناقشة هذه الدلالات وأصل النظريّة:

ونبدأ بالفكرة التي مهّد بها خلف الله عرض نظريّته حول الأساطير في القرآن، وهي تجويز الأدباء استعمال المادة القصصيّة الكاذبة والباطلة في بثّ الإرشادات والتوجيهات والمبادئ إلى القارئ والمستمع، فنقول: أجازوا أم لم يجيزوا فلا تعدّ إجازتهم مبرّراً لسماح

(٤٦) الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ص٢٠٤.

(٤٧) الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ص٢٠٦-٢٠٧.

ذلك وإمكانه في القرآن، وليسوا هم من يقرّر طبيعة الأسلوب والنهج القرآني في بث الوعي والتوجيه إلى الناس، فلا يقاس القرآن المعجز الصادر من القادر والحكيم والقهّار والمسيطر والمحيط بما لدى المقهور والمحاط والمخلوق من أسلوب لا يرقى بأكثر من مستواه وغرضه ومحدوديّته في أحسن التقادير، وإنما نفس الكتاب الشريف هو يفصح عن ذلك، وآياته الكريمة قد نطقت وتحدّثت بأنه حقٌّ كلُّه وقد أُنزل بالحقّ من لدن الحقّ تعالى: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [سورة الإسراء: ١٠٥]، فلم يداخله باطل أو يساوره فساد أو كذب، لا من جهة المادّة ولا من ناحية الغاية والهدف، وحتى قصصه وأخباره-كقصص نبي الله موسى ونبي الله عيسى عليهما السلام -وسمت بالحقّ الذي بإزائه واقعٌ وثبات: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة القصص: ٣]، ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾[سورة آل عمران: ٦٢]، وكأن لسانه يشير إلى رفض مبدأ أن الغاية -وإن كانت حقّة -تبرّر الوسيلة ولو عبر الاستعانة بالمادة الكاذبة، وأنه عمل الله تعالى الذي لا تقصر قدرته عن إبلاغ الهدى والرشاد بالصدق والإخبار الواقعي، فكل ما في الوجود هو خلقه ولا يخرج عن تدبيره وتقديره: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [سورة الطلاق: ٣] فكيف يعوز ويفتقر إلى أسلوب وضيع كالاتكاء على الأساطير؟!!.

وكلامنا السابق الذي نفيناه عن القرآن هو تضمينه المادة الكذب في إخباراته وقصصه بهدف الاستفادة منها في بثّ الأحكام والتوجيهات، أما إذا كان ذكره للأباطيل بداعي كشف غيّها وزيفها وبيان مواطن الخلل فيها فهو لا مانع منه ولا يتعارض مع الصدق والواقع وهو خارج منظورنا.

أما ما يرتبط بالدلالات التي ساقها فهي غير موصلة إلى مبتغاه، وقد شطّ بها بعيداً جدّاً وتصنّع في تأليفها بما لا يخدم عليه السياق أو تعين عليه القرينة، وما بني على أساس فاسد فنتيجته مثله، وتفصيل ذلك:

ذكر خلف الله أربع دلالات، والدلالتان الأُوْلتان منها جعلهما تدعيماً ومعبراً للتاليتين اللتين هما العمدة ورأس الحربة في استدلاله، ولذا لا يهمّنا التوقّف كثيراً في الدلالتين الأُولتين ولا توجد حزازة وغضاضة فعلاً من جهتهما -إذ القول بمكيّة الآيات التسع أو غالبيّتها وأنها تتحدّث عن لسان أهل مكّة وجمهرتهم من المشركين هو مما لا يخفى، وكون أكثر القائلين بالأساطير هم من الذين ينكرون البعث والمعاد مما لا ينكر أيضاً ولا ضير فيه بحسب ما سنذكره من معنى لا الذي اختاره القائل بالأساطير- وإنما نقصر المناقشة على الدلالتين الثالثة والرابعة.

أما الدلالة الثالثة التي يذكرها- والتي حاصلها أن المشركين صادقون في اعتقادهم بوجود الأساطير في القرآن- فيرد عليها:

أولاً: من أين عرف خلف الله أن المشركين لديهم ما يبرّر لهم قولهم وأن ما يذكرونه يعتقدون بصوابيّته بصدقٍ وصلابة؟!!. وهل الآيات التسع في مقام بيان صدق أحاسيسهم كما يدّعي أم أنها في مقام التوبيخ والذم لهم على لجاجهم وعنادهم وتكذيبهم للقرآن والنبي ﷺ؟!!.

لو نقوم بمسحٍ سريع لمجموع هذه الآيات لاتضح بجلاء ما هو المغزى من رمي المشركين القرآنَ بالأساطير، ولعرفنا هشاشة الدعوى التي حاول خلف الله التمسّك بها بدون موضوعيّة واستقامة في فهم سياق الآيات، ففي موضع الشاهد من سورة المطفّفين ذكرت الآية التالي: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة المطفّفين: ١٠ -١٤]، أي أنّ هناك صفاتاً ثلاثاً لمن يكذّب بالمعاد ويوم الدين، وهي أنه معتدٍ وأنه أثيم وأنه يصف القرآن بالأساطير المكذوبة للأوّلين، وأن الله تعالى قد طبع على قلبه لتكذيبه ولصفاته المذكورة، فأين الدلالة على مبرّرات وصدق كلام المشركين التي يذكرها المستدل في الوقت التي يصفهم القرآن بالمكذّبين والمعتدين

المتجاوزين؟!!. إنه لغريبٌ حقّاً.

وفي موضع الشاهد من سورة المؤمنون يقول تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨٣ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٨٢-٨٥]، ومضمونه أن الكافرين والمكذّبين بالآخرة وفي سياق استهزائهم واستبعادهم للبعث يقولون أنّ مسألة المعاد والقيامة هي ممّا وُعِدْنا بها نحن وآباؤنا من قِبَل الأنبياء السابقين عليهم السلام وإلى الآن لم تتحقّق، فلو كانت حقّاً لوقعت فهي إذن من الأحاديث الكاذبة والخرافيّة، ثم تردّ عليهم الآية بإثبات المعاد عبر بيان مالكيّة الله تعالى ومملكته، وهذا المورد هو الآخر يثبت أن لجوء الكفّار إلى وصف القرآن بالخرافات ناتج من استبعادهم وتسفيههم لليوم الآخر وليس بسبب اعتقادهم وجود مادة الأساطير فيه. ونفس هذا التقريب والمضمون يجري في موضع الشاهد من سورة النمل[٤٨] وسورة الأحقاف[٤٩].

وأما في سورة الفرقان فيقول تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [سورة الفرقان: ٤ -٦]، وتقريبها: أن الذين كفروا لمّا عرض عليهم الرسول ﷺ القرآن قاموا باتّهامه ظلماً وكذباً بأنه وبالاستعانة ببعض الآخرين افتراه ثم اختلق نسبته إلى الله، أو أنه كانت تملى عليه أكاذيب وخرافات السابقين بشكلٍ يوميّ ومتتابع فيحفظها ويلقيها على أنها من الله، ثمّ تأمر الآية النبي ﷺ بالردّ عليهم بأن ما تدّعونه واهٍ ومرفوض؛ إذ أنه مُنزلٌ من قِبَل الذي يعلم الخفايا والأسرار وليس بحسب ما تزرون من كونه أساطير وإملاءات من الغير. وهذا الموضع أيضاً لا دلالة فيه على كون الكافرين صادقين في

(٤٨) [سورة النمل: ٦٨].
(٤٩) [سورة الأحقاف: ١٧].

أحاسيسهم، خاصة مع تقريع الآيات لهم وأمرها للنبيﷺ بالرد عليهم.

وبنفس هذا البيان والكلام بنحوٍ قريب ينطبق على الشاهد في سورة النحل[٥٠] وسورة القلم[٥١] وسورة الأنعام[٥٢].

والشاهد التاسع والأخير هو قول الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [سورة الأنفال: ٣٠-٣٢]، ولسانها لا يختلف عن سابقاتها من الآيات من حيث التعرّض إلى صورة العناد والتكذيب من قبل المشركين لنزول القرآن من الله تعالى الذي مصيره إلى تكذيب النبيﷺ أيضاً، فبعد ذكر ما يخطّط له المشركون من مكرٍ إلى شخص الرسولﷺ يردف عليه بيان كيفيّة استهزائهم واستهانتهم بمقام الكتاب الشريف؛ حيث يدّعون أنهم عقلوا ما به من آيات فوجدوها هشّة ولا قيمة لها، ولا تعدو كونها تأليفاً من أساطير وأباطيل السابقين والتي بوسعهم الاتيان بمثيلاتها، والعجيب أنهم يعلمون بعجزهم عن الاتيان بمثله -إذ لو استطاعوا لعارضوه وتحدّوه به -ومع ذلك يتصنّعون القول بالقدرة، وهذا دليلٌ على عدم اعتقادهم بوجود الأساطير في القرآن بنحو الصدق والإصرار الشديد كما يدّعي خلف الله؛ بل إن لهم مآرب وأغراضاً أخر، ولو من باب التمويه على أتباعهم وحفظ مركزهم.

وأما ذيل المقطع -والذي تمسّك به خلف الله لاثبات وجود التحدّي من المشركين الدال على صدق دعواهم للأساطير -فهو لا يخدم رؤيته أيضاً بحالٍ؛ وذلك لأنه إما أن يكون مواصلة لغرض الكافرين في تمويه الحقائق على الناس وخداعهم باختلاق التحدّي بنزول

(٥٠) [سورة النحل: ٢٤].
(٥١) [سورة القلم: ١٥].
(٥٢) [سورة الأنعام: ٢٥].

العذاب فيصبح تتميماً للمقطع المتقدّم، وإما أن يكون له شأنٌ آخرٌ يختلف مع سابقه شكلاً ويتّحد معه روحاً؛ وتوضيحه بحسب نظر صاحب الميزان رحمه الله : أن قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ به ظهور في الحصر فيلائم قول من كان يعتقد بالدين ورسالة السماء إلا أنه أنكر ما أتى به النبي صلى الله عليه وآله أو شطراً معيّناً منه -كما لو لم يحتمله أو ثقل عليه تصديقه والالتزام به -فترجم إنكاره وردّته بمخاطبته الله: اللهم إن كان هذا الشيء المعيّن والمحصور هو من عندك وليس من عند النبي صلى الله عليه وآله فأمطر عليّ حجارة من السماء، جاء في تفسير الميزان:

«ثم قوله: «إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ» يدل بلفظه على أن الذي سمعوه من النبي صلى الله عليه وآله بلسان القال أو الحال بدعوته هو قوله: «هذا هو الحق من عند الله» وفيه شيء من معنى الحصر، وهذا غير ما كان يقوله لهم: هذا حق من عند الله فإن القول الثاني يواجه به الذي لا يرى ديناً سماوياً ونبوة إلهية كما كان يقوله المشركون وهم الوثنية: ما أنزل الله على بشر من شيء، وأما القول الأول فإنما يواجه به من يرى أن هناك ديناً حقاً من عند الله ورسالة إلهية يبلغ الحق من عنده ثم ينكر كون ما أتى به النبي صلى الله عليه وآله أو بعض ما أتى به هو الحق من عند الله تعالى فيواجه بأنه هو الحق من عند الله لا غيره، ثم يرد بالاشتراط في مثل قوله: اللهم إن كان هذا هو الحق...»[٥٣].

والخلاصة من جميع ما تقدّم أن جميع الآيات التسع التي تناولت لفظة الأساطير على لسان المشركين لا تلوح منها قرينة أو إشارة إلى كونهم يعتقدون بصوابيّة مقولتهم، بل على العكس من ذلك، كل المقاطع كانت تكشف زيف وتمويه ادعاءهم، وأنه نوع من الاستهزاء أو التمويه والكذب.

ثانياً: لو تنزّلنا وقلنا بأن المشركين كانوا في قمّة تصديقهم بوجود مادة الأساطير في الكتاب العزيز، فهذا لا يلازم وجود المادة الباطلة فعلاً في ثناياه، فلم نتمسّك بهذا القشر والاحتمال الواهي من الذين كذّبوا

(٥٣) الميزان في تفسير القرآن، السيّد الطباطبائي، ج٩، ص٦٨.

الآيات وعارضوها وأنكروا نزولها من الله تعالى واتهموا النبي ﷺ بالإفك والافتراء ونغض الطرف عن نفس حكاية القرآن عن نفسه أنه حقّ وحديثه صدق وأنه معجزٌ ومصان عن الباطل قبل وبعد، إن هذا تحكّم وإشاحة بالعين عن الرأي الصراح.

ثالثاً: يفهم من دعوى خلف الله أن اعتقاد المشركين الجازم والصادق بوجود مادة الأساطير في القرآن يختصّ بالقصص والانباءات، بينما يظهر من الآيات الشريفة السابقة أن المكذّبين والكافرين كانوا يصفون كلّ القرآن بأنه أساطير الأوّلين، فيلزم من كلامه ودعواه كون كل القرآن -أو على الأقل غالبه -متشكّل من الأساطير، والتالي باطلٌ بالضرورة- باعترافه هو أيضاً -فالمقدّم مثله.

وأما بالنسبة للدلالة الرابعة والتي حاصلها أن القرآن لم ينف عن نفسه تهمة وجود الأساطير وإنما نفى أن تكون هي الدليل أنه من عند النبي ﷺ وليس من عند الله تعالى فهي من العجائب والغرائب، فأين ذهب مثل معنى قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٢] والذي تكرّرت الإشارة إليه في البحث مراراً؟!!. وهل يمكن قبول وتصديق أن الآيات التسع السابقة تنحصر فائدتها وظهورها فقط في نفي كون الأساطير دليلاً على أن القرآن من النبي ﷺ وليس من الله، ثم تكون في عين الحال دالةً على قبول كلام المشركين وصدقهم أو عدم رفضه في وجود الأساطير بالآيات؟!!. من أين جاء هذا التلفيق وإلى أيّ سياقٍ وعرفٍ عربيٍّ قويمٍ ينتمي؟!!.

فهل يفهم في الآيات الشريفة التالية -مثلاً -: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة المطفّفين: ١٠ -١٤] أن القرآن لم يحرص على نفي الأساطير عنه عندما وسم القائل بها بالكاذب الذي مصيره جهنّم وقد ران على قلبه وأنه أقام على الإثم والاعتداء والتجاوز وقد كذّب بأصل الآخرة والقيامة؟!!.

أولم يتقدّم أن قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[سورة الفرقان: ٤-٦] فيه تكليفٌ للنبي ﷺ أن يفنّد كلام المفترين الذين اتهموا القرآن بالأساطير والإفك زوراً وتكذيباً؟!!. وهل هذا أمرٌ أجنبيٌّ وغريبٌ عن نفي أصل مادة الخرافة والبطلان؟!!. يقول العلامة صاحب الميزان رحمه الله:

«قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ أمر للنبي ﷺ برد قولهم وتكذيبهم فيما رموا به القرآن أنه إفك مفترى وأنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه وقتا بعد وقت. وتوصيفه تعالى بأنه يعلم السر أي خفيات الأمور وبواطنها في السماوات والأرض للإيذان بأن هذا الكتاب الذي أنزله منطو على أسرار مطوية عن عقول البشر، وفيه تعريض بمجازاتهم على جناياتهم التي منها رميهم القرآن بأنه إفك مفترى وأنه من الأساطير وهو مما يعلمه تعالى»(٥٤).

وبذلك يتّضح سقم الدلالة الرابعة أيضاً، ويتحصّل من ردّها ورد الدلالة الثالثة عدم صحة نظريّة الأساطير التي نادى بها خلف الله وبطلانها بالكامل.

خامساً: الأدلّة على واقعيّة القصص القرآنية:

رغم أن نفس المناقشات لآراء خلف الله وآثارها تتضمّن ذكر عدّة من الأدلّة على صدق وقوع القصص القرآنيّة إلا أن حصرها وجمعها في موضعٍ واحد لا يخلو من بركات وفائدة، وهي بشكلٍ عامٍّ:

الدليل الأول: الغاية والهدف القرآني السامي:

لا شك أن من أعظم أهداف القرآن هو هداية الناس وإرشادهم وإيصالهم إلى الكمال المنشود، وأن أسلوب القصص فيه يعدّ من أبلغ الطرق وأسرعها في إيصال العبرة والعظة والاعتبار بالسنن

(٥٤) الميزان في تفسير القرآن، السيّد الطباطبائي، ج١٥، ص١٨٢.

والتجارب: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٦]، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ... وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة يوسف: ١١١]، فلو كانت قصصه خياليّة ولا حظّ لها من الواقع لكان ذلك أبعد من ناحية الاقتداء والاستيثاق والتفاعل، بالذات إذا عرفنا أن القرآن الكريم هو الكتاب المعجز الذي يتعامل معه المؤمن باحترام وتقديس ويعدّه دستوره ومصدر سعادته في كلّ الحياة، وعليه فالعقل يقودنا إلى الاهتداء بكون كلّ قصص القرآن وآياته هي صادقة وإلا لزم خلف الغرض من إرساله، يقول تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة هود: ١٢٠].

الدليل الثاني: دور القرآن في الهيمنة على الكتب السماويّة السابقة وتصحيحها:

يقول تعالى شأنه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [سورة المائدة: ٤٨].

من خصائص القرآن المجيد أنه معيارٌ وميزان لمعرفة الحقّ والباطل الذين امتزجا واختلطا في الكتب السماوية السابقة المحرّفة والتي منها قصص الأنبياء عليهم السلام والأمم السالفة، فلو لم نقبل الصدق والواقعيّة في إخباراته وحكاياته لما كان مسيطراً على الكتب المحرّفة ومصحّحاً لأخطائها.

الدليل الثالث: دور القرآن في تفصيل وشرح الكتب السماويّة السابقة:

يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة يونس: ٣٧].

والآية فيها دلالة على أن القرآن الكريم يمتاز بكونه تفصيلاً لما أجمل في الكتب السماوية السابقة عليه، فكلّها من حيث الروح واحدة، ولكن القرآن متفوّق عليها بسمة الشرح والتفصيل حتى في قصصها ومواعظها، فما كان هذا شأنه كيف يحتوي الخيال والأساطير؟.

الدليل الرابع: وصف القرآن لقصصه بالحق:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾[سورة آل عمران: ٦٢]، ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[سورة القصص: ٣]، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [سورة يوسف: ٣].

والحقّ يعني المطابق الذي بإزائه واقع، والذي لا يجامع الباطل والخيال أبداً: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[سورة يونس: ٣٢].

الدليل الخامس: وصف القرآن لنفسه بالكامل أنه حقّ:

يقول تبارك وعلا: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٢]، ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[سورة آل عمران: ٣]، ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾[سورة الإسراء: ١٠٥].

وقد مرّ شرح هذه الآيات سابقاً واتضح معنى الحق في الدليل المتقدّم، والفارق بين هذا الدليل وما قبله هو أن ذاك الأوّل يصف خصوص القصص أنّها حقٌّ، بينما هذا يصف كلّ القرآن بما فيه القصص أنه حقٌّ.

الدليل السادس: استبطان الوقوع والتحقّق في نفس مفهوم القصّ:

ربما يذهب البعض إلى عدّ نفس مفهوم القصّة لوحده كافٍ في استفادة وقوع المحكي بتقريب: أن أصل القصّة هو حكاية لما هو واقعٌ؛ لأنها تتبّع واقتفاء للأثر الذي حدث وجرى كما ذكرنا في أوّل البحث، وحينئذٍ يكون استعمالها في غير معنى الوقوع من باب التجوّز ويحتاج إلى نصب القرينة، وطالما أن القرآن استعملها مطلقةً بدون إضافةٍ إلى شيء أو تضميم علامة فتدل على معناها الأصلي.

الدليل السابع: القرآن لا يناسبه إلا الصدق من جميع الجهات:

عندما نلاحظ سعة قدرة الله تعالى وسيطرته على مملكته وشؤونه وإحكامه الإحاطة لكل أموره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [سورة الطلاق: ٣]، ومن جهة أخرى

نلحظ موقعيّة القرآن وكونه الرسالة الخالدة التي أنزلت بالحقّ وحُرِص على صيانتها وحمايتها من كل أسباب الضعف والتحريف: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[سورة الحجر: ٩]، وأنه منيعٌ عزيزٌ: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[سورة فصّلت: ٤١-٤٢]، نصل إلى إطمئنان أنه لا يلائمه إلا الصدق والوقوع والتحقّق، ولا يليق بعظمته أن يحوي مثل الخيالات ومادة الأباطيل.

ملاحظة:

كثيراً ما يستعمل القرآن المجاز والاستعارة والكناية وأمثال ذلك بحيث ينصرف الكلام عن معناه الحقيقي بنصب القرينة وملاحظة نوع المناسبة واللازم وغيرها، ولكن مع ذلك لا يصيّر هذا الاستعمال الآيات خيالاً ويخرجها عن الصدق والواقع؛ إذ استعمال الأمور والأساليب الفنيّة لا يعدّ كذباً وخيالاً.

الخاتمة:

في الأخير، وبعد عرضٍ مفصّلٍ لآراء محمد أحمد خلف الله حول القصص القرآنية والخيال والأساطير ومناقشة كل مستنداتها وبيان آثارها، وبعد دراسة مجموعة وافرة من الآيات الكريمة حول المسألة نستخلص النتائج التالية:

أ. أن القصص الواقعيّة هي التي حصل مضمونها، ويقابلها الخياليّة التي تصوّر أنها حاصلة، وأما الأساطير فهي الأحاديث الباطلة المفتعلة.

ب. قسم خلف الله القصص القرآنية إلى ثلاثة ألوان، هي اللون التاريخي الذي قد يكون واقعيّاً ولكن ليس بالضرورة، واللون التمثيلي الذي هو نسجٌ من الخيال، واللون الأسطوري الذي يستعين بالخرافات الموجودة لدى الناس.

ج. من أبرز الآثار المترتّبة على آراء خلف الله حول الألوان الثلاثة هو ضمور التفاعل الصادق والحيّ بين القارئ وهذه القصص، بل مع جميع آيات القرآن بنحوٍ عام ويفقد الثقة بها.

د. هذه الأفكار تنسجم كثيراً مع النظريّة التي يذهب إليها الفريق الواسع من

المستشـــرقين وبعض المنفتحين بأن القرآن الكريم قد تأثّر بالثقافة والبيئة التي ظهر فيها.

ه. تصوير القرآن للأحداث كما يعتقدها المخاطبون لا كما هي في الواقع هي دعـوى فـاقـدة للدليل، ولا يملك أصحابها برهاناً شافياً بدرجة من الإحكام.

و. الآيات الكريمة قد وصفت القرآن- بما فيه القصص -بأنه حقٌّ كلُّه ولا يخالطه باطل وقد أُنزل بالحقّ من لدن الحقّ تعالى، ولسانها يشير إلى رفض مبدأ أن الغاية -وإن كانت حقّة -تبرّر الوسيلة ولـو عبر الاستعانة بالمادة الكاذبة والأساطير، أما إذا كان ذكر الأباطيل بداعي كشف غيّها وزيفها وبيان مواطن الخلل فيها فهو لا مانع منه ولا يتعارض مع الصدق والواقع في القصص والإنباءات القرآنية.

ز. جميع الآيات التسع التي تناولت لفظة الأساطير على لسان المشركين لا تلوح منها قرينة أو إشارة إلى قبول أو تبنّي الـقـرآن لوجودها كـمادّة في قصصه أو أخـبـاره، بل أنها تثبت العكس، وتصف قائليها بالكاذبين والمفترين.

ح. كل آراء خلف الله مردودة ولا تتوفّر على شرائط القبول، وبمقابلها توجد أدلّة متنوّعة عقليّة وتعبّدية على كون جميع القصص القرآنية واقعيّة.

ط. استعمال الأمـور والقضايا الفنيّة في القرآن الكريم -كالمجاز والاستعارة والكناية مع شروطها وأدواتهـا -لا يخالف واقعيّته، وهي ليست خيالاً أو أسطورة.

وبهذا نكون قد استوفينا الكلام حول الموضوع، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والـصـلاة والـسـلام عـلى سيّد المرسلين محمـــد وآله الطيّبين الطاهرين المنتجبين.

مصادر البحث:

القرآن الكريم.

١. آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، رضوان، عمر بن إبراهيم، دار الطيبة، الرياض، ط١، ١٤١٣هـ ق -١٩٩٢م.

٢. قرآن وفرهنگ زمانه، أيازي، السيد محمد علي، انتشارات كتاب مبين، دفتر تبليغات إسلامي، قم، ط٢، ١٣٨٠هـش.

٣. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، رشيد رضا، السيد محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٤. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، المصطفوي، السيّد حسن، مركز الكتاب للترجمة والنشر، ط١، ١٤٠٢هـ ق.

٥. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ ق.

٦. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، الفخر الرازي، محمد بن عمر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ ق.

٧. الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، الجوهري، إسماعيل بن حماد، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ ق.

٨. الفن القصصي في القرآن الكريم، خلف الله، محمد أحمد، شرح وتعليق: خليل عبد الكريم، سينا/ الانتشار العربي، لندن، ط٤، ١٩٩٩م.

٩. قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، عباس، فضل حسن، دار الفتح، عمان، ط١، ١٤٢١هـ ق -٢٠٠٠م.

١٠. كتاب العين، الفراهيدي، خليل بن أحمد، تحقيق وتصحيح: د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، نشر هجرت، قم، ط٢، ١٤١٠هـ ق.

١١. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، محمود، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣،

١٤٠٧هـ ق.

١٢. مجمع البحرين، الشيخ فخر الدين الطريحي، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، كتابفروشي مرتضوي، طهران، ط٣، ١٤١٦هـ ق.

١٣. مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي، انتشارات ناصر خسرو، طهران، ط٣، ١٣٧٢هـ ش.

١٤. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وتصحيح: عبد السلام محمد هارون، انتشارات دفتر تبليغات إسلامي حوزه علمية قم، قم، ط١، ١٤٠٤هـق.

١٥. مفردات ألفاظ القرآن، الإصفهاني، حسين بن محمد راغب، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار العلم – الدار الشامية، لبنان –سورية، ط١، ١٤١٢ هـ. ق.

١٦. الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، السيد محمد حسين، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، قم، ط٥، ١٤١٧هـ ق.

١٧. نهج البلاغة (ترتيب د. صبحي الصالح)، الشريف الرضي، محمد بن حسين، تحقيق: فيض الإسلام، نشر الهجرة، قم، ١٤١٤هـ ق.


الحي القيوم
لا تأخذه سنة ولا نوم
له ما في السموات وما في الأرض
من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه
يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم
ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء
وسع كرسيه السموات والأرض
ولا يئوده حفظهما وهو
العلي العظيم

أَثَرُ المَصادِرِ الأَدَبيَّةِ في تفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ

د. محمد حسن فؤاديان سيد علي طهماسبي

جامعة طهران – جمهورية ايران الاسلامية

فحوى البحث

إنّ الاسلوب الصحيح لتفسير الآيات القرآنية يعتمد استعمال المصادر التفسيرية المعتبرة والموثّقة، لأنّ استعمال المصادر غير الموثّقة يذهب بالمفسر الى التفسير بالرَّأي والتأويل الخطأ. إنّ الاعتماد على المصادر الأدبيّة ضروريٌّ جداً من بين المصادر التفسيرية لأنّ الفهم الصحيح للقرآن الكريم لايتمّ بدون الاهتمام بالمفردات الأدبية لرفد العملية التفسيرية حتى تكون النتائجُ إيجابية.

هذه المقالة أتت من خلال البحث في المَكتبات والذي يعتمد على تفكيك وتحليل المعلومات لكي نصل إلى نتيجة مفادّها: تأثير المصادر الأدبية في تفسير القرآن، وأيضاً أقسام المصادر الأدبية ودورها في ذلك، فكانت النتائج النهائية لهذا التحقيق، تُظهر أنّ المصادر الأدبية المتقنة والمتنوعة تستطيع أن تؤدّي دوراً مهماً في تبيين المفردات القرآنية، وتفسير المعاني الرفيعة واكتشاف وجوه إعجاز و بلاغة هذا الكتاب السَّماويّ.

المقدمـــــــة:

بالنظـــــر الى أنّ الطريق الصحيح والكامل لمعرفة أيّ موضوع هي الاستفادة من المصادر الموثّقة والمعتبرة، كذلك الفهم والتفسير الصحيح للآيات القرآنية يتوقف على الاستفادة من المصادر الموثقة والمقبولة عند الله عزّ و جلّ المُنزِل للقرآن الكريم، كما أنّ استعمال المفسّر للمصادر غير الموثوق بها من الممكن أن يـؤدّي به إلى التفسير بالرأي و إساءة الفهم للآيات القرآنية. وتحظى المصادر الأدبية بمكانة خاصة في التفسير من بين المصادر التفسيرية الأخرى كالقرآن و الروايات و العقل و المصادر التأريخية منذ القدم، لأنه من الصعب جداً فهم القرآن مع عدم الاهتمام بالمفردات والتركيب السائد في الأدب القرآني، من أجل ذلك لابد للمفسّر الاهتمام الخاص بالمصادر الأدبية في تفسير القرآن الكريم.

و يجب أن نلاحظ بأنّ القرآن الكريم هو نصٌّ لغويّ نزل باللغة العربية الفصحى، بناء على هذا فالقرآن هو نص أدبي يتمتّع بكل سمات ومحاسن الآثار الأدبية المتقنة والمـؤثـرة. مـن أهـمّ مـيـزات النصوص الأدبيـة هي تأثيرها على المخاطب من جهة المعنى واللفظ، من خلال استخدام أساليب البلاغة مثل المَجـاز والتشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية والتقديم والتأخير والقصة والوزن والنظم. و إذا أطلقنا على أيّ جهد مبني على الاساليب اللغوية لفهم النصّ الأدبي تفسيراً أدبياً، إذن فـإنّ الجهود الأولية لتفسير القرآن لابدّ أن نعتبرها تفسيراً أدبياً. وعلى هذا الاساس فإنّ الكثير من التفاسير المنقولة عن الرسول الاعظمﷺ والـذي يُفسّر النص تفسيراً مباشراً، يدخل تحت عنوان التفسير الأدبي. بالطبع إنّ من أهمّ ما يجب النبيﷺ في رسالته هو تبيين آيات الوحي [سـورة النحل: ٤٤] الـذي هو أعم من التفسير، ويشمل أيضاً تفصيل الاحكام المجملة والضمنية للقرآن، و واضحٌ أنّه لا يُطلق على هذا التبيين اصطلاحُ التفسير الأدبي.

و بعد وفـاة الرسولﷺ مـن بين الصحابة كان أمير المؤمنين عليؑ وتلميذه عبد الله بن عباس هما الـلـذان يفسّران القرآن باسلوب أدبيّ على نطـاق واسع،

فمِن أشهرِ النصوص التفسيرية القائمة على اساس الشعر والأدب العربي كانت لابـن عبـاس المتـوفى عـام ٦٧ للهجرة والتي لا تـزال مشهورة بـمسائل «نافع بن الأزرق» المرويّة عن ابن عباس، حيث يجيب في هذه الرواية عن حوالي (٢٠٠) سـؤال لنافع بـن الأزرق، إمـام إحـدى فِرَق الخوارج، مستنِداً إلى بيت من أبيات الشعراء العرب في كل سؤال. (السيوطي، ١٤١٦: ١/ ٣٧٧-٣٤٧).

إنّ أوّل كتاب تمّ تأليفه في علم معاني المفردات القرآنية يعود الى أبان بن تغلب المتوفى سنة ١٤١ للهجرة من أصحاب الصادقَين عليهما السلام الذي ليس في متناول أيدينا الآن مع الاسـف الشديد. (الـطـوسي، ١٤١٧: ٥٧) ويحتل المكانة الثانية في هذا المجال كتابُ «مجـاز القرآن» لأبي عبيدة معمّر بن المثنّى المتوفى سنة ٢١٠ للهجرة وهو أقدم كتاب موجود حالياً بين أيدينا، حيث يـشرح المـؤلـف مـعـاني الكلمات بالاعتماد على الشعر العربي، بالاضافة الى شرح الأساليب المتنوعة والبلاغية للقرآن. ويعتبر هـذا الكتاب من أهمّ المصادر التفسيرية للمفسّرين بعده، مثل الطبري المتوفى عام ٣٠٧ للهجرة في مجال الأدب وشرح معاني الكلمات وأساليب القرآن. وقد ألفّ علماء كثيرون كتباً في مجال غريب القرآن ولغات القرآن ومعاني مجاز القرآن بعد أبي عبيدة ذَكَرَهـم ابنُ النديم المتخصّص في الفهرس والمحقق في القرن الرابع الهجري في كتابه الفهرست (٣٧و ٣٨). ومن جملتها: «معاني القرآن» للفرّاء المتوفى عام ٢٠٧ للهجرة، و«نظم الـقـرآن» للجاحظ المـتـوفى عـام ٢٥٠ للهجرة، و «غريب القرآن» لابن قتيبة الدينوري المتوفى عام ٢٧٦ للهجرة، و «البديع» لعبدالله بن المعتز المتوفى عام ٢٩٤ للهجرة، و «معيار الشعر» لابن طباطبا المـتـوفى عـام ٣٢٢ للهجرة، و «غريب الـقـرآن» لمحمّد بـن عزيز السجستاني المتوفى عام ٣٣٠ للهجرة، و «نقد الشعر» لقدامة بن جعفر الكاتب المتوفى عام ٣٣٤ للهجرة، و «كتاب الصناعتين» لأبي هلال العسكري المتوفى عام ٣٩٥ للهجرة، و «إعـجـاز الـقـرآن» للباقلاني المتوفى عام ٤٠٣ للهجرة، و «مفردات ألفاظ القرآن»

للرّاغب الاصفهاني المتوفى عام ٤٢٥ للهجرة، و «صناعة الشعر» لابن الرّشيق القيرواني المتوفى عام ٤٦٣ للهجرة، و «سرّ الفصاحة» لابن سنان الخفاجي المتوفى عام ٤٦٦ للهجرة، و «دلائل الإعجاز» لعبدالقاهر الجرجاني المتوفى عام ٤٧١ للهجرة. و جميع هذه التأليفات اعتمدت في تفسير القرآن على المصادر الأدبية. كما لابدّ لنا أن نأخذ بعين الاعتبار التفاسيرَ الجامعة كـ«التبيان» للشيخ الطوسي المتوفى عام ٤٦٠ للهجرة، و «الكشّاف» للزّمخشري المتوفى عام ٥٣٨ للهجرة، و «المحرّر الوجيز» لابن عطية الأندلسي المتوفى عام ٥٤٦ للهجرة، و «مجمع البيان» و «جوامع الجامع» للطبرسي المتوفى عام ٥٤٨ للهجرة.

أدلة الرجوع الى المصادر الأدبية:

١. الكتاب:

قد نفهم من بعض الآيات القرآنية بأنه يجوز للمفسر الرجوع الى مصادر اللغة العربية لفهم الآيات، بل لابد له من الرجوع اليها، كالآيات التي تدل على أنّ القرآن نزل باللغة العربية ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[سورة فصّلت: ٣]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[سورة الزخرف: ٣]، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[سورة الشعراء: ١٩٥]. و المراد من عربية القرآن تبيينُ اللغة السائدة على الألفاظ والتعابير واسلوب الآيات القرآنية، لأنّ من أهمّ الشروط للفهم الصحيح لأيّ لغةٍ معرفة القواعد الأدبية لتلك اللغة.

آيات التّحدّي بالقرآن أيضاً تدل على هذا الأمر، و هي الآيات التالية: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[سورة البقرة: ٢٣]، ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[سورة الاسراء: ٨٨]، ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة الطور: ٣٤]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[سورة هود: ١٣]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ

﴿مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[سورة يونس: ٣٨].

التحدّي في اللغة: هو طلب المباراة والمبارزة، و في الاصطلاح: إنّه حقيقة تاريخية قرآنية عبارة عن أمر الله تعالى لمخالفي وحيانية القرآن و منكري نبوة النبي الاكرمﷺ، بأن يأتوا بمثل هذا القرآن بعد ادّعائهم بأنه مجعول و مصنوع بشريّ. (خرمشاهی، ١٣٩٥: ١/ ٤٨١).

و إنّ من أهمّ جوانب التحدي في القرآن التحدي في الفصاحة والبلاغة، وفهم الفصاحة و البلاغة القرآنية يتوقف على إتقان المخاطب للأدب واللغة العربية، لكي يُقارنَ بين الأسلوب الاعجازي للقرآن والنصوص العربية الأخرى ويُدركَ اعجاز القرآن وألفاظه السماوية ومفرداته. على أنّ فهم الجانب البلاغي للقرآن الذي هو مفتاح معرفة وفهم واستيعاب الكثير من الخطاب القرآني مرهونٌ بمعرفة الأدب العربي، ومن دونه لا يمكن احراز لطائف أساليب البلاغة في القرآن، لأنّ من شروط فصاحة الكلام مطابقتَهُ للقواعد الأدبية.

كذلك آيات التدبر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[سورة محمد: ٢٤]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[سورة ص: ٢٩]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[سورة النساء: ٨٢]، تدعو جميعَ المخاطبين والناس كافةً للتّعمّق في الفهم الشامل للقرآن و تُؤنّب المسلمين بسبب تركهم التدبّرَ في القرآن، ومن الواضح أنّ الفهم الشامل للقرآن من دون معرفة كاملة للاسلوب اللغوي السائد في تعابير القرآن تكاد تكون مستحيلة.

٢. السُنة الشريفة:

استند في بعض الروايات التفسيرية المنقولة عن الرسولﷺ والائمة الاطهارﷺ على قواعدَ و نكاتٍ أدبية، ونفهم من هذه الروايات أنّ الأدب العربي هو أحد المصادر الموثقة لاجل فهم كلام الله عزّ و جلّ. و في بعض هذه الروايات تُؤكدَ على معنى خاص استفيد من نكتة أدبية، ففي رواية عن الامام الباقرﷺ نقلت بسند صحيح أنّه في جوابه لزرارة بن أعين –و قد سأله عن وجه الاكتفاء على جزء

من الرأس والقدمين في المسح-قال عليه السلام: بسبب الباء الاستعانة في الآية الشريفة نفهم اكتفاء المسح على جزء من الرأس والقدمين وعدمَ وجوب استيعابهما، «فعن علي بن ابراهيم عن ابيه، و محمد بن اسماعيل عن الفضل بن شاذان، جميعا عن حمّاد بن عيسى عن حريز عن زرارة، قال قلت لأبي جعفر عليه السلام : ألا تخبرني من أين علمتَ و قلتَ: إنّ المسح ببعض الرأس و بعض الرِّجلين؟. فضحك ثمّ قال: يا زرارة!. قال رسول الله صلى الله عليه وآله و نزل به الكتاب من الله، لأنّ الله عزّ و جلّ يقول: ﴿ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ ﴾ فعَرَفنا أنّ الوجه كلّه ينبغي أن يغسل، ثمّ قال: ﴿ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ ﴾، ثمّ فصّل بين الكلام فقال: ﴿ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ ﴾، فعَرَفنا حين قال برؤوسكم أنّ المسح ببعض الرّأس، لمكان الباء، ثمّ وصل الرِّجلين بالرّأس كما وصل اليدين بالوجه فقال: ﴿ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ ﴾، فعَرَفنا حين وصلها بالرّأس أنّ المسح على بعضها، ثمّ فسّر ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله للنّاس فضيّعوه...». (الكليني، ١٣٧٥: ٥/ ٩٥ و٩٦).

و نَقَلَ الحويزي في «نور الثقلين» في تفسير الآية ٢٠ من سورة يوسف المباركة: ﴿ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَاهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ عن الامام الرضا عليه السلام أنّه قال: «كانت الدراهم عشرين درهما و هي قيمة كلب الصيد إذا قُتِل، و البخسُ: النقص»(٢/ ٤١٩) فإنّ الامام عليه السلام استند في هذه الرواية بالمعنى اللغوي لكلمة "بخس" أي: النقص، ففسّر «ثمن بخس» في الآية بأقلّ "ثمن" أي عشرون درهما الذي يعادل ثمن كلب الصيد. وجاء في المعجم الوسيط (بخس): «البَخسُ: النقص، يقال: ثمنٌ بخسٌ، و في التنزيل العزيز: و شروه بثمن بخس». ويقول الجوهري في الصحاح (بخس): «البَخسُ: الناقص، يقال: شروه بثمن بخس، و قد بَخَسَه حقَّه يَبخَسُه بَخسا إذا نَقَصَه، يقال للبيع إذا كان قصدا: لا بَخسَ فيه و لا شطط».

و نَقَلَ محمد بن يعقوب الكليني في الكافي (١/ ١٢٣) بإسناده عن داود بن قاسم الجعفري قال: «قلتُ لأبي جعفر الثاني عليه السلام: جُعلتُ فداك، ما الصّمد؟. قال:

السيّدُ المَصمودُ اليه في القليل والكثير». فإنّ الامام الجواد عليه السلام احتجّ في هذه الرواية على المعنى اللغوي لكلمة "الصمد"، و فسّر هذه الكلمة في الآية الشريفة من سورة التوحيد. و قال الجوهري أيضاً في الصحاح (صمد): «و الصَّمَدُ: السيّد، لأنّه يُصمَد إليه في الحوائج»، ثمّ استشهد بهذا البيت لعمرو بن اسلع العبسي قال:

عَلَوتُه بحُسامٍ ثمّ قلتُ له
خُذها حُذَيفُ فأنتَ السّيّدُ الصَّمَدُ

و نُقِلَ عن الامام الباقر عليه السلام في معنى «أمّة»، «قانت» و «حنيف» في الآية ٢٠ من سورة النحل: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ قال: «و ذلك أنّه كان على دينٍ لم يكن عليه أحدٌ غيرُه فكأنّه امّة واحدة، و أمّا قانتا فالمطيع، و أمّا الحنيف فالمسلم». (الفيض الكاشاني، ١٤١٥: ٣/ ١٦١) و جاء في صحاح اللغة (قنت): «القنوتُ: الطاعة، هذا هو الأصل، و منه قولـــه تعالى: ﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾، ثمّ سُمّي القيامُ في الصلاة قنوتاً». وجاء في مادة (حنف): «و الحنيفُ: المسلمُ، و قد سُمّي المستقيمُ بذلك، كما سُمّي الغُرابُ أعور». يقول الراغب الاصفهاني في المفردات (أمم): «والأمّة: الرَّجل الذي لا نظير له، و منه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾. ويقول الفيّومي في المصباح المنير (حنف): «و الحنيفُ: المسلمُ، لأنّه مائل إلى الدّين المستقيم». وفي المعجم الوسيط (حنف): «الحنيف: الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه».

و نُقل أيضا عن الباقر عليه السلام أنّه قال في معنى «لُبَد» في الآية ٦ من سورة البلد: «اللُّبَدُ: المجتمع». (الحويزي، ١٤١٥: ٥/ ٥٨٠). و كتبَ الراغب في مفرداته (لبد): «قوله: مالاً لُبدا أي: كثيراً متلبّداً». وقال الجوهري في الصحاح (لبد): «و قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾ أي: جَمّاً، و يُقال أيضا: النّاسُ لُبَدٌ أي: مجتمعون». و جاء في المعجم الوسيط (لبد): «اللُّبَدُ: المال الكثير، و في التّنزيل العزيز: يقول أهلكتُ مالاً لُبَدا».

و نقل أيضا عن الباقر عليه السلام في معنى "طموس" في الآية ٨ من سورة المرسلات: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ قال: «فطمسها:

ذهاب ضوئها» (المصدر نفسه: ٥/ ٤٨٨).

و قال العالم اللغوي فخر الدين الطُّرَيحي في مجمع البحرين (طمس): «قوله: فإذا النجومُ طمست، أي: ذهب ضوؤها كما يطمس الأثر حتى يذهب». وفي المعجم الوسيط (طمس) يقول: «طَمَسَ الشيءُ طموساً: تغيّرت صورته، و يقال: طمس القمرُ أو النجمُ أو البصرُ أو نحوُه: ذهب ضوؤُه».

ونُقل عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: المراد من "الظن" في الآية ٤٦ من سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ هو اليقين. نقل المحدث البحراني في ذيل هذه الآية عن الإمام عليه السلام أنه قال: «يعني يوقنون أنّهم يُبعَثون و يُحشَرون و يُحاسَبون و يُجزَون بالثواب والعقاب، و الظنّ ههنا اليقينُ». (البحراني، ١٤١٧: ١/ ٢٠٩). و يقول خليل بن احمد الفراهيدي اللغوي في كتاب العين (٨/ ١٥٢): «والظّنّ يكون بمعنى الشّك، و بمعنى اليقين كما في قوله تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾، أي: يتيقّنون». و يقول الراغب الاصفهاني في المفردات (ظـنّ): «الظّنّ اسم لما يحصل عن أمارة، و متى قويت أدّت إلى العلم، و متى ضعفت جدّا لم يتجاوز حدّ التّوهّم، ومتى قوي أو تصوّر تصوُّرَ القويّ، استعمل معه أنّ المشدّدة وأن المخفّفة منها. و متى ضعف استعمل أن المختصّة بالمعدومين من القول و الفعل، فقولُهُ: ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾، و كذا: الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللهَّ، فمِن اليقينِ». و في المعجم الوسيط (ظنّ): «الظنُّ إدراك الذّهن الشيءَ مع ترجيحه، و قد يكون مع اليقين».

عن مسعدة بن صدقة قال: سمعتُ عن أبي عبد الله عليه السلام -وقد سُئل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أ واجب هو على هذه الأمة جميعاً؟. قال: لا، فقيل: لِماذا؟. قال: «إنّما هو على القويّ المُطاع العالم بالمعروف من المنكر، لا على الضعيف الذي لا يهتدي سبيلا...». ثم قال: «و الدّليل على ذلك قوله في كتاب الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾، فهذا خاصٌّ غيرُ عام كما قال الله تعالى:

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾، و لم يقل: على أُمّة موسى، و لا على كلّ قومه... ». (الحويزي، ١٤١٥: ١/ ٣٨٠) في هذه الرواية استدلّ الامام عليه السلام بـ«مِن» التبعيضية في «منكم» و «من قوم موسى» على أنّ فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليست واجبة على الأمة كلّها، وإنّما هي واجبة على الذين يمتلكون القدرة الكافية على هذا الأمر و على تمييز المعروف عن المنكر.

٣. بناء العقلاء:

السلوك المتداول عند العقلاء هو البناء على القواعد الأدبية لفهم مراد المتكلم، لأنّه من المستحيل فهم مضمون كلام المتكلم وتصنيفه وإثبات صحته وسُقمه من دون الاهتمام بالمفردات وتركيب الجملة. و الشارع المقدّس لابدّ أن يكون موافقا لهذا البناء من العقلاء، لأنّه لم يردعه ولم يمنع عنه، فعدم الردع يدلّ على تأييده و إمضائه.

توضيح ذلك أنّ بناء العقلاء اصطلاح في علم الفقة وأصول الفقة، يُطلق على السيرة والسلوك للعقلاء على فعل شيء أو تركه من دون تأثير وتدخّل العوامل الزمانية والمكانية والعرقية والدينية والنحلية. إنّ عُرفَ العقلاء كان يُؤخذ بعين الاعتبار في جميع المجتمعات دائماً، والشارع المقدس الاسلامي وافَقَ كثيرا من العادات العقلائية خصوصا في المعاملات، ومن هنا نرى قلّة تشريع الاحكام في هذا المجال. (المظفّر، ١٣٩٢: ٢/ ١٥٣) فعلى هذا يمكننا أن نستخدم سيرة وبناء العقلاء كدليل من أدلة جواز الرجوع الى المصادر الأدبية في تفسير القرآن الكريم.

أقسام المصادر الأدبية واستعمالاتها:

المقصود من المصادر الأدبية، المفردات والنصوص الأدبية العربية التي تساعد المفسّرَ في فهم المعنى اللغوي للمفردات القرآنية والتركيب النحوي والبلاغي للقرآن.

المصادر الرئيسية والأساسية التي تحتوي على مفردات ونصوص الأدب العربي هي:

١. القرآن:

إنّ القرآن الكريم مع غض النظر عن أنّه كتاب سماوي، كان له تأثيرٌ بارزٌ

في مجال الأدب العربي من خلال مطابقته للقواعد والثقافة الأدبية لعصر النزول حيث اعتبر مرآة للأدب السائد في ذلك العهد. و بطبيعة الحال فإنّ القرآن باعتباره الكتاب السماوي وصدوره القطعي يتفوّق على المصادر العربية الأخرى، فمن أجل ذلك يمكن للمفسر أن يستفيد من الآيات القرآنية أيضاً كمصدر أدبي متقن في التفسير.

إنّ إعجاز القرآن في مجال الأدب والفصاحة والبلاغة اللفظية يعتبر حداً أعلى للفصاحة، بل إنّه فريد من نوعه في التطابق اللفظي والمعنوي. ويمدح القرآن نفسه في مجال الإعجاز اللفظي فيقول: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة النحل: ١٠٣]، حيث كان كفار قريش يزعمون بأنّ النبي الاكرمﷺ قد تعلّم الآيات القرآنية من حَدّاد رومي يسكن مكة، فيجيبهم القرآن بأنّ لسان الذي يشيرون اليه بالخطأ هو أعجمي وغير عربي، و آياتُ القرآن نزلت بلسان عربي مبين.

ويردّ الله عز وجل دعوى الكفار بأنّ القرآن هو من صنْع وأكاذيب محمدﷺ، كما ورد في الآيات (١٣و١٤) من سورة هود: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾، ويأمر النبيﷺ بأن يدعو هؤلاء الى التحدي، فليأتوا بكلام ملئ بالكذب والافتراء يماثل آيات القرآن من حيث الابداع اللفظي، وان يجنّدوا كل الأدباء والمبدعين لهذا الغرض.

إنّ القرآن الكريم استطاع أن يؤثّر على جميع المخاطَبين بشتى اللغات من خلال الإنسجام والتناغم بين اللفظ والمعنى، ويجذبهم الى أساليبه الأخاذة والبديعة. إن القرآن بانتقائه لأحسن اللغات وأفضل تركيب نحوي وبلاغي، أعطى لآياته أحلى التعابير اللفظية والمعنوية الفريدة النادرة، حتى الكلمات القرآنية المتشابهة والمترادفة ظاهرياً لها مواصفات فريدة وميزات خاصة لابدّ لنا أن نكتشفها ونستخرجها

من خلال الدراسة والبحث العلمي. و لتوضيح ذلك نستعرض بعض الآيات القرآنية في الموارد التالية: إنتقاء اللفظ، التركيب النحوي، و التركيب البلاغي.

أ. يستعمل القرآن في قصة بعثة موسى عليه السلام كلمة (أنس) عوضاً عن مادة الرؤية او الإبصار في موضوع رؤية النار: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [سورة القصص: ٢٩]، ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾[سورة النمل: ٧]، ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾[سورة طه: ١٠]. الوجه البلاغي لاستعمال كلمة الأنس في هذه الآيات هو الألفة الكبيرة التي شعر بها موسى عليه السلام نحو النار. وكلمة «إنّي» تعبّر عن أهمية هذه الرؤية الخاصة بموسى عليه السلام دون أهله، لأنّهم لم يشاهدوها. إذن فالنار التي شاهدها موسى عليه السلام لم تكن ناراً مادية بل نار إلهية ملأت كيان موسى عليه السلام بالعشق والمحبة والالفة، وسخّرت قلبه وروحه نحو العشق الالهي والمقام الربوبي، وعلامةُ ربوبيتها احاطتُها بالشجرة من دون أن يحرقها: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[سورة القصص: ٣٠]، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [سورة النمل: ٨].

ب. جاء تعبير إرادة الأعداء لإخماد نور الحق بشكلين مختلفين في القرآن: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [سورة الصف: ٨] و ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [سورة التوبة: ٣٢]، التركيب النحوي في الآية الثانية نفس التركيب

في الآية الاولى، الّا أنّ المقدّر في الآية الاولى "أن" الناصبة أي: يريدون لأن يطفئوا، وفي الآية الثانية اللام، إذن لا يوجد اختلاف ظاهري بين هذين التركيبين، و لكنّ الحقيقة أنّ اختلاف التعبير فيهما يحتوي على جانب دقيق لابدّ لنا أن لا نغفل عنه، وهو أنّه في الآية الاولى المفعول به للفعل "يريدون" محذوفٌ و "ليطفئوا" يكون المفعول لأجله، وتقدير الآية: «يريدون ذم الاسلام لإطفاء نور الله» (الطبرسي، ١٤١٥: ٩/ ٤١٩)، و أمّا في الآية الثانية يكون "ان يطفئوا" المفعول به، و على هذا فإخماد نور الحق هو الرغبة القلبية والعملية للكفار.

ج. إنّ القرآن الكريم رسم أعلى صور الفصاحة والبلاغة في آية القصاص، إذ قال: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٩]. يقال: حين نزلت آيات التحدّي قال احدهم -و كان من أشهر فصحاء العرب الذي كان لا يتكلم حتى في كلامه العادي الا بالفصيح -: أن امرأ القيس أتى بجملة تشابه هذه الآية: وهي عبارة «القتل أنفى للقتل». قال عنها أهل الفن وخبراء علم البلاغة إنّ الآية الشريفة تفوق على جملة امريء القيس بما لا يقل عن ثمانية خصال:

أولاً: تشتمل جملة امريء القيس على ١٤ حرفا والآية الشريفة على ١٢ حرفا، والكلام كلّما كان أقصر وأوجز تزيد قيمته البلاغية.

ثانياً: جاءت كلمة "القتل" في جملة امريء القيس مرتين، وهي كلمة منفورة و كريهة على عكس كلمة "الحياة" في الآية الشريفة التي تخبر عن الحياة و الوجود لا الموت والفناء.

ثالثاً: كلمة "أنفى" في جملة امريء القيس تحكي عن السلب والفناء، و أما في الآية الشريفة لا يوجد سلب ولا فناء، ومن البديهية أنّ بيان المقصود بجملة موجَبة أرجح من السالبة.

رابعاً: لم يُميّز امريء القيس بين القتل الجنائي والقتل القصاصي، وعبّر عن كلٍ منهما بالقتل، ولكنّ الآية الشريفة عبّرت

عن مجازاة القاتل بالقصاص و لم تصرّح بالقتل الجنائي لقبحه.

خامساً: في جملة امريء القيس جُعِلَ وجود القتل علةً لعدم القتل، و في الآية الشريفة عُرّف القصاص بأنّه علة للحياة الاجتماعية، و واضحٌ أنّ الطريقة الثانية للاستدلال هي أوقع في النفس.

سادساً: تكررت كلمة القتل في جملة امريء القيس، ولا يوجد تكرار في الآية الشريفة، فإنّ التكرار مخلٌّ بالفصاحة.

سابعاً: جاءت كلمة "في" في الآية الشريفة التي تدل على الحفظ، ويدلنا على أنّ القصاص يكون كإناءٍ يحفظ ما فيه ويحافظ على الحياة والنظام البشري الأسري، و اما في جملة امريء القيس لا توجد كلمة "في".

ثامناً: جاءت كلمة "حياة" في الآية الشريفة نكرة، لتدل على الفخامة والتعظيم، أي: إنّ القصاص يجعلكم تعيشون حياة شريفة وقيّمة، و لكنّ امريء القيس لم يُحدّد أيّ منزلة وشرف للقصاص. ولا يوجد أيضا في جملته ما يُدلّ على أرجحية القتل القصاصي على القتل الجنائي. (النبوي القمي، ١٣٣٥: ٢١٥).

وطبيعي أنَّ في موضوع الاستفادة من آيات القرآن لتدوين وتنظيم القواعد الأدبية اتّجاهان: الاتجاه الاول: ينظر نظرة إفراطية إلى الموضوع حيث يعتقد أنّ جميع القراءات حتى الشاذة منها تعتبر مقياسا للكشف عن القواعد الأدبية، كالطريقة التي انتهجها جلال الدين السيوطي في كتابه «الاقتراح» (ص٤٨) وعبد القادر البغدادي في كتابه «خزانة الأدب» (١/ ٣٢) في حين أنّ المحققين من علماء العلوم القرآنية يعتقدون بأنّ القراءات الشاذة لا تمتلك الحُجيّة والاعتبار الكافي (الخوئي: ١٦٣) لأنّ هذه القرائات ساقطة عن الحجية والاعتبار بدليل أمثال هذه الروايات: «إنَّ القرآن واحدٌ نَزَلَ مِن عِندِ واحدٍ وَ لكِنَ الاختِلافَ يَجيءُ مِن قِبَلِ الرُّواةِ». (الكليني، ١٣٧٥: ٣/ ٥٩٤) إذن لا نستطيع أن نعتبر القراءات الشاذة غير المتداولة بين المسلمين بأنّها قراءة واقعية للقرآن، خصوصاً بعض القراءات التي نشاهد فيها بوضوحٍ علامات من

الاجتهادات الشخصية لبعض القرّاء.

و الاتجاه الثاني: ينظر نظرة تفريطية إلى الآيات القرآنية لاثبات المحتوى الأدبي، أي: إنّ أصحاب هذا الاتجاه من شدة إعجابهم بالاشعار الجاهلية قد غفلوا عن الدور المؤثّر والمُمَيّز للآيات القرآنية في اثبات المحتوى الأدبي في كلام العرب، حتى إنّ بعضهم قد نسبوا الشذوذ إلى الآية المخالفة لقاعدة نحوية أُثبتت بواسطة الشعر الجاهلي. و لقد أحسن و أجاد الباحثُ المعاصر محمد عيد في هذا المجال إذ قال: «إنّ كتب النحو التي فيها الممارسة العلمية للشواهد تُشير بوضوحٍ إلى أنّ دارسي اللغة قد صرفوا أنفسهم قصدا عن استقراء النصّ القرآني لاستخلاص قواعدهم منه، و إذا كان كتاب سيبويه يمثّل أوّل حلقة موجودة بين أيدينا من مجهودات النحو فإنّه يمس في الوقت نفسه قمّة الدراسة التي سبقته و اتّجاهها، كما أنّه يشير أيضا إلى الطريق الذي سلكته الدراسةُ من بعده، إذ تأثّرت به و تتبّعت خُطاه، و هذا الكتاب فيه- كما يقول أحد الدارسين -اعتمادٌ كامل على الشعر العرى القديم في الاستقراء و تقرير الاصول و تغافلٌ نسبيّ عن آيات القرآن و الشعر الاسلامي. و لقد أُحصيَ ما فيه من آيات للقرآن فلم تزد على ثلاثمائة آية لم يتّخذ معظمها مصدرا للدراسة، بل إنّها اعتمدت على نصوص اخرى أهمّها الشعر ثمّ تساق الآيات بعد ذلك فكأنّما تساق بهدف التقرير و التوكيد لا الاستشهاد. و قد صنع مَن أتوا بعد سيبويه مثله، و إذا أُخِذَ من القرن الثالث واحد من أهمّ كتبه في النحو و هو «المقتضب» فإنّه تبدو فيه-مع ضخامته و سعته -هذه الظاهرةُ نفسُها من الانصراف النسبيّ عن النصّ القرآني الموثّق أتمَّ توثيقٍ و أقواه. و يوجد هذا نفسُه في دراسات القرن الرابع، و مِن أبرز علمائه أبو علي الفارسي و ابنُ جنّي، و يتّضح ذلك بسهولة لمن يقلّب بين يديه صفحاتِ كتابِ الخصائص مع اتّساعه و عمقه». (محمد عيد، ١٩٨٨: ١٠٣).

و هذا سيبويه إمام النحاة قد ضعّف في «الكتاب» اضافة «كلّ» إلى النكرة في حال كونه مفعولا به نحو «أكلتُ كلَّ شاةٍ»، و

أما اذا قيل: «أكلتُ شاةً كلَّ شاةٍ»، يعني تقع الشاة مفعولا به لا «كلّ» فهذا حسن، في حين أنّه وقعت كلمة «كل» مضافةً الى النكرة و مفعولا به في ٣٦ موضعا من القرآن الكريم، مثل: ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾[سورة الأنعام: ٢٥]، ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾[سورة الأنعام: ٨٠]، ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[سورة الانفال: ١٢] (محمد عبدالخالق عضيمة، ١٤٠٤: ٢/ ٣٦٣-٣٦١).

و مَنَعَ النحاة وقوع الاستثناء المُفرّغ بعد الجملة الموجبة، و قالوا: إنّ وقوع الاستثناء المُفرّغ بعد الايجاب يستلزم المحال او الكذب، في حين أنّ القرآن جاء به في ١٨ موضعا بعد الجملة الايجابية، مثل: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٤٥]، ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾[سورة البقرة: ١٤٣]، ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [سورة يوسف: ٦٦] (المصدر نفسه: ١/ ٧).

كذلك منع النحويّون أن يجيء الاستثناء المُفرّغ بعد «مازال» و أخواتها، حتى جعله ابن الحاجب و الرضي من المحال و علّلا ذلك، و هذا المحال في نظرهما جاء في الآية ١١٠ من سورة التوبة: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾. (المصدر نفسه: ١/ ٨-٧).

اشترط رضي الدين الاسترآبادي في كتابه «شرح الكافية» لوقوع الفعل الماضي بعد «الّا» شرطين: الاول: أن يتقدّم «الّا» فعلٌ ماضٍ، و الثاني: أن يقترن الفعل الماضي بـ«قد»، في حين أنّه جاء الفعل بعد «الّا» و ليس فيه أحد الشرطين في ١٨ موضعا من القرآن الكريم (نفس المصدر: ١/ ٨)، كالآية ٥٤ من سورة (هود): ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾، و الآية ٢٤ من سورة (فاطر): ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾، و الآية ١٤ من سورة (ص): «إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ».

٢. **كلمات المعصومين عليهم السلام:**

يُعتبر كلام النبي صلى الله عليه وآله و الائمة

المعصومين عليهم السلام من المصادر الأدبية من وجهين:

أ. معاصرة بعضهم لفترة نزول القرآن و القرب الزمني للبعض الآخر صار سبباً لتناغم روايات أهل البيت عليهم السلام مع لغة القرآن الأدبية، فلهذا كان كلام المعصومين عليهم السلام مؤثراً جداً في فهم معنى المفردات و تركيب السياق الأدبي للآيات القرآنية.

ب. إنّهم كانوا يتمتّعون بفصاحة و بلاغة بديعة، لأنّهم أولاً كانوا من قريش و ثانياً كان لديهم علم لدنّي واسع، و معروفٌ أنّ اللهجة القرشية تتمتع بسمات و خصائص مميزة بين لهجات القبائل الأخرى، نُقل عن «ابن فارس» اللغوي الشهير في القرن الرابع للهجرة أنّه قال: أجمع الخبراء بكلام العرب و الرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومكاناتهم بأنّ قريشاً أفصح العرب لسانا وأصفاهم لغة. (الجنابي، ١٩٨١: ٢٤).

لكن موضوع الاستشهاد الأدبي بأحاديث المعصومين عليهم السلام واجَهَ رفضاً وذلك لسببين: الأول أنّ أغلب الروايات المنقولة نُقِلَت بالمعنى و لم تكن تعكس نفس كلام المعصوم، والدليل على ذلك الروايةُ المنقولة عن محمد بن مسلم قال: «قلتُ لأبي عبدالله عليه السلام أسمع منك الحديث فأزيد وأنقص، قال عليه السلام: إن كنتَ تريد معانيه فلا بأس». (الكليني، ١٣٧٥: ١/ ٥١).

إذن فإنّ مسألة النقل بالمضمون في الروايات تتسبب بصعوبات و مشاكل في الدقة اللغوية للتفاسير الروائية، لأنّ المفردات والتراكيب اللغوية للرواية حينئذ تُنسب الى الراوي لا إلى المعصوم عليه السلام، و لأجل ذلك امتنع بعضُ العلماء عن الاستشهاد الأدبي بالروايات. (الآلوسي: ٦٠).

أقول: من الممكن أن نفرّق بين الروايات الفقهية والأخلاقية التي وردت باللغة العامية لحلِّ الأمور اليومية للناس و بين الروايات التي صدرت عن المعصوم عليه السلام ذي البيان الفصيح والبليغ في مقام الخطابة او الدعاء، لعلّه من المحتمل

أن يكون النقل بالمعنى في القسم الاول من الروايات، و أما في القسم الثاني فاحتمال النقل ضعيف جداً. على أنّ الالتفات الى الفصاحة والبلاغة القويّة للخُطَب والأدعية المنقولة عن المعصومين عليهم السلام التي تأتي تلو القرآن تقوّي فكرة صدور عين ألفاظ الروايات عنهم.

و السبب الآخر لمخالفة الاستناد الأدبي للروايات هو وقوع اللحن و الأغلاط الأدبية في الروايات بسبب نقلها عن طرق الرُّواة الأعاجم الذين لا يتقنون اللغة العربية الفصحى و لم يلتزموا بالدقة الكافية في النقل. ولكن يمكننا الرجوع إلى علم الرجال و معرفة هذا النوع من الروايات و تمييزها من مجموعة الروايات الأدبية حتى نستطيع الاستناد إلى سائر الروايات من دون قلق او مخاوف لاثبات المضمون الأدبي.

يقول الباحث محمد عيد: «و يبدو أنّ الانصراف عن السنة و الاحتجاج بها بقي عادة مرعية و عرفا متوارثا لدى النحاة على اختلاف مذاهبهم و مواطنهم، و كأنّما أصبح أمرا مسلّما ألّا يناقش هذا الموقف الموروث المتعارف، حتى كان ابن مالك في القرن السابع الهجري فاعتمد على الحديث مخالفا في ذلك عرفَ مَن سبقوه و ناقش بذلك كثيرا من آراء السابقين عليه». (محمد عيد، ١٩٨٨: ١٠٩).

ثمّ يقول الاستاذ عيد: إنّ في المسألة ثلاثة اتّجاهات:

أ. منع الاستشهاد بالحديث. و يقود هذا الاتجاه أبو حيّان الأندلسي حيث اعترض على ابن مالك في استشهاده بالأحاديث في كتابه «شرح التسهيل»، و قال: «قد لجّ هذا المصنّف في تصانيفه بالاستدلال بما وقع في الحديث في إثبات القواعد الكلية في لسان العرب بما روى فيه، و ما رأيتُ أحدا من المتقدمين و المتأخرين سلك هذه الطريقة غير هذا الرجل».

ب. التوسّط بين المنع و الجواز. هذا الاتجاه يفرّق في نصوص السنة بين ما يعتقد أنّه لفظ الرسول صلى الله عليه وآله و ما يحتمل التغيير في ألفاظه، و من النوع الاول الأحاديثُ الصغيرة و الأحاديثُ التي اعتني بنقلها بألفاظها في موقف

خاص أو حادثة خاصة، و هذا يحتجّ به للثقة بنقل نصّه عن الرسول ﷺ، و أما النوع الثاني -و هو الغالب-فمنه الأحاديث الطويلة التي لايستطاع حفظها و الأحاديث الغريبة الألفاظ التي يعسر حفظها بنصّهـــا، و هذا لايحتج به لأنّـه نقل بالمعنى. و من أبرز من انتهجوا هذا المنهج الإمام أبو الحسن الشاطبي المتوفى سنة ٧٩٠ للهجرة.

ج. جـواز الاستشهاد بـالحـديـث. جاء ابن مالك فكان أوّل مَن خرج على هـذا الإجمـاع و احتجّ بالحديث، و تابعه على ذلك ابنُ هشام و أبوعلي الشلوبيني في كتابه «التوطئة» و غيره مـن كتب المسـائـل. و قـد قـرّر هذا الاتجاه و أيّده البدرُ الدماميني المتوفى سنة ٨٢٨ للهجرة في شرحه التسهيل، فاحتجّ لابن مالك و انتصر له، و تابعه في ذلـك البغدادي صاحبُ خزانة الأدب، بل زاد عليه الاحتجاج بكلام أهل البيت عليهم السلام. (المصدر نفسه: ١١١-١٠٩).

٣. **الشعر العربي:**

إنّ الشعر العربي الأصيل الذي لم يتأثر أدبه الشعري من الاختلاط مع الأعاجم، و لم يتسّرب اللحن إلى لسانه يُعتبر أحد المصادر الأدبية لتفسير القرآن. توضيحه أنّ اللغويين و خبراء فقه اللغة قسّموا شعراء العرب إلى أربع طبقات.

الطبقة الأولى: شعراء عصر الجاهلية قبل الاسـلام كـ: امـريء القيس، زهير بن أبي سلمى، طرفة بن العبد اليشكري، عنترة بن شدّاد العبسي، و المثقّب العبدي.

الطبقة الثانية: الشعراء المخضرمون الذين أدركوا الجاهلية والاسلام كـ: كعب بن زهـير، حسّان بن ثابت الأنصاري، لبيد بن ابي ربيعة، عبدالله بن رواحـه، والخنساء.

الطبقة الثالثة: الشعراء الاسلاميون أو المتقدمون كـ: جرير، الفرزدق، الأخطل، والكميت الاسدي.

الطبقة الرابعـــة: الشعراء المولَّدون الذين عاشوا في العصر العباسي كـ: أبي نؤاس، بشّار بن برد، و أبي الطيّب المتنبّي.

أجمع اللغويون بجواز الاستشهاد

الأدبي بأشعار الطبقة الاولى والثانية. و في حجية أشعار الطبقة الثالثة خلافٌ و إن كان أكثرهم يعتقدون بحجيتها. وأما أشعار الطبقة الرابعة أي: المولَّدين فجميع أهل اللغة غير الزمخشري يقولون بعدم حجيتها و عدم جواز الاستشهاد بها. (عبد التواب والشيخي: ١١٧).

و جديرٌ بالذكر أنّ السيد الرضي والسيد المرتضى اللذَينِ يعدّان من فطاحل الأدباء المتبحرين في الأدب العربي لم يستشهدا بأشعار المولّدين في مؤلفاتهم ابداً، و اعترض السيد الرضي على هؤلاء الذين تمسكوا بهذه الاشعار (الشريف الرضي: ٢٣٠). و يقول الباحث المعاصر حامد كاظم عباس في كتابه «الدّلالة القرآنية عند الشريف المرتضى» (٣٦٠): «لايوجد في الشواهد الشعرية للسيد شعرٌ لبشّار بن برد و أبي تمّام البحتري و المتنبّي و سائر الشعراء في العصر العباسي».

استشهد الطبرسي في تفسيره «مجمع البيان» لإثبات المسائل التفسيرية واللغوية والنحوية و... بحوالي ثلاثة آلاف بيت من الشعراء العرب كان اغلبهم من الطبقة الاولى والثانية. و المضبوط من الشواهد الشعرية في «مجمع البيان» بحسب ما أحصاه الباحث سيد عطاء الله الافتخاري في كتابه «معجم الشواهد» (٨٣٣) بدون احتساب الموارد المكرّرة (٢١١٧) بيت، ومع احتساب الموارد المكررة (٣٢٦٠) بيت، و كان من بين الشعراء الجاهليين: حصة الأعشى ١٢٤ بيت، امرىء القيس ٧٣ بيتا، زهير ٥٢ بيتا، النابغة الذبياني ٥١ بيتا، طرفة بن العبد ٢٦ بيتا، عنترة ٢٥ بيتا، و أمية بن أبي الصلت ٢٥ بيتا. ومن بين الشعراء المخضرمين: حصة لبيد ٤٦ بيتا، حسّان بن ثابت ٤١ بيتا، أبي ذؤيب الهذلي ٣٥ بيتا، العجّاج ٢٧ بيتا، عدي بن زيد ٢٦ بيتا، الحطيئة ٢٤ بيتا، و النابغة الجعدي ٢٢ بيتا. ومن الشعراء الاسلاميين: حصة ذي الرّمّة ٧٠بيتا، الفرزدق ٦٩ بيتا، جرير ٥٦ بيتا، الأخطل ٣٠ بيتا، والكميت الأسدي ٢٦ بيتا.

و الطبري أيضا لم يستشهد ببيتٍ من أشعار المولَّدين مع أنّه نقل الكثير من الشواهد اللغوية و النحوية و الصرفية في تفسيره، يقول زكي فهمي أحمد شوقي

الآلوسي في كتابه «الطبريّ النحوي من خلال تفسيره» (٦٢): «فقد استشهد الطبري في هذا الجانب بمائتين و ثلاثين شاهداً من الشعر العربي و الأرجاز، نَسَبَ ٦٢ بيتاً الى قائليها، و قد تتبّعتُ شواهده التي نسبها و التي لم ينسبها فظهر لي أنّه استشهد بشعر الشعراء الذين أجمع جمهور العلماء على جواز الاحتجاج بشعرهم مثل شعراء العصر الجاهلي والمخضرمين وشعراء صدر الاسلام و العصر الاموي، و لم أجده قد استشهد بشعر المولَّدين».

نُقِلَ عن ابن عباس أنّه قال: «إذا قرأتم شيئا من القرآن فلم تدروا تفسيره فالتمسوه من الشعر فإنّه ديوان العرب» (ابن خالويه، ١٤١٣: ١/ ٢٩).

و عن ابن أبي مليكة أنّه قال: سُئل ابنُ عباس عن الآية ١٨ من سورة الانشقاق، ما المراد من «ما وسق»؟. قال ابن عباس: ما وسق يعني ما جمع أي ما جمعه الليل في نفسه، ثمّ استشهد برجز من أرجاز العجّاج: «مستوسقات لو يجدن سائقا». (المصدر نفسه، ١/ ٣٠).

سُئل ابن عباس أيضاً عن الآية ١٣ من سورة القلم: «عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ»، قال: «الزّنيم: الدّعيّ الملزق، و قال الشاعر (المصدر نفسه):

زنيمٌ تداعاهُ الرجالُ زيادةً

كما زِيدَ في عَرْضِ الأديم الأكارعُ.

سأل نافعُ بن الأزرق ابنَ عباس عن الآية ٣٧ من سورة المعارج: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ ما المراد من كلمة «عزين»؟. قال ابن عباس: المراد حلقات من الاصدقاء، قال ابن الأزرق: هل تعرف العرب هذا النوع من التفسير؟. قال: نعم ألم تسمع قصيدة عبيد بن الأبرص قال: (السيوطي: ١/ ٣٤٨).

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيهِ حَتَّى

يَكُونُوا حَولَ مِنبَرِهِ عِزِينَا

٤. الأمثال والحكايات:

قال أبو إسحاق النظّام المتكلم والفقيه والأديب الكبير المعتزلي: «يجتمع في المثل أربعةٌ لاتجتمع في غيره من الكلام: أيجاز اللفظ، إصابة المعنى، حسن التشبيه، و جودة الكتابة». (الرازي، ١٤٠٨: ٦).

قال ابن المقفّع: «إذا جُعِلَ الكلام مثلا كان أوضحَ للمنطق و آنقَ للسمع و أوسعَ

لشعوب الحديث». (المصدر نفسه).

يقول جلال الدين السيوطي في تعريف المثل: «الأمثال تصوّر المعاني بصورة الأشخاص لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، و مِن ثَمّ كان الغرض من المثل تشبيه الخفيّ بالجليّ و الغائب بالشاهد،... و قال الزمخشري: التمثيل إنّما يصار إليه لكشف المعاني و إدناء المتوهّم من الشاهد، فإن كان المتمثّل له عظيما كان المتمثّل به مثله، و إن كان حقيرا كان المتمثّل به كذلك. و قال الإصبهاني: لضرب العرب الأمثال و استحضار العلماء النظائر شأنٌ ليس بالخفيّ في إبراز خفيّات الدقائق و رفع الأستار عن الحقائق تريك المتخيّل في صورة المتحقّق، و المتوهّم في معرض المتيقّن، والغائب كأنّه المشاهد. و في ضرب الأمثال تبكيتٌ للخصم الشديد الخصومة، و قمعٌ لسورة الجامع الأدبي، فإنّه يؤثّر في القلوب ما لا يؤثّر وصفُ الشيء في نفسه...». (السيوطى، ١٤١٦: ٢/ ٣٤٤).

و بالنظر الى شيوع و انتشار الأمثال بين الأدباء و كثرة الاستناد إليها نستطيع أن نجعل أمثال عصر نزول القرآن في خانة المصادر الأدبية للتفسير، و لهذا استشهد بعض المفسرين بهذه الامثال لإثبات المضمون التفسيري لهم.

يقول الطبرسي في تفسيره «مجمع البيان» في بيان اللغات الصعبة للآية ٥ من سورة البقرة: «والمفلحون: المنجحون الفائزون، و الفلاح: النجاح، و قال الشاعر:

اعقلي إن كنتِ لمّا تعقلي

فلقد أفلح مَن كان عقل.

أي: ظَفَرَ بحاجته. و الفلاح أيضا البقاء، قال لبيد:

نحلُّ بلادا كلُّها حُلَّ قبلنا

و نرجو الفلاحَ بعدَ عادٍ و تُبَّعا.

و أصل الفلح: القطع، و منه قيل: الفلّاح (الحرّاث)، لأنّه يشقّ الأرض. و في المَثَل: «الحديدُ بالحديدِ يُفلَح»، فالمفلح على هذا: كأنّه قطع له بالخير» (١/ ٨٩).

و قال في شرح كلمة «فارهبون» التي وردت في الآية ٤٠ من سورة البقرة: «و الرهبة: الخوف، و ضدّها: الرغبة، و في المثل: «رَهَبُوتٌ خيرٌ من رَحَمُوتٍ» أي: لَأن

تُرهَبَ خيرٌ من أن تُرحَمَ» (١/ ١٨٢).

و قال في شرح كلمة «العزيز» التي وردت في الآية ١٢٩ من سورة البقرة: «العزيز: القدير الذي لا يغالب، و قيل: هو القادر الذي لا يمتنع عليه شيء أراد فعله. و نقيض العزّ: الذُّلّ، و عَزَّ يَعِزُّ عِزّة و عِزّا: إذا صار عزيزاً، و عَزَّ يَعُزُّ عَزّا: إذا قَهَر، و منه قولهم: «مَن عَزَّ بَزَّ» أي: مَن غَلَبَ سَلَب». (١/ ٣٩٣).

يقول الميداني في كتابه «مجمع الامثال» في توضيح هذا المثل: «قال المفضل: و أول من قال «من عزّ بزّ» رجلٌ من طيء يقال له جابر بن رَألان أحد بني ثُعَل، و كان من حديثه أنّه خرج و معه صاحبان له حتى إذا كانوا بظهر الحيرة، و كان للمنذر بن ماء السماء يومٌ يركب فيه فلا يلقى أحدا إلّا قتله، فلقي في ذلك اليوم جابرا و صاحبيه، فأخذتهم الخيلُ بالسوية فأُتِيَ بهم المنذر، فقال: اقترعوا فأيّكم قرع خلّيتُ سبيله و قتلتُ الباقين، فاقترعوا فقرعهم جابر بن رألان، فخلّى سبيلَهُ و قتل صاحبيه، فلمّا رآهما يُقادان لِيُقتَلا قال: من عزّ بزّ، فأرسلها مثلا». (٢/ ٣٦٣).

و قال الطبرسي في تبيين جملة «و هُم فيها لايُبخَسُون» في الآية ١٥ من سورة هود: «والبَخسُ: نقصانُ الحقّ، و كلّ ظالم باخسٌ، لأنّه يَظلم غيرَه بنقصانِ حقّه، و في المثل: تَحسَبُها حَمقاء و هي باخس». (٥/ ٢٥١و٢٥٢).

و قال في توضيح جملة ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾في الآية ٢٧ من سورة النساء: «و إنّما قال تعالى ﴿ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾لأنّ العاصي يأنس بالعاصي كما يأنس المطيع بالمطيع، و يسكن الشكل الى الشكل و يألف به، و لأنّ العاصي يريد مشاركة الناس إيّاه في المعصية ليسلم عن ذمّهم و توبيخهم، و نظيره قوله تعالى: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾، «ودّوا لو تكفرون كما كفروا»، و في المثل: «مَن أُحرِقَ كدسُه تمنّى إحراقَ كدسِ غيرِه» (٣/ ٦٧).

و في شرح جملة ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾في الآية ٤٧ من سورة الحج ينقل ثلاثة أوجه، و يقول في توضيح الوجه الثالث: «إنّ يوما واحدا كألفِ سنةٍ في مقدار العذاب لشدّته

و عظمته كمقدار عذاب ألفِ سنةٍ من أيّام الدنيا على الحقيقة، و كذلك نعيم الجنّة، لأنّه يكون في مقدار يوم من أيّام الجنّة من النعيم و السُّرور مثل ما يكون في ألف سنة من أيّام الدنيا لو بقي مُنعَمٌ فيها، ثمّ الكافر يستعجل ذلك العذاب لجهله، عن الجُبّائي. و هذا كما يقال في المثل: «أيّام السّرورِ قِصارٌ و أيّام الهُمومِ طِوال». (٧/ ١٦١).

النتيجـــــــة:

ظهرت ممّا بيّناه النتائجُ التالية:

١. الفهـــــم السديد و التفسير الصحيح لآيـات القـرآن الكريم يتوقف على الاستعانة بالمصادر التفسيرية الموثقة والمعتبرة.

٢. استفادة المفسّر من المصادر غير الموثقة يمكن أن يوقعه في التفسير بالرأي و إساءة فهم الآيات القرآنية.

٣. توجد آياتٌ عديدة في القرآن كالآيات التي تدلّ على أنّ القرآن نزل باللغة العربية، و آيـاتِ التحدّي و آيـاتِ التدبّر تدلّ على أنّه لابدّ لنا من الرجوع الى مصادر الأدب العربي لفهم القرآن بشكل صحيح.

٤. استند النبيﷺ و الائمةعليهم السلام في بعض الـروايـات التفسيرية الى القواعد و الأساليب الأدبية، و طبعا نفهم من هذه الروايات أنّ الأدب العربي هو أحد المصادر الموثوق بها لفهم القرآن الكريم.

٥. السلوك المتـداول عند العقلاء هو البناء على القواعد الأدبيـــــة لفهم مراد كل متكلم و متحدث و الحكم وفق أدبيات كلامهم، و على ضوء أنّ الشارع المقدس لم يردع هذه السيرة العقلائية، نفهم من عدم ردعه بأنّه يجوز لنا الاستعانة بهذه الطريقة في تفسير الآيات القرآنية.

٦. المصادر الرئيسية و الاساسية التي تحـتـوي عـلى مـفـردات و نصوص الأدب العربي هي: القرآن الكريم و كلام المعصومينعليهم السلام و الشعر العربي الجاهلي و المخضرم و الاسلامي و الأمثال و الحكايات.

المصادر و المراجع

بعد القرآن الكريم.

١. الآلوسي، زكي فهمي أحمد شوقي، الطبري النحوي من خلال تفسيره، بغداد، دار الشؤون الثقافية.

٢. ابراهيم مصطفى و آخرون، (١٤١٠)، المعجم الوسيط، اسطنبول، دار الدعوة.

٣. ابن خالويه، حسين بن احمد (١٤١٣)، إعراب القراءات السبع وعللها، الطبعة الاولى، القاهرة، مكتبة الخانجي.

٤. ابن النديم، محمد بن اسحاق، الفهرست، تحقيق: رضا تجدد.

٥. الافتخاري، سيدعطاء الله (١٣٨٧)، معجم الشواهد، ياسوج، دار الطباعة لجامعة آزاد الاسلامية، فرع ياسوج.

٦. البحراني، هاشم بن سليمان (١٤١٧)، البرهان في تفسير القرآن، الطبعة الاولى، قم، دار التفسير.

٧. البغدادي، عبد القادر (١٤١٨)، خزانة الأدب و لبّ لباب لسان العرب، الطبعة الرابعة، القاهرة، مكتبة الخانجي.

٨. الجنابي، أحمد نصيف (١٩٨١)، ملامح من تاريخ اللغة العربية، بغداد، دار الرشيد.

٩. الجوهري، اسماعيل بن حمّاد (١٤٠٧)، الصحاح، تاج اللغة و صحاح العربية، الطبعة الرابعة، بيروت، دار العلم للملايين.

١٠. حامد كاظم عباس (٢٠٠٤)، الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى، بغداد، دار الشؤون الثقافية.

١١. الحويزي، عبد علي بن جمعه (١٤١٥)، نور الثقلين، الطبعة الرابعة، قم، دار اسماعيليان للطباعة.

١٢. الخرّمشاهي، بهاء الدين (١٣٩٥)، قرآن پژوهی، الطبعة الخامسة، طهران، دار العلم و الثقافة.

١٣. الخوئي، سيد ابو القاسم، البيان في تفسير القرآن، قم، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي.

١٤. الرازي، محمد بن أبي بكر (١٤٠٨)، الأمثال و الحِكم، دمشق، منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الاسلامية الايرانية بدمشق.
١٥. الراغب الاصفهاني، حسين بن أحمد (١٤١٢)، المفردات في غريب القرآن، الطبعة الاولى، بيروت، دارالشامية.
١٦. السيوطي، جلال الدين (١٤١٦)، الإتقان في علوم القرآن، الطبعة الاولى، بيروت، دارالفكر.
١٧. السيوطي، جلال الدين (١٤٢٧)، الاقتراح في اصول النحو، دمشق، دارالبيروتي.
١٨. الشريف الرضي، محمد بن الحسين، تلخيص البيان في مجازات القرآن، بيروت، دار مكتبة الحياة.
١٩. الطبرسي، الفضل بن الحسن (١٤١٥)، مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبعة الاولى، بيروت، مؤسسة الأعلمي.
٢٠. الطريحي، فخرالدين بن محمد (١٣٧٥)، مجمع البحرين، الطبعة الثالثة، طهران، دار مرتضوي.
٢١. الطوسي، محمد بن الحسن (١٤١٧)، تحقيق: الشيخ جواد القيومي، الطبعة الاولى.
٢٢. عبد التواب رمضان (١٣٦٧)، مباحثى در فقه اللغه و زبان شناسى، المترجم: الشيخى، حميد رضا، مشهد، المعاونية الثقافية للعتبة الرضوية المقدسة.
٢٣. الفراهيدي، خليل بن أحمد (١٤٠٩)، كتاب العين، قم، دارالهجرة.
٢٤. الفيض الكاشاني (١٤١٥)، التفسير الصافي، طهران، مكتبة الصدر.
٢٥. الفيّومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، بيروت، المكتبة العلمية.
٢٦. الكليني، محمد بن يعقوب (١٣٧٥)، الكافي، الطبعة السادسة، طهران، دارالكتب الاسلامية.
٢٧. محمد عبدالخالق عضيمة (١٤٠٤)، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القاهرة، دار الحديث.


اقرأ
وربك الأكرم
العلق
٣-٤
الذي علم بالقلم
نقاش المسجد النبوي

أَلنُّجُومُ فِي الْقُرْآنِ الكَرِيمِ

الشيخ محمد مهدي نجف
رئيس مركز البحوث والدراسات الفلكية
الجمهورية الاسلامية الايرانية-قم

فحوى البحث

بحث تقريري مقتضب، حاول الشيخ الباحث فيه أن يشير الى بعض الآيات القرآنية الكريمة التي ذكرت (النجوم) و (النجم) وما جاء في وصفها وما جاء في تفسير بعضها واقتران ذكرها بذكر (الكواكب) مستنداً الى ما جاء في ذلك من الروايات.

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد:

الحمـــد لله كما هو أهله، والصلاة والسلام على رسول الله سيد رسله محمد وعلى آله آل الله.

وبعد، فقد اهتم الاسلام اهتماماً بالغاً في معرفة الكون، وبيان عظمة الخالق سبحانه تعالى، وبديع صُنعه، حيث يُعدُّ عصر الرسالة -منذ بعثة الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله حتى رحلته -النواة الاولى لتلك المعرفة، قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سورة فصلت: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [سورة يوسف: ١ -٣].

ومن خلال مئآت الآيات القرآنية التي أشارت إلى ابتداء خلقة الكون، ودقة صنعه، منها قوله تعالى إشارة الى انفجار الكون: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [سورة الانبياء: ٣٠ -٣٣].

كما أشار سبحانه عزّ اسمه إلى توسعة هذا الكون بقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [سورة الذاريات: ٤٧]. ثمّ بيّن كيف يجمع الكون مرة اخرى ثمّ يُنهيه فقال: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [سورة الانبياء: ١٠٤].

كما استفاد علماء الفلك من قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [سورة الرحمن: ٣٣]. إمكان صعود الانسان إلى السماء،

ومن جميل ما أشار اليه القران الكريم من خلال آية اسراء النبيﷺ من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى بقوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[سورة الاسراء: ١].

ولعل في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [سورة لقمان: ١٠]. إشارة واضحة إلى نظرية الجاذبية بينها.

دور الرسول الأكـــرمﷺ في معرفة الكون:

لقد أودع الله تعالى في صدر نبيّه الكريم أسرار هذا الكون حيث قال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [سورة النجم ٥٣: ٣ – ٥] لكي يوضحها للأُمّة، وكان لأمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام النصيب الأوفر من ذلك، حتى قالعليه السلام: (علّمني رسول الله من العلم ألف باب، يفتح لي من كلّ باب من العلم ألف باب)[1]. ولم يَقُل قبله ولا بعده كلمته المشهورة: (سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن طرق السماوات فإنّي أعلم بها من طرق الأرض)[2]. وللأسف الشديد لم يُستفاد من هذا النداء في المعرفة آنذاك.

ومن الواضح أننا نواجه في بعض الأحيان ألفاظاً تحتوي على ملاحظات دقيقة، بحيث لا يتسنّى للمُطّلعين على الالفاظ فهمها إلّا بعد جُهود مضنية.

اهتمام مركز البحوث بعلم الفلك:

لقد اهتم مركز البحوث والدراسات الفلكية التابع لمكتب سماحة آية الله العظمى السيد علي السيستاني في مدينة قم في السنوات الاخيرة، بجمع الآيات الكونية، والاستعانة بالعلماء من ذوي الخبرة والاختصاص لغرض تفسيرهـــا تفسيراً علمياً، والاستفـــادة منها قدر الإمكان.

(١) شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام لابن ميثم البحراني: ٥٦ (ضمن الكلمة الثانية).

(٢) مطالب السئوول في مناقب آل الرسول لمحمد بن طلحة الشافعي: ٩٢.

نماذج من الآيات الكونية:

لقد حاولت هنا وباختصار أن أُشير إلى بعض الآيات الكريمة التي تضمنت الظواهر الكونية في القرآن الكريم من دون تعليق.

منهـا: قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الروم: ٢٤].

وقـال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴾ [سورة الروم: ٢٥ –٢٦].

وقـولـه تـعـالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [سورة ابراهيم: ٣٢–٣٣].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ﴾ [سورة البقرة: ٢٩] وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾ [سورة المؤمنون: ١٧] وقال: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾ [سورة النبأ: ١٢–١٤] وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [سورة الطلاق: ١٢] وقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [سورة الملك: ٣].

وقـال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة البقرة: ١١٥ –١١٧].

كما أشار القرآن الكريم إلى الابداع في الصُنع والدقة في الحركة، وهو سبحانه

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ حيث قال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [سورة يس: ٣٧ – ٤٠].

النجوم في القرآن الكريم:

ولمّا خصصنا هذا البحث بالحديث عن النجوم في القرآن، وما جاء في وصفها، وتقسيماتها، وما ورد في تفسير البعض منها، فاقول: لقد ورد في القرآن الكريم الاشارة إلى الكواكب والنجوم المتناثرة في السماء بالفاظ وصفات مختلفة، فجاء في وصفها بأنّ منها ثابتة ومنها متحرّكة سيّارة، ومنها كبيرة، ومنها صغيرة تتساقط هنا وهناك، فوصف الله سبحانه بعضها بالمصابيح، فجعلها زينة للسماء الدنيا - وأراد بها الدنو والقرب من الأرض - وهي التي يراها الناس جميعاً من دون غيرها من السموات السبع، وإلّا لكان الأنسب أن يقول: (زيّنا السماوات) لقوله تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [سورة فصلت: ١٢] وقال تعالى في آية أُخرى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ [سورة الملك: ٥].

ولم تُشر الآيات الكريمة إلى السموات الأخرى أنّ لها نجوماً وكواكب ونحن لا نراها، أم خالية منها. ولعل التطور العلمي سوف يكشف لنا ذلك فيما بعد.

وقيل المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها، أو أن الإنسان إذا نظر اليها في الليلة الظلماء رأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح، فلا شك أنها أحسن الأشياء وأكملها في التركيب والجوهر.

قال القطب الراوندي في تفسير الزينة في الآية الكريمة قال: (والمعنى: إنّ الله تعالى لما خلق السماء الدنيا وزيّنها بالنجوم الصغار والكبار، والكواكب السيارة وغير السيارة، وجعل منها سبعة سيارة وهي: زحل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر. وجعل لها

اثنى عشر برجاً، وهي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. وأجرى فيها سراجاً يعني الشمس المستنير ضوؤها على الشياع والعموم، وجعل بالليل قمراً مضيئاً إذا لم تكن شمس ليعلم بها عدد السنين والحساب. والحكمة ظاهرة في خلق هذه الثواقب، فإنها دلالات لا مؤثرات)[٣].

كما وصف القرآن الكريم البعض منها بأنّها رجوم للشياطين، حيث أخبر سبحانه وتعالى أنّه جعل منها حرساً وشُهباً رجوماً للشياطين حيث قال: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾[سورة الجن: ٨]. وقال: ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾[الحجر: ١٧ –١٨].

وقال الفخر الرازي: (كلّ نيّر يحصل في الجوّ العالي فهو مصابيح لأهل الأرض، إلّا أنّ تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر، آمنة من التغير والفساد، ومنها ما لا يكون كذلك، وهي هذه الشهب التي يُحدثها الله تعالى، ويجعلها رجوماً للشياطين)[٤].

كما فُسّر انكدار النجوم بالتساقط والتناثر لما ورد في قوله: ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾[سورة الانفطار: ٢]. وإن فُسّر الانكدار أيضاً بتغير اللون الزاهي إلى اللون الغامق عند ذهاب جزء من نورها.

أمّا طمس النجوم فقيل في معناها: ذهاب نورها، وزوال ضوئها، ومحو آثارها، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾[سورة التكوير: ٢]. وقال: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ [سورة المرسلات: ٨]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾[سورة النجم: ١].

كما وصف البعض منها بانّها الطارق، ومنها النجم الثاقب قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ [سورة الطارق: ١ –٣].

كما عَبّر عنها بالكواكب أيضاً حيث قال: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾[سورة الصافات: ٦ –٧].

(٣) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ١/ ٦٦–٦٧.

(٤) تفسير الرازي ٢٦/ ١٢١.

كما إنّ الله عزّ اسمه جعل في السماء بروجاً ومنازل، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾[سورة البروج: ١] وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[سورة الفرقان: ٦١]. وقال: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [سورة الحجر: ١٦]. وقال: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾[سورة الواقعة: ٧٥] وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾[سورة يونس: ٥]. وقال: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾[سورة يس: ٣٩].

قال الشيخ الطوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ قال: (أخبر الله تعالى أنه جعل في السماء بروجاً. والجعل قد يكون تصيير الشيء عن صفة لم يكن عليها. وقد يكون بالايجاد له. والله تعالى قادرٌ أن يجعل في السماء بروجاً من الوجهين، والبرج: ظهور منزل ممتنع بارتفاعه، فمن ذلك برج الحصن، وهو برج من بروج السماء الاثني عشر، وهي منازل الشمس والقمر. وأصله الظهور، يقال: تبرّجت المرأة إذا أظهرت زينتها. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: المراد بالبروج النجوم. وقوله: ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾[سورة الحجر: ١٧] يحتمل أن تكون الكناية راجعة إلى السماء، والى البروج)[٥].

قال ابن جرير الطبري: (وأمّا البروج المصطلحة في كتب النجوم، فهي منازل اعتباريّة لمسير الشمس في السنة الواحدة، وكذلك فلك البروج المصطلح عندهم. وأمّا التعبير في الموارد المذكورة بالبروج دون الكواكب والنجوم: فانّ مقام التنبيه على الجلال والعظمة يقتضي ذلك، فانّ البروج كما قلنا تدلّ على البنيان الرفيع العالي المتجلّي المتظاهر)[٦].

وقال عبد الرحمن الصوفي: (والعرب لم تستعمل صور البروج على حقيقتها، وإنّما قسّمت دور الفلك على مقدار الأيام التي يقطع القمر فيها الفلك، وهي ثمانية

(٥) تفسير التبيان ٦/ ٣٢٤.
(٦) جامع البيان ١٤/ ١٩.

وعشرون يوماً على التقريب، وطلبت في كلّ قسم منها علامة تكون أبعاد ما بينها في رأى العين مقدار سير القمر في يوم وليلة. وبدأت بالشرطين، وكانت أول العلامات من عند نقطة الاعتدال الربيعي. ثم طلبت بعد الشرطين علامة اخرى، يكون بعدها من الشرطين مقدار سَير القمر في يوم ليلة؛ فوجدت البُطين. وبعد البطين الثريا، ثمّ الدبران؛ وكذلك المنازل كلّها. ولم تلتفت إلى البروج وأقسامها ومقادير صورها، إلّا أنّها أدخلت الهقعة في جملة المنازل وليست من البروج، وإنّما هي من الصور الجنوبية على رأس الجبار. وكذلك الفرغان، هما من صورة الفرس في ناحية الشمال. ونسبت كواكب كثيرة إلى أعضاء الأسد، هي من صور غير صورة الأسد: فجعلت الكوكبين اللذين على رأس التوأمين واللذين يسميان الكلب المتقدم ـ ذراعي الأسد ـ واللطخة التي على صدر السرطان، سمّتها نثرة الأسد، وهي مخطمه. وصيّرت العواء وركيه؛ والسماكين ساقيه، فصيّرت صورة الأسد ثمانية منازل من ثلاثة أبراج. فقدّر أبوحنيفة أنّ هذه المنازل كلّها على الحقيقة من صورة الأسد، فأنكر أن تكون صورة واحدة على ثلاثة أبراج، كلّ برج منها يسمّى باسم آخر؛ ولم يعرف صورة السرطان، ولا صورتي الأسد والعذراء)[٧].

وذكر السيد الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث قال: البروج، جمع بُرج، وهو القصر، سميت بها منازل الشمس والقمر من السماء بحسب الحسّ، تشبيها لها بالقصور التي ينزلها الملوك. والضمير في قوله: ((وَزَيَّنَّاهَا)) للسماء كما في قوله: ((وَحَفِظْنَاهَا)) وتزيينها للناظرين، هو ما نشاهده في جوّها من البهجة والجمال الذي يوله الألباب بنجومها الزاهرة، وكواكبها اللامعة، على اختلاف أقدارها، وتنوع لمعانها، وقد كرر سبحانه ذكر هذا التزيين الكاشف عن مزيد عنايته به كقوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ وقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ

(٧) صور الكواكب: ١١ -١٢.

﴿ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[٨].

ثم قال: (والشهاب هو الشعلة الخارجة من النار، ويطلق على ما يشاهد في الجو من أجرام مضيئة، كأنّ الواحد منها كوكب، ينقضّ دفعة من جانب إلى آخر، فيسير سيراً سريعاً ثمّ لا يلبث دون أن ينطفئ)[٩].

ومهما ورد في تفسير البروج في الآيات الكريمة، فهي كواكب كبيرة سُمّيت بأسماء لظهورها، وإنّها تدلّ على عظمة الخالق جلّ جلاله، وجميل صنعه وقدرته.

كما جعل الله سبحانه وتعالى من تلك النجوم رمزاً لهداية البشرية، ومَعلَماً من المعالم لمعرفة الطريق، وأمناً من الضياع بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[سورة الأنعام: ٩٧]. وقوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[سورة النحل: ١٦].

وروى العياشي بسنده، عن إسماعيل بن أبي زياد، عن الامام جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)) قال: «هو الجدي؛ لأنّه نجم لا يزول (يدور)، وعليه بناء القبلة، وبه يهتدي أهل البرّ والبحر»[١٠].

كما أشار القرآن الكريم إلى حركة الارض ودورانها حول الشمس، وما جعل الله سبحانه للكواكب من مشارق ومغارب حيث قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾[سورة المعارج: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [سورة الرحمن: ١٧] وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمل: ٩].

وروى الشيخ الطبرسي في احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على ابن الكوّا حين سأله بأنّ القرآن ينقض بعضه بعضاً، في حديث طويل جاء فيه: (قال: يا أمير المؤمنين

(٨) تفسير الميزان ١٢/ ١٣٨.
(٩) المصدر السابق.
(١٠) تفسير العياشي ٢/ ٢٥٦ حديث ١٢.

سمعته يقول: ((بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ)) وقال في آية أخرى: ((رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)) وقال في آية أخرى: ((رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)). قال: هذا المشرق وهذا المغرب، وأما قوله: ((رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ))، فإنّ مشرق الشتاء على حِدَه، ومشرق الصيف على حِدَه، أما تعرف ذلك من قرب الشمس وبعدها؟. وأما قوله: ((بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ))، فإنّ لها ثلاثمائة وستين برجاً، تطلع كلّ يوم من برج، وتغيب في آخر، فلا تعود إليه إلّا من قابل في ذلك اليوم)[11].

كما جاء في وصف البعض من النجوم (بالخُنَّس) قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴾[سورة التكوير: ١٥-١٦]. اشارة إلى البُقع السوداء التي تُشاهد على الشمس.

وللفيض الكاشاني بيان في تفسيرها قال: (الخنس والكنس) الاختفاء. والخنس أيضاً التأخر، وفُسّرت الخنس بالنجوم الخمسة المسماة بالمتحيّرة. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: هي خمسة أنجم زحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد، ووصفها بالجوار لأنّها السيارات، وبـ (الكنس) لاختفائها تحت ضوء الشمس، وتسميتها بالخنس إمّا لذلك وإمّا لرجوعها في السير أي تأخرها[12].

كما شرح قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴾ المولى محمد صالح المازندراني حيث قال: (قالوا: الخنس جمع خانس، وهي الكواكب؛ لأنّها تغيب بالنهار وتظهر بالليل، وقيل: هي الكواكب الخمسة السيّارة: زحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد، يريد به مسيرها ورجوعها لقوله: ((الْجَوَارِ الْكُنَّسِ)) ولا يرجع من الكواكب غيرها، والكنّس جمع كانس، وهي الكواكب التي تغيب وترجع من كنس الظبي إذا تغيب واستتر في كناسة، وهو الموضع الذي يأوي إليه)[13].

(١١) الاحتجاج ١/ ٣٨٦.

(١٢) الوافي ٢/ ٤١٧ ذيل الحديث ٩٢٩.

(١٣) شرح اصول الكافي ٦/ ٢٦٧ ذيل الحديث ٢٢.

مَنْهَجِيَّةُ المُقَارَنَةِ في التَّفْسِيرِ

الشيخ. د. طاهر الغرباوي
عضو الهيئة العلمية في
جامعة المصطفى ﷺ العالمية

فحوى البحث

يتناول هذا البحث نظام المقارَنة في التفسير، والتأصيل لمنهجيّته وتأطيره بأُطر وضوابط معيّنة ومحددة، وقد قام البحث بتوضيح التفسير المقارَن من حيث محدداته اللغوية والإصطلاحية والرأي المختار من بينها، وكذلك تحديد ماهيته في عالم التفسير وعلاقته بألوان التفسير الأُخرى، ونشأته والأدوار التي مرَّ بها، كما استشهد على مشروعيته بل امتيازه على سائر أنماط التفسير بالنصوص والأدلة من حيث عمومية دلالتها، والأهم في البحث ـ ولأول مرة في تناول هذا الموضوع ـ هو تبيين معالمه بتحديد أصوله وأسسه التي يبتني عليها، وكذلك خطواته ومراحله التي يجب أن يخطوها، وقد بُرهنَّ على ضوابطه التي أُصّلت في هذا البحث، بنماذج تطبيقية توثقه وتؤكّد صوابيته.

بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيدٌ:

بعث الله تعالى نبيّه المصطفى ﷺ بالشريعة الخاتمة، وأنزل عليه القرآن الكريم المعجزة المُهيمنة والخالدة على مرّ العصور والأزمان، وتحدّى بها الأنس والجنّ على أن يأتوا ولو بسورةٍ من مثله، وهو الكتاب الذي وصفه باب مدينة علم رسول الله ﷺ المولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله:

((ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لايخبو توقّده، وبحراً لا يُدرك قعره، ومنهاجاً لا يضل نهجه، وشعاعاً لايظلم ضوؤه، و فرقاناً لايخمد برهانه، وتبياناً لا تهدم أركانه، وشفاءً لا تخشى أسقامه...))[1] ويقول عنه الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: ((إن القرآن حيٌّ لم يمت، وإنّه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا))[2].

وإنَّ أجلَّ علم صرفت فيه الهمم، هو علم الكتاب المنزل، إذ هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. وهو عزُّ المسلمين ومصدر دينهم، ومن هنا اجتمعت كلمة علماء الأمة -إقتداءً بالنبي ﷺ والصالحين من ورثة علمه -على العناية بتفسيره، وبيانه ودراسته، واستدرار كنوزه، والنهل من معين معارفه، ولأجل انكبابهم على دراسته، تنوعت طرائقهم في عرض علومه، واختلفت مشاريعهم في إيضاح مكنوناته، فتعددت منهاهجم في تفسيره، وتنوعت إتجاهاتهم في كشف غوامضه، واتخذ المفسرون عدة أساليب في تفسيره، وبمرور الزمان أصبحت أشهر الأساليب (الأنماط) في تفسير كتاب الله العزيز هي أساليب أربعة:

الأول: اسلوب التفسير التحليلي، وهو الأسلوب الذي يتولى فيه المفسِّر بيان معنى مفردات الآية، وبلاغة التركيب والنظم، وأسباب النزول، واختلاف المفسرين، والنظر إلى نظائرها في القرآن، و عرض المجمل منها على المحكمات، والأهم من

(١) نهج البلاغة، خطب و كلمات الإمام علي عليه السلام بجمع الشريف الرضي. الخطبة ١٩٨ أولها: يعلم عجيج الوحوش في الفلوات.
(٢) بحار الأنوار، المجلسي. ج ٣٥، ص ٤٠٣.

كل ذلك الرجوع إلى ما ورد في تفسيرها عن المصوبين من عند الله تعالى لتبيين الذكر وتفسيره، وكذلك الإستفادة من برهان العقل السليم.

وهذا اللون من التفسير هو أسبق أنواع التفسير وعليه تعتمد بقيتها، ويتفاوت فيه المفسرون إطناباً وإيجازاً، ويتباينون فيه من حيث المنهج والإتجاه وأولويات كل مفسر وتأثره بثوابته ومسلماته.

وقد يعبَّر عن هذا النوع من التفسير بالتفسير الترتيبي أو التجزيئي[٣]، وهذا الأسلوب في حد نفسه ينقسم إلى قسمين: تفصيلي وإجمالي، والإجمالي منه هو: بيان الآيات القرآنية بالتعرض لمعانيها إجمالاً مع بيان غريب الألفاظ والربط بين المعاني في الآيات، متوخياً في عرضها وضعها في إطار من العبارات التي يصوغها من لفظه، ليسهل فهمها وتتضح مقاصدها، وقد يضيف ما تدعو الضرورة إليه من سبب نزول أو قصة أو حديث ونحو ذلك[٤].

وهذا التفسير (الإجمالي) له أنحاء: فبعضه يتخذ اسلوباً مزجيّاً كتفسير السيد عبدالله شبر وتفسير الجلالين، وبعضه الآخر له طابع التفسير الترتيبي المعهود لكن المفسِّر لا يُسهب في المباحث.

الثاني: اسلوب التفسير الموضوعي، وهو الأسلوب (النمط) الذي يقوم على أساس محاولة استكشاف النظرية القرآنية في جميع المجالات العقيدية والفكرية والثقافية والتشريعية والسلوكية، من خلال عرضها في مواضعها فيُبحث مثلاً عن السنن التاريخيّة أو التقوى أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو غير ذلك من الموضوعات القرآنية، فالتفسير الموضوعي-إذن -يقوم على أساس دراسة موضوعات معينة تعرض لها القرآن الكريم في مواضع متعددة أو في موضع واحد، وذلك من أجل تحديد النظرية القرآنية بملامحها وحدودها في الموضوع المعين[٥]. وقد عبَّر السيد محمد باقر الصدر عن هذا النوع من التفسير، بالتفسير

(٣) المدرسة القرآنية. السيد محمد باقر الصدر. المحاضرة الثانية ص ٢٩.

(٤) مقدمة في التفسير الموضوعي، محمد بن عبد العزيز الخضيري.

(٥) التفسير الفقهي بين الإمامية والحنفية، طاهر الغرباوي، ص ١٤٢ -١٤٣.

التوحيدي، لأنَّ المفسِّر يريد أنْ يُوحّد بين التجربة البشريّة والقرآن، لا بمعنى أنْ يُحمّل التجربة البشريّة على القرآن، بل بمعنى تحديد الموقف القرآني في القضيّة[٦].

الثالث: اسلوب التفسير المقارَن، وهو الأسلوب الذي هذا البحث بصدد تبيين معامله، وتحديد ضوابطه وحيثيّاته. وذلك في ضمن محاور:

المحور الأول:

تعريف التفسير المقارَن والرأي المختار فيه:

من الواضح أنَّ مفهوم التفسير قد أُشبع البحث فيه في الدراسات القرآنية، ولعلّه صار مملّاً حينما يُصدَّر البحث عن التفسير لغةً وإصطلاحاً، وقد أصبح هذا المفهوم اليوم من الواضحات البديهية[٧].

و أمّا المقارَنة سواءٌ أكانت في التفسير أو في أيّ علم آخر، فقدأُخذت من مادة (أصل) ق ر ن، وعليه فلابد قبل الخوض في ذكر التعاريف الإصطلاحية للمقارنَة، وإختيار التعريف الأنسب منها، أن نُمهّد للتعريف اللغوي لهذه المادة وما قيل فيها:

المقارَنة مُفاعَلة من مادة "قرن"وقد جاءت في اللغة بمعنى: ((جمع شئ الى شئ وربطه به))[٨]، وقد ذكر بعض اللغويين لهذا الأصل معنىً آخر وهو: ((شئ ينتأ بقوة وشدة))[٩]. فعلى المعنى الأول يقال: قرنت الشئ بالشئ إذا وصلته به، و((القِران الجمع بين الحج والعمرة))[١٠] و((القرين المصاحب، وقارنته قراناً: صاحبته، وقرينة الرجل: إمرأته لمقارنته إياها، وقرينة الإنسان: نفسه لملازمتها ومصاحبتها))[١١].

وقد وردت هذه المفردة بهذا المعنى في القرآن في أكثر من آية، كقوله تعالى ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾[سورة الزخرف: ٥٣] وقوله تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾[سورة الصافات:

(٦) المدرسة القرآنية. السيد محمد باقر الصدر. المحاضرة الثانية. ص ٣٠.

(٧) ولعلَّ أنسب التعاريف للتفسير إصطلاحاً، ما أفاده الزرقاني في مناهل العرفان، من أنَّ: التفسير: هو العلم الذي يُبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية.

(٨) الصحاح. الجوهري مادة: قرن.

(٩) معجم مقاييس اللغة. ابن فارس. مادة قرن.

(١٠) الصحاح. الجوهري مادة: قرن.

(١١) لسان العرب. ابن منظور مادة: قرن.

٥١] وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [سورة الزخرف: ٣٦].

وقد قيل في الأصل الجامع لكل هذه الإستعمالات القرآنية: ((إنّ الأصل الواحد في المادّة: هو وقوع شيء جنب شيء آخر، مع استقلال كلّ منهما في نفسه. وبهذا المعنى تفترق عن موادّ الجمع والقُرب، ومن مصاديقه: التقارن بين الحجّ والعمرة، وبين البعيرين، وبين قرني الشاة والبقر، وبين الجيلين في الزمانين المعيّنين، وبين الذؤابتين في المرأة، وفي الحاجبين، وبين العفلة والمدخل، وبين الرجلين الشجاعين، وهكذا القرين من جهة السنّ أو في الزواج او غيرهما))[١٢].

والمُحصَّل من كل ما ذُكر: أنَّ "قرن" في اللغة بمعنى الجمع والربط والوصل والمصاحبة. وإذا صيغت هذه المادة على وزن المُفاعَلَة، دلّت في العربية المعاصرة على معنى الموازَنة والمقايَسة، لأن في الموازنة والمقايسة جمعاً وربطاً بين شيئين أو أشياء، إذ أنَّ هيئة المفاعَلة موضوعة لصدور المبدء من إثنين[١٣]، أو وقوع الحدث على إثنين، قال الخليل الفراهيدي في كتابه العين: ((والحاكم يُلاعن بينهما - أي الزوجين - ثمَّ يُفرّق))[١٤] وبعبارةٍ اُخرى: قوام المبدأ بإثنين، كما هو هنا، حيث أن المقارنة لم تصدر من أطراف موضوعها، بل وقعت عليهما.

وذلك يستدعي اموراً: منها: وجود طرفين أو أطرافٍ من أجل عملية الموازنة والمقايسة، ومنها: وجود نقاط إشتراك وإفتراق بين الأطراف، إذ مع إنتفاء الأول لاتُجدي المقايسة أو لاتمكن، ومع إنتفاء الشرط الثاني لم تصبح أطرافاً بل شيئاً واحداً، ومنها: أن عملية المقايسة تحصل بين الأطراف من قِبَل من يقوم بها وهو المعَّر عنه بـ "المقارِن " ومن أهم ما يجب أن يُحقَق في حصول الإشتراك بين الأطراف، هو الوحدة في الموضوع، وهذا الموضوع الجامع هو ما يُضاف الى المقارنة

(١٢) التحقيق في كلمات القرآن الكريم. حسن مصطفوي. مادة قرن.

(١٣) كما هو المشهور عند علماء الفن.

(١٤) كتاب العين. الخليل الفراهيدي. مادة لعن.

عند التركيب الإضافي، فيقال مثلاً: الفقه المقـارَن أو التفسير المقـارَن أو القانون المقارَن.

وأمّـا في التعريف الإصطلاحي لهذا المفهوم -في علم التفسير-، فقد قدّم الباحثون عدة تعاريف، نستعرضها أولاً ثم ننحاز إلى الرأي المختار فيها:

التعريف الأول: التفسير المقارَن هو: ((بيان الآيـات القرآنية بإستعراض ما كتبه المفسرون في الآية أو مجموعة الآيات المترابطة، والموازنة بين آرائهم، وعرض استدلالاتهم، والكرّ على القول المرجوح بالنقض وبيان وجهه، وتوجيه أدلته، وبيان الراجح وحشد الأدلة وغير ذلك))[١٥].

التعريف الثاني: التفسير المقارَن هو: ((بيان الآيـات القرآنية على ما كتبه جمعٌ من المفسرين، بموازنة آرائهم، والمقارنة بين مختلف إتجاهاتهم، والبحث عمّا عساه يكون من التوفيق بين ما ظاهره مختلف من آيات القرآن والأحاديث، وما يكون ذلك مؤتلفاً أو مختلفاً من الكتب السماوية الأخرى))[١٦].

التعريف الثالث: التفسيرَ المقارن هو: ((موازنة ومقايسة آراء مفسري الشيعة والسنة في تفسير النص القرآني الواحد وفي الموضوع الواحد))[١٧].

التعريف الرابع: التفسيرَ المقارن هو: ((أن يعمد المفسر الى جملة من الآيـات القرآنية في مكان واحـد، ويستطلع آراء المفسرين متتبعاً ما كتب في تفسير تلك الجملة مـن الآيـات -سـواء كـانـوا من السلف، ام كانوا من الخلف، وسـواء أكان تفسيرهم من التفسير النقلي أم كان من التفسير العقلي أو وجوه وألوان أخر من التفسير -ويوازن بين المناهج والطرق في كشف معاني القرآن، وذكر وجوههم واحـتـمالاتهـم، ويـقـارن بـين الاتجـاهـات المتباينة والمشارب المتنوعـة، فيما يسلكه كل منهم في تفسيره، وما انتهجـــه في

(١٥) مقدمة في التفسير الموضوعي، محمد بن عبد العزيز الخضيري.

(١٦) التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. أحمد الكومي.

(١٧) بررسي تطبيقي مباني تفسيـــر قرآن (بالفارسيـــة). فتح الله نجارزادگان. ص١.

مسلكه))[١٨].

التعـــريف الخامس: التفسيرَ المقارن هو: ((التفسير الذي يُعنى بالموازنة بين آراء المفسرين وأقوالهم في معاني الآيات القرآنية وموضوعاتها ودلالاتهـا، والمقارنة بين المفسرين في ضوء تباين ثقافاتهم وفنونهم ومعارفهم، وإختلاف مناهجهم وتعدد إتجاهاتهم وطرائقهم في التفسير، ومناقشة ذلك ضمن منهجيّة علمية موضوعيّة، ثم إعتماد الرأي الراجح إستناداً إلى الأدلة المعتبرة في الترجيح))[١٩].

ولا يخفى: أنَّ التفسير المقـــارَن له اصطلاح آخر وقديم، وهو أن يعمد المفسر الى جملة من الآيات القرآنية والعهد القديم والجديد من الكتاب المقدس، ويستطلع آراء اليهوديين والمسيحيين، متتبعاً ما كتب حول تفسير الآية من القرآن والكتاب المقدس، ويوازن بين الأقوال ويقارن بين الاتجاهات والمشارب، بقصد التقريب أو الهيمنة[٢٠].

التعريف المختار:

الظاهر أن التعريف الخامس أشمل من التعاريف الأربعة الأُوَل، إذ هو يضم تفاصيل عن المقارنة، لا توُجد في تلك التعاريف، وهي:

١. الموازنة بين الآراء التفسيرية في القضايا الجزئية.
٢. المقايسة بين المفسرين من ناحية شخصيتهم وبيئتهم العلمية.
٣. الموازنة بين مناهج المفسرين وإتجاهاتهم وأساليبهم في التفسير.
٤. الإعتماد على أصول وضوابط معينة في عملية المقايسة.
٥. إتخـــاذ الموقف بالإنحياز الى الرأي الراجح على ضوء أدلة الترجيح.

وفي ضوء هذا التعريف المختار ستكون للمقارَنة في التفسير أنواعٌ:

الأول: المقارنة بين آراء عدة أشخاص في تفسير النص الواحد، المُعبَّر عنها بالمقارنة التحليلية.

(١٨) المفسرون حياتهم ومنهجهم، محمد علي ايازي، ج١ ص ٦٨.

(١٩) التفسير المقـــارن. مصطفى المشني. ص١٢.

(٢٠) المفسرون حياتهم ومنهجهم، محمد علي ايازي، ج١ ص ٦٨.

الثاني: المقارَنة بين المفسرين أنفسهم من جهة شخصيتهم العلمية وثقافاتهم ومبادئهم.

الثالث: المقارَنة بين التفاسير بمعنى كتب المفسرين في التفسير، والتي تعكس مدرستهم التفسرية.

الرابع: المقارنة في المناهج التفسرية والإتجاهات أو الأساليب المختلفة.

الخامس: المقارنة بين الأديان أو الكتب السماوية وغير ذلك، أو بين مذاهب الدين الواحد. (وإن كان هذا النوع الأخير مستفاداً من خارج التعريف المختار).

المحور الثاني:

ماهيّة التفسير المقارَن:

في الدراسات التي قُدمت في علم التفسير وتبيين معالمه في العصر الراهن، عادةً ما يُعنون التفسير المقارَن بأنه أحد أنماط التفسير وأساليبه، وعُدَ قسماً من أقسام التفسير بجنب التفسير التحليلي-بقسميه التفصيلي والإجمالي- والتفسير الموضوعي. وما اكثر الدراسات والبحوث التفسيرية القرآنية التي تقدم اليوم في المواضيع المختلفة تحت عنوان "دراسة مقارنة لتفسيرآية كذا" وأمثال ذلك، وفي كلها تقع مفردة "المقارَن" أو "المقارَنة" وصفاً للتفسير، ولكن يا تُرى هل أنَّ هذا النمط من الدراسات هو تفسير للقرآن الكريم؟.

وبعبارةٍ اخرى: من الواضح أنَّ موضوع التفسير التحليلي (الترتيبي) والموضوعي هو النص القرآني، وأنَّ المفسر هناك يقوم بمحاولة الوصول إلى المراد الجدي لله تعالى من الآية أو الآيات، فهل أنَّ موضوع التفسير المقارَن هو كذلك؟.

والسبب في هذا السؤال أو بالأحرى في نشوء هذه الشبهة، هو أن التفسير المقارَن يقع البحث فيه عن موازنة ومقايسة آراء الأفراد من بني البشر في فهمهم وتفسيرهم للقرآن، وليس في تفسير القرآن مباشرةً؟.

والإجابة على هذا السؤال تستدعي التأمل في التعريف المختار للتفسير المقارَن وتحليله، وقد مرَّ أن التعريف الأنسب للتفسير المقارَن هو أنَّه: ((التفسير الذي يُعنى بالموازنة بين آراء المفسرين وأقوالهم في معاني الآيات القرآنية وموضوعاتها

ودلالاتها، والمقارنة بين المفسرين في ضوء تباين ثقافاتهم وفنونهم ومعارفهم، وإختلاف مناهجهم وتعدد إتجاهاتهم وطرائقهم في التفسير، ومناقشة ذلك ضمن منهجيّة علمية موضوعيّة، ثم إعتماد الرأي الراجح إستناداً إلى الأدلة المعتبرة في الترجيح))[٢١].

ونرى أنَّ التعريف قد تكّون من عدة مقومات وهي:

أولاً: الموازنة بين آراء المفسرين في معاني الآيات.

ثانياً: المقارنة بين المفسرين في ضوء تباين ثقافاتهم.

ثالثاً: الموازنة والمقايسة في مناهج المفسرين وطرائقهم في تفسير القرآن.

رابعاً: مناقشة المشتركات والفوارق ضمن منهجية علمية وموضوعية من أجل إعتماد الرأي الراجح.

وعند التأمل نجد أنَّ الأساس في التعريف وصدق عنوان التفسير المقارَن هو المقّوم الأول، وهو: الموازنة بين آراء المفسرين في معاني الآيات، وأمّا الموقومات الثلاثة الأخرى فهي بخدمة هذا الأول ومُمهدة له، فالموازنة بين ثقافات المفسرين ومناهجهم في التفسير، وكذلك تبيين معالم المقارنة، كلُّ ذلك من أجل الوصول الى الرأي المختار في تفسير النص القرآني، فالتفسير المقارَن وإن كان يشمل بناءً على هذا التعريف المقارنة بين المفسرين في ثقافتهم التفسيرية وكذلك المقارنة بيت التفاسير في أصولها وقواعدها وأساليبها، ولكن موطنه الأساس هو: مقارنة آراء المفسرين في تفسير القرآن الكريم.

ولكن هذه المقارنة ليست هي المقصودة بالذات، وليست هي الهدف الأساس، بل هي طريق من أجل الوصول إلى الرأي الصائب في تفسير الآية أو الآيات، ذلك الرأي الذي يرجع أخيراً إلى المفسِّر المقارِن نفسه، ويكون هو التفسير الذي يُنسب إلى صاحبه.

وبناءً على ذلك سيكون الفرق بين التفسير المقارَن وصاحبيه من الترتيبي والموضوعي، هو أنَّ الترتيبي والموضوعي هو التفسير المباشر للنص القرآني، وأمّا التفسير المقارَن فهو التفسير غير المباشر،

(٢١) التفسير المقارن. مصطفى المشني ص ١٢.

بل بواسطة تحليل تفسير الآخرين والقيام بالترجيح بينها، وذلك لأنَّ التفسير المقارَن هو القيام بعملية الموازنة بين آراء المفسرين وعرض أدلتهم وبيان أسباب إختلافهم، كلُّ ذلك لكشف الصواب والخطأ في تفسيرهم، فقد ينحاز المفسر المقارِن لبعض هذه الآراء وقد يرفضها ويكون له رأيه الخاص به في تفسير النص القرآني.

وقد يُدّعى أنَّ هذه نقطة قوة وإمتياز في هذا النوع من التفسير، إذ أنَّ المفسر المقارِن سيكون موقفه إيجابياً بالقياس إلى صاحبيه من المفسر الترتيبي والموضوعي، لاسيما إذا قلنا أن التفسير الموضوعي هو تفسير مجموع الآيات القرآنية في الموضوع الواحد.

ونقصد بالإيجابية هنا التهيّؤ والإستعداد للفهم الأكثر والأقوى للنص، لأن المقارِن يكون قد مرَّ بتجربة غنية في الكشف عن مفهوم الآية، أي أنه قد أضاف فهم الآخرين إلى فهمه، وكأنه قد استشارهم واستفاد من خبرتهم في تفسير النص قبل أن يفسره، وقد قال المولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ((من شاور الرجال شاركهم فى عقولهم))[٢٢].

وقد يمكن الإستشهاد على مشروعية التفسير المقارَن بل أولويته وإمتيازه على سائر أنماط التفسير بعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة الزمر: ١٧ -١٨] فإن الآية وإن كانت في الأخذ بالقول الأحسن الذي يؤدي إلى العمل، ولكنها تؤسس لأصل عقلائي وهو: الإستماع للآراء المختلفة ثم إتباع أحسن الآراء وأتقنها.

قال السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسير الآية الكريمة: ((و المراد بالقول بقرينة ما ذكر من الاتباع، ماله نوع ارتباط و مساس بالعمل، فأحسن القول أرشده في إصابة الحق و أنصحه للإنسان، و الإنسان إذا كان ممن يحب الحسن و ينجذب إلى الجمال كان كلما زاد الحسن زاد انجذابا، فإذا وجد قبيحاً و حسناً مال إلى

(٢٢) نهج البلاغة، خطب و كلمات الإمام علي عليه السلام بجمع الشريف الرضي، الحكمة رقم ١٦١.

الحسن، و إذا وجد حسناً و أحسن قصد ما هو أحسن، و أما لو لم يمل إلى الأحسن و انجمد على الحسن كشف ذلك عن أنه لا ينجذب إليه من حيث حسنه، و إلا زاد الإنجذاب بزيادة الحسن .فتوصيفهم باتباع أحسن القول معناه أنهم مطبوعون على طلب الحق و إرادة الرشد و إصابة الواقع، فكلما دار الأمر بين الحق و الباطل و الرشد و الغي اتبعوا الحق و الرشد و تركوا الباطل و الغي و كلما دار الأمر بين الحق و الأحق و الرشد و ما هو أكثر رشدا أخذوا بالأحق الأرشد. فالحق و الرشد هو مطلوبهم، و لذلك يستمعون القول و لا يردون قولاً بمجرد ما قرع سمعهم اتباعا لهوى أنفسهم من غير أن يتدبروا فيه و يفقهوه. فقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥ ﴾ مفاده أنهم طالبو الحق و الرشد يستمعون القول رجاء أن يجدوا فيه حقا و خوفا أن يفوتهم شيء منه))[٢٣].

وكذلك يمكن الإستشهاد على صوابية التفسير المقارَن، بعموم الروايات الدالة على حُسن أن يستفيد الإنسان من تجارب الآخرين وخبراتهم، فقد روي عن النبي ﷺ قوله: ((ما من رجل يشاور أحداً إلا هدي إلي الرشد))[٢٤] وعن المولى أمير المؤمنين عليه السلام قال: ((مَنِ اسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الْآرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ الْخَطَأ))[٢٥] وقال الامام علي عليه السلام ايضاً: ((الاستشارة عين الهداية، وقد خاطرمن استغني برأيه))[٢٦].

والأحاديث في حسن الإستشارة والإستفادة من آراء الآخرين وخبراتهم كثيرةٌ جداً، و الإطلاع على رأي الآخرين في تفسير الآية وموازنتها بعضها مع البعض وصبّها في موازين التعادل والتراجيح من أجل التقرب إلى الرأي الأصوب في تفسير الآية بالإمكان إعتباره

(٢٣) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج ١٧ص ٢٥٠.

(٢٤) مجمع البيان فى تفسير القرآن، الطبرسي، ج٩ ص ٥١.

(٢٥) نهج البلاغة، خطب وكلمات الإمام علي عليه السلام بجمع الشريف الرضي، الحكمة رقم ١٧٣.

(٢٦) نهج البلاغة، خطب وكلمات الإمام علي عليه السلام بجمع الشريف الرضي، الحكمة رقم ٢١١.

من مصاديق الإستشارة وإن كانت غير مباشرة وغير صريحة.

ذكر أبو القاسم البغاء في مسند أبي حنيفة: ((قال الحسن بن زياد: سمعت أبا حنيفة وقد سئل: من أفقه من رأيت؟. قال: جعفر بن محمد، لما أقدمه المنصور بعث إلي فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهيئ لي من مسائلك الشداد، فهيأت له أربعين مسألة، ثم بعث إلي أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته، فدخلت عليه، وجعفر جالس عن يمينه، فلما بصرت به، دخلني من الهيبة لجعفر ما لم يدخلني لأبي جعفر، فسلمت عليه، فأومأ إلي فجلست، ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة، قال: نعم أعرفه، ثم التفت إلي فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد الله من مسائلك، فجعلت ألقي عليه فيجيبني فيقول: أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا، فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا جميعا، حتى أتيت على الأربعين مسألة، فما أخل منها بشئ، ثم قال أبو حنيفة: أليس أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس))[٢٧].

المحور الثالث:

نشأة التفسير المقارَن وتطوره في تاريخ التفسير:

هذا النوع من التفسير نجد بذوره وجذوره الأولى في بدايات تفسير القرآن الكريم، أي في عهد المُبيِّن والمفسر الأول والأساس لكتاب الله العزيز أي النبي المصطفى ﷺ وحملة علمه والمفسرين الحقيقيين من بعده أي عترته الطاهرة من أئمة أهل البيت عليهم السلام وكذلك وعاة علمه وفَهَمة تفسيره من صحابته النبلاء كعبد الله بن عباس وعبدالله بن مسعود وأبي بن كعب رضوان الله عليهم، وهكذا استمر المفسرون من خلال تفاسيرهم بشتى مناهجهم وإتجاهاتهم في القيام بالمقارنة بين آراء المفسرين عند تفسير الآية.

ولكن التفسير المقارَن لم يُؤصل ويتخذ نطاماً ومنهجاً وحتى تمسيةً إلا في العصور المتأخرة، ولعله فقط في عصر الدراسات التفسيرية الراهنة في القرن الخامس عشر.

(٢٧) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، أسد حيدر، ج ٤ ص ٣٣٥.

ولا نقصد بالمقارنة في التفسير الذي قام به النبي وأئمة أهل البيت عليهم السلام قيامهم هُم عليهم الصلاة والسلام بمقارنة آراء الآخرين والترجيح بينها، لأنهم صلوات الله عليهم مصدر العلم ونبعه الصافي، تعلم الجميع منهم وهم لم يتعلموا عند أحد، وقد قال المولى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: ((... لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ وَ لَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً، هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ وَ عِمَادُ الْيَقِينِ إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالِي وَ بِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي وَ لَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ وَ فِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَ الْوِرَاثَةُ. الْآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ وَ نُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ))[٢٨] وهذا في كل شيء ومنه كسب العلم لاسيما تفسير القرآن.

نعم تفسيرهم عليهم السلام المقارَن من نوعٍ آخر، وهو مقارَنة كلام الله تعالى بعضه إلى البعض الآخر من أجل الوصول إلى النتيجة المطلوبة، -لأنهم عليهم الصلاة والسلام فقط يأخذون علمهم من الله تعالى لا من خلقه -وهو المصطلح عليه في علم التنفسير بتفسير القرآن بالقرآن، ونماذجه كثيرة، منها:

((ما روي من حديث عبد الله بن مسعود: لما نزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[سورة الانعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لإبنه: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[٢٩].

وأيضاً: ((استنتاج الإمام المولى عليّ بن أبي طالب عليه السلام من خلال الآيتين: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[سورة لقمان: ١٤] و ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ

(٢٨) نهج البلاغة، خطب وكلمات الإمام علي عليه السلام بجمع الشريف الرضي، الخطبة رقم ٢.

(٢٩) صحيح مسلم. ج ١. ص ١١٤. رقم ١٩٧.

وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الاحقاف: ١٥] بأنّ أقلّ مدّة للحمل هي ستّة أشهر))[٣٠] بإعتبار أنّ مدّة الرضاع سنتين كما تشير الآية الأولى، ومدّة الحمل والرضاع معاً ثلاثون شهراً، كما تشير الآية الثانية، والجمع بينهما يقتضي كون أقلّ الحمل ستّة أشهر. وهذا نوع من تفسير القرآن بالقرآن.

نعم لا نقصد بالمقارنة التفسيرية -بالمعنى الذي هو موضوع هذا البحث- في عهدهم عليهم السلام قيامهم هُم بذلك، بل نقصد سيرة الصحابة والتابعين في زمانهم في مقايسة آراء بعضهم البعض ثم القيام بالترجيح حسب الأدلة عندهم، وهذه السيرة بينهم لم يصل الينا دليلٌ حول ردع المعصوم عليه السلام عنها.

والشاهد على حصول المقارنة بين الصحابة في فهم القرآن، أن اختلاف أفهام المفسرين من الصحابة ومن جاء بعدهم، وتفاوت مداركهم، وتعدد مصادر التفسير وطرقه النقلية والعقلية، كل ذلك أدّى إلى التباين والإختلاف في الآراء، وهذا بدوره اقتضى عرض الأقوال والنظر في أدلتها، ومناقشتها ثم الترجيح استناداً إلى الدليل[٣١].

هذا كله في تفسير ألفاظ الآيات وموضوعاتها - أي الموطن الأساس والمعنى الأول للتفسيرالمقارَن -وأما في المعنى الثاني والتبعي للتفسير المقارَن- كما سيأتي عند بيان أنواع المقارَنة - أي المقارنة بين المفسرين أنفسهم ومناهجهم وإتجاهاتهم وأدلتهم من حيث قدراتهم وتفاوت مراتبهم في التفسير، فهذا كله حاصلٌ من قديم الأيام[٣٢].

قال إبن عطية مقارناً بين الصحابة: ((فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلي بن أبي طالب عليه السلام))[٣٣] وكذلك حينما يقارنون بين عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وغيرهم من الصحابة في التفسير.

(٣٠) بحار الانوار. المجلسي. ج ٤٠. ص ١٨٠.

(٣١) التفسير المقارن، مصطفى المشني. ص ١٥.

(٣٢) المصدر السابق.

(٣٣) المحرر الوجيز، إبن عطية. ج ١ ص ٢٩.

هـذا كله في فـترة نـشأة التفسير في مراحله الأُولى، وأمّا في عصر التدوين فما بعد، فقلّما تجد مفسراً قام بتفسير القرآن واستغنى عن عـرض آراء من سبقه في تفسير الآيـة، ففي طـول تاريخ التفسير الإجتهادي الجامع ترى ظاهرة عرض آراء الآخرين مشهودة في التفاسير، ولاسيما في التفاسير بالطابع (الإتجـاه) الكلامي والفقهي، وقـد عُـرف بعض المفسرين بالإهتمام الجدي بعرض آراء الآخرين، كمحمد بن جرير الطبري المتوفى في ٢٧٠ من الهجرة في تفسيره الشهير "جامع البيان في تـأويـل القرآن" والفضل بـن حسن الطبرسي المتوفى في سنة ٥٤٨ من الهجرة في تفسيره القيّم "مجمع البيان في تفسير القرآن" و الرازي الجصّاص الحنفي المتوفى في ٣٧٠ مـن الهـجـرة في تفسيره لآيـات الأحـكـام الموسـوم بـ "أحكام القرآن" والمحقق الأردبيلي المتوفى في ٩٩٣ هجرية في تفسيره الفقهي "زبدة البيان في براهين أحكام القرآن" حيث يُلاحظ في الأخير: تأثره الكثير بمجمع البيان والكشّاف والزمخشري، وكذلك النظر إلى آراء فقهاء المـذاهـب الأُخـرى، وحتى الإستشهاد بأخبار كتب الصحاح عند العامّة، ممّا يُعزز البُعد المقارَني في زبدة البيان.

ولكن في كلّ هذه التفاسير لم يُنظر للمقارنة، ولم تُأطر بنظام وضوابط محددة، فهي واقع حاصل لكن من دون أن تكون تطبيقاً لنمط تفسيري خاص ومعهود.

وفي الفترة المـعـاصرة، حيث كثرت الـدراسـات المقارنية في الحقول المعرفية المتـعـددة كـالأدب والـقـانـون، نشطت الدراسات القرآنية والتفسيرية بالأسلوب المقارَن، والأغلب في هذه الدراسات هو محورية المقارنة في موضوع معين أو نص قرآني خاص، وكذلك المقارنة بين القرآن وكتب العهدين، سواء من حيث المجموع أو في موضوعات مختلفة، ككتاب "القرآن والتوراة والإنجيل والعلم" لمؤلفه موريس بوكاي، وفي مجال القصص كدراسة قصة النبي يوسف عليه السلام بين الـقـرآن والـتـوراة في كتاب "الظاهرة القرآنية" لمالك بن نـبـي. وكـذلـك كتب المحقق المعاصر الشيخ محمد باقر الناصري تفسيراً تحت عنوان " التفسير المقارن " وفي التفسير

الموضوعي في بعض أبواب الموضوعات الإعتقادية، كتب المحقق المعاصر الشيخ نجار زادكان تفسيره المقارن في آيات الإمامة بين الفريقين (السنة والشيعة) وكذلك المحقق الشيخ محمد فاكر ميبدي في كتابه "التفسير المقارن لآيات الأحكام" وكذلك الشيخ طاهر الغرباوي (صاحب هذا البحث) كتابه "التفسير الفقهي بين الإمامية والحنفية" وهي مقارَنة بين زبدة البيان للأردبيلي الإمامي وأحكام القرآن للرازي الجصاص الحنفي حيث تمّت مقارنة التفسيرين في أصولها وقواعدهما التفسيرية وكذلك اسلوبها التفسيري و تخصيص باب في هذا الكتاب للمقارنة التطبيقية في بعض أبواب العبادات، وكذلك كتاباً آخر تحت عنوان: "دروسٌ في فقه القرآن المقارَن" و دراسة تفسيرية مقارنة بين أشهر تفاسير الفريقين حول آيات الحج والعمرة في القرآن الكريم تحت عنوان "الحج في ميزان الوحي".

وأمّا في مجال التأصيل للتفسير المقارَن وبيان ضوابطه ومعالمه، فقد صدر أخيراً بحث قيّم للباحث مصطفى المشني من جامعة الأردن، تحت عنوان "التفسير المقارن، دراسة تأصيلية" وكذلك أطروحة دكتوراه للباحث محمود عقيل معروف العاني من جامعة بغداد تحت عنوان "التفسير المقارَن" وايضاً كتاب "التفسير المقارن بين النظرية والتطبيق" للكاتبة روضة عبدالكريم فرعون، وأنا صاحب هذا البحث في حال تدوين كتاب تحت عنوان "التفسير المقارَن، المعالم والأصول" أسأل الله تعالى ببركة القرآن ومفسريه النبي المصطفى وأهل بيت الأطهار عليهم السلام أن يرى النور إن شاء الله تعالى.

اضف الى كلّ ذلك، أنَّ كثيراً من الجامعات والمعاهد العلمية في التفسير والدراسات القرآنية في الوقت الراهن، قد خصصت من ضمن فروعها وتخصصاتها تخصص "التفسير المقارَن" في الدراسات العليا، كتخصص التفسير المقارَن في جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالمية في مرحلة الدكتوراه.

المحور الرابع:

اصول التفسير المقارَن:

إن المقارنة لا سيما في فهم كتاب الله

العزيز لَهي من أدقّ وأخطر ما يقوم به الباحث، إذ هي عمليةُ حَكميّة وقضاء علمي بين وجهات نظر ومواقف طرفين أو أطراف، وكذلك بين مناهج وثوابت مدرستين أو مدارس، كل ذلك بموضوعيّة وذاتيّة، وهذا لايتحقق إلا بوجود ضوابط وأصول ومبادئ موضوعية، يُرجَع اليها، لحسم الموقف من قِبَل المقارِن. والتي هي ثوابت ومسلمات المقارِن ـ مفسراً كان أم باحثاً آخر ـ المُحقَقة قبل أن يبدأ بتفسيره، ولها الدور الأساس في طريقة معاملته مع النص الذي هو بصدد تبيينه، وقد يُعبَّر عنها بالأُسس أو المباني، لأنها أُس بحثه ومبناه الذي تبتني عليها نتائج ما يتوصل إليه.

وقد حُددت لعملية المقارنة السليمة عدة أصول وثوابت، لا تسلم ولا تُنتج المقارنة –ومنها المقارَنة في التفسير –إلا بمراعاتها وتطبيقها[٣٤].

ومن أهمها:

الأول: تحكيم أصول التفسير العام: كالإيمان بإمكان وجواز تفسير القرآن الكريم، وحجية الظهور القرآني، ومرجعية السنة المطهرة (والقدر المتيقن هو السنة الثابتة بالتواتر أو بالخبر المحفوف بقرائن الصحة والإعتبار) وكذلك مرجعية العقل البرهاني والسليم، وكذلك قواعد التفسير وأدواته من الأخذ بالسياق، والإهتمام بشأن و أسباب النزول المروي بدليل معتبر، وأمثال ذلك من قواعد تفسيريّة.

الثاني: التسليم والإيمان بقدسية النص القرآني وعصمته وسلامته من التحريف، والمهم في ذلك التمييز بينه وبين فهم المفسِّر له، فقد يخطأ الإنسان (المفسِّر) في فهم القرآن، ولكن على المقارِن ألّا يعتبر ذلك النقص محسوباً على القرآن نفسه بل هو قصور في الفهم البشري، ولذا على المقارِن أن يبحث عن الصواب في تفسير النص متبعاً في ذلك الأدلة في مرحلة الترجيح وإتخاذ الموقف العلمي.

الثالث: معرفة أسباب الإختلاف[٣٥]: أي أنَّ المقارن بين طرفين أو أطراف، لا بد وأن يعرف سبب حصول نقاط الإفتراق،

(٣٤) التفسير الفقهي بين الإمامية والحنفية، طاهر الغرباوي، ص ٦٤.

(٣٥) المصدر السابق.

من أجل أن يأخذ موقفاً موضوعياً عند الموازنة ثم الحكم. وأسباب الإختلاف كثيرة، فبعضها يعود إلى الإختلاف في المنهج، وبعضها يعود إلى الإختلاف في الإتجاه والذي يتأثر ببيئة المفسِّر العلمية والعقائدية والمذهبيّة وحتى الظروف الإجتماعية.

الرابع: الإحاطة بإصول الإحتجاج: أي معرفة مفاهيم الحجج وأدلتها، ومواقع تقديم بعضها على بعض[٣٦].

الخامس: إختيار المصادر الأصيلة: من أجل معرفة رأي وموقف الشخص أو المدرسة طرفِ المقارنة، لابد من الحصول على المصادر الأولى والاصلية، دون الإعتماد على المصادر في رُتب متأخرة.

السادس: استقصاء الآراء: لا تسلم المقارنة إلا بإستقصاء آراء الأطراف موضوع المقارنة، ولا يجوز التسرع بالحكم، إذ قد يوجد المقيِّد أو المخصِّص أو الناسخ في موضعٍ آخر.

السابع: تحقيق الثوابت: ويُقصد بهذا الأصل، أن المقارنة لا تنجح، إلا بمعرفة الأصول والثوابت العقائدية والعلمية وما شابه ذلك، لأطراف موضوع المقارنة، أشخاصاً كانوا أو مناهجاً أو مدارساً أو مصادراً (كتباً تفسيرية) أو غيرها.

الثامن: تحقيق أدلة الترجيح في المقارنة: حيث تُعد الاصول والثوابت التي قامت الحجة على مرجعيتها وفصلها للنزاع، هي المرجع للترجيح، فمثلاً في المقارنة بين الموضوعات الدينيّة، يكون القرآن الكريم ومِن بعده السنة الشريفة الثابتة، من أدلة الترجيح الأساسيّة، وكذلك الترجيح باللغة والدليل العقلي مثلاً[٣٧].

التاسع مراعاة آداب المقارَنة: وهي السجايا العلمية والبحثية التي ينبغي أن يتحلى بها المقارِن مثل: الموضوعية: وهي أن يكون المقارِن مهيّأً من وجهة نفسية للتحلل من تأثير رواسبه، والخضوع لما تدعو اليه الحجة عند المقارنة، سواءٌ وافق ما تدعو اليه ما يملكه من مسبقات، أم خالفها[٣٨]. وكذلك الأمانة والدقة

(٣٦) المصدر السابق. ص ٤٨.

(٣٧) التفسير المقارن. مصطفى المشني. ص٥٠-٥٣.

(٣٨) الأصول العامة للفه المقارن. محمد تقي الحكيم. ج١ ص ٤٥.

والتحري في نقل رأي الطرف الآخر والإنصاف في تحليله ونقده.

وهناك ضوابط وأصول أخرى، لابد من تحققها من أجل أن تكون عملية المقارنة موضوعية وعلمية ناجحة.

هذا هو إجمال هذه الأصول بما يُناسب كتابة بحث، وأمّا تفصيل هذه الأصول والإستدلال عليها، والتأكيد عليها من خلال النماذج التطبيقية، فيستدعي مجالاً أوسع من بحث، بل هي عمدة مضمون كتاب في هذا المجال بكامله.

المحور الخامس:

خطوات المقارَنة في التفسير:

المقارَنة في التفسير، أي موازنة الآراء المتعددة في تفسير النص القرآني، وكذلك المقارَنة بين المفسرين أنفسهم في مناهجهم وإتجاهاتهم المتمثلة بتفاسيرهم المدونة، لا تحصل دفعةً واحدة، بل لابد من مراعاة السير المنطقي فيها ومواظبة المرحليّة والتدرّج، ولعلَّ أهم الخطوات التي يجب أن يتبعها المقارِن هي الخطوات التالية:

الخطوة الأولى: تنقيح موضوع (محل) المقارنة بتبيين المسألة ومفرداتها

هذه هي البذرة الأولى في القيام بالمقارنة في التفسير، لأن المقارِن هو بصدد معرفة وتحليل ما توصل إليه الآخرون في تفسير الآية أو الآيات، ليجعله المنطلق للتفسير النهائي للنص القرآني، وهذا يستدعي أن يكون المقارِن قد فَهَم رأي المفسّر طرف المقارَنة، وحدّد مفاهيمه الدلالية المنطوقية والإلتزامية، هذا في نوع المقارَنة في تفسير النص، وقلنا هي الأساس في المقارنة، وأمّا المقارَنات الأخرى كالمقارنة بين المفسرين أنفسهم في ثقافاتهم ومبادئهم، وكذلك المقارنة في تفاسيرهم (بمعنى كتبهم في التفسير التي تُعبر عن مدرستهم التفسيرية) والتي إعتبرناها مقارَنة تبعية تقع في خدمة المقارَنة الأُم، فهذه ايضاً تقتضي تنقيح شخصيات المفسرين وهويتهم العلمية وكذلك فهم ثقافاتهم ومبادئهم ومناهجهم وإتجاهاتهم، وكذلك النظام والأسلوب الحاكم على كتبهم التفسيرية، بشكلٍ صحيح ودقيق.

الخطوة الثانية: بيان حدود المقارنة في الموضوع بين الأطراف.

ويُقصد بهذه الخطوة الإطلاع على

الظروف والملابسات والقرائن المحيطة بالموضوع محل المقارَنة، سواء أكان موضوع المقارنة هو الرأي التفسيري للنص القرآني، أو شخصية المفسر وثقافته العلمية، أو كتابه التفسيري الذي يعكس مدرسته ومنهجه واسلوبه في معالجة وفهم القرآن الكريم، كلُّ ذلك ليبيّن حدود مقارنته ومساحة مقارنته ضيقاً وإتساعاً.

الخطوة الثالثة: إفتراض النتيجة والترجيح في مرحلة التصور.

وفي هذه المرحلة يفترض المقارِن لنفسه مفترضات يحتمل أن مقارنته ستؤدي إلى الوصول إليها، أو سوف يُثبت بالأدلة عدم صوابيتها من أجل الحصول على الرأي الصحيح غيرها.

الخطوة الرابعة: القيام بالموازنة والحصول على نقاط الإلتقاء والإفتراق.

وهنا يبدأ المقارِن في المرحلة الأساس من المقارَنة التفسيرية، حيث يقوم بدراسة الآراء المتعددة في تفسير الآية أو الآيات وتحليلها، من أجل فرز نقاط الإشتراك عن نقاط الإفتراق، وكذلك يقوم بدراسة مشتركات وفوارق شخصية كل من المفسرين أطرافِ المقارَنة، وايضاً مشتركات وفوارق كل من التفسيرين أو التفاسير أطرافِ المقارنة، في الأصول والقواعد والمنهجية.

الخطوة الخامسة: تبيين وتنقيح نقاط الإشتراك والإفتراق والوصول الى عللها.

وهي خطوة مهمة في عمليّة المقارَنة التفسيرية، لأنَّ تنقيح نقاط الإشتراك والإفتراق، والأهم من كلِ ذلك بيان أسباب وأدلة الإشتراك والإفتراق، يمهّدُ لإتخاذ الموقف التفسيري الصائب إمّا امضاءً أو تأسيساً.

الخطوة السادسة: القيام بعملية الترجيح وإتخاذ الموقف.

وهي الخطوة الأخيرة والتي تُعتبر روح المقارَنة وثمرتها الأساس، وبتحقق هذه الخطوة يُعد التفسير المقارَن تفسيراً للقرآن الكريم، لأنه لولاها لكانت المقارَنة مجرد نقلِ لآراء الآخرين وتقليد رأيهم.

وسنستشهد على هذه الخطوات الستة في المحور السادس والأخير من هذا البحث -إن شاء الله تعالى، حينما نذكر النماذج التطبيقية للمقارَنة بقسميها

(المقارَنة في المنهج والمقارَنة في المحتوى).

المحور السادس:

نماذج تطبيقيّـــــة.

النـموذج الأول: في المقـارَنـة بين تفسيرين (أي كتابين في التفسير):

فلنفترض أنَّ مقارِناً هو بصدد القيام بالمقارَنة بين تفسيري زبدة البيان للشيخ احمد بن محمد الأردبيلي من جهة، وبين أحكام القرآن للشيخ أبي بكر الـرازي الجصّاص الحنفي من جهة أُخرى، اللّذَين هما تفسيران فقهيان يمثلان مدرستين من مـدراس التفسير الفقهي (تفسير آيات الأحكام) الأولى المدرسة الإمامية والثانية المدرسة الحنفية في فقه القرآن، فعليه أن يقوم بالمقايسة بين الأصول (المباني) التي ابتنى عليها كلٌ من التفسيرين، كإمكانية فهم وتفسير القرآن، حجيّـــــة ظهور القرآن، مرجعية السنة في التفسير، دور العقل في التفسير، كل ذلك مُستشهدٌ عليه، بنماذج تطبيقيّة من كلا التفسيرين، من أبـواب متعددة من آيـات الأحكام وتفسيرها، وكـذلـك المقـارَنـة بين أدلة وقـواعـد التفسيرين، كالرجوع إلى آية أُخـرى لفهم النص الـقـرآني، تأثير شأن ومناسبات النزول، تأثير السياق، تأثير تعدد الـقـراءات، دور القياس وأخواته من الإستحسان والمصالح المرسلة وسد الذرائع في تفسير الجصّاص وبعكسه في تفسير الأردبيلي، مع الإستشهاد بنماذج تطبيقية أيضاً.

النموذج الثاني: في المقارَنة بين آراء التفسيرَين في تفسير الآية أو الآيات:

في مقدمات الصلاة:

المطلب الأول: أوقات الصلاة في سورتي الإسراء و هود:

الآيـة الأولى: قال الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾[سورة الإسراء: ٧٨].

النقطة الأولى: الأربيلي وتفسير الآيتين:

تمهيدٌ:

هـذه الآيـة من سـورة الإسراء، هي إحدى الآيتين اللتين تعرضتا لبيـــان أوقـات الصلاة بشكلٍ صريح، والثانية هي الآيـة رقـم ١١٤ من سـورة هود عليه السلام (وسيأتي بحثها إن شاء الله تعالى) نعم

قد تكون هناك إشارات لأوقات الصلاة بآيات أُخرى؛ كقوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾[سورة الروم: ١٧ -١٨] ففي روايةٍ عن إبن عباس: أنه إعتبرها دالة على أوقات الصلوات الخمس[٣٩]. وعلى ضوء ذلك بحثها المحقق الأردبيلي في ضمن آيات أوقات الصلاة[٤٠]. وكذلك الآية ١٠٤ من سورة طه[٤١] وأيضاً الآيتين ٣٩ و٤٠ من سورة ق[٤٢].

مُجمل آراء المقدس الأردبيلي في تفسير الآيتين:

أ. آية سورة هود:

الأول: يُرجّح المحقق الأردبيلي أن يكون الدلوك في الآيةهو زوال الشمس[٤٣]؛ ويستدل على قوله هذا بـ:

أ. دلالة اللُغة[٤٤]؛ لأن الإنسان يدلك عينيه عند النظر إلى الشمس.

ب. الرواية النبويّة القائلة: ((أتاني جبرئيل عليه السلام لدلوك الشمس [حين زالت الشمس] فصلّى بي الظهر))[٤٥].

ج. الروايات المرويّة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام والمُفسّرة للدلوك في الآية بزوال الشمس؛ كهذه الرواية: ((عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ أَرْبَعَ صَلَوَاتٍ، أَوَّلُ وَقْتِهَا مِنْ زَوَالِ الشَّمْسِ إِلَى انْتِصَافِ اللَّيْلِ، مِنْهَا صَلَاتَانِ أَوَّلُ وَقْتِهِمَا مِنْ عِنْدِ زَوَالِ الشَّمْسِ إِلَى غُرُوبِهَا، إِلاَّ أَنَّ هَذِهِ قَبْلَ هَذِهِ، وَ مِنْهَا صَلَاتَانِ أَوَّلُ وَقْتِهِمَا مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى انْتِصَافِ اللَّيْلِ، إِلاَّ أَنَّ هَذِهِ قَبْلَ هَذِهِ»[٤٦].

الثاني: في الغسق الذي أُخذ غايةً لإقامة الصلاة؛ قولان: أحدهما: أنّه

(٣٩) الكشاف. الزمخشري. ج ث. ص ٤٧١ و٤٧٢.
(٤٠) زبدة البيان في براهين أحكام القرآن. الأردبيلي. ص ٩٦.
(٤١) المصدر السابق. ص ٩٦ و٩٧.
(٤٢) المصدر السابق. ص ٩٨ -١٠٠.
(٤٣) زبدة البيان في براهين أحكام القرآن. الأردبيلي. ص ٩١.
(٤٤) المصباح المنير. الفيومي. مادة دلك.
(٤٥) سنن أبي داوود. ج١ ص ١٠٧.
(٤٦) تفسير البرهان. البحراني. ج ٢ ص ٤٣٧.

الظلمة الشديدة المتحققة بمنتصف اللّيل، وهو المُؤيَّد بالروايات المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام[٤٧]؛ وعليه يرى الشيخ الأردبيلي أنَّ الآية حينئذٍ تكون دالّة على أوقات الصلوات الخمس[٤٨]. وفيها دلالة على سعة وقت جميع الصلوات الخمس على الإجمال، فيُخصّص ويتعين بضم الأخبار أو الإجماع على الوجه المُقرر[٤٩].

الثالث: أهمُّ التفاسير التي إهتمَّ المحقق الأردبيلي كثيراً بها ونقل أقوالها وناقشها هي: أنوار التنزيل للبيضاوي، الكشّاف للزمخشري ومجمع البيان للطبرسي؛ ولذا نجد الشيخ الأردبيلي في آيات أوقات الصلاة هنا؛ يذكر آراء الطبرسي والزمخشري، والمحصل من الأقوال المنقولة عنهما: الإتفاق على أن الدلوك عند الثلاثة: (الأردبيلي، الطبرسي والزمخشري) هو زوال الشمس من وسط النهار، وفي الغسق قولان: الأول: وقت صلاة العشاء، والثاني: شدة الظلمة المتحققة بنصف اللّيل، وعند الكشّاف: المُرجَّح هو وقت صلاة العشاء، وعند الأردبيلي والطبرسي: المرجح في الغسق هو منتصف الليل، أخذاً بروايات أئمة أهل البيت عليهم السلام[٥٠].

الرابع: يرى الشيخ الأردبيلي كما الطبرسي في مجمع البيان: أن الدلوك لو فُسِّر بالزوال والغسق بمنتصف الليل، (كما هو مؤدى روايات الأئمة عليهم السلام) فالآية تدل على أوقات الصلوات الخمس؛ على التفصيل المعمول به في الفقه الإمامي، وهو: من الزوال إلى الغروب وقت للظهرين، ومن الغروب إلى منتصف اللّيل وقت للعشاءين، وصلاة الصبح وقتها الفجر.

طبعاً يُستخرج ذلك بعد ضم المسلمات من خارج الآية، وهي: عدم جواز تقديم الظهرين على الزوال، وعدم جواز تأخيرهما عن الغروب، وعدم جواز تقديم العشاءين على الغروب وعدم جواز تأخيرهما عن منتصف اللّيل إلّا

(٤٧) تفسير العيّاشي. ج ٢ ص ٣٠٩ .
(٤٨) زبدة البيان في براهين أحكام القرآن. الأردبيلي. ص ٩٣.
(٤٩) المصدر السابق .
(٥٠) المصدر السابق.

للمضطر[٥١].

الخامس: يُناقش الشيخُ الأردبيلي الزجّاجَ وصاحبَ الكشّاف، يناقشهما في استفادتهما من قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾؛ أنَّ الصلاة لا تكون إلا بقراءة؛ حيث يقول الزجاج: ((لأن قوله تعالى: أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر، قد أمر فيه أن يُقيم الصلاة بالقراءة حتّى سميت الصلاة قُراناً، فلا تكون صلاة إلا بقرآن))[٥٢] ويقول صاحب الكشّاف: ((وقرآن الفجر، سميت قرآناً وهو القراءة، لأنها ركُن، كما سُميت ركوعاً وسجوداً وقنوتاً[٥٣] ومناقشة الشيخ الأردبيلي هي قوله: ((فيه تأمل، خصوصاً في قوله: ((وقنوتاً)) فإنّه ليس بمشروعٍ إلا في بعض الصلوات عندهم؛ الوتر والصبح، وجزء مستحب))[٥٤].

(٥١) زبدة البيان في براهين أحكام القرآن. الأردبيلي. ص ٩٣ (اقتباس).

(٥٢) بنقل صاحب مجمع البيان. ج ٦. ص٤٣٤.

(٥٣) الكشّاف. الزمخشري. ج ٢ ص.٦٨٧.

(٥٤) زبدة البيان في براهين أحكام القرآن. الأردبيلي. ص ٩٤.

ب. آية سورة هود:

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [سورة هود: ٤١١].

الأول: ليس للمقدس الأردبيلي رأي صريح في تفسير الآية هذه من سورة هود، بل ينقل أقوالاً ثلاثة، هي:

١. إن طرفي النهار وقت صلاة الفجر والمغرب.

٢. إن طرفي النهار الغدوة والعشيّة وهي صلاتا الصبح والعصر وأضاف.

٣. ((وقيل الظهر أيضاً لأن بعد الزوال كله عشيّةً ومساءً عند العرب، فتدل على سعة وقتهما في الجملة، وينبغي إدخال العشائين أيضاً))[٥٥].

الثاني: ينقل أقوالاً ثلاثة أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ﴾ وهي:

١. العشاءان.

٢. ساعات من اللّيل وهي ساعاته القريبة من آخر النهار.

(٥٥) زبدة البيان في براهين أحكام القرآن. الأردبيلي. ص ٩٤ -٩٥.

٣. زلفاً من الليل أي قرباً من الليـــــل، وقال: ((وحقّها على هذا التفسير؛ ان يعطف على الصلاة، أي أقم الصلاة وأقم زلفاً من الليل على معنى، وأقم صلوات يتقرب بها إلى الله عزَّ وجلَّ في بعض الليل، فيمكن إشارة إلى صلاة اللّيل المشهورة))[٥٦].

النقطة الثانيـــة: الجصّاص وتفسير آية الإسراء:

مُجمل آراء الجصّاص في تفسير الآية:

الأول: ينقل الآراء في تفسير الدلوك والغسق عن صحابةٍ وتابعين، وملخص ما نقله عنهم: في الدلوك قولان:

أ. الغروب.

ب. الميل.

وفي الغسق خمسة أقوال:

أ. إجتماع الليل وظلمته.

ب. غياب الشفق.

ج. غروب الشمس.

د. صلاة المغرب والعشاء.

ه. انتصاف الليل، ويروي الجصّاص هذا القول (إنتصاف اللّيل) عن أبي جعفر، والظاهر أنه الإمام الباقر عليه السلام[٥٧].

الثاني: يقول الجصّاص: ((هؤلاء الصحابة قالوا: إن الدلوك الميل، وقولهم مقبول؛ لأنهم من أهل اللغة، وإذا كان كذلك، جاز أن يُراد به الميل للزوال والميل للغروب، فإن كان الزوال فقد انتظم صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة؛ إذ كانت هذه أوقات متصلة بهذه الفروض، فجاز أن يكون الغسق غاية لفعل هذه الصلوات في مواقيتها،... ويحتمل أن يُراد به (الميل) غروب الشمس، فيكون المراد بيان وقت المغرب أنه من غروب الشمس إلى غسق اللّيل))[٥٨].

الثالث: في المُحصَّل من الأقوال في غسق اللّيل:

أ: من فسّر الدلوك (الميل) بالغروب لا يجوز عنده أن يكون الغسق أيضاً هو الغروب؛ لأنه سيكون الإبتداء والغايـــة شيء واحد، وهذا لايجوز.

(٥٦) المصدر السابق.

(٥٧) حيث ينقل عنه القول هذا في سياق وعِداد نقله عن بعض التابعين المعاصرين للإمام الباقر عليه السلام، كمجاهد.

(٥٨) أحكام القرآن. الرازي الجصّاص. ج٥ ص٣١.

والمتبقي حينئـــــذٍ (عند تفسير الدلوك بالغروب) في الغسق: إمّا غيبوبة الشفق وإمّا منتصف اللّيل.

الرابع: بناءً على ما روي عن أبي جعفر عليه السلام من تفسير الغســـق بمنتصف اللّيل، وعند تفسير الدلوك بزوال الشمس وميلها من وسط النهار، يكــون الحدّان للصلوات الأربعة: الظهـــــر، العصر، والمغرب والعشاء.

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ هو معطوفٌ على قولــه: {أقم الصلاة لدلوك الشمس} وتقديره: أقم قرآن الفجر، وفيه الدلالة على وجوب القراءة في صلاة الفجر؛ لأن الأمر على الوجوب، ولا قراءة في ذلك الوقت واجبة إلا في الصلاة، ولا يصح أن يُراد بقرآن الفجر صلاة الصبح؛ لأنه غير جائز أن تُجعل القراءة عبارة عن الصلاة، لأنه صرف الكلام عن حقيقته إلى المجاز بغير دليل[٥٩].

ولم يتطرق الشيخ الرازي الجصّاص لتفسير الآية رقم ١١٤ من سورة هود؛ ولعله اكتفى ببيانه بحثَ أوقات الصلاة في آية سورة الإسراء.

النقطة الثالثة: المشتركات بين التفسيرين:

بما أنَّ التفسيرين ركّزا على بيان مفردات الآية من الدلوك والغَسق وقرآن الفجر، لم نشاهد بحثاً تفسيريّاً خاصّاً من قبلهما، كما شاهدناه في تفسير آية الطهارات الثلاث من سورة المائدة، ولعلَّه لعدم وجود ابهامٌ في معنى الآية إلا في بيان الخلاف اللغوي والمصداقي في المفردات الثلاثة المذكورة. ولكن مع ذلك نُشير إلى بعض الآراء المشتركة والمختلف فيها، ولو كانت قليلة:

الأول: تفسير الدلوك بالزوال لدى التفسيرين في الجملة، وسيأتي في الفوارق: أن الجصّاص لم يَبُتّ الأمر فيه بل يراه أحد الإحتمالين، في حين أنَّ الأردبيلي رجّح هذا المعنى.

الثاني: تفسير الغَسق بشدة الظلمـــة الصادقة على منتصف اللّيل عندهمـــا في الجملة، وروايـــة الغسق بمعنى منتصف

(٥٩) المصدر السابق.

اللّيل من قِبَل الجصّاص عن أبي جعفر[٦٠] تتفق مع رواية الأردبيلي تفسير الغسق بمنصف الليل.

الثالث: اشتمال الآية على أوقات الصلوات الخمسة عند التفسيرين في الجملة، بنفس التوضيح الذي مرَّ في النقطة الأولى والثانية.

النقطة الرابعة: الفوارق بين التفسيرين:

الأول: عدم حسم الأمر والبتّ فيه من قِبَل الجصّاص في مفردتي الدلوك والغسق؛ حيث يذكر الإحتمالات ولم يُبدِ انحيازه للرأي المختار عنده، في حين أن الأردبيلي حسم موقفه بإنحيازه إلى تفسيره الدلوك بالزوال والغسق بمنتصف اللّيل؛ وذلك لورود المعنيين في تفسير أئمة أهل البيت عليهم السلام.

الثاني: تفسير الأردبيلي قولَه تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ بصلاة الصبح؛ من باب التعبير عن الشيء بذكر بعض أجزاءه، كما يُقال عن الصلاة أنها ركوعٌ أو سجود، في حين أن الجصّاص يفسّر {قرآن الفجر} بالقراءة، ولا يصح عنده أن يُراد بقرآن الفجر صلاة الصبح؛ لأنه غير جائز أن تُجعل القراءة عبارة عن الصلاة، لأنه صرف الكلام عن حقيقته إلى المجاز بغير دليل[٦١].

النقطة الخامسة: الترجيح من خلال المقارنة:

كما مرَّ في النقطة الرابعة: أن عمدة الإختلاف في تفسير الآية، هو الإختلاف في المراد بمفرداتها الأساسيّة من جهة اللغة وفهم المفسرين، وهي: الدلوك، الغسق، وقرآن الفجر.

وملخّص الآراء: أنَّ الدلوك هو:

أ. زوال الشمس من كبد (وسط) السماء،[٦٢].

ب. الغروب،[٦٣].

(٦٠) أرى أنه يقصد بأبي جعفر في روايته هذه، الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام حيث يذكر قوله في عداد أقوال المعاصرين للإمام عليه السلام كقتادة ومجاهد.

(٦١) أحكام القرآن. الرازي الجصّاص. ج ٥ ص ٣١.

(٦٢) رواه القرطبي عن: عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علماء التابعين وغيرهم.

(٦٣) قال القرطبي: قاله علي وابن مسعود وأبي

ج. مطلق الميل فيشمل الزوال والغروب (من الزوال إلى الغروب)[٦٤].

والغسق هو: أ: اجتماع الليل وظلمته (وهو المتحقق بمنتصف الليل)[٦٥]. ب: سواد الليل، ج: مغيب الشفق.

د. إقبال ظلمة الليل[٦٦]. وقالوا في قرآن الفجر: أ: المراد به صلاة الصبح[٦٧]

ب: المراد به القراءة.

وعليه فإن الرأي المختار هنا هو: إن المرجع في ترجيح هذه الآراء اللغوية والإجتهادية بعضها على البعض؛ هو البحث عن السنة الشريفة؛ لأن أحد أدوار تفسير السنة: هو تبيين المجمل وتعيين المصداق عند احتمال صدق المفهوم على أكثر من مصداق، وفي هذا الشأن قد وردت أخبار عن النبيﷺ وأهل بيته المعصومينعليهم السلام الّذين هم ورثة علمه ومستودع حكمته، تحسم الموقف، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

١. روى أبو داوود في سننه عن النبيﷺ قوله: ((أتاني جبرئيلعليه السلام لدلوك الشمس [حين زالت الشمس] فصلّى بي الظهر))[٦٨].

٢. الروايات المرويّة عن أئمة أهل البيتعليهم السلام والمُفسّرة للدلوك في الآية بزوال الشمس والغسق بمنتصف الليل، كهذه الرواية ((عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِعليه السلام: فِي قَوْلِ اللَّهِ تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ أَرْبَعَ صَلَوَاتٍ، أَوَّلُ وَقْتِهَا مِنْ زَوَالِ الشَّمْسِ إِلَى انْتِصَافِ اللَّيْلِ، مِنْهَا صَلَاتَانِ أَوَّلُ وَقْتِهِمَا مِنْ عِنْدِ زَوَالِ الشَّمْسِ إِلَى غُرُوبِهَا، إِلاَّ أَنَّ هَذِهِ قَبْلَ هَذِهِ، وَمِنْهَا صَلَاتَانِ أَوَّلُ وَقْتِهِمَا مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى انْتِصَافِ اللَّيْلِ، إِلاَّ أَنَّ هَذِهِ قَبْلَ هَذِهِ»[٦٩].

وعليه تكون الآية الكريمة متكفلة لبيان أوقات الصلوات الخمسة؛ لأن الدلوك لمّا كان هو زوال الشمس ظهراً،

بن كعب، وروي عن ابن عباس.

(٦٤) رواه القرطبي عن إبن عطيّة.

(٦٥) وهو المروي عن أئمة أهل البيتعليهم السلام.

(٦٦) كل ذلك عن تفسير القرطبي.

(٦٧) قالها الفراء بنقل القرطبي.

(٦٨) سنن أبي داوود. ج١ ص ١٠٧.

(٦٩) تفسير البرهان. البحراني. ج ٢ ص ٤٣٧.

وغسق الليل هو انتصافه، فيكون ما بين الدلوك وغسق الليل أوقاتاً للصلوات الأربـع، غير أن الدليل دلَّ على خروج وقت الظهرين بغروب الشمس، فيكون ما بين الدلوك والغـروب وقتاً مشتركاً للظهرين، كما يكون ما بين الغروب وغسق الليل وقتاً مشتركاً للمغرب والعشاء[٧٠].

وبهـذا يمكن الإستدلال على جواز الجمع بين الصلاتين، لا سيّما مع ورود أخبار تدلُّ على جمع النبي ﷺ بين الصلاتين من دون ضرورة الخوف أو السفر والمطر.

فقد روى الترمذي في سننه عن سعيد بن جبير عن إبن عباس قال: ((جمع رسول الله ﷺ بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء بالمدينة من غير خوف ولا مطر، قال: فقيل لإبن عباس: ما أراد بذلك؟. قال: أراد أن لايُحرج أُمته))[٧١].

(٧٠) الإنصاف في مسائل دام فيها الخلاف. جعفر السبحاني. ج ١ ص ٢٩١.

(٧١) سنن الترمذي. ج ١ ص٣٥٤ رقم الحديث ١٨٧ باب ما جاء في الجمع في الحضر.


إن الله على كل شيء قدير
البقرة ٢٠
نقاش المسجد النبوي

مَعالِمُ المُجْتَمَعِ الإِسْلامِيِّ في أُمِّ الكِتَابِ

السيد منذر الحكيم

فحوى البحث

أم الكتاب -كما أجمع المفسرون- هي سورة الحمد المباركة وقد ذكرها- سبحانه- في قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الزخرف: ٤].

وقد ابرز السيد الباحث في هذه السورة الكريمة من مضامين تبين ما يجب ان يكون عليه المجتمع المسلم من حمد الله وشكره وإفراده بالعبادة والاستعانة وطلب الهداية في بحث بياني اعتمد فهم الباحث وتقديره واستقصاءه.

تمهيد:

إن مفاتيح كنوز القرآن الكريم قد جمعت في فاتحة القرآن الحكيم وام الكتاب المجيد وقدمت صورة كلية رائعة لمن يروم المعرفة من خلال هذا الكتاب الالهي السامي، و رسمت خطوطاً عريضة لجميع مفاهيم القرآن العظيم، وهي تشتمل على روح الكتاب وأسس تعاليمه وتتصف بالاعجاز والوضوح والجمال.

إنها «ام الكتاب» ومفتاحه وأساسه. فلكل ذي اختصاص أن يتوجه اليها ناشداً ضالته، ليحصل منها على ما يروي ظمأه.

إن «فاتحة الكتاب» هي كلام رب العالمين وأدبه الذي أراد منه تأديب عباده عليه، و أن ايجاب قراءتها على كل مسلم عشر مرات على الاقل في كل يوم، و لكل فريضة مرتين على الاقل، يشير الى ضرورة التأكيد على مفاهيمها لتغرس في روح المسلم اصولها، وضرورة تجسيدها عملياً في واقع الحياة، والتحلي بجمال مافيها من قيم مثلى. وربما لهذا قد وجبت تلاوتها في السفر والحضر، والحرب والسلم، على الرجال والنساء، والشباب والكهول، فرادى وجماعة، جهراً وإخفاتاً، لزوماً للتأدب بالادب الرباني والاستهداء بهديه السامي.

ان التصريح بطلب واحد فقط وهو طلب الهداية من الله الهادي سبحانه وتعالى و بصيغة الجمع «اهدنا» وباسلوب الدعاء والتضرع يعني ان هذهِ السورة التي صرحت بأنه رب العالمين جميعا انها تخاطب الانسانية بأجمعها، وترشدها لتتجه الى مصدر الهداية التي هي احوج مايكون اليها الانسان في كل جوانب الحياة وكل مراحلها، فطلاب الهداية من العالمين الى الصراط المستقيم يعني طلب معرفة هذا الصراط، وطلب التوفيق والمعونة للسير والثبات عليه، لانها أهم مايحتاجه الانسان في حياة تتشعب فيها السبل، وتتعدد الطرق، ويحيط الجهل بكل جانب، وتسيطر قوى الضلال على كل سرب، وتهيمن عوامل الهدم على عالم يموج بركام الجاهلية، التي تمسخ الانسان الذي فُطر على العروج الى سماء الفضيلة، وتكيد عناصر الشر له بإغرائه وإلباس الباطل

لباس الحق، و التمويه على الحق بلباس الباطل.

إن هذهِ القوى الممسوخة تجعل الانسان في ظرف حالك و في مأزق شديد. فما أحوجه الى التطلع الى النور والجمال والكمال والاستعانة بمصدر الخير والهدى والقدرة والغنى. وما احوجنا لمعرفة الحق والعمل به والثبات عليه.

وتتكفل سورة الفاتحة الأم لهذا الكتاب العظيم بالإيضاح لهذا الامر، وتحدد للانسان المسلم المعالم الواضحة الابعاد للمجتمع الذي ينبغي له ان يصنعهُ ويعيش فيه.

معالم المجتمع المسلم لله في فاتحة الكتاب:

ويمكن تلخيص أهم معالم المجتمع المسلم في سورة الفاتحة المباركة في النقاط التالية:

١. الرؤية التوحيدية الناصعة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

٢. العبادة المستمرة و هي المعبرة عن الخضوع المطلق للقانون الالهي في الحياة: (اياك نعبد).

٣. الاعتزاز بمصدر القوة والقدرة والاستغناء بالله العزيز عن غيره و الاستعانة المطلقة بالله والاعتزاز بها: (واياك نستعين).

٤. التوجيه السليم للعاطفة والحياة الهادفة من خلال الدعاء الهادي: (اهدنا الصراط المستقيم).

٥. القدوة الصالحة للفرد والاسرة والمجتمع الصالح: (صراط الذين انعمت عليهم).

٦. معرفة الآفات والاعداء الحقيقيين والحذر منهم وتجنبهم: (غير المغضوب عليهم ولا الضالّين).

١. **الرؤية التوحيدية الناصعة (وسلامة العقيدة):**

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

١. لقد نص القرآن الكريم على أنه «ذكر للعالمين» و «ذكرى للبشر» فهو كتاب الله للبشرية جمعاء (للفرد والمجتمع جميعا).

٢. ان تكلم الفرد مع ربه الرحمن

الرحيم ومخاطبته له بضمير الجمع تأكيدٌ -لافت للنظر -على الطابع الاجتماعي لمحتوى آيات سورة الحمد (نعبدُ، نستعين، اهدنا).

٣. إن الرؤية الكونية للانسان الفرد وللامة والمجتمع تتجسد في كل مفردات السلوك اليومي للانسان.

وقد تجسدت الرؤية التوحيدية في كل مقاطع هذهِ السورة:

من ابتداء القراءة، وهي سلوك يومي مستمر، بالله وحده دون غيره.

و من تخصيص كل الحمد والثناء به سبحانه.

ومصدريته وربوبيته تعالى لكل عوالم الوجود.

ونشوء كل انواع الرحمة من رحمته المطلقة.

ومالكيته لكل شيء وانتهاء مصير كل كائن وموجود اليه تعالى وهيمنته المطلقة عليه بدءاً وانتهاءً.

وحصر استحقاق المعبودية به تعالى وتخصيص العبادة الدائمة من العباد له تعالى.

وحصر القدرة المطلقة فيه وحصر الاستعانة الحقيقية به.

وتخصيصه بالدعاء وطلب الهداية منه تعالى دون سواه.

وتخصيصه بكونه المنعم بالنِعم كلها على المنعَم عليهم.

وأنه هو الحق ومنه الهدى، وغيره الباطل وطريقه الضلال.

وفي النهاية إن الغضب الذي ينبغي اتقاؤه والفرار منه إنما هو غضبه دون من سواه.

إن ابتداء التلاوة -وهي مفردة من مفردات السلوك البشري -باسم الله الرحمن الرحيم، نموذج من سلوك انساني مرضيّ لله سبحانه، بل هو أدب من آداب العبودية لله سبحانه، يلزم الاقتداء به في كل سلوك اختياري بشري فرديّ أو اجتماعي، وليس هذا للمسلم شعاراً كاشفاً عن رؤيته التوحيدية فحسب، بل هو تمثيل لقيمة عُليا من قيم الحياة البشرية، وهي ضرورة التحرك في كل عمل إرادي اختياري عن داع إلهي لا يشوبه أدنى شك أو شرك، لان كل انسان لابدّ له من مَثل

أعلى يختاره ويتحرك على اساسه في كل خطوة من خطى حياته بأمل الوصول إليه. فإن كان هذا المثل الاعلى -أعلى بحق -كان سلوك الانسان سُلَماً يرتقي بهِ الى ذلك المثل الاعلى وإن لم يكن هذا المثل مثلاً أعلى بحق بل توهم الانسان أنه كذلك كانت رؤيته سراباً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

ومن هنا نفهم سر قوله ﷺ: «كل أمر ذي بال لم يُبدأ باسم الله فهو أبتر». ومن هنا يُلقى الضوء على مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ [سورة النور: ٣٩]، وقوله: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ ﴾ [سورة ابراهيم: ١٨].

فإن صدور كل عمل اختياري عن نية هو أمر لابد منه، وهذهِ النية هي كينونة هذا العمل وهويته، وهي روحهُ وحقيقته، كما ورد عن النبي ﷺ: «انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ مانوى».

ولا يحصل الانسان على ثمرة عمله هذهِ إلاّ بمقدار ماينطوي عليه هذا العمل من سلامة النية وخلوص القصد، أي بمقدار مايحتوي عليه من داع مقَرِب نحو ذلك الهدف الاعلى للانسان. قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾ [سورة الاسراء: ١٩]، فصدور كل عمل عن داع أمثل يرفع هذا العمل الى مستوى الاثمار، فيكون حصاد هذا الزرع ثماراً صالحة أيضاً متنامية كما قال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا ﴾[سورة الانعام: ١٦٠]، ولذلك يلزم اقتران هذا الداعي بالعمل طيلة مدة العمل، وكلما ازداد التوجه إليه ازداد تأثيراً واشتد نوراً وتوهجاً. وإقران العمل بـ «اسم الله تعالى» إن هو إلاّ تصعيد للحالة الشعورية اللازمة لاثراء العمل، وتصعيد لدرجة إنتاجه واثماره. فقد ورد عنه ﷺ: «إنما يكتب للعبد من صلاته ماعقل منها»[1].

ثم إن استشعار المسلم أنَ مَثله الأعلى في الحياة مستجمع لجميع صفات الكمال والجمال وهو الله سبحانه، ثم التنصيص

(١) بحار الانوار ٨٤: ٢٤٩.

على اتصافه بشمول الرحمة ودوامها «الرحمن الرحيم» قد يعني أن نظرة الفرد المسلم والمجتمع المسلم الى الحياة بل الوجود كله نظرة متفائلة بالخير والرحمة. إنهُ الأمل الذي يُسرع بعجلة حياة الانسان للسير به الى قمة الكمال، والرجاء الذي يُتوّج معركة الحياة الانسانية بالنصر والفلاح.

إن الرؤية التوحيدية رؤية شاملة، فلا يشذ سلوك للانسان المؤمن بالله عن صدورهِ من هذهِ الرؤية الناصعة، كما لا يشذ شيء في الوجود عن فاعليته سبحانه وتعالى، وحضوره والقيمومة عليه كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[٢] فالحمدُ والثناء سلوك اختياري يصدر عن الانسان، وينشأ من توجهه لجمال أو كمال يرى استحقاقه للتقدير والتثمين، فيلهَجُ بذكره مدحاً وثناءً.

وإذا تعمق الانسان في كل جميل أو ذي كمال، وَجَدهُ كمالاً مستعاراً وجمالاً عارضاً له وناشئا من مصدر الكمال والجمال، فإذا أراد الثناء عليه كان حرياً به أن يثني على مصدر الجمال والكمال كله.

فالمسلم هو الذي عرف الحق فآمن به، وعرف الكمال المطلق الذي لا يتعدى عنه الى غيره، وإنما يتجلى في كل شيء، فكل جمال ينشأ منه ويعود إليه، وكل ثناء في الوجود إنما يستحقهُ هو، وفي الحقيقة يختص به.

إن هذهِ الرؤية وهذهِ المعرفة تفيدان الانسان نظرة جديدة الى ظاهر هذهِ الحياة وباطنها، فهو لا ينبهر بجمال غير جماله سبحانه وتعالى، ولا يستغرق في وصف شيء والثناء عليه إلاّ إذا كان وصفه وصفاً له تعالى، وثناءً عليه وحمداً له.

وهكذا ترفرِفُ ظلال الرؤية التوحيدية على كل ساحة من ساحات وجود الانسان، وعلى كل جانب من جوانب حياته، وعلى كل رؤية ونظرة وسلوك.

وهذهِ إحدى دلالات هذا النص المعجز: (الحمد لله رب العالمين) اي كل حمد في الوجود يختص بالله سبحانه، إنها الربوبية المطلقة لكل عوالم الوجود،

(٢) [سورة البقرة: ٢٥٥] [سورة آل عمران: ٢].

فعوالم العقلاء -بالذات -كلّها خاضعة لربوبيتهِ التكوينية والتشريعيـــــة سواء بسواء. والربوبية تستبطن الانشاء والملكية والرعاية والهيمنة الدائمـــة للمربوب، فالربوبية تستدعي خضوع المربوب للرب خضوعاً ناشئاً عن الافتقار والتعلق بالرب المنشئ، والمالك الذي يرعى مملوكه ويربيه ويتدرج به في مراحل تكامله في الوجود. فالمجتمع البشري مدين لربهِ شاء أم أبى، والمجتمع المسلم يدرك هذهِ الحقيقة بكل عمق ويؤمن بها أشد الإيمان.

ان وحدة المنشأ هذه هي أهم عوامل وحدة المجتمع البشري، على الرغم من كل الفوارق التي تتميز بها الامم والشعوب كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٣].

والربوبية التي تكـــون على اساس الانشاء والمالكيـــــة تستلـزم السيطرة، والسيطرة قد تكون مقرونـة بالتجبر، أو تكون مفعمة باللطف والرحمـــة. وبهذا المنظار يمكن ملاحظة القيـم والاهداف والموازنة بينهـا وبين الوسائل، وعوامل الهدم، وعوامل البقاء، وعوامل التقدم نحو الاهداف العليا، فتستدعي الدفاع والجهاد واقامة الحدود وحمل السيف ما دام السيف وسيلة لاحقاق الحق بعد انسداد كل السبل السلمية والارشادية. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [سورة الحديد: ٢٥]. فالمجتمع المسلم تبع لمثله الأعلى وسيده الذي سبقت رحمته غَضَبه، وغضبُه تبع لرحمته الشاملة والدائمة.

إن وحـدة المرجع كوحـدة المنشأ، جديرة بأن تكون عاملاً من عوامل تعاضد و توافق ابناء المجتمع المسلم، والتفافه حول هذا المحور الذي تتهاوى عنده كل عوامل التفرقة والتنازع.

٢. العبادة المستمرة (والخضوع المطلق) للقانون الرباني في الحياة: (إياك نعبد).

إن رؤية الانسان للوجود والحياة تتجلى في سلوكه بلا ريب، والرؤية التوحيدية تستدعي التوجّه الدائم، والركون المطلق، والخضوع والانصياع المستمر لصـــاحب الولاية المطلقة، والقيمومة الشـــاملة والربوبية الدائمـــة، والرعاية المستمرة

للكون وللانسان بالذات.

إن انحصار الحق في مجمع صفات الكمال والجمال، يلزمه أن لا يكون لغيره من الثبات والدوام والحقانية إلاّ بمقدار تحققه وتمثيله وارتباطه بالحق الدائم الذي لا ولن يزول. قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[سورة القصص: ٨٨]. وهذهِ الرؤية تستلزم نفي كل توجه أصيل لغير الله سبحانه، وقصر النظر على الله سبحانه وكل ما يمتُ إليه بصلة، ويكون وسيلة لبلوغ الغاية إليه.

إن وحدة المثل الاعلى هي المحور الثابت والاصيل والدائم، الذي يستحق أن تجتمع البشرية على اساسه وتتمحور عليه. وهذا يعني الانصياع للهيمنة الالهية في كل شؤون الحياة. وهذا الانقياد يستلزم رفض سائر أنواع الهيمنة على الانسان في حياته. فنظام الحكم في المجتمع الاسلامي، بل نظام الحياة هو نظام الولاية الالهية من جانب، وعبودية الانسان ـ فرداً ومجتمعاً ـ عبودية اختيارية بالنسبة لله سبحانه وتعالى من جانب آخر.

إن هذهِ العبودية الاختيارية بالنسبة لله سبحانه هي التي تضمنُ للانسان انسانيتهُ وتكامله وصعوده في سلَم الوجود. وكل عبودية سواها سوف تخرجه من انسانيته الى مهبط الحيوانية، والتردي به في هاوية الخسران، كما قال الله جل ذكره: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

إن هذهِ الصيغة العبادية ينبغي أن تطغى على المجتمع ولا تقتصر على الفرد، فتكون فاعليتها وشموليتها بحيث تغطي كل جوانب الحياة، وكل طبقات المجتمع وشرائحه.

ومن هنا نجد أن القرآن الكريم يؤكد على الطابع الاجتماعي للايمان فضلاً عن طابعه الفردي، فالطابع الاجتماعي أو الجمعي للعبادة يعني المجتمع العابد، بل المستمر في العبادة مع حمله لشعار عبادة الله وحده. وقد جاء الاسلام ليربي الانسان وليصوغ منه مثالاً للكمال البشري، ولا بد أن يكون منهجه منهجاً واقعياً يتماشى مع ضرورات الحياة وتطوراتها. ولهذا لا يمكن تجريد الفرد عن المجتمع لانه خلاف

الطبيعة البشرية والضرورات الحيوية.

إذن لا بد من تربية الانسان وصياغته وهو في مجتمع. فما هو المجتمع الذي يستطيع أن يحقق للانسان كماله اللائق به؟. إنه المجتمع العابد لله سبحانه، الكافر بعبادة غيره.

قال تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾[سورة البقرة: ٢٥٦] فلا بد من رفض كل هيمنة غير إلهية، إذن كل هيمنة لا تمتُ الى الله بصلة حقيقية فإنها تكون هيمنة طاغوتية، تجر الانسان الى التردي والخسران.

إن تقبّل العبودية لله سبحانه وتمثيلها بالعبادة التي يقرها المعبود والتهيؤ لها والاستمرار عليها، والتصميم والعزم على انتهاج هذا المنهج الالهي في الهذه الحياة ضرورة ملحة، ولا يستطيع الانسان بدون هذا العزم الراسخ، وبدون الاستمرار في هذهِ العبادة أن يجني ثمارها حتى يضمن بلوغه مرحلة اليقين. قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [سورة الحجر: ٩٩].

ان المجتمع الاسلامي حين يرفع شعار العبادة لله وحده يعني انه يريد تحكيم الشريعة الالهية، والقانون الرباني على كل فصائل الحياة ومجالاتها في المجتمع البشري. وقد صرحت بذلك نصوص القرآن الكريم وجعلته هدفاً اساسياً يسعى اليه المجتمع الاسلامي. قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾[سورة البقرة: ١٩٣] و قال: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [سورة التوبة: ٣٣]. وهذه الرؤية هي التي دعت أحد قادة جيش المسلمين للوقوف بوجه أحد القادة الجاهليين قائلاً له: «جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله سبحانه» ولكن الجاهليين ـ سواء تلبسوا بلباس الكفر أو النفاق أو الفسق ـ انما يشكلون جبهة واحدة. وقد تكون متلاحمة تستهدف انقاذ أوضاعها الآخذة بالتردي، وقد قال تعالى مخبراً عن هذهِ الحقيقة: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾[سورة البقرة: ٢١٧].

ومن هنا يشعر المجتمع العابد بالحاجة

الماسة الى القدرة الفائقة والدعم الالهي الكامل. لكن هذا الدعم لا بد أن تنطلق بذرته من المجتمع نفسه، بعد الشعور بالحاجة وبالفاقة، ليتحرك بإعداد العدة وتحصيل القدرة من مصدرها الاصيل.

٣. **الاستغناء بالله عن ما سواه والاستعانة التامة به والاعتزاز بها: (واياك نستعين).**

إن الجهل لا يرتفع إلاّ بالعلم، والعجز لا يندفع إلاّ بالقدرة، والعلم سلاح تحصيل القدرة. وكما يحتاج الفرد الى العون، فالمجتمع كذلك أحوج ما يكون الى العون، ولا بد من توجه الجميع نحو هذا المحور، ولا بد من الايمان بهذا المحور الذي ينبغي أن يكون قادراً على إفاضة القدرة والعزة والغنى، ليستغني العاجز به عن من سواه، ويحتفظ بروح التوحيد ويبتعد بذلك عن كل الوان التمزق والاضطراب.

إن الايمان بهذا المصدر المحيط بكل شيء، والعزيز الذي لا يعجز لجديرٌ بأن يعطي للمجتمع المؤمن والفرد المؤمن حالة الاعتزاز بمصدر العزة، فالضعيف لا بد أن يعتز بشيء يجبر ضعفه.

إن الاقرار بالحاجة الى العون، والاقرار بأننا محتاجون الى العون الالهي، وأن هذا العون يتقدمه طلب العباد بشكل أكيد من مصدر القدرة، وهو الله سبحانه، وأن هذهِ الاستعانة إنما هي على طول الخط ولا تختص بحقبة زمنية خاصة، كل هذا قد لخصه لنا القرآن الكريم في جملة واحدة فقط هي: (واياك نستعين) بصيغة الجمع مع الحصر والفعل المضارع المفيد للاستمرار.

إن تكرار هذهِ الجملة وتلقين الانسان بأنه رغم كونه في جمع، والجمع علامة القدرة والقوة عادة، فإن هذهِ القدرة لا تغني عن قدرة الله سبحانه، بل الجمع كله بما يملك من طاقات بحاجة دائمة ومستمرة للتوجه وطلب العون منه سبحانه، فإن هذا الاقرار هو رمز الانشداد الدائم، وهو الكفيل بأن لا يغتر الانسان بقدرته الفردية أو الاجتماعية. بل لا يغتر المجتمع مهما حصل على طاقات وقدرات بل يقول معتقدا: «إلهي أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيراً في فقري؟. إلهي أنا

الجاهل في علمي، فكيف لا أكون جهولاً في جهلي؟. إلهي إن اختلاف تدبيرك، وسرعة طواء مقاديرك، منعا عبادك العارفين بك عن السكون الى عطاء، واليأس منك في بلاء»[٣].

إنه منتهى المعرفة وقمة الكمال العرفاني هو الشعور بالعجز الواقعي عند القدرة، وبالجهل الذاتي عند العلم، وبالرعاية الالهية في أشد الظروف قساوة وأحرج اللحظات.

إن الاستعانة بالله وحده تعني الاستقلال التام في كل الجوانب التي تحكم حياة الفرد والمجتمع، وهذا نتيجة طبيعية للاستعانة التامة بمصدر القوة، وحصر العون بالرعاية والتسديد الالهي، لذلك فإن المجتمع إذا تمتع بهذهِ الرؤية العميقة، فإنه سوف يصمد امام أي اختراق ثقافي أو سياسي أو عسكري أو اقتصادي، من أي قوة لا تبتني على اصول الرؤية التوحيدية الخالصة. ففي المجتمع المسلم تجد تجسيداً حقيقياً لقوله تعالى: (وإياك نستعين).

إذن فحصر التوجه بالتوجه إلى الله، وحصر الاستعانة بالاستعانة بالله تعالى ركنان اساسيان لا يستغني المجتمع المسلم عن أحدهما بتاتاً.

٤. التوجيه السليم للعاطفة نحو(الحياة الهادفة): (اهدنا الصراط المستقيم).

الانسان عاجز بطبيعته، فهو بحاجة الى القدرة ولا بد أن يستعين بذي القدرة، وأحسن من يستعان به وأولى من يكون قادراً على الاعانة، هو مصدر كل انواع القدرة وينبوعها الذي لا يفنى، وهو الله سبحانه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

والانسان جاهل بطبيعته فهو بحاجة الى العلم، بل بحاجة الى الهداية والارشاد، إذ رُب عالم قد قتله جهله، ورُب علم لا ينفع، فالذي يحتاجه الانسان بحق إنما هو الهدى، ولذا قال الرب تعالى لمربوبيه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣٨].

إذن فحاجة الانسان الفرد بل حاجة المجتمع البشري إنما هي الى الهداية التي

(٣) من دعاء الامام الحسين عليه السلام في عرفات (مفاتيح الجنان).

هي فوق العلم، وكم من المجتمعات التي ينتشر فيها العلم وتنتشر معه الغواية والتردي والضلال والطغيان والدمار؟.

إن أهم حاجة للانسان في هذهِ الحياة هي حاجته الى الهداية، والهداية إنما هي بمعرفة الهدف، للوصول الى المطلوب. واذا عرف الهدف فقد لا يؤمن به الانسان، واذا آمن به فقد لا يدرك الطريق اليه، واذا أدرك الطريق اليه فقد لا يؤمن به، واذا أدرك وجوده فقد لا يعرف تفاصيل الامور وقد لا يعرف العقبات والافات، وقد يخطو الانسان نحو الهدف عدة خطوات ثم يستشعر من خلالها الضعف والانهيار.

ولهذا كله فهو يحتاج الى الهداية نحو النور، والى الصراط المستقيم الذي هو اقرب الطرق للوفود على الله سبحانه-وهو الكمال المطلق الذي ينشده كل مخلوق- وهي الهداية المستمرة والتسديد المتتابع، تسديداً يُبقي مشعل الايمان بالهدف وبالطريق متوهجاً، ويدفع كل وحشة تنال الانسان إذا شعر بوعورة الطريق.

وطريق الهدى يمتاز بقلة أهله، فينبغي للمؤمن أن لا يستوحش فيه، ولهذا فهو أحوج ما يكون الى طلب الهداية من الله مباشرة، وهي الهداية المستمرة الى الصراط المستقيم والثبات على هذا الصراط الحق الذي لا معدل للانسانية عنه.

وهذا الطلب لا يكون فردياً فحسب، بل لابد أن يشكل ظاهرة اجتماعية، ولا يكون كذلك إلا اذا شعر عامة أفراد المجتمع بالحاجة الماسة لذلك والتعاون عليه.

إنّ الطلب الدائم من المجتمع العابد لله-و هو طلب التسديد الالهي-عن طريق هدايته لصراطهِ المستقيم، والدعاء طلب وتوجه، أو شعور وابراز لذلك الشعور في عاطفة جياشة، واقرار بالعجز والجهل والحاجة والفقرالى الغني المطلق إقراراً يقترن بالعظمة التي تهيمن على الداعي لتوجهه نحو مصدر الخير والهدى والقدرة، فيكون هذا توجيهاً للحب في مسار لا ينفد ولا ينضب، كما قال تعالى: ﴿ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ ﴾ [سورة البقرة: ١٦٥] فحب المؤمن لله أثبت وأعظم من أي حب ولأيِ محبوب.

٥. **القدوة الصالحة للمجتمع الصالح: (صراط الذين انعمت عليهم).**

للانسان -في هذهِ الحياة -حاجات كثيرة، والحاجات متنوعة وليست كلها في درجة واحدة من الاهمية والضرورة. فبعضها كمالية وبعضها اساسية.

والحاجات الاساسية بعضها أهم من بعض، حتى إن بعضها لا يمكن التغافل عنه لحظة واحدة.

وحاجات الجسم ليست بأهم من حاجات الروح، ما دامت الروح هي محور السعادة والشقاء. وأهم حاجات الروح هي السلامة من الانحراف والاهتداء الى الصراط المستقيم، لتتزن الروح وتتعالى على جذبات الجهل والهوى وثقل الطين وظلمات المادة. فتتنوع النعم الالهية من حيث اهميتها لهذا الانسان، ومدخليتها في ايصاله الى الغرض المنشود من حياته على هذهِ الارض.

وأهم النعم وأجدرها بالاهتمام -التي لا يمكن استبدالها بغيرها -هي نعمة الهداية الى الصراط المستقيم، بل هي النعمة الوحيدة التي ينبغي للانسان -في حياته هذه -أن يسعى اليها تحصيلاً وطلباً.

وهذا ما يوحيه لنا ذكرها في هذهِ السورة دون غيرها من الحاجات والطلبات، ليعلم الانسان اهميتها وعدم وجود بديل لها، بل هي التي تجمع للانسان خير الاخرة والدنيا، كما أشار الى هذهِ الحقيقة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[سورة الاعراف: ٩٦].

ولكن هذهِ الهداية لا تحصل للانسان إلاّ أن يكون مستعداً لها، وذلك حين يطلبها من مصدرها، ويكون جاداً في طلبها ولا يتوانى لحظة عن إرادتها، فيكون دائم الطلب لها، فيقول بكل وجوده وفي كل لحظة قائلا: (اهدنا الصراط المستقيم)، ويسعى بجد لتحصيلها بتوفير ما تستلزمه هذهِ الحاجة المهمة.

وقد عبر عن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت : ٦٩]. ولكن التربية انما تتوفر مقوماتها إذا اقترنت النظرية بالتطبيق، والعلم بالعمل، والمفاهيم

والقيم بالقدوة المجسدة لهذه المفاهيم وتلك القيم.

إن القرآن الكريم يؤكد هذهِ الحقيقة اللازمة لتربية الفرد والمجتمع، وقد أولاها أهمية كبرى حيث قال: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾[سورة البقرة: ٣٨].

كما قال ايضاً: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [سورة الاعراف: ١٨١].

وقال ايضاً: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [سورة التوبة: ٣٣].

وقد اعتبر الرسل مهديين قبل أن يكونوا هداة، فقال عز من قائل: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [سورة الانعام: ٩٠]، وجعل الرسل أُسوة لعباده الذين يريدون الوصول الى نعمة الكمال الانساني اللائق، فقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾[سورة الممتحنة: ٤].

وقد اعتبر القرآن الكريم نعمة الهداية اهم النعم الالهية، بل اعتبر النعمة الحقيقية هي نعمة الهداية فقال: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[سورة النساء: ٦٩].

اذن الصراط المستقيم هو الصراط الذي تجسد في سلوك الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ودلالة القدوة الصالحة والأُسوة الحسنة على الطريق دلالة حسية عملية، وهي أوقع في النفس وأدلّ على المقصود وأهدى من حيث الوصول الى المطلوب.

ولم يخل مجتمع بشري من الهداة المهديين، اذ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [سورة الرعد: ٧].

وقال: ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾[سورة يونس: ٣٥].

فالهداة هم الذين اهتدوا بادئ ذي بدء وازدادوا هدىً، فهم قد سلكوا طريق الحق والصراط الالهي المستقيم، وهو صراط العبودية التامة لله سبحانه.

وهكذا تتضح معالم النظرية الاسلامية القرآنية للحياة، وتنسجم النظرية مع التطبيق، وتؤدي القدوة الصالحة دورها

الاساسي لبناء المجتمع الصالح، وتتحقق الاهـداف المثلى للحياة الانسانية على وجه الارض، ويتحقق الجـواب الالهي للملائكة حين قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ فقـال: ﴿ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

٦. **معرفة الآفـات والابتعادعن الزيغ: (غير المغضوب عليهم ولا الضّالين).**

من هم المغضوب عليهم؟.

ومن هم الضالون؟.

ولماذا يجب تمييزهم؟.

بل لماذا تجب معرفتهم؟.

مما لا شك فيه أن الانسـان إمـا أن يتعرف على الـصراط المستقيم فيسلكهُ ويسير عليه، وإمـا أن يتعرف عليه ولا يسلكه، وإمـا أن لا يتعرف عليه بتاتاً، فـالاول هو المهتدي والثاني هو الفاسق الذي يجحد الحق بفسقه، والحجة عليه آكد وأشد، لعرفانه وعلمه الذي ينجّز عليه التكليف ويتم عليه الحجة، فتركه للحق مع علمه به يجعله مستحقاً للغضب عليه، فهو أبعد عن الحق لوجود حاجز نفسي بينه وبين الحق الذي عرفه.

والثالث هو الضال الذي لم يتعرف على الحق ويكون مقصراً في التعرف عليه. وانـحـراف كـلا الفريقين عـن الـصراط المستقيم أمر بيّن.

وينبغي تمييز خطي الحـق والباطل والهدى والضلال تمييزاً كاملاً، لئلا يلتبس الحـق بالباطل ويخـوض الانـسـان غمار الباطل متصوراً أنه الحق.

وكـما تؤثر الـقـدوة الصالحة في بناء المجتمع الصالح، تؤثر القدوة الفاسدة كذلك تأثيرها السريع في إيجاد المجتمع الفاسد والمنحرف.

وكما ينبغي معرفة الحق وأهـل الحق يجب معرفة الباطل وأهل الباطل كذلك، للحذر منهم ومن مكائدهم وخططهم الشيطانية والتبرؤ منهم على كل حال.

وهكذا تتضح الآفات التي تسيطرعلى أصـحـاب الهـدى وطـلابـه وتـدعـوهـم لمعرفتها وتمييزها والسعي للاجتناب منها والابتعاد عنها.

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين

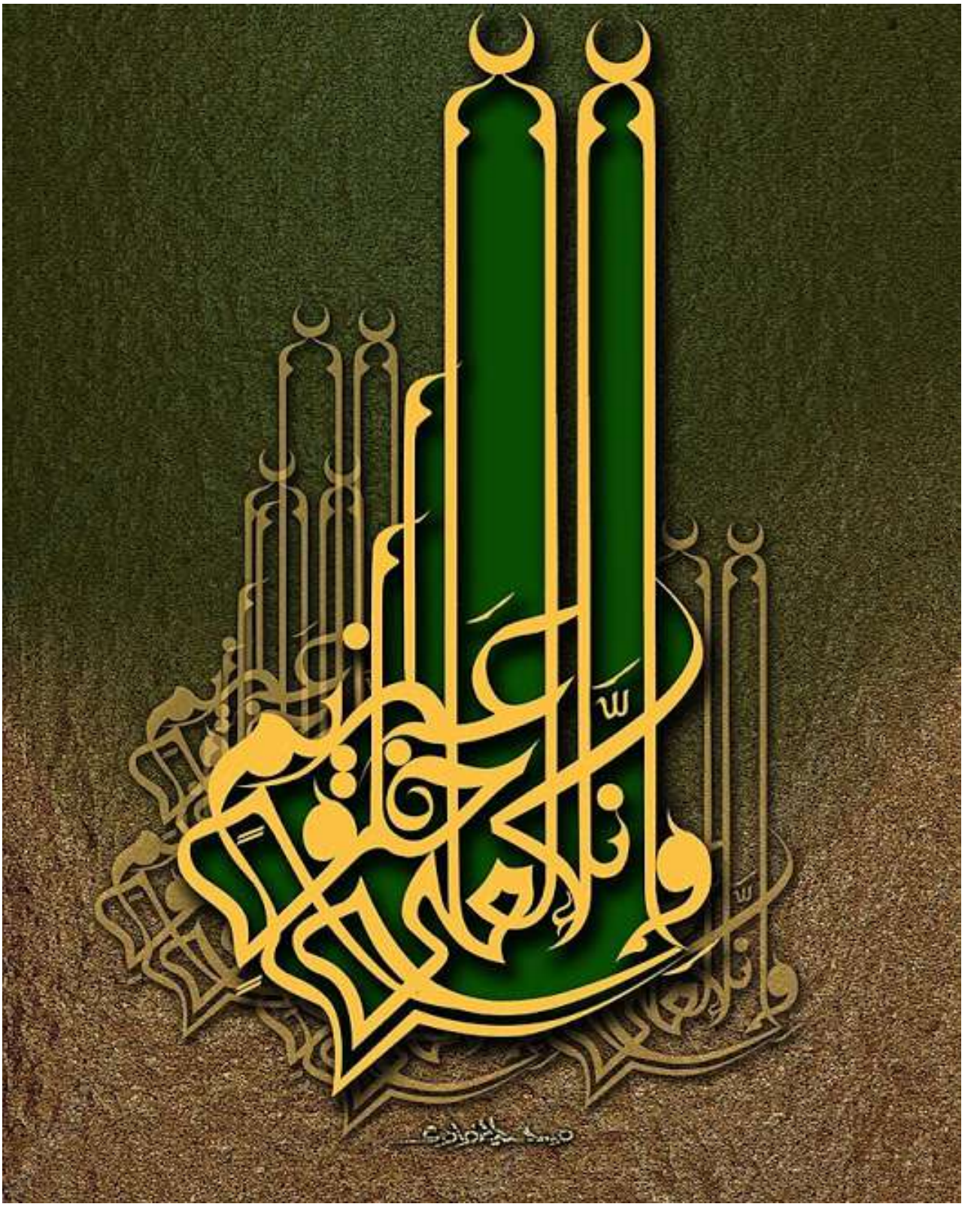

أَلتَّطَوُّرُالدَّلالِيُّ في ألفاظِ المَرَضِ الوَارِدَةِ في القُرْآنِ الكَرِيمِ

م.م. سوسن فاضل عبود
المديرية العامة للتربية- بغداد
جمهورية العراق

فحوى البحث

إن الباحث في رحاب القرآن الكريم ليقف حائراً فيما يكتب، ويحلل؛ لانه يدرس في أعظم كتاب انزله الله الى الناس، ولأنه المعجزة الكبرى الخالدة.

يحلل الباحث قسماً من الفاظ المرض الواردة في القرآن الكريم، فتبين أنها قد اكتسبت دلالة المرض من تحول عن اصل معناها؛ إذ طرأ عليها التحوّل من جذر معناها إلى معناها الجديد، وقد تحصلت استنتاجات البحث بدلالة السياق الذي ضم تلك الالفاظ، فأبان التغير الطارئ عليها. وإن الايحاء بهذه المعاني قد يكون حاصلا للإنسان في الدنيا، أو في الآخرة.

ومن تلك الجذور ما دل اللون فيها على المرض نحو: "البياض"، و "الزرقة". ومنها كانت امراضاً جسدية، مثل: "الحصر"، و"العشو"، و "النزف". ومنها ما كانت موحية بمرض نفسي، مثل "الصدع".

مقدمة:

يتوافق العلماء الذين يَلِجُون البحث القرآني على أنهم -في بحثهم القرآني - مهما حلّلُوا، وتدبّرُوا، وتمَعّنوا، ودقّقُوا في بحوثِهم هذه، وفي أي جانب من جوانب علوم القرآن وتفسيره لا يمكنهم القطع برأي معيّن، أو محدّد بعينه فيما ذهبوا إليه، أو استنتجوه من حصيلة بحوثهم القرآنية، ودراساتهم. غير أنّ هذا لا يمنع من ولوج أبواب البحث القرآني، ومحاولة المزيد من القول زيادةً في خدمة كتاب الله المعجز الخالد، ولِنَيل شرف هذه الخدمة الجليلة، ومحاولة المزيد من التدبّر -كما أمرنا سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[سورة محمد: ٢٤].-لتقديم إضاءات بيانية -بحسب طاقتنا البشرية -في البحث والتحليل لآيِ كتاب الله المجيد.

إن بحثي الموسوم بـ: التطور الدلالي في ألفاظ المرض الواردة في القرآن الكريم، يدرس ما طرأ من تطوّر في دلالة ألفاظ المرض هذه؛ كون هذه الألفاظ قد تحوّلت عن أصل معناها إلى معانيَ جديدة، وإن كانت مُنتَزَعة من المعاني التي استعملتها فيها اللغة، وثمة وشيجة ظاهرة بين دلالة جذر الكلمة، وبين المعنى الذي جاء به التعبير القرآني، واستعمله فيه، ولا يمكن القول بانسلاخ هذه الألفاظ -تمامًا -من أصل معناها.

وقد اقتضى منهج البحث الأكاديمي تقسيم البحث على أربعة مباحث - بعد هذه المقدمة -؛ إذ تناول المبحث الأول: معنى «التطور» اللغوي، ودلالته الاصطلاحية.

وأما المبحث الثاني فتناول ألفاظ المرض بدلالة اللون. وأما المبحث الثالث فدرس ألفاظ المرض الحسيّة (الجسدية). وجاء المبحث الرابع في اللفظ الدال على المرض المعنوي، وبعده الخاتمة (نتائج البحث)، فمراجع البحث ومصادره.

أسأل الله النُّجْحَ والصواب والتوفيق فيما ذهبت إليه، فعليه توكلت، ومنه أستمد العون والسداد، إنّه نعم المولى، ونعم المستعان.

المبحث الأول:

دلالة التطوّر في ألفاظ المرض الواردة في القرآن الكريم:

يمكن رصد ظاهرة التطور الدلالي في الألفاظ القرآنية عامة، والألفاظ الدالة على المرض الواردة في القرآن الكريم بخاصّة بتتبع معانيها من خلال جذروها اللغوية، ومن خلال السياق القرآني الذي يضم كل كلمة تدل على المرض باستعمالها اللغوي، وكذلك نتبيّن لها معانيًا جديدة بقرائن لغوية، نحو مناسبة نزول الآيات التي ضمّتها، وحتى دلالات الآيات التي قبلها، والتي بعدها، وهذا -أيضًا- جانب من السياق بشيء من التوسّع.

أوّلاً: التطور لغة[1] -تطوّر: مزيد بحرفين «التاء» و«التضعيف» من مزيد الثلاثي: طار -يَطُور -طَوْرًا، وطَوَارًا، وطوَرانًا، بمعنى: حامَ حول الشيء، أو تحول من حال إلى أخرى مغايرة مع وجود وشيجة بين الحالين، قال النابغة الذبياني:

فإن أفاقَ، لقد طالتْ عمايتهُ

والمرءُ يُخْلِقُ طورًا بعد أطوارِ

وقال أيضًا:

تناذرَها الرّاقُون مِنْ سوء سُمّها

تُطلّقُهُ طَورا، وطَوراً تُراجِعُ[2]

ونحو قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[سورة نوح: ١٤].

قال الخليل (ت١٧٥هـ): (الطَّوْر: التارةُ، يقال: طَوْرًا بعد طَوْر، أي: تارةً بعد تارة، والناس أطوار، أي: أصناف، على حالاتٍ شتَّى، قال: والمرءُ يُخْلَق طَوْرًا بعد أطوار وطار فلان يَطُور طَوْرًا، أي: كأنّه يَحُوم حوله، ويدنو منه)[3].

وزاد أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، فقال: (الطاء والواو والراء أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الامتداد في شيء مِن مكانٍ أو زمان)[4].

الذي نخلص إليه أنّ دلالة مادة «طور» اللغوية تعني التغيير، والتحوّل، والانتقال من حال إلى أُخرى مختلفة عما

(١) ينظر: التطور اللغوي -دكتور رمضان عبد التواب/ ٢٠. والعربية تاريخ وتطور -الدكتور إبراهيم السامرائي/ ١٥٢.

(٢) لسان العرب٥/ ٦٥٨، مادة «طور».

(٣) العين٧/ ٤٤٦، مادة «طور». وينظر: جمهرة اللغة٢/ ٧٨. وتهذيب اللغة١٤/ ١٠-١١.

(٤) مقاييس اللغة٣/ ٤٣٠.

قبلها في الإنسان، وفي غيره مما حوله في الحياة.

أما المصدر المزيد بحرفَي «التاء» والتضعيف: تطوّر: فيدلّ على التغيير التدريجي، والتحوّل البطيء في الأشياء، وهنا يُراد به التحوّل في معنى اللفظ، أي ثمة زيادة في المعنى، وبحسب مقولة العلماء: زيادة في المبنى زيادة في المعنى.

ثانيًا: التطوّر اصطلاحًا[٥]: نقصد بذلك التغيير في معنى اللفظ، ولا سيما عند استعمال صيغ من المادة مختلفة، وهو أمرٌ طبيعي في اللغات كافة، ومنها لغتنا العربية الكريمة، ولأسباب كثيرة. وهي سمة تدلّ على حيوية اللغة.

جاء في المعجم الوسيط: (تَطَوَّر: تحوّل من طورٍ إلى آخر -لفظ أقرّه مجمع اللغة العربية في القاهرة -. والتطوّر: التغيّر التدريجي الذي يحدث في بنية الكائنات الحيّة، وسلوكها)[٦]. ولما كانت اللغة -ومنها اللغة العربية -كائنًا حيًّا فقد لحقها التطوّر في بنية ألفاظها، وتجدد معانيها، وزيادتها.

والذي يخص البحث -هنا -التحوّل في دلالات ألفاظ المرض الواردة في القرآن الكريم، فقد تبيّن حصول التغيير الذي يُفهَم مِن اللفظ سواء من ناحية الصورة، أو الدلالة، فيتوَلّد معنًى جديدٌ يلحق بالمعنى الأصل للكلمة نفسها، ولكنه لا ينسلخ تمامًا عن أصل المعنى للمادة، بل يزيد معنًى إلى معناه، أو معانيه.

والذي يتنخل من دلالة صيغة «تطوّر» الاصطلاحي أنّه جاء موافقًا لما أفادته المادة من المعاني في الاستعمال اللغوي، وكأنّ الاصطلاح جاء مواضعًا المعنى اللغوي.

أما في الاستعمال القرآني فثمة معانٍ استجدّت للألفاظ الدالة على المرض، وزيدَت تلك الدلالات على ما أفاده جذر تلك الألفاظ من معانٍ، وتأتّى هذا القول ممّا يتبيّنه الباحث في الدلالة القرآنية عامة، وفي الألفاظ الدالة على المرض بخاصة.

المبحث الثاني:

ألفاظ المرض بدلالة اللون:

القرآن الكريم مليءٌ بالعلامات

(٥) التطور اللغوي -دكتور رمضان عبد التواب/ ٢٠ -٢١.

(٦) المعجم الوسيط ٢/ ٥٦٩ -٥٧٠، مادة «طور».

السيميائية اللونية كدلالة اللون الأبيض على السعادة واللون الأسود على الشقاوة، وغيرهما. وقد وردت في القرآن الكريم ألفاظ دالة على المرض بدلالة اللون، وذلك:

١. بيض: من اللون الأبيض، فاللون الذي هو ضد السواد، ويكون في الإنسان والحيوان والنبات، والجماد، وفي الماديات والمعنويات، وفي الدنيا والآخرة، ويدل على النقاء والصفاء وحسن النية ثم اشتُقّ منه، وشبّه منه[٧].

وقد استعمل القرآن الكريم صيغًا مختلفة من مادة «بَيْض» للدلالة على المرض، وعلى غيره. والذي نريده هنا الدلالة بهذا اللون على المرض -الجسدي، الدنيوي، والأخروي -. وقد يرتبط بالمعجزة كما يأتي بعون الله.

وقد جاءت دلالة اللون الأبيض على المرض في الدنيا، باختيار صيغة الفعل الماضي المزيد بالهمزة والتضعيف «ابيَضّ»، قال تعالى في صفة حزن يعقوب عليه السلام بابيضاض عينيه: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [سورة يوسف: ٨٤].

قال الزمخشري (ت٥٣٨هـ): (إذا كثُر الاستعبار محَقَت العبرَةُ سواد العين، وقلبته إلى بياض كدر)[٨].

نلحظ دلالة اللون على مرض عين يعقوب عليه السلام، ويُعدّ هذا تَغيُّرًا في الدلالة، وتطوّرًا.

وكذا جاء ذلك في صفة يد موسى عليه السلام باستعمال صيغة الصفة المُشبّه «بيضاء»، وهو فعل أُريد ليكون معجزةً لنبي الله موسى عليه السلام، وذلك في (٥) خمسة مواضع[٩]، منها[١٠] قوله سبحانه: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[سورة الأعراف: ١٠٨].

قال أبو عبيدة (ت٢١٠هـ): (أخرج

(٧) ينظر: العين، مادة «بيض». ومقاييس اللغة١/ ٣٢٦.

(٨) الكشاف٢/ ٥٥٣.

(٩) المعجم المفهرس/ ١٩٤، مادة «بيض».

(١٠) وبقية المواضع في سورة طه: ٢٢. وفي سورة الشعراء: ٣٣. وفي سورة النمل: ١٢. وفي سورة القصص: ٣٢.

يـدَه (فـإذا هـي بيضاء) مِـن غـير سـوء، ولكنها كانت آية؛ لأنّه كان آدَمَ)[11]. وقال الطبري (ت٣١٠هـ): (كان موسى عليه السلام فيما ذُكر لنا آدَمَ، فجعل الله تحوّل يده بيضاء من غير برص، له آية على صدق قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سـورة الـزخـرف: ٤٦])[12].

وجـاءت دلالـة الابـيـضـاض صفة لوجوه الفائزين برضا الله، وليس للدلالة على المرض، بل للدلالة على الاستبشار بالمكافأة التي ما بعدها مُكافأة يوم الجزاء، والفرح بالفوز برضا الله، ونيل نعيمه، بخلاف اسـوداد وجـوه الكافرين، في الفعل المضارع المزيد بالتضعيف «تبيَضّ»، وبالفعل الماضي المزيد بالهمزة والتضعيف «ابيَضَّت»، وذلـك كائن في الآخـرة، – فالاستعمال أُخرَوِي –قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٦ –١٠٧].

الذي يتنخّل من أقوال العلماء، وما يُفصح عنه السياق أنّ لون البياض قد دلّ على المرض، في موضعَين –كما مرّ –الأول: في صيغة «ابيَضَّ» في صفة حال عينيّ نبي الله يعقوب عليه السلام. والثاني: في صيغة «بيضاء» معجزةً في صفة يد نبي الله موسى عليه السلام.

وذكر اللون الأبيض في وصف عين يعقوب عليه السلام، وفي حكايـــة موسى عليه السلام في جعل يده بيضاء –كمعجزة –بقضاء الله، وحكمته؛ ليكون دلالة واضحة ومعجزةً قاطعة على صحة رسالته، وبيانًا لما أعطاه الله له من القدرة لإثبات نبوته، وإفحام المنكرين؛ إذ كان موسى عليه السلام أسمرَ شديد السمرة، وما كان البياض ليده ناتجًا عن ضرر، ولا عن سوء من «برص»، أو غيره، بل تلك حال إعجازيّة؛ إذ لمّا أعادها إلى جيبه عادت للونها النقي.

٢. زرق: الزُّرْقة: مِن الألوان، بين البياض والسواد. وقد توصف السماء بالزرقة لصفائها (ويُقال للمياه الصافية زُرقًا، قال زهير:

(١١) مجاز القرآن١/ ٢٢٥.

(١٢) جامع البيان٦/ ١٦ –١٧. وينظر: التبيان في تفسير القـرآن٤/ ٤٩٢. واللباب في علوم الكتاب٣/ ٣٦٦.

فلما وردن الماءَ زُرقًا جِمامُهُ)[١٣].

وقال الجوهري (ت٣٩٨هـ): (رجل أزرَق العينِ، والمرأة زرقاءُ بيّنة الزَّرَق، والاسم الزُّرْقَة. وقد زَرِقَت عينُه – بالكسر–، قال الشاعر:

لقد زَرِقَت عيناك يا ابن مُكَعْبِرٍ

كما كلُّ ضَبْيٍ مِن اللؤم أزرَقُ)[١٤].

جاء لون «الزُّرقة» دالاً على المرض؛ مُتحوِّلاً من دلالته على اللون إلى الدلالة على المرض[١٥]، في قوله سبحانه: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [سورة طه: ١٠٢]. قال الزمخشري (ت٥٣٨هـ): (قيل في الزرق قولان: أحدهما: أنّ الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب؛ لأنّ الروم أعداءهم، وهم زرق العيون؛ ولذلك قالوا في صفة العدو: أسود الكبد، أصهب السبال، أزرق العين. والثاني: أنّ المُراد العَمَى؛ لأنّ حدقة مَن يذهب نور بصره تَزْراقّ)[١٦].

ونلحظ أنّ لفظ «زرقًا» كأنّه جاء عامًّا شاملاً حال الكافرين المُعاقَبين، ولم يُعيّن أن هذا المرض في عيونهم، ولم يحصره عليها؛ لأنّه قصد قوة التخويف، وتهويل العقاب –والله وحده أعلم –.

الذي نخلص إليه أنّ ثمّة تطوّرًا ظاهرًا في دلالة لون «زرق»، فقد جاء معنًى جديدٌ فُهِم مِن السياق الذي ضمّ الصيغة، ألا هو الدلالة على العمى، أو ما يمكن أن يُصيبَ العينَ من سوء في الرؤية الصحيحة، فيكون ذلك عقابًا آخر للكافرين، مُصاحبًا حشرهم في النار.

المبحث الثالث:

الألفاظ الدالة على المرض الجسدي:

تتنوّع الأمراض التي تصيب الإنسان، فمنها الأمراض الجسدية، ومنها النفسية، وسنقف عند الأمراض النفسية في المبحث التالي بإذن الله. وثمة أمراض أُخرى، ولكنها لا تدخل ضمن بحثنا هذا.

وقد تبيّنا قسمًا من الألفاظ أنّها دلّت

(١٣) تهذيب اللغة ٨/ ٤٢٨، مادة «زرق».
(١٤) الصحاح٣/ ٩٠٦، مادة «زرق».
(١٥) ينظر: العين، مادة «بيض». ومقاييس اللغة١/ ٣٢٦.
(١٦) الكشاف ٢/ ٧١٧. وينظر: التفسير الكبير٢٢/ ١١٢.

على المرض الجسدي بما طرأ على جذرها من تطوّر في الاستعمال؛ فتُوُسّع في معناها، وتحوّلت من معناها الأصل إلى المعنى الجديد، مع لحاظ وشيجة تربط الدلالة الجديدة بالدلالة الأصل، من ذلك:

١. خبل: فساد في أعضاء الجسم، حتى لا يدري المُبتلى بذلك كيف يمشي؟. فهو مُتَخَبَّلٌ، خَبِلٌ، ومُختَبَل.

قال الخليل (١٧٥هـ): (الخبل: جنون أو شبهه في القلب، ورجل مخبول به خَبَل، وهو مُخَبَّل، أي: لا فؤاد له، وقد خَبَله الدّهر والحُزن والشيطانُ، والحب، والداء خَبلاً. وقد خَبِل -خَبالاً ورجل أخبل. ودهرٌ خَبِل: مُلْتَوٍ على أهله، لا يرون فيه سرورًا. والخَبْل: فساد في القوائم حتى لا يدري كيف يمشي؟. فهو مُتَخَبِّلٌ خَبِل)[١٧].

وزاد الأزهري (ت٣٧٠هـ)، فقال: (وفي الحديث: (مَن أكل الربا أطعمه الله مِن طينة الخَبال[١٨] يوم القيامة). وقيل: الخبل: هو مطلق الفساد في الأشياء وذهابها.

ومنه قطع اليد في قول أوس بن حجر:

أَبَني لُبَينَى لستُم بيدٍ

إلا يدًا مَخْبولةَ العضُدِ

ومنه ما جاء في الحديث الشريف: (بين يدَي الساعة خَبْلٌ)، يعني فسادَ الفتنة، والهَرْج والقَتْل)[١٩].

وقد طرأ تطوّر في دلالة مادة «خبل»؛ إذ انتقل استعمالها من معناها الأصلي «الفساد» إلى معنى: وقوع الاضطراب والشرّ في صفوف المسلمين، ونفوسهم، وعقولهم وقلوبهم، باستعمال صيغتها «خبالا»[٢٠]، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ [سورة آل عمران: ١١٨].

ونتبيّن المعنى نفسه الذي ذهبنا إليه في آية سورة آل عمران في استعمال صيغة

(١٧) العين٤/ ٢٧٢، مادة «خبل». وينظر: مقاييس اللغة٢/ ٢٤٢.

(١٨) طين الخَبال: ما ذاب من أجساد أهل النار- ينظر: العين٤/ ٢٧٣، مادة «خبل».

(١٩) تهذيب اللغة ٧/ ٤٢٤ -٤٢٧، مادة «خبل».

(٢٠) ينظر: جامع البيان٣/ ٤٠٦. والتبيان في تفسير القرآن٢/ ٥٧٢.

"خبالا"، من أنّه جاء -أيضًا- في قوله جلّت حكمته: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ ﴾ [سورة التوبة: ٤٧].

نستدل من ذلك أن لفظة الخَبل ما هي إلا فساد في الأعضاء مما يُؤدّي إلى اختلال في العقل، والقلب، فيقود إلى الاضطراب في التصرف والسلوك والمواقف -بمَن يقع لهم ذلك -أو يصل بمَن حصل لهم ذلك درجة الجنون.

٢. صدع: صدَع -يَصْدَع -صَدعًا. والصَّدْع: شقٌّ في شيء صلب، كالأرض ونحوها، وقد يؤخذ مما يقع فيه صدعٌ اسم للموضع، أو صفة لقوّته، فيوصف بذلك ما يقع له «الصَّدع»، (نحو قول الأعشى:

قد يَتْرُكُ الدَّهرُ في خلقاءَ راسيةٍ

وَهْيًا، ويُنزِلُ منها الأعصَمَ الصَّدَعا

ومنه: الرجل يَصْدَعُ بالحقِّ، يتكلّم به جهارًا، قال أبو ذؤيب:

فكأنَّهُنّ رِبابةٌ، وكأنّه

يَسَرٌ يُفيضُ على القِداحِ ويَصْدَعُ

والصَّدْع: نباتُ الأرض؛ لأنّه يَصْدَع الأرضَ، والأرض تتصدّع عنه، قصد تتشقق.

والصُّداع: وجع الرأس. صُدِّع الرجل تصديعًا. ويجوز صُدِع..

ومنه: صدّعتهم، فتصَدَّعوا، أي: تفرَّقُوا) [٢١].

وجاء استعمال القرآن الكريم لمادة «صدع» في (٥) خمسة مواضع[٢٢]، وعلى وفق أصلِ معناها، الذي هو التشقق، والتفرّق، وبصيغٍ مختلفة، منها: فعل الأمر «فاصْدَع» بمعنى: اِجهَر، وأظهِر، واصدَح، قال تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الحجر: ٩٤]. قال أبو عبيدة: ((فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ): أي: افرُق، وامضِه)[٢٣].

وجاء معنى: مهتزًّا، ومُتشقِّقًا[٢٤] بصيغة اسم الفاعل من المزيد بالتاء

(٢١) العين ١/ ٢٩١ -٢٩٢، مادة «صدع». وينظر: تهذيب اللغة٢/ ٤ -٥. والمفردات في غريب القرآن/ ٢٧٦. وأساس البلاغة/ ٢٥٠ -٢٥١.

(٢٢) المعجم المفهرس/ ٥٤٨، مادة «صدع».

(٢٣) مجاز القرآن١/ ٣٥٥.

(٢٤) ينظر: التبيان في تفسير القرآن٩/ ٥٧٢.

والتضعيف «مُّتَصَدِّعًا» في قوله جلّت عظمته: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة الحشر: ٢١].

وجاء المصدر "الصَّدْع"، بمعنى: التشقق للإنبات[٢٥] في قوله جلّت قدرته: ﴿ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴾ [سورة الطارق: ١٢].

وجاء الفعل المضارع المزيد بالتاء والتضعيف "يَصَّدَّعُونَ"، بمعنى: يتفرّقون، في قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ﴾[سورة الروم: ٤٣]. قال أبو عبيدة (ت٢١٠هـ): (يَصَّدَّعون: يتفرقون، ويتخاذلون)[٢٦].

وقد تبيّنا تطوّرًا في معنى صيغةٍ مِن مادة «صدع»، وذلك من خلال ما أوحى به السياق الذي ضمّها، ولاسيما تحوّل دلالتها عن أصل معناها إلى معنى المرض، وبوشيجة قادت إلى هذا الانتقال الدلالي، من ذلك صيغة الفعل المضارع من المزيد بالتاء والتضعيف «يُصَدَّعُونَ» في قوله عزّ وجلّ: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [سورة الواقعة: ١٩].

قال أبو عبيدة (ت٢١٠هـ): ((لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا): مِن الصُّداع في الرأس)[٢٧].

الذي يتنخّل من آراء العلماء، ومن تحليل النصوص الكريمة التي تضمنت صيغًا من مادة «صدع»، وما يُفصِح عنه السياق أنّ صيغ المادة قد جاءت على وفق أصل معناها في موضع ورودها إلا في آية سورة الواقعة؛ إذ تحوّل المعنى من التشقق، والتفريق إلى الدلالة على المرض (الصُّداع في الرأس)، وهذا نوع من التحوّل، والتطوّر في دلالة صيغة من صيغ مادة «صدع».

الدم المُتدفق من جرحٍ، أو مرضٍ ما، أو ما قد يصيب الأوعية الناقلة للدم من ضيق، أو من تكلس فيها؛ فيصعُب جريان

(٢٥) ينظر: جامع البيان١٢/ ٥٣٩ -٥٤٠. والتبيان في تفسير القرآن١٠/ ٣٢٦.
(٢٦) مجاز القرآن٢/ ١٢٣. وينظر: الكشاف٣/ ٩١٨.
(٢٧) مجاز القرآن٢/ ٢٤٩. وينظر: جامع البيان١١/ ٦٣١. والتبيان في تفسير القرآن٩/ ٤٩٣.

الـدم بسلاسة ويُـسرٍ إلى أنحاء الجسم، ولا سيما الـرأس، فتصاب بمرض، نحو الصداع.

٣. عشو: عشا -يَعْشُو -عَشوًا، وعُشْوًا، القصد ليلاً. قال الخليل (ت١٧٥هـ): (العَشْو: إتيانك نـارًا ترجو عندها خَيرًا وهُـدًى. عَشَوْتُها -أعشوها - عَشْوًا، وعُشوًا، قال الحطيئة:

متى تأتِه تَعْشُو إلى ضوء ناره
تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ

وأوطأته عَشْوَةً، وعِشْوَةً، وعُشْوَةً- ثلاث لغات -، وذلك في معنى أن تحمله عـلى أن يـركـب معنًى عـلى غـير بيـان.. والعشواء بمنزلة الظلماء، وعَشْواء الليل: ظُلمتُه.. والعِشاء: أول ظـلام الليل.. والعَشاء: -ممدود مهموز -الأكل في وقت العَشِيّ.. والعَشَى: -مقصورًا -مصدر الأعشَى، والمـرأة: عَشْواء.. والأعشَى: هو الـذي لا يُبصِر بالليل، وهو بالنهار بصير. وقد يكون الذي ساء بصَرُه من غير عمًى.. وناقة عشواء: لا تُبصِر ما أمامها، فتَخْبِطُ كل شيءٍ بيدها، أو تقع في بئر، أو وَهْدَةٍ.. قال زهير:

رأيتُ المنايا خَبْطَ عشواءَ مَن تُصِب
تُمِتْه، ومَن تُخطِئ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

وتقول: إنَّهم لفي عشواء من أمرهم، أو في عمياء)[٢٨].

وزاد ابن فارس (ت٣٩٥هـ) في بيان دلالة مادة «عشو»، فقال: (العين والشين والحرف المعتل أصلٌ صحيحٌ، يدلّ على ظلامٍ، وقلة وضوحٍ في شيء، ثم يُفرّع منه ما يُقاربُه)[٢٩].

وجاء في أمثال العرب قولهم: (أَوْطَأَهُ عَشْوَةً)[٣٠]. يُضَرب فيمن يُقحِم غيره فيما يكره، أو فيما لا طاقة له عليه، أو فيما لا بصيرة له فيه.

وقـالـوا: (أَخْبَـطُ من عَـشْـوَاءَ)[٣١]. يُضرَب فيمن لا بصيرة له بتمييز الأمور، فيفسدها.

وجاء اسم الفاعل من المادة «عاشية»، بمعنى: طالبة طعام العشاء، في الحديث:

(٢٨) العين٢/ ١٨٧، مـادة «عَشو». وينظر: جمهرة اللغة٢/ ٢٥ -٢٢٦. والصحاح٥/ ١٤٣٧ -١٤٣٨. وأساس البلاغة/ ٣٠٢.
(٢٩) مقاييس اللغة٤/ ٣٢٢، مادة «عَشو».
(٣٠) المستقصى في أمثال العرب١/ ٤٣١.
(٣١) المستقصى في أمثال العرب١/ ٩٤. ومجمع الأمثال١/ ٢٦١.

(ما مِن عاشيةٍ أدوَمَ أنقًا، ولا أبطأ شِبَعًا مِن عاشِيَةِ علمٍ)[٣٢].

وجاء في القرآن الكريم صيغٌ مختلفة من المادة في (١٤) أربعة عشر موضعًا[٣٣]. وقد جاءت اسميّةً في (١٣) ثلاثة عشر موضعًا منها، ودالّةً على الوقت ليلاً، أو حين تعمّ ظلمةُ الليل وعتمتُه، أو ظُلمَة المكانَ، نحو قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ [سورة آل عمران: ٤١][٣٤]. وكذا جاء اللفظ بمعناه في سورة الأنعام/ ٥٢. وفي سورة الكهف/ ٢٨. وفي سورة ص/ ١٨، و٢١. وفي سورة غافر/ ٥٥. وجاء بالنصب «عشيًّا» في سورة مريم/ ١١، و٦٢. وفي سورة الروم/ ١٨. وفي سورة غافر/ ٤٦. و وجاء بالنصب وبالتاء «عشيَّةً» في سورة النازعات/ ٤٦. وجاء بالنصب «عِشاءً» في سورة يوسف/ ١٦. وفي سورة النور/ ٥٨].

(٣٢) استشهد الزمخشري بالحديث، أساس البلاغة/ ٣٠٢، مادة «عشو».

(٣٣) المعجم المفهرس/ ٦٢٠، مادة «عشو».

(٣٤) ينظر المعنى في: جامع البيان٣/ ٢٦١. والتبيان في تفسير القرآن٢/ ٤٥٥.

وجاء الفعل المضارع في موضعٍ واحدٍ من تلك المواضع «يَعْشُ»، بمعنى: انعدام البصر، والبصيرة، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴾[سورة الزخرف: ٣٦]. قال أبو عبيدة (ت٢١٠هـ) في معنى ذلك: (تُظلِمُ عينه عنه، كأنّ عليها غشاوة. يقول: مَن يمل عنه عاشِيًا إلى غيره، وهو أن يركَبَه على غير تبيّنٍ)[٣٥].

الذي نخلص إليه من آراء العلماء، ومن سياق الآية الكريمة التي وردت فيها صيغة «يَعْشُ» أنّ الدلالة قد تحوّلت من معنى: ظلمة الليل، وعتمته، أو ما قد يقترن بذلك من تعيين وقت تناول الطعام «العَشاء»، إلى الدلالة على مرض العمى في البصر والبصيرة؛ لانعدام الرؤية للأمور بحقيقتها الملموسة بحاسة البصر، أو بإدراكها بالبصرة؛ فيكون ثمَّةَ تطوّرٌ في الاستعمال القرآني هذا في مادة «عشو»، وبصيغة الفعل المضارع «يَعْشُ»، منها.

(٣٥) مجاز القرآن٢/ ٢٠٤. وينظر: جامع البيان١١/ ١٨٨. والتبيان في تفسير القرآن ٩/ ١٩٨ -١٩٩. والكشاف٣/ ١١١٥.

٤. نـزف: نفـاد شيءٍ، وقـد يصل حدّ انتهاء المنزوف منه. ومنه تَدَفُّق الدم من جسم الحيوان؛ لجرحٍ أو لعلّة ما. قال الخليل (ت١٧٥هـ): (نُزِف دمُ فلان، فهو نزيف منزوف، أي: انقطع عنه.. والنَّزْف: يَنْزِف، والقليل منه: نَزْفة)[٣٦].

وقد ورد في القرآن الكريم من مادة «نزف» الفعل المُضارع «يُنزِفُونَ»، في قوله تعالى:

﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾[سورة الواقعة: ١٩]، قال أبو عبيدة (ت٢١٠هـ): ((وَلا يُنزِفُونَ): لا يسكرون)[٣٧].

وجـاء الفعل المـضـارع «يُـنـزَفُـونَ» بمعنى: السُّكْر في قوله جلّت حكمتـه: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾[سورة الصافات: ٤٧].

قـال الـزمخـشري (ت ٥٣٨هـ): ((يُنزَفُونَ): على البناء للمفعول، من نزِف الشاربُ، إذا ذهب عقلُه.. والمعنى: لا فيها فساد قط من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر، من مغصٍ، أو صداع، أو خمار، أو عربدة، أو لغو أو تأثيم، أو غير ذلك، ولا هم يسكرون، وهو أعظم مفاسدها)[٣٨].

نلحظ حصولَ تطوّرٍ في دلالة مادة «نزف» التي وردت بصيغة الفعل المضارع «ينزفون»، والذي جاء في موضِعَين -كما مرّ في البحث -وبقراءَتيه؛ فقد أفاد الدلالة على المرض، فيكون بذلك قد تجاوز أصل معناه اللغوي الذي هو نفاد شيءٍ وذهابه، إلى معنًى جديد، هو الدلالة بالإصابة بمرض، (فقدان العقل)، وهـذا المعنى يُوحي به الاستعمال القرآني، من خلال السياق الذي ضَمّ المضارع في موضِعَيه.

المبحث الرابع:

اللفظ الدال على المرض النفسي (حصر):

حصر: الحَصَر: جَمْعٌ وحَبْس ومَنْع وتَضْيِيق يحصل للإنسان رغمًا منه، وفرضًا عليه. ومنه ما يكون ضَربًا مِن العِيّ، حصر-يَحْصَر -حَصَرًا، فمعناه: العِيّ في الكلام والمنطق. (والحِصار: موضعٌ يُحصَر

(٣٦) العين٧/ ٣٧٣، مادة «نزف».
(٣٧) مجاز القرآن٢/ ٢٤٩. وينظر: جامع البيان١١/ ٦٣١. والتبيان في تفسير القرآن٩/ ٤٩٣.
(٣٨) الكشاف٣/ ١٠١٠ -١٠١١.

فيه المرء، قال رؤبة:

مِدْحَةَ مَحْصورٍ تَشَكَّى الحَصرا

دَجْرانَ لم يشرب هناك الخمرا)[٣٩].

وقيل: (كلّ مَن ضاق صدرُه بأمرٍ فقد حَصِر، ومنه قول لبيد:

جرداءَ يَحْصَرُ دونها جُرَّامُها)[٤٠].

وزاد ابن فارس (ت٣٩٥هـ) في معنى مادة الـ «حصر»، فقال: (الحاء والصاد والراء: أصلٌ واحد، وهو الجمع والحبس والمنع.. والحَصِر: العَيُّ؛ كأنّ الكلام حُبِس عنه، ومُنِع منه. والحَصَر: ضيق الصَّدْر.. وحَصَرَنِي الشيءُ، وأحصَرَني، إذا حَبَسَنِي، قال ابن ميّادة:

وما هجرُ ليلَى أن تكونَ تباعَدَت

عليكَ، ولا أنْ أحْصَرَتْك شُغُولُ

ومن الباب: الحَصِر بالسِّرّ، وهو الكتوم به، قال جرير:

ولقد تَسَقَّطَنِي الوُشاةُ، فَصادَفُوا

حَصِرًا بسِرِّك يا أُمَيْمَ ضَنينا)[٤١]

ولما كان معنى الـ «حصر» التضييق في الحياة، ومنه ما يقع للإنسان من أمور تصدّه عن بلوغ ما يرغب فيه، وتكون خارجةً عن إرادتـه، ومنه الاحتباس في الإفراز من الجسم، أو ما يقع للناس من حبسهم عن أمر ما، ومنعهم عن فعل ما نحو ما جاء بصيغة الفعل الماضي المبني للمجهول «أُحْصِرتُم»، بمعنى: مُنِعتُم، أو حُبِستم عن وجهتكم، في قوله جلّ وعزّ: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾[سورة البقرة: ١٩٦]. قال أبو عبيدة (ت٢١٠هـ): ((أُحْصِرْتُمْ).. أي مرضتُم، أو ذهبت نفقتكم، أو فاتكم الحج، فهذا كله مُحصَر، والمحصور الذي جُعِل في بيتٍ، أو دار، أو سجن)[٤٢].

ما ذهب إليه أبو عبيدة قد أخَذ فيه تعميم معنى المادة، ولكنّ سياق النص يعيّن عِلَّة الحَصر بالمنع لِمانعٍ ما. فإذا كان المانع الإصابة بالمرض فيكون من موضوع بحثنا، وفيه دلالة التحوّل من الحبس والمنع والتضييق إلى دلالة الإصابة بالمرض، فيكون تطوّرًا دلاليًّا.

وكـذا القـول في استـعمال الفعل

(٣٩) العين٣/ ١١٣، مادة «حصر».

(٤٠) تهذيب اللغة٤/ ٢٣١، مادة «حصر». وينظر: الصحاح٢/ ٣٩٣.

(٤١) مقاييس اللغة٢/ ٧٢ -٧٣، مادة «حصر».

(٤٢) مقاييس اللغة٢/ ٧٢ -٧٣، مادة «حصر».

الماضي المبني للمجهول «أُحْصِرُوا» بمعنى: وقع لهم المنع لعلّةٍ، أو لمانعٍ من الخروج[٤٣]، في قوله عزّ شأنُه: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٣].

وجاء من مادة «حصر» معنى التحوّل والانتقال للتعبير عن المرض النفسي، المُتَحَسَّس، والمُدرَك شعورًا، والمُعَبَّر عنه بصيغة الفعل الماضي «حَصِرَتْ» في نحو قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾ [سورة النساء: ٩٠]، قال أبو عبيدة (ت٢١٠هـ): (حصرت صدورهم: مِن الضِّيق، وهي من الحصور)[٤٤].

وذهب ابن عادل (ت٨٨٠هـ) إلى: (أنّ الحَصر عبارة عن الكيفية الحاصلة عن اعتدال المزاج، وسلامة الأعضاء، وذلك مفقود في حق المريض؛ لأنه غير قادر على الفعل البتة؛ فلا يحكم عليه بأنه ممنوع؛ لأن حالة الحكم على المانع تستدعي حصول المقتضى)[٤٥].

يتبين لنا من آراء العلماء، ومن السياق أن لفظة (حصر) قد أفادت الدلالة على مرضٍ من الأمراض النفسية؛ إذ دلت على حصول ضيق الصدر في الإنسان، وحبس نفسه، وكبت حريتها في الحركة، وفي راحتها، وهذا التحوّل والتغيير والانتقال من معنى إلى آخر، والتوسّع في المعنى يُعدّ كلّه تطوّرًا في دلالة المادة.

نتائج البحث (الخاتمة):

توصّل البحث في التطوّر الذي جرى في معاني الألفاظ الدالة على المرض إلى الآتي:

١. إنّ البحث القرآني يبقى طرِيًّا، ومعينًا لا يَنضُب للباحثين، ولا يمكن القول أن الباحث الفلاني قد جاء بما لا يمكن الزيادة عليه، فيما ذهب إليه، وتلك من عظمة كتاب الله المُعجز.

٢. تبيّن لي أنّ القرآن الكريم قد عرض

(٤٣) ينظر: جامع البيان٣/ ٩٦. والتبيان في تفسير القرآن٢/ ٣٥٥.

(٤٤) مجاز القرآن١/ ١٣٦. و ينظر: جامع البيان٣/ ٩٦. والتبيان في تفسير القرآن٢/ ٣٥٥.

(٤٥) اللباب في علوم الكتاب٣/ ٣٦٦.

للأمراض بأنواعها، وعبّر بألفاظ دلّت على معانيها بدقة، وبراعة، وبداعة، ولا غرو فهو التعبير القرآني المُعجز وكفى.

٣. ظهر أنّ قسمًا من هذه الألفاظ الدالة على المرض قد استمدّت دلالتها هذه من التطوّر في الاستعمال، ونقصد به السياق القرآني، الذي عيّن تلك المعاني، وأوحَى بتلك الدلالات.

٤. لقد تنوّع التطوّر في معاني الألفاظ الدالة على المرض، فقد جاء ذلك بالإيحاء بمعناها الجديد من اللون -كما مرّ في البياض والزرقة. وجاء من الاتصاف بظاهرة، قرُب معناها من معنى ما أوحت به من مرض مثلما جاء ذلك بمادة «صدع». أو جاء من ظاهرة طارئة للجسم، فتحوّلت الدلالة منها إلى الإيحاء بالإصابة بالمرض نحو «عشو»، وكذلك في نحو مادة «نزف».

٥. تبيّن انتقال معنى اللفظ من دلالته على حال جسديّة لسبب حياتيّ ما إلى التعبير عن مرضٍ نفسيّ حاصل بسبب ذلك، كما في تعبير «حصرتْ صدورُهم».

اللهم هذا جهد المُقِل الراجي رضاك، فإن كان فيه الصواب فمن عندك، وبعونك، وإن كانت الأخرى فمن عند نفسي المُقرّة بالنقص، المُتطلّعة إلى كرم عفوك، وفضل تسديدك، ومنّة توفيقك.

ثبت المراجع والمصادر:

القرآن الكريم.

١. أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحـ. عبد الرحيم محمود، تعريف أمين الخولي، ط١، مطبعة أولاد أور فاند (بطريقة الفوتو اوفست) القاهرة ١٣٧٢هـ- ١٩٥٣م.

٢. تاج اللغة وصحاح العربية (الصحاح)، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٨هـ)، اعتنى به مكتب التحقيق بدار إحياء التراث العربي، ط٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٣. التبيان في تفسير القرآن، محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحـ.

أحمد حبيب قيصر العاملي، ط١، مطبعة سليمان زاده، قم، إيران ١٤٣١هـ.

٤. التطور اللغوي، دكتور رمضان عبد التواب، طبع مكتبة الخانجي بالقاهرة (د. ت).

٥. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن الرازي (ت٦٠٤هـ)، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه عماد زكي البارودي، ط١، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر (د. ت).

٦. تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ) تحـ. عبد السلام هارون، الدار القومية العربية للطباعة، القاهرة ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

٧. جامع البيان، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٨. جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت٣٢١هـ)، علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، لبنان ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٩. العربية تاريخ وتطور، الدكتور إبراهيم السامرائي، ط١، مطبعة المعارف، بيروت، لبنان ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

١٠. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) تحـ. د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، ط١، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

١١. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، مصححة على نسخة خطية، د. عبد الرزاق المهدي، ط، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

١٢. اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص

عمر بن علي بن عادل (ت٨٨٠هـ)، تحـ. عـادل أحمـد عبد الحميد وعلي محمد معـوض، ط١، دار الكتب العـلـمـيـة، مـنـشـورات محـمـد علي بيضون، بـيروت، لبنان ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

١٣. لـسـان الـعـرب، أبـو الفضل محمد بن مكرم بن علي جمـال بن منظور (ت٧١١هـ)، ط٣، دار صـادر، بيروت، لبنان ١٤١٤هـ.

١٤. مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي (ت٢١٠هـ)، تحـ. د. محمد فؤاد سركين، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة (د. ت).

١٥. مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني (ت ٥١٨هـ)، قدم له وعلق عليه نعيم حسون زرزور، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، لبنان (د. ت).

١٦. المستقصَى في أمـثـال الـعـرب، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.

١٧. المعجم المفهرس لألـفـاظ الـقـرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، مكتبة المظفر الثقافية، طهران (د.ت).

١٨. المعجم الـوسـيـط، قـام بإخراجه: إبـراهـيـم مصطفى، وأحمـد حسن الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد علي النجـار، ط٢، مطبعة باقري، طهران ١٤٢٧ هـ.

١٩. المـفـردات في غـريـب الـقـرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد، المعروف بـ: الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تحـ. صفوان عدنان داودي، ط٤، دار القلم، الدار الشاميـة، دمشق ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٢٠. مقاييس اللغـة، أبو الحسين أحمد بن فـارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، تحـ. عبد السلام محمد هارون، ط١، طباعة دار الكتب العلمية (اسماعيليان نجفي)، قم، إيران (د.ت).



نافذة

المِصْبَاح

العَرَضُ وَ النَّقْد وَ التَّعْرِيفُ

المحتوى

الإقتباس و الإستشهاد بألفاظ ومفردات القرآن الكريم — الأستاذ المتمرس الدكتور محمد كريم إبراهيم الشمري — ص ٣٥٨

النسوية المعاصرة
نقد آراء محمد شحرور حول حجاب المرأة — فاطمة العقيلي، جامعة الاديان والمذاهب — ص ٣٨١

مِنْ جَدِيدِ الدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيَّةِ — م. م. مقدام محمد جاسم البياتي، المديرية العامة لتربية محافظة ميسان — ص ٤٠٢

أفكار وآراء — محاضرة ألقاها المستشرق الألماني شتيفان فيلد — ص ٤١٤

الإقتباس و الإستشهاد بألفاظ ومفردات القرآن الكريم في الكلام المنثور لابن المجاور البغدادي النيسابوري في كتابه: تاريخ المستبصر.

الأستاذ المتمرس الدكتور
محمد كريم إبراهيم الشمري

الخلاصة:

يهدف هذا البحث الى توضيح أسلوب متميز وفريد من أساليب الكتابة والتأليف في تراثنا العربي –الاسلامي، التي تفرد بها كتاب: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسماة: (تاريخ المستبصر)، لإبن المجاور البغدادي النيسابوري، المتوفى بعد عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م، وهو إدخال ألفاظ ومفردات من القرآن الكريم في الكلام النثري، عند عرض الحكايات والروايات والقصص والأخبار التي سجلها في كتابه، سواء تلك المنقولة من المصادر وأفواه الرواة والمُحدثين، او ربما أن ابن المجاور هو الذي أدخل تلك الألفاظ والمفردات القرآنية في صياغته لتلك الحكايات والروايات والقصص عند توثيقها وتدوينها، وهي عموماً تمثل لوناً من ألوان الكتابة النثرية التي تأثرت بألفاظ ومفردات القرآن الكريم، فضلاً عن الإقتباس منه؛ بهدف العبرة والدرس والموعظة، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة يوسف: ١١١].

المؤلف والكتاب:

يُنسب تأليف كتاب: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسماة: تاريخ المستبصر، خطأً الى جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني الدمشقي المتوفى عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، والمرجح ان مؤلفه الصحيح هو: أبو بكر بن محمد بن مسعود بن علي (المجاور) بن أحمد البغدادي النيسابوري، المتوفى بعد عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م.

يزخر كتاب تاريخ المستبصر بثروة علمية متنوعة، لغوية وأدبية واقتصادية واجتماعية، تدل على ثقافته الواسعة وبُعد نظره وطول باعه، من خلال تنوع معلوماته وغزارتها وتوزيعها على معلومات تاريخية وجغرافية وأثنوغرافية واقتصادية، فضلاً عن رصده كثيراً من ظواهر الحياة المتنوعة في بلاد اليمن خصوصاً، وبلاد الحجاز والهند والديبول وجاوة وغيرها من البلدان التي زارها وسجّل لنا ملاحظاته عنها، فكان شاهد عيان معاصر مدققاً لكثير من شؤون الحياة، ونستدل من ذلك انه كان تاجراً يمتلك مركباً بحرياً، طاف كثيراً من البلدان وزودنا بمعلومات وافية عنها، وسجل لنا رواته ومحدثيه وأماكن لقاءاته بهم في متن كتابه.

سيكون منهجنا في هذا البحث ذكر النصوص التي وردت فيها ألفاظ ومفردات القرآن الكريم في الكلام المنثور لابن المجاور البغدادي النيسابوري، من خلال حديثه أو روايته حكاية أو قصة أو حادثة ما، ووضع خطوط تحت ألفاظ ومُفردات القرآن الكريم، ثُمّ نقوم بتخريج الآية القرآنية كاملة التي تضمنت المفردة واللفظ القرآني الوارد في كلام ابن المجاور النثري وتوثيقها في المتن ثُمّ في الهامش، وعرض تلك الحكايات والقصص و الروايات وفق تسلسل ذكرها في كتاب: صفة بلاد اليمن... (تاريخ المستبصر)، على شكل فقرات مرقمة بالتسلسل.

(١)

قال ابن المجاور[١] في افتتاح كتابه-بعد البسملة -: ((الحمد لله الذي رفع السماء

(١) أبو بكر بن محمد بن مسعود بن علي (المجاور) بن أحمد البغدادي النيسابوري. صفة بلاد اليمن

عبرة للناظرين، وبسط الأرض وجعل فيها آيات للموقنين، وأودع في اختلاف الألسن والألـوان، باختلاف الأقاليم والبلدان، بصائر المستبصرين)).

بدأ ابن المجاور مقدمة كتابه البليغة هذه بحمد الله والثناء عليـه، وضَمّنها آيات مباركات من القرآن الكريم، توحي باختيار عنوان كتابه: تاريخ المستبصر، ففي النص قالَ: ((رفع السماء عبرة للناظرين))، مصداقاً لقولـــه تعالى في كتابه العزيز، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[٢]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾[سورة الحجر: ١٦]، وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا ﴾ [سورة ق: ٦] وفي قول ابن المجاور –عن الارض–: ((وجعل فيها آيات للموقنين))، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[٣].

أما قول ابن المجاور: ((وأودع في اختلاف الألســن والألـوان، باختلاف الأقاليم والبلدان، بصائر المستبصرين))، فلعلّه سبب اختيار عنوان كتابه: تاريخ المستبصر، تأسياً بقوله تعـــالى في العديد من الآيات القرآنية الكريمـــة، حول لفظ ومصطلح ومعنى المستبصر ومفرداتهـــا، مثل: الأبصار، والبصائر، من ذلك قوله عزّ وَ جَل ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾[سورة الأنعام: ١٠٣–١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾[سورة العنكبوت: ٣٨]، كما وردت كلمة (بصائر) في العديد من الآيات القرآنية الكريمة[٤]، مما يوضح ان المؤلف استوحى فكرة إختيار و تحديد عنوان

ومكة وبعض الحجاز، المسماة: تاريخ المستبصر، القسم ١ –٢، اعتنى بتصحيحها وضبطهـــا: أوسكر لوفغرين، مطبعة بريل، (ليدن، ١٩٥١، ١٩٥٤م)، ص ١.

وصدرت طبعـة ثانية هي صورة طبق الأصل للطبعة الأولى، ليس فيها تغيير باستثناء غلاف الكتاب فقط!. منشورات المدينة، توزيع شركة دار التنوير للطباعة والنشر، (بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م).

(٢) [سورة الرحمن: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ [سورة الغاشية: ١٧–١٨].

(٣) [سور الذاريات: ٢٠]، راجع أيضاً: [سور الشعراء: ٢٤]، [سور الدخان: ٧].

(٤) [سور الأعراف: ٢٠٣]، [سور الاسراء: ١٠٢]، [سور القصص: ٤٣]، [سور الجاثية: ٢٠].

كتابه مما ورد في القرآن الكريم حول مفردة المستبصر، وجمعها: المستبصرين، أي أصحاب العقول والإدراك والفَهم، فضلاً عن مشتقات ومرادفات هذه المفردة -كما ذكرنا، مثل: الأبصار، البصائر... لذلك ضمَّنَ ابن المجاور مقدمته ثلاثة ألفاظ ومفردات من القرآن الكريم، كما يتضح جلياً من تخريجنا لها في الآيات القرآنية الكريمة.

(٢)

في حديث ابن المجاور[٥] عن اشتقاق اسم مكة، ذكرأن مكة سميت بهذا الاسم لأربعة أقوال، أحدها أنها مسافة يأتوها الناس من كل فج عميق، فكأنها هي التي تجذبهم إليها.

وفي قول ابن المجاور حول اشتقاق إسم مكة إقتباس لما ورد عنها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[٦]، ومازال الناس -الى يومنا هذا -يأتون الى مكة لأداء فريضة الحج، فضلاً عن العمرة إلى بيت الله الحرام فيها، من كل أصقاع الأرض القريبة منها والبعيدة عنها، فكأنها (مكة) أصبحت عامل جذبٍ واستقطاب لهم الى هذه الأرض المقدسة، وهي ظاهرة خير مستمرة طوال أيام العام.

(٣)

تحدث ابن المجاور[٧] عن قصة حياة قسي بن منبه، الذي اشتهر فيما بعد باسم: ثقيف، واقترن اسمه ببناء مدينة الطائف، مشيراً الى افتراقه عن النخع، وهما (النخع وثقيف) رجُلان من قبيلة إياد بن نزار، فاتجه ثقيف الى موضع قريب من الطائف ونزل فيه، فاذا هو بجارية حبشية ترعى مائة شاة لمولاها، فأسَرَّ طمعاً فيها، أي أضمر (أخفى) أمراً تجاهها في داخله، وقال: ((أقتلها وآخذ الغنم!.))، ويبدو أن الجارية أدركت نواياه تجاهها، فقالت له: ((ياهذا كأنك طمعت نفسك أن تقتلني وتأخذ غنمي))، فأجابها:

(٥) تاريخ المستبصر ص ٢ -٣.

(٦) [سور الحج: ٢٧]، راجع الإحالات: ٣٠-٣١، ٦٤ -٦٥ وهوامشها من بحثنا هذا.

(٧) تاريخ المستبصر ص ١٨ -٢٠.

نعم؛ لذا حذرته الجارية من مغبة عمله هذا ونصحته بالذهاب الى مولاها عامر بن الظَرب بن عمرو بن عباد بن يشكر بن عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر، وهو سيد أهل ذلك الوادي، وطلب المساعدة منه، وفعلاً ذهب ذلك الرجل إليه فأكرمه وزوّجه من ابنته، فولدت له: عوف ودارس وسلامة ، وأقام بالطائف وغرس الكرم (العنب)، وبنى المكان الذي سمي: الطائف؛ لأنه طاف البلاد وسكن فيها.

ان عبارة ابن المجاور التي وردت في هذه القصة: ((فأسرَّ طمعاً فيها))، مستوحاة من ألفاظ ومفردات القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ ﴾[سورة يوسف: ٧٧]، وقال عز وجل: ﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ ﴾[سور الرعد: ١٠]، فضلاً عن ورود هذه اللفظة في آيات قرآنية عديدة[٨]، ومعناها: أخفى وستر وأضمر في نفسه سراً.

(٤)

تحدث ابن المجاور[٩] عن سيوف الصواعق، فذكر انها ثلاثة وقيل سبعة، وقال آخرون بل هي أربعة عشر سيفاً، ضُربت أيام يافث بن نوح عليه السلام، وأسهب في وصف تلك السيوف، ثم تحدث عن أشهر أنواعها وهي اربعة أصناف: الصنعاني ويضرب في صنعاء، وهو متقدم قصير لأنه سيف الرجّالة، والكرماني قديم ضُرب أيام دولة ملوك العجم في كرمان، والإفرنجي سيف طويل؛ يُطولونه لأجل الفُرسان، والهندي منه عدة أصناف، قال ابن المجاور[١٠]: ((وأما السيوف في العالم فكثيرة الأصناف وتضرب في كل بلد وإقليم إلا هذه الأربعة الأصناف الذين ارتفعوا دون غيرهم وعرفوا من بين جنسهم ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات)).

عدَّ ابن المجاور هذه السيوف الأربعة: (الصنعاني والكرماني والافرنجي والهندي) من

(٨) [سور المائدة: ٥٢]، [سور يونس: ٥٤]، [سور يوسف: ١٩]، [سور طه: ٦٢]، [سور الأنبياء: ٣]، [سور سبأ: ٣٣]، [سور التحريم: ٣]، [سور نوح: ٩].
(٩) تاريخ المستبصر ص ٢٨ – ٣١.
(١٠) المصدر نفسه ص ٣١.

أرقى سيوف العالم وأعلاها درجة أي مرتبة متقدمة، نظراً لما اشتهرت به من جودة الأداء وحُسن الصناعة، فكانت مستوياتها متقدمة على مثيلاتها الاخرى من السيوف، وعُرفت بين أصناف تلك السيوف بقيمتها العليـــا وكثرة الطلب عليها، مضمناً هذا الموضوع اقتباســاً مماورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[سورة الزخرف: ٣٢].

والدرجة هنا تعني مرتبة تفضيل شيء على شيء آخر، كما هو الحال بالنسبة الى الرسل، فضلاً عن أمور أخرى في الحياة، كما ذكر ابن المجاور هنا أنواع السيوف ومراتبها وأصنافها ودرجاتها، التي تميزت بارتفاع أي علو وتفضيـــل بعضها على بعض، وقد وردت اشارات واضحة عن هذه الامور في العديد من الآيات القرآنية الكريمة(١١).

(٥)

ذكر ابن المجاور(١٢) انه وُجد في مدينة زبيد باليمن سطر مكتوب: بَدّلنا حمل دُرْ بحمل بُر (قمح) ومامسنا ضُر والله المستعان، ووُجِدَ مكتوب أيضاً في مدينة أبي سيار من أعمال حران: طلبنا البُر بالدر (حجر كريم) فما وجدناه.

أشار ابن المجاور الى الاطلاع على كتابات فيها تبادل مادة الدُر بمادة القمح (الحنطة)، ولعلهـــا إشارة الى استخدام طريقة المقايضـــة في التبادل بين بضائع معروفـــة، وفي النص الاول إقتباس من القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾(١٣)، اما عبارة ((والله المستعان))، فهي إقتباس من القرآن الكريم في قوله

(١١) قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾[سور البقرة: ٢٥٣]، وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾[سور الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[سورة يوسف: ٧٦]، وقال: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[سورة المجادلة: ١١].

(١٢) تاريخ المستبصر ص٥٥، راجع: إبراهيم. مأثور الكلام العربي في كتاب صفة بلاد اليمن ص ٢٤٤.

(١٣) [سورة يوسف: ٨٨]. راجع أيضاً عن (الضرُّ): [سورة النحل: ٥٣]، [سورة الاسراء: ٦٧]، [سورة الأنبياء: ٨٣].

تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[١٤].

(٦)

تحدث ابن المجاور[١٥] عن شجر الكاذي، وهو شجر يطلع في ناحية مسجد معاذ بن جبل يشبه النخل، وهو ورد على هيئة الصَبِرة التي تُزرع في العراق والهند، لكن ورق الكاذي رقيق شبه خوص النخل ذات شوك خشن، لم ينعقد ورقه إلا من برق البرق، فإذا برق البرق طلع منه كثير بالمرة، وان لم يكن البرق لم يكن منه شيء. وهذا شيء عجيب، ويخلق مالاتعلمون.

ان وصف ابن المجاور لشجر الكاذي الذي ينبت ورقه ويكثر بسبب البرق، يدلل على قدرة الله عزوجل ومشيئته؛ لذا عدّ ذلك أمراً عجيباً، فاستشهد بمفردة من آيات الله سبحانه وتعالى، هي أنه يخلق مالايعرفه الانسان، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[سورة النحل: ٨]، فضلاً عن آيات قرآنية عديدة تبين قدرة الله على الخلق، فقد خلق الانسان والحيوان والنبات، فضلاً عن ظواهر وشواهد كثيرة جداً في الحياة، مثل خلق السموات والارض والبحار والامطار والعواصف والرياح والحرارة والبرودة والبرق والرعد... وغيرها من المعجزات والدلائل التي تبين آلائه وقدرته سبحانه وتعالى.

(٧)

قال ابن المجاور[١٦]: ((وخروج الانسان من البحر كخروجه من القبر والفرضة كالمحشر فيه المناقشة والمحاسبة والوزن والعدد، فإن كان رابحاً طاب[١٧] قلبه وإن كان خاسراً إغتم، فإن سافر في البر فهو من أهل ذات اليمين وإن رجع في البحر فهو من أهل

(١٤) [سورة يوسف: ١٨]. راجع: إبراهيم. مأثور الكلام العربي ص٢٤٤.

(١٥) تاريخ المستبصر ص ٨١.

(١٦) تاريخ المستبصر ص ١٢٨ -١٣٠. (وعلى ص١٢٩ خارطة قديمة لطبوغرافية مدينة عدن)، راجع أيضاً: إبراهيم. مأثور الكلام العربي ص ٢٣٩.

(١٧) إلى هُنا نهاية ص١٢٨ وبعدهـــا بداية ص١٣٠، بكلمة: (قلبُهُ).

ذات الشمال. فإذا كان هذا حال المخلوق في عالم الكون والفساد مع مخلوق كذا فكيف حال المخلوق بين يدي الخالق غداً في هول العرض الأكبر اللهم لاتناقشنا ياكريم!.)).

في هذا النص وصف وتصوير دقيق لحال الانسان عندما يخرج من البحـــر، هو أشبه بخروجـه من القبر، نظراً للخطورة والصعوبة التي يواجهها في البحر، والفرضة أي دائرة إستيفاء الرسوم والمكوس (الجمرك) على البضائع التجارية، تتم فيها المحاسبة على الوزن والعدد، وهي محاسبة عسيرة فكيف حال الانسان يوم القيامة بعد موته ومثوله أمام الله سبحانه وتعالى يوم المحشر؟. عندما يُحشر أي يُجمع الناس ويُحاسبوا ويُساقوا الى مصيرهم الأخير، إما الى الجنة والخلود في دار النعيم وإما الى جهنم خالدين فيها أبداً، جزاءً وفاقاً على أعمالهم، وهذا النص مستوحىً و مُقتبس من القرآن الكريم فيما يخص الحشر يوم القيامة والمحاسبة، فضلاً عن ألفاظ ومفردات ذات اليمين وذات الشمال، فقد خصص الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز (القرآن الكريم) سورة خاصة، هي سورة الحشر، منها هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[18]، كما وردت مفردات الحشر، يحشرهم، تحشرون،...[19]، فضلاً عن ذكر أصحاب اليمين وأصحاب الشمال في القرآن الكريم[20]، وفي هذه الآيات القرآنية الكريمة فوائد عظيمة لاتحصى من العبر والدروس والمواعظ، فضلاً عن تقويم مسيرة الإنسان في الحياة الدنيا، من خلال التمييز بين الصالحين والطالحين، وبين أصحاب القيم والمثل والمبادىء الملتزمين بقواعد وأسس دينهم الحنيف، وبين أولئك الذين غرتهم الحيـــاة الدنيا فابتعـــدوا عن الطريق القويم وسلكوا طريق الإثم والضلالة وأغواهم الشيطان، فخسروا دورهم الإنساني في الدنيا، ولم يوظفوا عقلهم في طريق الخير والعمـــل الصالح؛ للنجاة من الكبائر.

(١٨) [سورة الحشر: ٢]، راجع أيضاً: [سورة القيامة: ١ -١٦].

(١٩) عبد الباقي. المعجم المفهرس ص ٢٦٠-٢٦١.

(٢٠) [سورة الواقعة: ٨، ٢٧، ٣٨، ٤١، ٩٠-٩١].

(٨)

أشار ابن المجاور[٢١] الى تطور مدينة عدن واتساعها وانتشار العمارة والبناء فيها، في عصر سلاطين بني أيوب ونوابهم عليها، فقال: ((وكثر الخلق بها فبنوا الدور والأملاك وتوطن بها جماعة عرب من كل فج عميق)).

في النص اشارة وإقتباس من القرآن الكريم حول تطور مدينة مكة وكيف ان الناس كانت تقصدها من كل أرجاء المعمورة؛ لأداء فريضة الحج الى بيت الله الحرام وممارسة التجارة فيها، وفي نص ابن المجاور هذا إقتباس من القرآن الكريم وتشبيه عدن بمكة، في توافد الناس عليها للعمل في التجارة وفي البناء، وماصاحَبَ ذلك من توسع المدينة وانتشار العمارة والبناء فيها، قال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[٢٢]، أي ان الناس أتوا الى مكة لأداء فريضة الحج من أماكن متباينة بعيدة وقريبة عن مكة، فضلاً عن قدوم التجار العاملين في موسم الحج اليها وخلال أيام السنة باستمرار، نظراً لموقعها التجاري ونشاطها في هذا المجال.

(٩)

انفرد ابن المجاور[٢٣] بذكر العمل بجواز السفر بالنسبة الى المسافرين المغادرين ميناء عدن، فضلاً عن الكفيل الضامن للمسافر، إذ يقول: ((ولو أراد بعض الناس الخروج لوداع مسافر من الباب لما قَدِرَ إن لم يكن معه خط جواز وضامن يضمنه بما يظهر عليه بعد وقت من مال أو عشور ويُكتب في الرقعة علامة الوالي ويخرج بعد ذلك. وان لم يكن له ضامن وإلا أخذ منادي [منادٍ] ينادي عليه في الأسواق: ان فلان بن فلان خارج من الباب فكل من له عليه شيىء يطالبه!.فإن ظهر عليه شيىء كفى الله المؤمنين القتـــال، وإن لم يظهر عليه شيىء خرج الى أي موضع شاء، كما قيل في المثل: المفلس في أمان الله)).

(٢١) تاريخ المستبصر ص ١٣٠. راجع: المصدر نفسه ص ٢٠٤ حول مدينة صعدة، إذ يقول: ((فلماً تمَّ على أهل صعدة ماتم تراجعت الخلق من كلِّ فجٍّ فعمَّر كُلّ منزلهُ ومسكنهُ وسكن فيهِ)).
(٢٢) الحج: ٢٧ ، راجع الإحالة رقم (١٠) وهامشها من بحثنا هذا.
(٢٣) تاريخ المستبصر ص ١٤٦.

النص واضح جداً وصريح بخصوص استخدام جواز السفر والعمل به في مدينة عدن وميناءها، بالنسبة للمسافر الخارج من باب البر أو باب البحر فضلاً عن الكفيل الضامن، وبخصوص استخدام الكفيل الضامن للمسافر اذا ظهر عليه شيىء بعد سفره من ديون أو رسوم... فالكفيل هو الذي يتكفل تسديد ماعلى المسافر، أما بالنسبة الى الغرباء المسافرين ممن ليس لديهم كفيل يعرفهم، فالطريقة هي المناداة بسفر فلان بن فلان في الاسواق فكل من له عليه شيىء يطالبه به قبل سفره، وقد يؤدي ذلك الى منعه من السفرإلا بعد أداء مابذمته من حقوق، لذا استشهد ابن المجاور بقوله تعالى: كفى الله المؤمنين القتال، اي عدم الوقوع في مشكلات جراء سفره دون محاسبة وتدقيق، أما من لم يظهر عليه شيىء فبإمكانه السفر الى أي مكان يشاء، كما قيل في المثل: المفلس في أمان الله، وقد وردت صيغة التضمين من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾[٢٤].

(١٠)

وصف ابن المجاور[٢٥] أوضاع عدن أواخر العصر الأيوبي في اليمن وبداية عصر بني رسول بالفوضى والاضطراب، وروى ان عدن تخرب سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م، مستدلاً على ذلك بدخول أول أمراء بني رسول اليها وحكمها، وهو نور الدين عمر بن علي بن رسول الذي أشاع الرعب والخوف بين سكانها، فضلاً عن سيطرته على مقدراتهم الاقتصادية وتحكمه بحياتهم ومعيشتهم؛ بسبب احتكار بعض المواد التجارية وبيعها بأسعار عالية، اذ يقول: ((وكانت الايام شبه أيام المحشر كل منهم ينادي أين المفر؟.)).

في نص ابن المجاور تشبيه بيوم المحشر ومايصاحبه من خوف ورُعب وهَول، في ذلك المشهد الذي يقف فيه الانسان بين يدي الخالق العظيم ، ويجري تقويمه من خلال أعماله فتوزن حسناته مقابل سيئاته، وماورد في هذا النص هو إقتباس من آيات القرآن الكريم، في

(٢٤) [سورة الأحزاب: ٢٥]. راجع عن القتال ومفرداتها: عبد الباقي. المعجم المفهرس ص ٦٨٠.
(٢٥) تاريخ المستبصر ص ١٤٧.

قوله عز وجل: ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾[٢٦].

(١١)

تحدث ابن المجاور[٢٧] عن مسجد الجَنَد وفضائله، ومنها زيارة الناس له سنوياً في أول جمعة من شهر رجب، وروى ان صفي الدين حاتم بن علي بن محمد بن المعلم، أخذ أبرة مسمومة وغرز فيها خيطاً مسموماً، وصار يغرز الابرة في جوانب البطيخة ويجرها والخيط معاً، وجاء بها الى السلطان سيف الاسلام طغتكين بن أيوب وهو قائم على بناية المنصورة فجلا سكيناً فوق البطيخة ليأكل منها، فتناول منه سيف الاسلام البطيخة فقطع وأكل وشعر بالشر، فقال لعلي بن حاتم: الله المستعان على ماتصفون[٢٨]، فقال له: كل يامولاي ماهو إلاّ خير، وغاب الشيخ حاتم بن علي بن محمد بن المعلم من ساعته، فأوجعه فؤاده ومات.

روى ابن المجاور عن عبد الله بن محمد، قال انه كان يقرأ في النزع (اللحظات الأخيرة قبل موته): ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾[سورة الحاقة: ٢٨-٣٢]، الى تمام الآية.

وروى ابن المجاور[٢٩] عن رجل من آل الصليحي قال: انه قرأ: ﴿ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ [سورة الهُمَزة: ٢-٩]، وصار يكررها الى ان مات، وبقيت البناية على حالها الى وفاة الملك المعز اسماعيل بن طغتكين بن أيوب، فأعادَ الأراضي إلى أصحابها.

في رواية وفاة السلطان طغتكين بن أيوب، إقتبس ابن المجاور عدداً من آيات القرآن

(٢٦) [سورة القيامة: ١٠-١٢]، راجع: [سورة الحشر: ٢].
(٢٧) تاريخ المستبصر ص ١٦٦.
(٢٨) [سورة يوسف: ١٨]، والآية الصحيحة: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾. راجع إحالة رقم (٢١) وهامشها من بحثنا هذا.
(٢٩) تاريخ المستبصر ص ١٦٦-١٦٧.

الكريم في ثلاث سور؛ بهدف العبرة والموعظة، وكيف أن هؤلاء السلاطين أصحاب القوة والثروة يلاقوا مصيرهم المحتوم وهو الموت، وبذلك لاينفعهم مالهم الذي جمعوه بشتى الطرق والوسائل غير الشرعية، بل سوف يخلدهم في النار، فيندموا على ماجمعوا من تلك الأموال التي حرموا الناس منها وظلموهم شر الظلم، بمصادرة حقوقهم وحرمانهم من أبسط مستلزمات العيش والحياة.

(١٢)

تحدث ابن المجاور[٣٠] عن صفة صنعاء وشهرتها بالفواكه والثمار المتنوعة، وأضاف أن اهلها أي سكانها فيهم خليط من نسل العجم خرجوا من الحبوس والقيود في دولة يزدجرد بن شهريار بن بهرام، ويقال كسرى بن قباذ مع سيف بن ذي يزن لتحرير اليمن من الأحباش، ثم قال: ((وحكايتهم مشهورة مذكورة في كتاب مسطور)).

وهذا النص فيه إقتباس من القرآن الكريم، في قوله عز وجل: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ [سورة الطور: ١ -٣]. أي أن تاريخهم مشهور مدون في كتاب مسطور، أي في روايات منتظمة موثقة في صدور الناس وذاكرتهم، ثم في المؤلفات المدونة على لسان الرواة وأهل الأخبار؛ لتوضيح الصراع بين الفرس والأحباش من أجل السيطرة على بلاد اليمن؛ للإفادة من موقعها التجاري على طرق المواصلات العالمية والتحكم بمقدراتها.

(١٣)

روى ابن المجاور[٣١] حديثاً عن منصور بن محمد الواسطي حول ظهور قضبان تسمى: شوحط في أعمال تعز وصنعاء، اذا أُشعل رأس القضيب اشتعل شبه الشمع وهي تُستخدم عوضاً عن السِراج والفُتَل، وأضاف أن هؤلاء القوم مأكولهم الحنطة والحلبة واللحم صيفاً وشتاءً، وسفرهم الى عدن وشراؤهم العُطب والعطر والهندوان، وغاية اشتغال القوم في

(٣٠) تاريخ المستبصر ص ١٨٥ -١٨٦.
(٣١) تاريخ المستبصر ص ١٩٢.

معرفة الجواهر وعلم الكيمياء وعلم النجوم والنحو والمنطق والفلسفة والهيئة والهندسة وحساب الضرب والجُمَل، وأضاف قائلاً: ((وقوم يدعون الحكمة وفصل الخطاب)). وبناؤهم بالحجر القديم.

في النص إقتباس من القرآن الكريم في وصف النبي داوُدعليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾[٣٢] ، وهذا يعني أن هؤلاء القوم كان لهم اهتمام كبير بالعلم والعمل من خلال إشتغالهم بالعلوم المتنوعة المذكورة أعلاه، فوصفهم ابن المجاور بأنهم قوم يدعون الحكمة وفصل الخطاب، أي لهم عقول تعمل بهدف الاطلاع على أسرار العلوم والافادة منها وتسخيرها لخدمة البشرية.

ووصف ابن المجاور[٣٣] سكان مدينة صعدة، بأنهم قوم أخيار يَدَّعون الحكمة ومعرفة الجواهر والعلوم العُلوية، وهم على مذهب الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالبعليه السلام، وهم أصل القوم ومقدميهـــم في المذهب الزيدي، ونستنتج من النص أن هؤلاء القوم سخروا عقولهم في العلم والمعرفة، بسبب مؤهلاتهم العقلية التي وظفوها في دراسة علوم الطبيعة لخدمة الانسانية.

(١٤)

تحدث ابن المجاور[٣٤] عن مساكن شداد وعاد والتبابعة الجبابرة، ووصف بناؤهم بالحجر والرخام والرصاص، وبعضها حُفرت في الجبال أي نُقرت (نُحتت)، كما قال الله عزَّ وجّلْ: وتنحتونَ[٣٥] من الجبال بيوتاً آمنين، فلما كفروا بنعمة الله عزوجل خُسِفَ بهم وتفرق شملهم وتشتتوا في الأقاصي، فأصبحت الدور قبور، والمساكنُ مساكنَ فارتدمت بعضها على بعض، وتقُلعت النخيل والأشجار، وطلع بدلاً منها العُشر والأراك (الشوك)،

(٣٢) [سورة ص: ٢٠]، راجع عن الحكمة في القرآن الكريم: عبد الباقي. المعجم المفهرس ص ٢٧١.
(٣٣) تاريخ المستبصر ص ٢٠٦.
(٣٤) المصدر نفسه ص ٢٠٠ – ٢٠١.
(٣٥) ونص الآية الصحيحـــة: ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾. [سورة الشعراء: ١٤٩].

وسكنت البدو في بيوت الشعر، وصارت الإبل ترعى بين عامر الخراب وتشرب ظباؤها من الندا والسراب لبئس الشراب، وساءت مُرتفقا.

تضمن النص الأخير لإبن المجاور إقتباساً من القرآن الكريم في وصف حال هؤلاء الكافرين الظالمين، وكيف ان الله سبحانه وتعالى يعذبهم عذاباً أليماً كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[٣٦]، وفي هذه الآية الكريمة وصف واضح جداً لمصير الكافرين الظالمين وقد شَبَّهَ ابن المجاور قوم شداد وعاد والتبابعة بهؤلاء الذين وصفهم القرآن الكريم في حالهم المأساوي بعد موتهم، جزاءً وفاقاً على كفرهم وظلمهم وكيف انتقم الله منهم، من خلال هذا الوصف الواضح في القرآن الكريم وفي نص ابن المجاور أيضاً.

(١٥)

روى ابن المجاور[٣٧] عن مُحدثهِ هشام بن مسعود النجراني، ان هنالك طريق قديم يسمَّى: طريق الرضراض يصل الى الكوفة مما يلي ظَهرِاليمن، ويقال انه يصل الى البصرة، وكان أهل اليمن يسافرون فيه على الحمير وعليهم الأديم الى إحدى هاتين المدينتين (البصرة والكوفة)، مرتين في العام، ولما سأل ابن المجاور محدثهِ: على أي الأماكن كان مسلكهم؟. قال: ((على اليمامة والحساء [الإحساء] والبصرة، قلت: ومتى كان عهدكم بعمرانه؟. قال: سنة عشرين وخمسمائة [٥٢٠هـ/ ١١٢٦م])). وقال: [بسيط]:

لما رايت سُلوي غير متجهٍ

وأنَّ غَرْب شِفاري عادَ مفلولاً

دخلتُ بالرغم مني تحت طاعتكم

(٣٦) [سورة الكهف: ٢٩]، راجع عن مفردات: ساء وساءت: عبد الباقي. المعجم المفهرس ص ٤٦٧، وعن: الشراب ص ٤٧٩.

(٣٧) تاريخ المستبصر ص ٢١٧، راجع أيضاً: ابراهيم. رحلة مع أشعار الغربة والحنين الى الأوطان ص٤٣.

ليقضي الله امراً كان مفعولاً

في عجز البيت الثاني اقتباس من القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[٣٨] ويبدو أن ابن المجاور استشهد بهذين البيتين من الشعر إما نقلاً عن محدثه النجراني، او أنه –كعادته –يستشهد بالشعر دون مقدمات أو تسمية الشاعر في أغلب الأحيان، ويسبق ذلك فجأة بكلمة: قال، ثمَّ يذكر بحر الشعر، كما ذكره هنا وهو: البسيط، وهكذا يتضح لنا أن ابن المجاور كان حريصاً كل الحرص على إيراد العبارات والمفردات من القرآن الكريم، لكي يضمنها قصصه وحكاياته وروياته، وهذه المرة الوحيدة التي يستشهد ببيت شعر فيه اقتباس من القرآن العظيم.

(١٦)

أشارَ ابن المجاور[٣٩] إلى أن الكرم من خصائص العرب، ويقال أن أول من أطعم الكِسرة (كِسرة الخبزة)، هو ابراهيم الخليل عليه السلام فهي سُنته، وروى أن أصحاب الأعراف هم ثلاثة: ابو طالب لتربيته رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنو شروان لعدله، وحاتم الطائي لكرمه.

تضمنت رواية ابن المجاور هذه إقتباساً من القرآن الكريم حول أصحاب الأعراف الذين وصفهم الله عزوجل ، بقوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[٤٠].

تتضح لنا مما ذكره ابن المجاور مكانة أهل الكرم ومنزلتهم الفائقة، وأول روادهم سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، فهو أول من أطعمَ كِسرة الخبز، وأصبحت سُنّتُهُ أي طريقته وشهرته في زمانه، فضلاً عن بيان مكانة أهل الأعراف الوارد ذكرهم في القرآن الكريم،

(٣٨) [سورة الأنفال: ٤٤، ٤٢]. راجع ايضاً: [سورة النساء: ٤٧]، [سورة الإسراء: ٥، ١٠٨]، [سورة المزمل: ١٨]، عبد الباقي: المعجم المفهرس ص ٦٦٦.

(٣٩) تاريخ المستبصر ص ٢٢١.

(٤٠) [سورة الأعراف: ٤٦ –٤٨]، راجع: إبراهيم. مأثور الكلام العربي ص٢٤١.

ولعل لمآثر هؤلاء وحُسن صنيعهم بسبب شُهرتهم بالكرم، فضلاً عن تربية أبي طالب للرسول الكريم محمدﷺ أثره في تخليد ذكراهم، فالكريم قريب من الله تعالى قريب من الجنة قريب من الناس.

(١٧)

روى ابن المجاور[٤١]. حكايةً عن ذِمام العرب مفادُها ان دعبل بن علي الخزاعي هجا المطلب بن عبد الله الخزاعي بشعر، فلقيه المطلب في طريق فقال له: سِرْ معي الى منزلي!. فذهب معه، فلما دخل دعبل قال المطلب: والله لأقتلنك شر قتلةٍ، فقال له دعبل: لاتقتلني وانا جائع أشبعني وافعل ماشئت ستجدُني إن شاء الله منَ الصابرين، فقال له المطلب: ماأحسن ماطلبت النجاة!. إن اطعمتُكَ وَجَبَتْ الحُرمة، وإن لم أُطعمُكَ بخلتُ أيَ بُخلٍ، فقال دعبل: والله لاذكرتك بعدها بسوء أبداً، فأطلقهُ وأحسَنَ جائزتُهُ.

يتضح لنا من هذه الحكاية الطريفة كيف ان الشاعر دعبل الخزاعي أحسَن التصرف بكسب عدوه وتهدأته من روعه وغضبه، باسلوب جميل، وورد في القصة إقتباس من القرآن الكريم في قصة النبي إبراهيمعليه السلام مع إبنه إسماعيلعليه السلام، وكيف انه رأى في المنام أنه يذبحه، فاستجاب اسماعيل لطلب والده ابراهيم طاعة له، لكن الله فداه بكبش عظيم، كما في قوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[سورة الصافات: ١٠١ –١٠٢]، ولعل ماورد من قول دعبل الخزاعي مع غريمه المطلب الخزاعي كان سبباً في العفو عنه، إذ طلب دعبل من المطلب أن يشبعه لأنه جائع ثم يقتله، وهذاغير ممكن أن يطعم العربي ضيفه ثمَّ يقتله، لأنَّ ذلك ليس من شيم العرب وذمامهم، فمن يطعم ضيفه يحرم عليه قتله، وإن لم يطعمه يوصف بالبخل والعرب تأبى أن توصف بهذه الصفة الذميمة؛ لذلك أطلق دعبل وأكرمه، وفي هذه القصة كثيرٌ من العبر والدروس والمواعظ ، التي تؤكد ذِمام العرب و عدم غدرهم وعدم إقدامهم على قتل عدوهم إذا كان في بيتهم

(٤١) تاريخ المستبصر ص ٢٢٤ –٢٢٥، راجع بحثنا: مأثور الكلام العربي ص ٢٤٢.

وفي ضيافتهم؛ لأنَّ الكرم يوجب الحُرمة، ومنها حرمة القتل.

(١٨)

روى ابن المجاور[٤٢] أن سقاءً نزل بئراً في طريق مكة يُبرح منه الماء في الدِلاء لقلَّته، فرحل الحاج على غفلة وبقي السقاء في مكانه ثلاثة أيام بلياليها، وبعد انتهاء هذه الأيام قدم رجل من وجوه العرب فأدلى دلوه، فنظر الأعرابي السقاء في قرار البئر فاستقى وسقى حصانه وشرب، وإستخرج السقاء من البئر وأردفه وراءه وسار به غير بعيد، الى أن وصل خبت قفر ليس به مما خلق الله عزوجل من المخلوقات، سوى بيتِ شَعرٍ فيهِ رجلٌ وزوجتُهُ فأكرَموهُ.

في رواية ابن المجاور هذه إقتباس من القرآن الكريم في عبارة: فأدلى دلوه، أي أنزل الدلو في البئر، كما تأتي بمعنى أبدى أو عرض وجهة نظره، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة يوسف: ١٩].

وهذا النص منقول عن سورة النبي يوسف عليه السلام وقصته المشهورة مع اخوته، وماتحمله من العبر والدروس البليغة التي تبين قدرة الله عز وجل وإرادته في حماية أنبيائه ورسله الى بني آدم.

(١٩)

وصف ابن المجاور[٤٣] الجراد النجدي بأنه لايأكل الحشائش ويشم أطيب الأهوية ويشرب أطيب المياه ويتربى في أطيب الأمكنة، ويرجع دواء لكل داء، وروى أنه يظهر في نجد من أعمال تسمى: الدهناء، والموضع هو مشرق البحر، وقيل بل هو يخرج من البحر بإذن الله تعالى عز وجل، قال ابن المجاور: ((وهو قريب من المن والسلوى ينزل على شجر الزيتون بجبال الروم وغيرها. والسلوى هو طير يجيىء الى دمياط على وجه الأرض)).

(٤٢) تاريخ المستبصر ص ٢٢٥.
(٤٣) تاريخ المستبصر ص ٢٢٧ -٢٢٨، راجع: إبراهيم. أشعار الحكم والمواعظ ص٨٠.

وشَبَّهَ ابن المجاور طير السلوى بالجراد النجدي من حيث أوصافه التي ذكرها أولاً فهو طيب في الأكل والرائحة.

تضمن نص ابن المجاور إقتباساً من القرآن الكريم في قصة النبي موسى عليه السلام مع بني اسرائيل، قال تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤٤).

(٢٠)

وفي حديث ابن المجاور(٤٥) عن جزيرة فَرسان، حدد موقعها بين جزيرة وهلك وحلى ابن يعقوب في البحر الأحمر، وأشار الى نِعَم الله سبحانه وتعالى التي خص بها أهل الجزيرة، فبعد طلوع الشمس يدوي الجو بطيور كثيرة تصطف على شاطىء البحر، وتنزل على السكان بعد ساعة طيور تشبه الخُرُق، ويقال تشبه السُمان، يبلغ عددها زهاء مائة ألف طير!. وعند نزولها على شاطىء البحر لاتستطيع الطيران فتأخذ الناس كفايتها منها في الذبح والطبخ، ويتصف هذا الطير بغزارة لحمه وشحمه ولايمل الناس منه؛ بسبب لحمه الخفيف الطيب المريء، وقد سأل ابن المجاور عنه بقوله: ومايسمى؟-والحديث الى بدر مولى بشر الصوفي -، قال: السلوى، وهو الذي قال الله عزوجل فيه: وأنزلنا عليهم المنَّ والسلوى(٤٦)، فقلت للراوي: كم يكون دَور الجزيرة؟. قال: مسيرة يوم كامل لرجل طرّاد، أي رجل فارس يمتطي جواداً، وفي حديث ابن المجاور اقتباس من القرآن الكريم تمَّ تخريجه وتوثيقه، يتعلَّق بقصَّة النبي موسى عليه السلام مع بني إسرائيل -كما ذكرنا.

(٤٤) [سورة البقرة: ٥٧]، راجع أيضاً عن (المن والسلوى): [سورة الأعراف: ١٦٠]، [سورة طه: ٨٠]، عبد الباقي. المعجم المفهرس ص ٤٥٤.

(٤٥) تاريخ المستبصر ص ٢٤٤.

(٤٦) [سورة الأعراف: ١٦٠]، وتخريج الآية كاملة: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

(٢١)

تحدث ابن المجاور[٤٧] عن الأسماء التي يسمي الناس بها أبناءَهم، مقترنة بصفات وآلاء الله سبحانه وتعالى، لكن بصيغة المبالغة، ففي رواية أنَّ رجلاً من الحاكة رُزق ولداً، فقيل له اختر له كنية، فقال: كنوه عبد رب السموات السبع ورب العرش العظيم[٤٨] فقال له الرجل: ابن من؟. قال: ابن عبد الكريم [الله] الذي يُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه[٤٩]، فقال: مرحباً يانصف القرآن.

وأعجبُ من ذلك أن رجلاً من العجم مسكنه أذربيجان سمى ابنه عَبدُ من الأرض قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه[٥٠]. وهكذا يتضح لنا أن هذه الأسماء الطويلة أُطلقت على خلق الله من عباده، فهم عبيده لأنه خالقهم، ومع ذلك فهي أسماء طويلة فيها مبالغة واضحة جداً، بقصد التقرب الى الله سبحانه و تعالى، فقد ذكر ابن المجاور حديثاً عن منصور بن المقرب بن علي الدمشقي، حول أذربيجان أن أصل أهلها عبيد وموالي؛ لذلك فيهم حماقة وكِبْر خارج، ونفوسهم شحيحة وهمتهم قليلة، وماذكره ابن المجاور في روايته عن كنية المولود واسم الوَلَد في أذربيجان، المقترنين بكنى وأسماء الله عزَّ وجلّ، هما مقتبسان من القرآن الكريم في الآيتين اللتين تمَّ تخريجهما.

(٢٢)

روى ابن المجاور[٥١] في حديثهِ عن بناء مدينة قلهات، أن أول من سكن الساحل في قلهات الصيادون، وهم قوم ضعفاء يترزقون الله، ثم تكاثر القوم واستأنسوا، وسكن من جملة الصيادين شيخ من مشايخ العرب اسمه: مالك بن فهم، كان له دور كبير في

(٤٧) تاريخ المستبصر ص ٢٥٥.

(٤٨) ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [سورة المؤمنون: ٨٦].

(٤٩) ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[سورة الحج: ٦٥].

(٥٠) ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[سورة الزمر: ٦٧].

(٥١) تاريخ المستبصر ص ٢٧٢ – ٢٧٤ (بين الصفحتين ص٢٧٣مخطط مدينة قلهات).

تطور مدينة قلهات ونشاطها التجاري، فقد أدار عليها سوراً من الحجر والجص ودخلتها المراكب من كل فج وخور وسائر الجهات، وبمرور الزمن أصبحت المدينة ذات مكانة وهَيبة عظيمة.

في رواية ابن المجاور استشهاد و إقتباس من القرآن الكريم في كلمة: فج، التي وردت في الكتاب العزيز، وكلمة فجاج تعني: المسالك والطرق التي توصل بين الأماكن(٥٢). وجاءت في وصف مكة التي قصدها الناس من كلِّ فجٍّ عميق -كما ذكرنا.

(٢٣)

وصف ابن المجاور(٥٣) الطريق من المنصورة الى عدن راجعاً ، بدءاً من المنصورة الى ريسوت، وذكر خروج الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لمواجهة الخوارج بالنهرين، فكسرّهم وَرَكَّبَ عليهم السيف، ومازال يقتل فيهم الى أن أفنى الجميع، وَرَدَّ البغلة الى القنطرة فوقعت البغلة على نصف القنطرة.

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: أنظروا مَنْ تحت القنطرة!. فإذا هم بـ: أبي الثديين، فقال له أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: جاء الحق وزهق الباطل أسلِم تسلَم، فقال: كيف أُسلِم والبغلة تعلم علم الغيب أني تحت القنطرة؟. فحينئذٍ جَرَّد علي بن أبي طالب عليه السلام السيف وضرب عنقه وهرب من سلم من القوم.

في هذه القصة إقتباس من القرآن الكريم في قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: جاء الحق وزهق الباطل، ويقصد بالحق هنا الإيمان والإسلام والتوحيد، والباطل هو الكفر والشرك والظلال، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾(٥٤).

(٥٢) راجع عن كلمة: فج، [سورة الحج: ٢٧]، و بخصوص كلمة فجاج، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[سورة الأنبياء: ٣١]، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾[سورة نوح: ١٩ -٢٠]، راجع: عبد الباقي. المعجم المفهرس ص ٦٥١.

(٥٣) تاريخ المستبصر ص ٢٧٥ -٢٧٦.

(٥٤) [سورة الإسراء: ٨١]، راجع: عبد الباقي. المعجم المفهرس ص ١٥٧.

ومعنى ذلك أنَّ الإسلام والإيمان هما المنتصران على الكفر والشرك، وهو انتصار الحق على الباطل.

(٢٤)

ذكر ابن المجاور(٥٥) مافعل ملك جزيرة قيس (كيش) في البحر العربي ومافعل معهُ صاحب مكران، الذي أرسل الملك تاج الدين أبو المكارم بن الحسن وابن الحسين كهرو، بمال جزيل فاشتريا له من مسقط حصاناً قيمته ألف مثقال، ورُكب (نُقل) الحصان في مركب إجتاز به من بر العرب الى بر العجم، فلمّا علِمَ بخبر الحصان ملك قيس أرسلَ عدة مراكب (دوانيج وبومات) قطعوا عليه طريق البحر وصادروا الحصان.

ولما سمع تاج الدين أبو المكارم قصة الحصان أخذ مراكب السُرّاق ومَيّلها على منادخ القيسي، وقال لهم: ((كل مركب ترونه لصاحب قيس خذوه أخذ عزيز مقتدر!.))، فأخذوا من ذلك الموسم إثني عشر مركباً موسوقاً من مختلف الأمتعة والطُرُف والتحف والأموال، وهذا يعني أن صاحب مكران ألحقَ الضرر بصاحب جزيرة قيس وطالب بمصادرة أي مركب له وأخذه أخذ عزيز مقتدر، إقتباساً من القرآن الكريم في قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[سورة القمر: ٤١ -٤٢].

كان من نتائج مصادرة ملك جزيرة قيس للحصان الذي اشتراه صاحب مكران، أن الأخير استطاع مصادرة إثني عشر مركباً لصاحب جزيرة قيس بما تحمل من البضائع الغالية، مما إضطر الأخير أن يرسل الى الملك تاج الدين أبو المكارم صاحب مكران رسولاً يقول له: ((قُل الحمدُ للّه على نعمهِ والله المستعان على أهل هذا الزمان، كيف رجع الملوك سُرّاقاً يقطعون طرق البحر على سُلاكه؟.))، فقال تاج الدين للرسول: ((والله ماعلمني قطع الطريق إلا ملككم)). ونجد في كلام رسول ملك جزيرة قيس إقتباساً من القرآن الكريم في عبارة: والله المستعان، إذ وردت في الكتاب العزيز في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[سورة يوسف: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ

(٥٥) تاريخ المستبصر ص ٢٩٨ -٢٩٩، راجع أيضاً: إبراهيم. أشعار الحكم والمواعظ ص٨٤ -٨٥.

مَاتَصِفُونَ ﴾[٥٦].

لقد تضمنت هذه القصة نَصيَن من القرآن الكريم إقتبسهما ابن المجاور في أسلوبه النثري الخاص، وربما نقلهما من حكاية الرواة نقلاً عن تاج الدين أبو المكارم صاحب مكران، ثم نقلاً عن رسول صاحب جزيرة قيس الذي بعث برسالة الى صاحب مكران حملها إليه.

مصادر البحث ومراجعه:

القرآن الكريم.

- ابراهيم. أ. د. محمد كريم (الشمري).

١. أشعار الحِكَم والمواعظ والعبر والـدروس في كتاب: صفة بلاد اليمن... (تاريخ المستبصر) لابن المجاور البغدادي النيسابوري، مجلة التواصل، العدد: ١٠، إصدار: نيابة الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة عدن، منشورات دار جامعة عدن للطباعة والنشر، (عدن، يوليو ٢٠٠٣م).

٢. رحلة مع أشعار: الغربة والحنين الى الأوطان والتغني بالمنازل والديار والخلان (في كتاب: تاريخ المستبصر) لابن المجاور البغدادي النيسابوري المتوفى بعد عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م، مجلة التواصل، العدد: ٨، منشورات دار جامعة عدن للطباعة والنشر، (عدن، يوليو ٢٠٠٢م).

٣. مأثور الكلام العربي في كتاب: صفة بلاد اليمن... (تاريخ المستبصر) لابن المجاور البغدادي النيسابوري المتوفى بعد عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م، مجلة اليمن، العدد: ٢٠، إصدار: مركز البحوث والدراسات اليمنية بجامعة عدن، منشورات دار جامعة عدن للطباعة والنشر، (عدن، شوال ١٤٢٥هـ/ نوفمبر ٢٠٠٤م).

- ابن المجاور البغدادي النيسابوري، ابو بكر بن محمد بن مسعود بن علي (المجاور) بن احمد، (ت٥٠د: ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م).

٤. صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسماة: تاريخ المستبصر، قسم ١ -٢، اعتنى

(٥٦) [سورة الأنبياء: ١١٢]، راجع عن (تَصِفون): عبد الباقي. المعجم المفهرس ص ٩١٩.

بتصحيحها وضبطها: أوسكر لوفغرين، مطبعة بريل، (ليدن: ١٩٥١، ١٩٥٤م).

- عبد الباقي، محمد فؤاد.

٥. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف، منشورات ذوي القربى، الطبعة الثالثة، مطبعة ظهور، (قم، ١٣٨٤هـ).

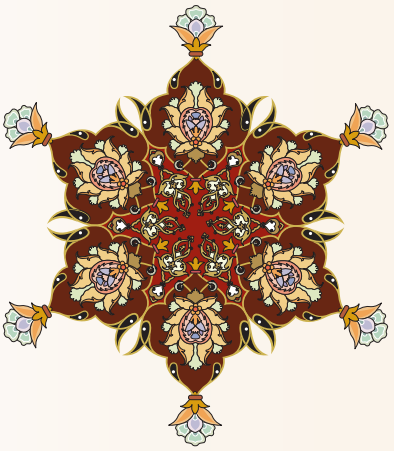

النسوية المعاصرة
نقد آراء محمد شحرور حول حجاب المرأة

فاطمة العقيلي

جامعة الاديان والمذاهب

الخلاصة:

من القضايا والمسائل التي غالباً ما يتم الخلط والغلط فيها مسالة مزاوجة الاختصاص العلمي لمواضيع الفكر الديني بصورة عامة والاسلامي بصور خاصة من قِبل اشخاص غير مختصين في هذا المجال، كما لا تعتبر مسالة الحجاب مسالة جديدة، وللاسف فان اكثر الذين يدعون عدم وجوب الحجاب يستندون الى القرآن في ذلك، وجلّهم يحمل شعار التجديد في الفكر الاسلامي والحرص على قراءة التراث قراءة معاصرة تعيد للاسلام مجده وصدارته ومنهم الباحث محمد شحرور.

وسوف نقتصر في نقدنا لآراء محمد شحرور على فهمه لتعاليم وأحكام الاسلام حول المرأة؛ لأنه يجده من أهم المواضيع حساسية، ويعتقد أنه لم يتم إلى اليوم تقديم بحث أصيل حول المرأة في الإسلام انطلاقا من الجدل بين الحنيفية والفطرة الإنسانية التي تعتبر حدود الله هي العمود الفقري لهذا المنطلق، ولا يمكن -حسب رأيه -حل مشاكل المرأة العربية المعاصرة إلا من خلال فهم إسلامي أصيل للمراة لما ورد في القران الكريم، ويرى إن الأخطاء الأساسية التي ارتكبت في الحقبة التاريخية السابقة عند تقييم وضع المرأة، والتي تعتبر أخطاء في المنهج، هي عدم التفريق بين الآيات التي وردت بحق المرأة في القران والتي

يعتبر جزء منها حدودا والجزء الآخر تعليمات، وكذلك لم يتم التفريق في الأحاديث النبوية بين أحاديث الحدود وأحاديث التعليمات.

ولا يمكن في مقالة مختصرة كهذه بحث كل آراءه حول المرأة لذلك سنقتصر على بحث مسالة اللباس التي طالما أشتهر فيها بنظرته المنفتحة حول لباس المرأة–الحجاب –وما تركه من تأثير سلبي على أفكار وسلوكيات النساء في المجتمع العربي عموماً.

اولا: مختصر عن حياة محمد شحرور:

ولد محمد شحرور بن ديب في دمشق عام ١٩٣٨ م، أتم تعليمه الثانوي في دمشق وحاز على الثانوية العامة ١٩٥٨م وسافر بعد ذلك إلى الاتحاد السوفييتي ليتابع دراسته في الهندسة المدنية، وتخرج بدرجة دبلوم ١٩٦٤م من جامعة موسكو آنذاك ثم عاد لدمشق ليعين فيها عميداً في كلية الهندسة المدنية في جامعة دمشق حتى عام ١٩٦٨م، أوفد إلى جامعة دبلن بإيرلندا عام ١٩٦٨م للحصول على شهادتي الماجستير عام ١٩٦٩م والدكتوراه عام ١٩٧٢ في الهندسة المدنية –اختصاص ميكانيك تربة وأساسات، عين مدرساً في كلية الهندسة المدنية–جامعة دمشق عام ١٩٧٢ لمادة ميكانيك التربة، ثم أستاذا مساعداً.

له عدة كتب في مجال اختصاصه تؤخذ كمراجع هامة لميكانيك التربة والأساسات، بدأ في دراسة التنزيل الحكيم وهو في أيرلندا وذلك في عام ١٩٧٠م، وقد ساعده المنطق الرياضي على هذه الدراسة، واستمر بالدراسة حتى عام ١٩٩٠، حيث أصدر سلسلة (دراسات إسلامية معاصرة) الصادرة عن دار الأهالي للطباعة والنشر في دمشق[١].

ثانيا: أهم المباني الفكرية لمحمد شحرور:

هناك بعض المباني الفكرية المهمة لدى محمد شحرور هي التي دفعته الى أعتماد وقبول بعض الاراء الشاذة المخالفة لفهم العلماء والمفسرين للقران الكريم والسنّة الشريفة، بل واصدار الفتوى أحياناً من خلال تفسير الايات الكريمة بما يرتضيه من دون الرجوع الى

(١) السيرة الذاتية للدكتور محمد شحرور، الموقع الرسمي للدكتور www. shahrour. org.

الادوات اللازمة للتفسير، ومن الضروري الوقوف عندها قبل الشروع في بيان رأيه حول لباس المراة ونقده.

١. الاسلام رسالته خالدة فيجب ان تتلاءم تعاليمه مع التطور البشري.

في بداية كتابه «نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي» يشير شحرور الى أعتقاد المسلمين بان رسالة النبي ﷺ هي خاتمة لكل الرسالات السماوية، ومنها ينطلق الى القول الى انها يجب ان تتوافر فيها الخصائص التالية:

أ. هي الرسالة الخاتمة للاسلام كدين، والذي بدأ من نوح عليه السلام وانتهى بالنبي الخاتم ﷺ.

ب. الرسالة المحمدية هي رسالة الى أهل الارض قاطبة ولكل الاقوام البشرية.

ج. الرسالة المحمدية صالحة لكل زمان ومكان مهما تطورت الحياة البشرية.

ومن هذه المنطلقات يتساءل فيقول» إن مصداقية هذه الرسالة، لا في مكة ويثرب فقط، بل في طوكيو وباريس ومونتريال، وليس في القرن السابع فقط، بل في القرن العاشر والعشرين والتسعين؟.»[٢]، فالقرآن رسالته عالمية، ويجب أن يلائم كل الشعوب والاقوام، ويجب أن يكون مواكبا لكل التطوّرات البشرية.

نعم، أعتقد ان القران الكريم هو رسالة نظام الحياة الخالد الذي بتعاليمه السامية قادر على تربية الانسان وهدايته للوصول الى كماله المنشود، وأرى كذلك ان ماقاله شحرور من ضرورة عدم الجمود على آراء السلف في فهم القران الكريم غير مجانب للصواب حيث يقول» لا يجيزون اي قول لم يقله السلف، ولا يسمحون بأي فهم للكتاب خارج عما فهمه الطبري وابن كثير والسيوطي، ولا يقرون بأي رأي أو اجتهاد لم يرد في كتب التراث»[٣]، ولكن في نفس الوقت أعتقد ان هذا الاجتهاد والرأي في فهم القران الكريم يجب ان يكون وفق قواعد صحيحة وسليمة ومن خلال الادوات التي يمكن من خلالها فهم هذا النص الالهي بشكل صحيح، وايضا عدم الانتقائية في فهم الايات، بل النظر الى القران كمنظومة

(٢) محمد شحرور، نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص٢١.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢.

متكاملة منسجمة في تعاليمها بين العقيدة والتشريع والاخلاق، والاّ سيكون هذا الفهم والاجتهاد عرضة للخطأ والتحريف ويشوبه النقص.

٢. الاعتماد على اللغة في فهم القران.

فالضابط الوحيد عنده في تفسير القرآن هو «الجذر اللغوي»، وعندما يريد تفسير كلمة معينة في القرآن يلجأ إلى القواميس يبحث فيها عن معنى يجده أكثر توافقا مع القيم العلمانية المعاصرة!. وهذه هي خلاصة منهجه. فهو منهج يفتح الباب مُشرعًا أمام تحريف كتاب الله وإبطال مفعول آياته، ويُفقد كتابَ الله مضمونَه التغييريَّ الفاعلَ باعتباره كتابًا هاديًا، فيجعله تابعا لما تواضع عليه البشر في أشدّ العصور ابتعادا عن هدى الوحي.

٣. نزع صفة القدسية عن التراث.

من مبانيه أيضاً نزع صفة العصمة والقدسية عن أهل التراث، فالقدسية لله ولكتابه، والعصمة لله وللرسل في حدود الرسالة، ولا يجوز -بل لا يمكن عقلاً -سحبها على أحد غير الله والرسل لأي سبب كان، وتحت أي عنوان كان، فكل ما هو من صنع الإنسان قابل للخطأ والصواب، وللسهو والنسيان، وقابل بالتالي للنقاش والمراجعة.

ثالثا: آراء شحرور حول لباس المراة:

لقد تناول الشحرور مسالة لباس المراة في بعض بحوثه وكتبه، ولكن يبقى كتابه نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي "فقه المراة" أكثرها تفصيلا وإسهابا في هذه المسالة، لذا سيكون أكثر اعتمادنا على آرائه مقتبسة منه.

ويمكن تلخيص آراء شحرور حول لباس المراة فيما يلي:

١. معنى الحجاب واللباس والمصطلحات المرتبطة في اللغة.

غالباً مايستعمل الشحرور مصطلح اللباس عوضا عن المصطلح الشائع (الحجاب) أو ما يسمى أحيانا بالحجاب الشرعي؛ لأنه يرى إن كلمة الحجاب وردت في القران الكريم ثماني مرات، ولم تمت في كل استعمالاتها إلى اللباس بأية صلة من قريب ولا من بعيد، فكانت الألفاظ التي تدل على اللباس هي الثياب والجلابيب والخُمر.

فيقول "إذا عدنا إلى معجم اللغة لوجدنا أن (حجب) معناها: ستر، والحجاب هو الستر، والحاجب هو البواب، وحجبه: منعه من الدخول، وحجابة الكعبة: سدانتها وتولي حفظها، وكل ما حال بين شيئين يسمى حجابا، وفي قوله تعالى {ومن بيننا وبينك حجاب} معناه: من بيننا وبينك حاجز في النحلة والدين. والأخوة يحجبون الأم عن فريضتها، أي أن الأخوة يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس، والحاجبان هما العظمان فوق العينين وقيل الشعر، وإذا نظرنا للتنزيل الحكيم وجدنا أن كلمة (حجاب) وردت في ثماني مرات" [٤] لذا فهو يرى أن مصطلح اللباس هو مصطلح أدق من مصطلح الحجاب وتتناسب أكثر مع مصطلحات التنزيل الحكيم.

٢. معنى اللباس والسوأة الجلباب والخمار في القران الكريم.

أ. اللباس:

يبدأ الشحرور أولا في بيان المعنى اللغوي لمصطلح اللباس واستعمالاته في اللغة من حيث الحقيقة والمجاز، فيقول"اللام والباء والسين أصل صحيح يدل على الستر والتغطية. وإن انصرف على الحقيقة دلّ على اللباس واللبوس، كما في قوله تعالى﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ ﴾[سورة الكهف: ٣١]، إما إن انصرف على المجاز دلّ على اللبس والالتباس، كما في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[سورة البقرة: ٤٢] فهل نفهم اللباس الذي تشير إليه الآية على وجهه الحقيقي أم على وجهه المجازي؟.

نحن نرى أن في الآية ما يوجهنا لترجيح الجانب المجازي في اللباس، فالله تعالى يقول إن آدم وزوجه طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة بعد أن بدت لهما سوآتهما[٥]، أي أنهما كانا عاريين، ثم خصفا عليهما ثوباً على وجه الحقيقة من ورق الجنة، لكنه تعالى يقول هنا إن الشيطان ينزع عن آدم وزوجه ﴿لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ ﴾[سورة الأعراف: ٢٧]، أي أنهما ما كانا عاريين على وجه الحقيقة حين وسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما،

(٤) محمد شحرور، نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص٢١.

(٥) [سورة طه: ١٢١]، [سورة الأعراف: ٢٢].

وهذا يناقض قوله الأول، وحاشا لله أن تتناقض أقواله وعباراته، ولا يرتفع التناقض إلا إذا اعتبرنا اللباس هنا بمعناه المجازي، وهو ما ذهب إليه ابن عباس وابن جريج وقتادة وغيرهم. الأمر الآخر هو أن اعتبار الجانب المجازي في اللباس يجعلنا نفهم لباس التقوى الذي ذكرته الآية، إذ لا يمكن أن يكون لباس التقوى ثوباً على الحقيقة"[٦].

ب. السوأة:

ينتقل الشحرور بعد ذلك الى بيان معنى السوأة، فيقول السوأة كاللباس، لها وجه حقيقي ووجه مجازي. فأما على الحقيقة فتعني القبح، كما جاء في كتب اللغة "سوآء ولود خير من حسناء عقيم"[٧] وتعني البرص كما في قوله تعالى ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾[سورة طه: ٢٢]، وهو قول الجاحظ كما ذكره الزمخشري[٨]، وأما على المجاز فتعني العورة وهي مالا يجوز أن ينكشف من الجسد، ومن هنا قيل إنها كناية عن فرج الرجل والمرأة، لأن في انكشافه ما يسيء. وتعني الفضيحة والجيفة، كما عند الرازي[٩] في تفسير قوله تعالى ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾ [سورة المائدة: ٣١].

ثم يقول الشحرور "ومرة أخرى تجدنا نميل إلى ترجيح الجانب المجازي للسوأة كما وردت في الآية؛ لأننا افترضنا في اللباس أن آدم وزوجه كانا عاريين في الجنة قبل وسوسة الشيطان وأكل الثمرة المنهي عن أكلها. فإذا فهمنا السوأة بمعنى الفرج عند الرجل والمرأة على الحقيقة، حق لمعترض أن يقول: لكن الفروج كانت موجودة ومكشوفة قبل المعصية ولم يكن في انكشافها ما يسيء، لأن الإحساس بالحرج لدى انكشاف العورة إحساس اجتماعي لا يمكن حصوله بوجود المرء وحيداً في البرية، ولا يمكن وقوعه بغياب آخرين يرون السوأة ويطلعون على العورة. والله تعالى يحدد أن ظهور السوآت في عين آدم وزوجه كان

(٦) محمد الشحرور، نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص٢٣.
(٧) ابن هشام، مغني اللبيب، ص٦١٣.
(٨) الزمخشري، تفسير الكشاف، ج٣، ص٥٩.
(٩) الرازي، التفسير الكبير، ج١١، ص٢١٥.

بعد المعصية وأكل الشجرة ولا يتفق هذا مع كونهما عاريين قبلها إلا إذا اعتمدنا الجانب المجازي للفظ. أما القول بأن خصف ورق الجنة كان لمواراة الفروج والعورات فليس عندنا بشيء؛ لأن ظهور العورات وإبداء السوآت على الحقيقة أمر مستهجن طبعاً ومستقبح عقلاً، إنما ضمن وسط اجتماعي يضم آخرين، وليس في جنة أرضية أو سماوية لا آخر فيها[١٠].

ج. الجلباب والخمار:

يوضح الشحرور ان القرآن الكريم تعرض للحجاب والجلباب والخمار في آيات ثلاث فقط، الأولى آية الحجاب والتي تتعلق بنساء النبي حصراً، ولم يشر لا تلميحا ولا تصريحاً أنها تتعلق بنساء المؤمنين، وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [سورة الاحزاب: ٥٣]، وقد روى السيوطي في تفسير الجلالين أن أسباب نزول الآية هي أنه لما تزوج النبي زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام وقام من القوم من قام، وقعد ثلاثة ثم انطلقوا، فجئت فأخبرت النبي أنهم انطلقوا، فجاء حتى دخل، وذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه، وأنزل الله الآية[١١].

وفي رواية عن عائشة زوج الرسول ﷺ حول أسباب نزول هذه الآية (أخرجها الطبراني) قالت: كنت آكل مع النبي في قعب فمر عمر، فدعاه فأكل فأصابت إصبعه إصبعي فقال: أوه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين، فنزلت آية الحجاب. وفي رواية ثالثة عن ابن عباس حول نزول هذه الآية قال: دخل رجل على النبي فأطال الجلوس فخرج النبي ثلاث مرات ليخرج فلم يفعل، فدخل عمر فرأى الكراهية في وجهه، فقال للرجل: لعلك آذيت النبي فقال النبي لقد قمت ثلاثاً لكي يتبعني فلم يفعل، فقال له عمر: يا رسول الله لو اتخذت حجاباً فإن نساءك لسن كسائر النساء، وذلك أطهر لقلوبهن، فنزلت آية الحجاب[١٢].

(١٠) الشحرور، نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص٣٤٥.
(١١) الشحرور، نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص٣٤٦.
(١٢) المصدر السابق.

والآية الثانية هي آية الجلباب جاءت لنساء الرسول ولنساء المؤمنين وهي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ ﴾[سورة الاحزاب: ٥٩] وجاء في أسباب نزولها عن عائشة قالت" خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب على نساء النبي لحاجتها (كانت النساء يقضين حاجتهن خارج المدينة ومساءً) وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر فقال: يا سودة أما والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين، فانكفأت راجعة ورسول الله في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عِرق (عظم عليه بعض اللحم) فقالت: يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر كذا وكذا، فأوحى الله إليه ثم رفع عنه وإن العِرق في يده ما وضعه، فقال: إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن"[١٣].

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن أبي مالك قال: كانت نساء النبي يخرجن بالليل لحاجتهن، وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن فيؤذين، فشكون ذلك، فقيل ذلك للمنافقين فقالوا إنما نفعله بالإماء، فنزلت الآية. وهنا أيضاً نلاحظ ناحية مهمة جداً وهي أن الآية خاطبت الرسول من مقام النبوة {يا أيها النبي} لأنها جاءت لشروط موضوعية سادت في عهد النبي ﷺ لذا فهي آية تعليمية لا تشريعية وإسقاطها الآن هو الخروج حسب الأعراف لتفادي أذى المجتمع.

الآية الثالثة تتعلق بالخمار والزينة وهي موجهة لعموم المؤمنات: ﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ .. الآية ﴾ [سورة النور ٣١] وجاء في أسباب نزولها عن مقاتل قال: بلغنا أن جابر بن عبد الله حدث أن أسماء بنت مرتد كانت في نخل لها، فجعل النساء يدخلن عليها غير مؤتزرات فيبدو ما في أرجلهن يعني الخلاخيل، وتبدو صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء ما أقبح هذا. فأنزل في ذلك الآية»[١٤].

ولا يفوت الشحرور من بيان نكتة مهمة في مسالة الحجاب وهي اختلاف الحكم بين الحرة والأمة، وهذا ما سارت عليه سيرة الصحابة بعد النبي ﷺ وما افتى به الفقهاء،

(١٣) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم ٤٤٢١.
(١٤) الشحرور، نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص٣٤٧.

فيقول: «كان العرب قبل وإبان البعثة المحمدية يتألفون من طبقتين، طبقة الأحرار وطبقة العبيد. فقد كان الرق نظاماً معمولاً به عند العرب قبل وبعد البعثة المحمدية. وكان للرق والعبيد مصدران، أسواق النخاسة والغزو. ولم تخرج الغزوات في العصر النبوي عن كونها مصدراً من مصادر الرق، فالإمام الواحدي في أسباب النزول، يربط نزول قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة النساء ٢٤] بغزوة أوطاس فيقول عن أبي سعيد الخدري: أصبنا سبايا يوم أوطاس نعرف أنسابهن وأزواجهن فكرهنا أن نقع عليهن فسألنا النبي ﷺ فنزلت الآية فاستحللناهن[١٥].

والإمام الرازي في تفسيره الكبير يرى للإحصان أربعة وجوه أحدها الحرية. فالمحصنة هي الحرة. ولما سقطت هذه الصفة عن المرأة المسبية في الغزو، فقد أصبحت من ملك اليمين فحلّ وطؤها. ويستشهد بقوله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي الحرائر[١٦].

ويضيف الشحرور «كان لابد من هذه التوطئة، لما بين الحرَّة والأَمَة من فرق في اللباس والحجاب، وتأكيداً لما قلناه وقاله كثيرون من أن اللباس والحجاب عند المرأة ليس تكليفاً شرعياً بقدر ما هو سلوك تقتضيه الحياة الاجتماعية والبيئة، يتغير بتغيرها. ومن هنا فقد فرَّق العرب، قبل البعثة المحمدية وأثناءها وبعدها، بين لباس الحرة ولباس الأمة. فلباس الحرة العربية هو لباس السيدة خديجة رضي الله عنها، التي تزوجها النبي قبل البعثة»[١٧].

ولباس المراة عند العرب كما يصفه الشحرور هو «غطاء للرأس يقي من الحر ويجمع الشعر أن يتبعثر، وثوب طويل يستر القسم الأسفل من الجسد، لعدم جود ألبسة داخلية وقتها، وفضفاض يسمح لها بحرية الحركة في أعمالها وتحركاتها داخل البيت وخارجه، ولم يكن في الثوب فتحات أو جيوب إلا فتحة في الصدر، تبدو منها نهود المرأة حين تنحني إلى

(١٥) أسباب النزول، علي بن أحمد الواحدي، ص ٨٥.
(١٦) التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، ج٩ ص٣٢.
(١٧) الشحرور، نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص٣٥٤.

الأمام، وهو الجيب الذي ضربت عليه المرأة المؤمنة خمارها حين نزلت آية النور، ولم يكن لباس الرجل يختلف من هذه الزاوية البيئية الاجتماعية عن لباس المرأة، فقد كان يغطي رأسه من الحر، ويلبس ثوباً طويلاً كيلا تظهر عورته حين يقعد لعدم وجود ألبسة داخلية وقتها. بالإضافة إلى لحية كان يطلقها الرجل، حتى لا يعاب بين قومه. وتروي لنا السيرة أن النبي كان يلبس كما يلبس الناس من حوله، حتى أن الرجل يدخل المسجد فيسأل القاعدين: أيكم محمد؟[١٨].

أما لباس الأمَة، التي اعتبروها تاريخياً ملك يمين، فقد كان أمراً آخر مختلفاً تماماً عما ذكرنا. وهذا بديهي طبيعي من جانبين. الأول أن الأمَة تعمل عند أسيادها على الطعام والشراب وكافة الأعمال المنزلية إضافة إلى جلب اللوازم والحاجيات من السوق. والثاني اختلاف المكانة الاجتماعية بين الحرائر والإماء، الأمر الذي اقتضى وجود فارق في اللباس للتمييز بينهن.

أما في مسألة الحجاب فقد كان التفريق واضحاً على الصعيد التطبيقي الفقهي بين الحرّة والأمَة. ينقل الشحرور عن الدكتور نجمان ياسين قوله «أما الحجاب الذي ضرب على المرأة، والذي كان يعني إدناء الجلباب وفقاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [سورة الأحزاب: ٥٩]، فالقصد منه ألا يتشبهن بالإماء في لباسهن إذا خرجن من بيوتهن لحاجتهن، فيكشفن عن شعورهن ووجوههن، ولكن يدنين عليهن من جلابيبهن، لئلا يعرض لهن فاسق بأذى إذا علم أنهن حرائر، فقد كانت الحرة تلبس لباس الأمة ذاته، فأمر الله نساء المؤمنين بإدناء جلابيبهن عليهن، وإدناء الجلباب أن تتقنع وتشد على جبينها، وهذا يعني أن الجلباب اتخذ كإجراء وتدبير لمعالجة حالة استثنائية دخلت على مجتمع المدينة، وأن الرسول ﷺ قد خشي ألا يميز الفسّاق من الشباب بين الأمَة التي يستلزم وضعها باعتبارها مملوكة أن تظهر مكشوفة، وأن تظهر محاسنها بأنواع الزينة للترغيب في شرائها وبين الحرة،

(١٨) المصدر السابق.

فيتبعها الغواة وقد يصيبها منهم مكروه"[١٩]، ويعلق الشحرور على كلامه بقوله» والحق أن المفسرين قد وضعوا اليد على سبب إدناء الجلابيب، ووجدوا علاقة بين الجلباب والوضع الاجتماعي الأخلاقي في المدينة ويضيف: كذلك نرى أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أخذ إجراءات احترازية للحيلولة دون الخلط بين الحرائر والإماء، فلم يكن يسمح للجواري بالخروج في هيئة الحرائر[٢٠]، ولقد سار الخليفة عمر بن عبد العزيز على المنهج ذاته فدعا إلى «أن لا تلبس الأمة خماراً ولا يتشبهن بالحرائر»[٢١].

أما بالنسبة للفقه، فقد أجاز الفقهاء للأمَة لباساً معيناً، تحت عنوان لباس الأمَة في الصلاة، فشرط الصلاة الثاني هو ستر العورة، ويختلف حد العورة بالنسبة للرجل والحرة والأمة، أما الحكم خارج الصلاة فيستدل الشحرور على ذلك من خلال كتاب الفقه على المذاهب الأربعة الذي يقول «يجب على المكلف ستر عورته خارج الصلاة عن نفسه وعن غيره، ممن لا يحل لهم النظر إلى عورته إلا لضرورة كالتداوي. حد العورة للمرأة الحرة خارج الصلاة هو ما بين السرة والركبة، إذا كانت في خلوة، أو في حضرة محارمها، أو في حضرة نساء مسلمات. أما إذا كانت بحضرة رجل أجنبي أو امرأة غير مسلمة فعورتها جميع بدنها عدا الوجه والكفين. أما عورة الرجل خارج الصلاة فهي ما بين سرته وركبته ويحل النظر إلى ما عدا ذلك من بدنه مطلقاً عند أمن الفتنة»[٢٢].

وفي فقه الشيعة فإن عورة الأمة كعورة الرجل، فقد أورد الشيخ الطوسي (٣٨٥-٤٦٠هـ) في تفسيره (التبيان): «قيل: العورة من النساء ماعدا الوجه والكفين والقدمين، وقيل العورة من الرجُل العانة إلى مستغلظ الفخذ من أعلى الركبة وهو العورة من

(١٩) الإسلام والجنس في القرن الأول الهجري، ص ٦٣، ٦٤ نقلًا عن الشحرور، نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص٣٥٥.

(٢٠) مالك، موطأ مالك ص ٨٣٦.

(٢١) طبقات ابن سعد ج٥ ص ٢٨١.

(٢٢) الشحرور، نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص٣٥٥.

الإماء»[٢٣].

بعد ذلك يعلّق الشحرور قائلا «فإذا كان لباس الأمة في الصلاة كما ذكرنا، فلك أن تتصور لباسها في أسواق النخاسة، وهي تعرض للبيع في أسواق المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة، وهذا الأمر الذي بلغ ذروته في العصر العباسي ثم المملوكي فالعثماني. حيث كان الرجال يخافون على حرائر النساء من الاختلاط، فعمدوا إلى منعهن من مغادرة البيوت، وإلى إجبارهن على تغطية وجوههن بسبب التسيب الجنسي، ونرى فيه سبباً تاريخياً اقتضاه الواقع الاجتماعي. حين كانت الإماء تسير في الطرقات وتقف في الصلاة عارية الثديين والإبطين حاسرة الرأس، لا تستر سوى جيوبها السفلية ما بين الركبة والسرة، وذهب الرق، وانتهى عهد العبودية، وطوى التاريخ لباس الأمة، وبقي لباس الحرة على أنه لباس الإسلام الشرعي، بينما هو لباس اجتماعي بحت لا علاقة له بالإسلام أو بالإيمان لا من قريب ولا من بعيد»[٢٤].

ثم يستشهد ببعض الاقوال لبعض علماء السنّة فينقل عن ابن تيمية قوله في مسالة الحجاب «الحجاب مختص بالحرائر دون الإماء، كما كانت سنة المؤمنين في زمن النبي ﷺ وخلفائه، أن الحرة تحتجب والأمة تبرز، وكان عمر إذا رأى مختمرة ضربها وقال: أتتشبهين بالحرائر أي لكاع، وقد كانت الإماء في عهد الصحابة يمشين في الطرقات متكشفات الرؤوس ويخدمن الرجال مع سلامة القلوب[٢٥].

ومن هنا يستنتج الشحرور ما يستند إليه بعضهم من ان السبب لحجاب للمراة هو خشية افتتان الرجل لا صحة له إطلاقا، فيقول «هذا يظهر لنا بشكل قاطع أن أطروحة الحجاب التي تقوم على فتنة المرأة للرجل ليس لها أساس شرعي أو ديني، ولا تتفق حتى مع المنطق، إذ كيف نأمر بتحجيب الحرائر ونسمح بسفور الإماء، ويتفق هذا مع مفهوم أن

(٢٣) الستر والنظر، مهدي شمس الدين، ص ١٩٢.
(٢٤) الشحرور، نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص٣٥٦.
(٢٥) ابن تيمية، حجاب المرأة ولباسها في الصلاة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ص٣٧.

المرأة فتنة للرجل وأنها كلها عورة وأنها كلها شر، والأمة أصلاً امرأة؟. وكيف نفهم أن الحرة القبيحة يجب أن تتحجب، ولا بأس بسفور الأمة ولو كانت شقراء حوراء في الثامنة عشرة من العمر؟. إلا إذا فهمنا أن مفهوم (المرأة فتنة الرجل) جاء من التفسير التوراتي لقصة الخطيئة الأولى»[٢٦].

وبهذا يصل الى نتيجة نهائية بخصوص مسالة الحجاب وانها قضية تاريخية فيقول»بعد هذا كله، وبعد أن تبين لنا من هذه المقدمة أن لباس المرأة ومفهوم الحجاب الشرعي أمر تاريخي بحت غير محسوم، ولا يخلو من الالتباس والتدليس، ننتقل لإعادة قراءة آيات الزينة، وماذا يظهر منها وماذا يخفى بالنسبة للمرأة والرجل على حد سواء، لاسيما بعد أن اتضح أمامنا أن الحجاب جاء في كتاب الله خاصاً بنساء النبي بمعناه المكاني في ضوء قوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾، وأننا لا علاقة لنا به لخصوصيته حصراً بنساء النبي ﷺ[٢٧].

د. زينة المرأة:

بعد ان ينتهي الشحرور من بيان المعنى اللغوي والقرآني حسب فهمه للباس والحجاب يتناول موضوع زينة المراة ويقسمها إلى قسمين:

القسم الأول: الزينة الظاهرة.

القسم الثاني: الزينة المخفية.

ولكن ماهي زينة المرأة المقصودة في الآيات الواردة في القران الكريم؟. وهنا ايضا يجعلها على انواع ثلاثة هي:[٢٨]

أ. **زينة الأشياء:** إن زينة الأشياء هي إضافة أشياء لشيء أو لمكان ما لتزيينه، مثال على ذلك الديكورات في الغرف والنجف والدهان والملابس وتسريحة الشعر للرجل والمرأة

(٢٦) الشحرور، نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص٣٥٧.
(٢٧) الشحرور، نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص٣٥٧.
(٢٨) المصدر السابق.

والحلي والمكياج للنساء. كل هذه أشياء تضاف للتزيين، وقد جاءت الزينة الشيئية في قوله تعالى: والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة النحل ٨. وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[سورة الاعراف: ٣١].

ب. **زينة المواقع أو الزينة المكانية**: وهذا واضح في المدن، فالبلديات في المدن تبقي على ساحات خضراء تسمى حدائق. هذه الأماكن للزينة يقصدها الناس وهي تنتسب إلى الزينة المكانية، أي أن تبقى أماكن على طبيعتها أو نضيف عليها أشياء طبيعية كالشجر والورد وهذا ما جاء في الآية ٣١ في سورة النور أي حتى تنسجم هذه الآية مع آيات المحارم في سورة النساء يجب أن تكون الزينة مكانية لا شيئية.

ج. **الزينة المكانية والشيئية معاً** جاءت في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾[سورة الاعراف: ٣٢] فإذا كانت الزينة مكانية فجسد المرأة كله زينة والزينة هنا حتماً ليست المكياج والحلي وما شابه ذلك، وإنما هي جسد المرأة كله، هذا الجسد يقسم إلى قسمين:

قسم ظاهر بالخلق، لذا قال تعالى﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾فهذا يعني أن هناك بالضرورة زينة مخفية في جسد المرأة. فالزينة الظاهرة هي ما ظهر من جسد المرأة بالخلق أي ما أظهره الله سبحانه وتعالى في خلقها كالرأس والبطن والظهر والرجلين واليدين، ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الرجل والمرأة عراة دون ملابس.

قسم غير ظاهر بالخلق، أي أخفاه الله في بنية المرأة وتصميمها، هذا القسم المخفي هو الجيوب. والجيب جاء من "جَيَبَ" كقولنا جبت القميص أي قورت جيبه وجيبته أي جعلت له جيباً، والجيب كما نعلم هو فتحة لها طبقتان لا طبقة واحدة، لأن الأساس في "جيب" هو فعل "جوب" في اللسان العربي له أصل واحد وهو الخرق في الشيء ومراجعة الكلام "السؤال والجواب" فالجيوب في المرأة لها طبقتان أو طبقتان مع خرق وهي ما بين الثديين وتحت الثديين وتحت الإبطين والفرج والإليتين هذه كلها جيوب، فهذه الجيوب يجب على المرأة المؤمنة أن تغطيها لذا قال﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[سورة النور: ٣١].

والخمار جاءت من "خمر"، وهو الغطاء، والخمر سميت خمراً؛ لأنها تغطي العقل، وليس الخمار هو خمار الرأس فقط، وإنما هو أيُّ غطاء للرأس وغير الرأس، لذا أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنات بتغطية الجيوب التي هي الزينة المخفية خلقاً وسمح لهن بإبداء هذه الجيوب بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[سورة النور: ٣١] هذا الإبداء لا يكون إلا لشيء مخفي أصلاً، ثم يضيف في بيان مقصوده "قد يقول قائل: هذا يعني أنه لا يجوز للمرأة المؤمنة أن تظهر عارية تماماً أمام المذكورين في آية ٣١ من سورة النور، أقول -والكلام للشحرور- نعم لا يجوز ذلك إلا عرضاً أو سهواً أو اضطراراً، فالزوج هو صاحب الحق الوحيد بأن يرى جيوبها السفلية (العورة المغلظة)، أما الجيوب العلوية (الصدر وتحت الإبطين) فيجوز لها إظهارها للمذكورين في الآية، فإن فعلت، فلا يسمى ذلك حراماً بل يعتبر عيباً"[٢٩]، فاللباس والحجاب في عهد الصحابة لم يطل الإماء، وكن يمشين في الطرقات كاشفات الرؤوس والصدور، فقد روى أنس أن إماء عمر «كنَّ يخدمننا كاشفات عن شعورهن تضطرب ثديهن»[٣٠] ثم يسترسل قائلا «يبقى لقائل أن يقول: إن ما تقوله عن لباس المرأة الذي جاء في سورة النور «الفرائض» هو تغطية نصف الجيوب المخفية (العورة المغلظة) عن كل الناس بما فيهم البعل ماعدا الزوج، والنصف الآخر عن المذكورين في الآية. أقول: نعم وهو الحد الأدنى من اللباس لذا سماه فريضة وهو فرق بين المسموح والممنوع دون عقوبات ومع التوبة فقط. ولكن هل للمؤمنة أن تخرج بهذا اللباس الذي هو الحد الأدنى؟. أقول: لقد جاء اللباس المتمم لهذا اللباس في سورة الأحزاب، وجاء الخطاب في مقام النبوة الذي هو ليس تشريعاً، وإنما تعليمات لدفع الأذى وذلك في قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[سورة الاحزاب: ٥٩]، هنا بدأت الآية بقوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ} فهي آية تعليم وليست آية تشريع، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد فهمت الآية في المدينة

(٢٩) الشحرور، نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص٣٧١.

(٣٠) البيهقي، سنن البيهقي، حديث رقم ٣٢٢٢.

فهماً مرحلياً، فارتبطت بعدم تعرض المؤمنات للأذى من قبل بعض السفهاء، أثناء الذهاب لقضاء حاجتهن، وقد زالت هذه الشروط والدواعي الآن تماماً، لأن آلية تطبيق هذه الآية لا تعتبر أبدية، وهذه الآية تعلم المؤمنات اللباس الخارجي حصراً أو لباس الخروج إلى المجتمع وهو ما سماه بالجلباب، فالجلباب جاء من الأصل "جلب" وهذا الفعل في اللسان العربي له أصلان أحدهما الإتيان بالشيء من موضع إلى موضع، والآخر الشيء يغشي ويغطي شيئاً آخر، فالجلبة هي القشرة التي تغطي الجرح عندما يبرأ ويندمل وقبل أن يبدأ الجرح بالاندمال نضع له رباطاً من القماش المعقم لنحميه من الأذى الخارجي. ومن هنا جاء الجلباب للحماية وهو اللباس الخارجي الذي يمكن أن يكون بنطالاً وقميصاً أو تايوراً أو روباً أو مانطو، كل هذه الملابس تدخل تحت بند الجلابيب»[٣١].

وإذا قلنا للشحرور ان هذا الفهم مخالف للتفسير الموروث حول لباس المراة المستند على الروايات الصحيحة وفتاوى فقهاء الاسلام واجماعهم يقول «لنشرح الآن أين يكمن خطأ التفسير الموروث حول لباس المرأة، فإذا أخذنا المرأة العربية في شبه جزيرة العرب قبل نزول الآية ٣١ في سورة النور والآية ٥٩ في سورة الأحزاب فنرى ما يلي:

١. لم تكن المرأة العربية حين نزول هاتين الآيتين عارية بدون ملابس.

٢. الرجال والنساء العرب كانوا يلبسون الزي القومي حسب الأعراف السائدة في مجتمعهم وحسب المستوى الإنتاجي للألبسة، فكان النبي ﷺ يلبس من لباس قومه حتى أن كثيراً من العرب كانوا حين يأتون للمدينة لا يستطيعون تمييزه من غيره في اللباس، ويسألون: من منكم محمد؟. وكذلك كان لباس المرأة العربية لباساً حسب أعراف العرب ومناخ شبه جزيرة العرب فكانت تلبس ثوباً طويلاً وتضع خماراً على رأسها ليقيها الحر كلباس نساء البادية الآن، وهذا كان لباس أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها التي توفيت قبل نزول سورة النور وسورة الأحزاب، حيث كان لباسها قومياً تماماً، فعندما نزلت الآية ٣١ من سورة النور نظرت المرأة العربية المسلمة إلى لباسها الذي

(٣١) الشحرور، نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص٣٧١.

ترتديه فعلاً ولم تغير منه شيئاً وإنما وجدت إمكانية إظهار جيوب الثديين من فتحة الصدر في ثوبها الخارجي فضربت على صدرها بخمار رأسها، لأن بقية الجيوب أصلاً كانت مغطاة في زيها القومي، وهذا ما فعلته السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حتى أننا لا نجد فرقاً بين لباس السيدة خديجة والسيدة عائشة، وخاصة فيما يتعلق بغطاء الرأس، ومن هنا فهم خطأً بأن الجيوب هي الصدر فقط، لذا فإن ما نسميه اليوم باللباس الشرعي هو لباس المرأة العربية المؤمنة والمسيحية في القرن السابع الميلادي. إن الحد الأدنى للباس المرأة المؤمنة فقط جاء في سورة النور وجاء لكل مؤمنات الأرض ولكل زمان، فعلى المرأة العربية المؤمنة أن تصحح هذا المفهوم الخاطئ والذي نتج عن قياس الشاهد لباس مسلمات أهل الأرض جميعاً في كل زمان ومكان على الغائب وهو اللباس القومي للمرأة العربية وليس المؤمنة فقط في القرن السابع، ولا يصح هذا القياس إلا إذا افترضنا أن المرأة العربية قبل نزول آيتي النور والأحزاب كانت عارية تماماً بدون أي لباس ثم لبست ما لبست من جراء هاتين الآيتين وهذا موضوعياً غير صحيح»[٣٢].

٣. أما فيما يتعلق ببعض الآراء الفقهية التي ترى أن صوت المرأة عورة، فيعتقد ان هذا محض وهم؛ لأن المرأة كانت تحضر صلاة الجمعة في المدينة وكانت تقف مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في طرقات المدينة وتسأله ويجيب على أسئلتها، ثم أن العورة هي من الحياء لا من الحرام، أي أنه إذا كان مجتمع ما، يحبذ صوت المرأة ولا يعتبره عيباً حتى في الغناء فلا يوجد أي إثم في ذلك. قد يقول البعض: وهل الفقهاء كانوا لا يعرفون اللغة العربية ونحن نعرفها الآن؟. إن الخطأ ليس خطأً لغوياً، وإنما في المنهج، فعندما يقرأ علماء العربية كلهم الآية ٣١ من سورة النور والآية ٥٩ من سورة الأحزاب ويقرؤون الحديث النبوي «كل المرأة عورة ماعدا وجهها وكفيها» ظانين بأن هذا الحديث هو شارح للآية وليس الحد الأعلى للباس المرأة، أي أعطى الطرف المقابل. ففي هذه الحالة لا تفيدهم كل معرفتهم للغة العربية وفقهها ونحوها وصرفها بشيء وسيضطرون إلى

(٣٢) الشحرور، نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص٣٧٢.

قبول المغالطات والدوران»[٣٣].

٤. الحد الأدنى للباس المرأة بشكل عام هو تغطية الجيوب العلوية (الثديين وتحت الإبطين) بالإضافة إلى الجيوب السفلية وهو ليس لباس الظهور الاجتماعي. وما مفهوم السرة والركبة إلا مفهوم اجتماعي فقهي بحت، ولباس الخروج الاجتماعي للمرأة هو ابتداءً من الحد الأدنى وهو حسب أعراف المجتمع الذي تعيش فيه وحسب ظروف الزمان والمكان بحيث لا تتعرض للأذى الاجتماعي، ويتدرج حتى يبلغ حده الأعلى بإظهار الوجه والكفين فقط، فغطاء الرأس بالنسبة للرجل أو المرأة ليس له علاقة بإسلام ولا بإيمان وهو يتبع أعراف المجتمع بشكل كامل»[٣٤].

رابعا: نقد آراء شحرور حول لباس المراة.

بعد ان أستعرضنا باختصار أهم آراء محمد الشحرور حول لباس المراة وحجابها نسجل هنا بعض الملاحظات على ما أورده وبما يتناسب مع هذه المقالة، وسنشير أولا الى بعض الملاحظات العامة ومن بعد ذلك نتناول بالنقد آراءه بشكل جزئي.

١. من أهم الملاحظات العامة على منهجية محمد الشحرور هي عدم كونه متخصصا في المجال الذي أفتى فيه، وهذا يعتبر من المسائل التي لا يرتضيها المنطق والعقل، فلو ان باحثا في اللغة او الفكر كتب في تشريح المباني الهندسية الا يكون الدكتور شحرور اول المعترضين، ولعدم تخصصه في الفقه الاسلامي نراه لم يعتمد على النصوص الاسلامية بمقدار ما اعمل العقل وجعل النص عاضدا مؤكدا له فمثلا في مسالة حجاب المرأة حسم الدكتور الأمر بان الحجاب لايشمل الرأس، ومن هنا نقول ان المختص بعلوم الفيزياء والطب والهندسة يختلف بصورة واضحة عن المختص بعلوم الادب والفقه والفسلفة، وهذا الامر ينطبق على من ينتقل من اختصاص علمي الى اختصاص فكري مرتبط بالفكر الديني، ويسعى إلى سبر أغوار تشريعاته المتشعبة التي تحتاج الى

(٣٣) الشحرور، نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص٣٧٥.

(٣٤) المصدر السابق.

تخصص وجهد أستثنائي في فهمها، والتي تحتاج إلى تحصيل ملكة الاجتهاد في هذا المجال، من هنا يبدء نقدنا للدكتور السوري محمد شحرور الاستاذ في الهندسة المدنية اختصاص ميكانيك التربة، الذي أعتبر كذلك من المفكرين الحداثويين في الفكر الديني الاسلامي، فهو لا تخصص له في مجال الفقه الاسلامي، نعم قد يكون قاريء ومطلّع، ولكن التخصص شيء أخر.

ونقطة أخرى أبتلى بها المفكرون الحداثويون ومنهم الشحرور هي إنهم بدلا من أن يلجأوا إلى القرآن وترجمانه وهي السنّة الشريفة لاستخلاص مفاهيمه وقيمه وأحكامه بمعزل عن تأثير القيم العلمانية المعاصرة، يقومون بعملية عكسية، وهي أنهم يجعلون القرآن تابعًا للقيم العلمانية المعاصرة، ويقومون بليّ أعناق النصوص ليخرجون بمفاهيم تتلاءم مع هذه القيم التي يعتقدون بأنها صحيحة وسليمة.

٢. كما هو مشهور فان الحجاب في اللغة هو الساتر، والوجوه التي ذكرت في القران تقريبا والتي اوردها محمد شحرور ايضا مختلفة وكثيرة، وهذا صحيح، وهو مانحتاجه في موضوع الحجاب والستر؛ لاننا نحتاج الى ساتر لنظر الرجل يمنع الرؤية عن مفاتنها ومحاسنها، فلو امتنع وجود الرجل الاجنبي عنها فلها ان تكشف هذا الحجاب عنها، بعكس اللباس فهو لايقترن بالرؤية، اما اللباس فهو: ما يَستُرُ الجسم، وقد ياتي ويقصد به الزوجة او الزوج لكل منهما كما قال تعالى ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾[سورة البقرة: ١٨٧]، وصحيح ايضاً أطلاق كلمة اللباس ويقصد منها غير اللباس المتعارف مثل التقوى والعمل الصالح[٣٥]، قال تعال ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾[سورة الأعراف: ٢٦]، وهنا تقف الدلالة للباس على معان مختلفة، فاللباس فيه دلالة على ستر الجسم فيشمل مناطق الحجاب وغيرها، ونحتاج الى تخصيص المعنى من اللباس اولا ثم تحديد الجهة المراد تلبيسها، اما لو استعملنا الحجاب فدلالته مباشرة على الستر ويبقى عندنا تحديد ماهو المستور، والشحرور يؤكد بلا دليل مقنع بعدم ضرورة ستر

(٣٥) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مادة لباس.

غطاء الرأس؛ لان غطاء الرأس لايسمى لباسا وانما يسمى قناعا او برقعا او نقابا على اختلاف فيه، فلا علاقة لغطاء الرأس لا من قريب ولا من بعيد بمسألة الحجاب، وإن غطاء رأس المرأة هو من عادات العرب، ولكن هذا القول يحتاج الى دليل يعاضده ويثبته وقد أكتفى الشحرور بالقول إنه من عادات العرب، فنقول هناك الكثير من الامور التي كانت من عادات العرب وجاء الاسلام وأقر بعضها مع بعض التغيير في أحكامها، وليكن الحجبا وغطاء الراس من تلك العادات التي أقرها الاسلام، فيكون غطاء الراس أيضاً حجاباً ملزماً للمراة.

٣. من الامور التي أكّد عليها الشحرور في معرض حديثه عن لباس المراة هي العرف السائد في الجاهلية، ويظهر بنظرة تاريخية للباس المراة في زمن الجاهلية، والى ما بعد الهجرة، إن المراة لم تكن تهتم كثيرا بمسالة الستر، قال الزمخشري: "كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها، وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة"(٣٦)، وقال الرازي: «ان نساء الجاهلية كن يشددن خمرهن من خلفهن، وان جيوبهن كانت من قدام، فكان ينكشف نحورهن وقلائدهن»(٣٧).

ومن هنا يتضح كيفية اهتمام المراة في الجاهلية وقبل نزول أية الحجاب بالستر واللباس في ذلك الوقت، بالاضافة الى ان الخمار نفسه لم يكن امرا ملزماً للمراة في الجاهلية، بل كانت بعض النساء تخرج من دون خمار؛ حيث لم يكن الخمار امرا مشرعاً في دين الجاهليين او عرفهم(٣٨).

ويظهر، هذا الامر ايضا، مما نقل عن عائشة قولها: « لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ انْقَلَب رِجَال مِن الأنصار إلى نِسَائهم يَتْلُونَهَا عَليهن، فَقَامَتْ كُلّ امْرأة مِنْهُنّ إلى مُرْطِها فَصَدَعَتْ مِنه صَدْعَة فاخْتَمَرَتْ بِها، فأصْبَحْنَ مِن الصُّبْح وكأن على رُؤوسهن الغِرْبَان"(٣٩)،

(٣٦) الزمخشري، تفسير الكشاف، ج٣، ص٣، ص٢٣١.
(٣٧) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج٢٣، ص٢٠٦.
(٣٨) انظر: مهدي الامين، مسالة الحجاب في القران، مجلة المنهاج، العدد ٢٦، ص ٢٤٢.
(٣٩) انظر: العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج٨، ص ٣٥٨.

وهذا يدل على ان بعض نساء الانصار لم يكن مختمرات قبل نزول الاية وتشريع الحجاب.

٤. اما على المستوى المنهجي الاستدلالي فقد حاول شحرور ان يعكس وجهة نظر القرآن في مسالة الستر، واقتصر على القرآن الكريم من دون التعرض للسنّة الشريفة، وكان منهجه في التفسير كذلك لا يتعدى اللغة والتركيب والسياق في أغلب الاحيان، وهويصرّح بالاقتصار على البحث القرآني في مسالة الستر لامكان الاستفادة من هذه المسالة من كتاب الله، من دون الاستعانة بالسنّة الشريفة، وهذا منهج مبتور، لاسيما في المذهب الامامي الاثنى عشري، فإن الاحاديث الواردة عن اهل البيت عليهم السلام صريحة وواضحة في مسالة الحجبا والستر ولباس المراة، وكذلك آراء الفقهاء والعلماء وإجماعهم وفتاواهم الشرعية بخصوص مسالة الحجاب ولباس المراة، فقد اغفل شحرور، في قراءته للاحكام الشرعية، جميع ما جاء في تراثنا وجميع الجهود التي بذلت من قبل العلماء، وادعى انهم لم يفهموا الشريعة على النحو الصحيح، بحجة انهم لم يفهموا نظرية الحدود التي اوردها، حيث انه رمى بكل التراث الاسلامي في الفقه وراء ظهره وصرّح غير مرة بانه غير ذي قيمة في بحث لا بد من ان يرتكز بشكل اساسي على مسيرة هذا التراث وطوره التاريخي.

مِنْ جَدِيدِ الدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيَّةِ

م. م. مقدام محمد جاسم البياتي
المديرية العامة للتربية- محافظة ميسان

أوّلًا: الكتب والدراسات:

- **آليات دراسة النص القرآني عند ابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ) من خلال كتابه "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" دراسة وصفية تحليلية:**

أسماء موسى، دار الحديث الحسنيّة -الرّباط، ١٤٣٨هـ.

- **الأحكام الفقهيّة المستمدّة من قصص القرآن أولو العزم أنموذجًا:**

صلاح مهدي صالح النعيمي، تقديم: أحمد حسن الطه، دار النفائس للنشر والتوزيع- الأردن/ دار الفجر للنشر والتوزيع/ العراق، ١٤٣٩هـ.

والكتاب من إصدارات المجمع الفقهي العراقي لكبار العلماء للدعوة والإفتاء.

- **أسماء التفضيل الدالّة على الذمّ في القرآن الكريم دراسة سياقيّة:**

رعد هاشم العبودي، ط١، مؤسسة دار الصادق الثقافية -بابل، ٢٠١٧م.

- **إرشاد الحليم إلى آداب التعليم في ضوء ما جرى بين الخَضِرِ والكليم عليهما الصلاة والتسليم:**

تأليف: مولانا محمد أمين الأوركزئي، ترجمة: عمر فاروق، دار المقتبس -بيروت، ١٤٣٩هـ.

- **البرهان في علوم القرآن:**

تأليف: بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية -بيروت، ١٤٣٩ هـ، ٤ج في ١مج.

- **تحليل النصّ القرآني في سياق الحمد والتسبيح دراسة في مستويات اللغة:**

حسن عبيد المعموري، ط١، دار الرضوان/ عمّان، ومؤسسة دار الصادق الثقافية في بابل، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٨م.

- **الترجيح النحوي في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسيّ (ت٧٤٥هـ):**

محسن حسين علي الخفاجي، ط١، دار الرضوان/ عمّان، ومؤسسة دار الصادق الثقافية في بابل، ٢٠١٨م.

- **تفسير ابن كمال باشا:**

لشمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا (ت٩٤٠هـ)، بإشراف الأستاذ ماهر أديب حبوش، دار الإرشاد/ إستانبول -تركية، ٩مج.

- **تفسير الفاتحة:**

تأليف: أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ)، تحقيق سامي بن محمد بن جاد الله، ط٢، مصحّحة ومزيّدة تتضمن قطعة جديدة، مركز ثبت للبحوث والدراسات -الرياض، ١٤٣٩هـ.

- **تفسير القرآن العظيم المسمّى تفسير ابن أبي حاتم:**

أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، ط١، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع- المملكة العربية السعودية، ١٤٣٩هـ، ١٧مج.

وأصله رسائل علمية في جامعة أمّ القرى في المملكة العربية السعودية.

- **التناسق الموضوعي في سورة الإسراء:**

منصور علي العمراني، مكتبة المجتمع العربي -عمّان، ١٤٣٩هـ.

أصله رسالة دكتوراه من جامعة أم القرى في المملكة العربية السعودية.

- **جدلية اتهامات الأنبياء في النصّ القرآني قراءة بمنطق تحليل النصّ:**

سيروان عبد الزهرة الجنابي، ط١، قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية -العتبة العباسيّة المقدّسة/ العراق، ١٤٣٩هـ -٢٠١٧م.

- **الدقائق المحكمة في شرح المقدّمة في علم التجويد:**

شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (ت٩٢٦هـ)، اعتنى به محمد غياث الصباغ، دار السمان-استانبول، ١٤٣٩هـ.

- **دلالة القراءة القرآنية في توجيه المعنى القرآني دراسة في المستويات اللغوية:**

حكيم سلمان السلطاني، ط١، مؤسسة دار الصادق الثقافيّة -بابل، ٢٠١٧م.

- **الدليل إلى القرآن سؤال وجواب:**

عمرو الشرقاوي، مركز تفكّر للبحوث والدراسات، ١٤٣٩ هـ.

- **رغبة التيسير في شرح منظومة التفسير:**

عبد الكريم بن عبد الله الخُضير، ط١، معالم السنن/ دار ابن الجوزي، ١٤٣٩هـ.

- **الصحبة في القرآن الكريم:**

شومة بنت محمد البلوي، ط١، دار الصميعي -الرياض، ١٤٣٩هـ.

- **طبقات القرّاء والمقرئين بإفريقيّة وتونس: من الفتح الإسلامي إلى نهاية عام ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م:**

الهادي روشو، دار سحنون/ جامعة الزيتونة -تونس، ١٤٣٩هـ.

- **علم المناسبات القرآنية في سورة مريم "دراسة تطبيقية":**

منصور علي العمراني، مكتبة المجتمع العربي -عمّان، ١٤٣٨هـ.

- **الفتوحات الإلهية ببيان ضابط القراءة القرآنية:**

خالد بن سليم الشراري، مكتبة دار الحجاز -القاهرة، ١٤٣٩هـ.

- **في نظم سورة المائدة: نظم آي القرآن في ضوء منهج التحليل البلاغي:**

ميشيل كويبرس، ط١، دار المشرق -بيروت، ١٤٣٧هـ.

- **كتاب معاني القرآن وإعرابه للزجاج دراسة معجميّة:**

نوال بنت علي بن سليمان الفلاح، ط١، دار كنوز المعرفة –عمّان، ١٤٣٩هـ.

- **الكشف والبيان عن ماءات القرآن:**

أبو العلاء الحسن بن أحمد الهَمَذاني العطّار (ت٥٦٩هـ)، تحقيق: أحمد رجب أبو سالم، ط١، دار الضياء للنشر والتوزيع –الكويت، ١٤٣٩هـ –٢٠١٨م.

- **لغة الجوارح ودلالاتها في القرآن الكريم دراسة موضوعية:**

علي عبد كنو علي الجواري، ط١، دار المقتبس –بيروت، ١٤٣٩هـ.

- **مختار التبيان في آداب حملة القرآن:**

تأليف: أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (٦٣١ –٦٧١هـ)، تحقيق: رياض منسي العيسى، وزارة الأوقـــاف والشؤون الإسلامية –الكويت، دار الوعي الإسلامي، ١٤٣٩هـ–٢٠١٨م.

- **المرآة الجليّة على المقدّمة الجَزَريّة نثر منظومة المقدّمة في ما يجب على قارئ القرآن أن يعلمه للإمام محمد بن محمد الجزري:**

سركان أونال، ط١، دار الكتب العلمية –بيروت، ١٤٣٩هـ.

- **معجم الأفعال المزيدة في القرآن الكريم:**

سهاد ياس عباس، وأسعد محمد علي النجّار، ط١، مؤسسة دار الصادق الثقافية – بابل، ٢٠١٧م.

معجم الخلاف الصرفي في ألفاظ القرآن الكريم تأثيل معجمي وتحليل دلالي:

كاطع جار الله سطّام، ط١، مؤسسة دار الصادق الثقافية –بابل، ٢٠١٧م.

- **معجم المؤلفات القرآنية:**

أحمد الحسيني الإشكوري، ط١، بعناية وإشراف قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية –العتبة العباسية المقدّسة (العراق)، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٨م.

- **مكر المستشرقين في ترجمة الكتاب المبين:**

علاء إبراهيم عبد الرحيم، مركز سلف للبحوث والدراسات -مكّة المكرّمة، ١٤٣٩هـ.

- **مواقع العلوم في مواقع النجوم:**

تأليف: جلال الدين عبد الرحمن بن عمر البلقيني (ت٨٢٤هـ)، دراسة و تحقيق نبيل صابري؛ قرأه وراجعه وعلق عليه مشهور بن حسن آل سلمان، غراس للنشر -الكويت، ١٤٣٩هـ.

أصله رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، ١٤٣٧هـ.

- **نشر القراءات العشر:**

شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف المعروف بابن الجَزَري (٧٥١-٨٣٣هـ)، تحقيق وتعليق أيمن رشدي سويد، ط١، دار الغوثاني -بيروت، ١٤٣٩هـ، ٥مج.

- **النصّ القرآني وعلوم اللغة:**

رحيم جبر الحسناوي، ط١، دار الرضوان/ عمّان، ومؤسسة دار الصادق الثقافية في بابل، ٢٠١٨م.

- **النكت الحسان في ضبط وتجويد آي القرآن:**

محمد الدسوقي أمين كحيلة، ط١، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع -القاهرة، ١٤٣٩هـ-٢٠١٨م.

ثانيًا: الرسائل والأطاريح:

- **آيات الأحكام في كتب مشكل القرآن الكريم كتاب (أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها من غرائب آي التنزيل) للأمام الرازي ت ٦٦٦ هـ -دراسة تفسيرية مقارنة:**

آلاء شوقي عبد الباقي، كلّيّة الآداب -الجامعة العراقية، دكتوراه، ٢٠١٨.

- **آيات الأحكام في كتب مشكل القرآن الكريم كتاب (تنزيه القرآن عن المطاعن) للقاضي عبد الجبار الهمداني أنموذجًا دراسة تفسيرية مقارنة:**

إيمان حاجم مجباس، كلّيّة الآداب –الجامعة العراقية، دكتوراه، ٢٠١٨.

- **اختيارات سعيد حوّى وترجيحاته في كتابه الأساس في التفسير:**

رسول طه خلف، كلّيّة الآداب –الجامعة العراقية، دكتوراه، ٢٠١٨.

- **الانسجام النصّيّ في سورة الأنبياء:**

سارة عباس كريم، كلّيّة التربية للعلوم الإنسانية –جامعة ذي قار، ماجستير، ٢٠١٧م.

- **البحث اللغوي في أحكام القرآن لابن الفرس الأندلسي (ت٥٩٧هـ):**

محمد مزهر نصيف، كلّيّة الآداب –الجامعة العراقية، ماجستير، ٢٠١٨م.

- **بلاغة الحجاج في الخطاب القرآني سورة طه أنموذجًا:**

بدر الحمري، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة –جامعة عبد الملك السعدي في تطوان، دكتوراه، ٢٠١٧م.

- **التراكيب النحوية من الوُجهة البلاغية في القرآن الكريم (الخمسة أجزاء الرابعة ١٦–٢٠):**

آية إسماعيل عطيّة بحر، كلّيّة الآداب –الجامعة الإسلامية بغزّة، ماجستير، ١٤٣٩هـ–٢٠١٧م.

- **التفرد والاتفاق بين الحجازيين والشاميين وأهل العراق لأبي علي الحسن بن علي بن إبراهيم الأهوازي المتوفى سنة (٤٤٦هـ) دراسة وتحقيق:**

هاني محمد علي شحاتة، كلّيّة القرآن الكريم وعلومه –جامعة الأزهر، ماجستير، ٢٠١٨م.

- **تفسير آيات الأحكام في كتاب المبسوط للسرخسي من بداية سورة التوبة إلى نهاية سورة النحل –دراسة وتحليل:**

مريم مجيد ذياب، كلّيّة الآداب –الجامعة العراقية، دكتوراه، ٢٠١٨م.

- **التوضيح والانكشاف في حلّ قانون الجمع والإرداف لأبي العباس أحمد بن مكّي بن يرماق (ت١٣٣١هـ) تحقيق وتعليق:**

المهدي مدعن، معهد محمد السادس للقراءات والدراسات القرآنية -جامعة القرويين، ١٤٣٩هـ-٢٠١٨.

- **الخلافات التفسيرية بين مفسري القرن السادس الهجري جزء الأحقاف أنموذجًا/ جمعًا ودراسة:**

شيماء ياسين حسين، كلّيّة الآداب -الجامعة العراقية، دكتوراه، ٢٠١٨م.

- **الخلافات التفسيرية بين مفسري القرن السادس الهجري الجزء الثاني أنموذجًا/ جمعًا ودراسة:**

نزار عبد الله فاضل، كلّيّة الآداب -الجامعة العراقية، دكتوراه، ٢٠١٨م.

- **الخلافات التفسيرية بين مفسري القرن السادس الهجري/ الجزء السابع والعشرون أنموذجًا/ جمعًا ودراسة:**

نور صلاح مهدي، كلّيّة الآداب -الجامعة العراقية، ماجستير، ٢٠١٨م.

- **الدرس الدلالي في تفسير القرآن وإعرابه وبيانه للشيخ محمد علي طه الدُّرَّة المتوفى سنة ١٤٢٨هـ:**

أيمن عبد العال أحمد مهران، كلّيّة اللغة العربية للبنين بجرجا -جامعة الأزهر الشريف، ماجستير، ٢٠١٨م.

- **عمل الخيرات في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية:**

محمد غازي جمعة مزيد، كلّيّة أصول الدين -الجامعة الإسلامية بغزّة، ماجستير، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

- **قضايا الإصلاح في تفسير أولى ما قيل في آيات التنزيل لرشيد الخطيب الموصلي دراسة فكرية:**

شيماء مرتضى محمد حمد، كلّيّة العلوم الإسلامية -جامعة الأنبار، ماجستير، ٢٠١٨.

- **مباحث الإلهيات في تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن جمع ودراسة:**

عبد القادر أكرم إبراهيم نده الكبيسي، كلّيّة العلوم الإسلامية -جامعة الانبار،

ماجستير، ٢٠١٨.

- **المباحث العقدية في جامع البيان في تفسير القرآن لمحمد بن عبد الرحمن الإيجي الشيرازي (ت٩٠٥هـ):**

ماريا محي الدين خلف القيسي، كلّيّة العلوم الإسلامية –جامعة الانبار، ماجستير، ٢٠١٨.

- **المبالغة عند المفسرين حتى نهاية القرن السابع للهجرة دراسة سياقية:**

عمار كزار حسين الفتلاوي، كلّيّة التربية للعلوم الإنسانية –جامعة كربلاء، دكتوراه، ٢٠١٧م.

- **المراقبة ونظائرها في القرآن الكريم دراسة موضوعية:**

عبد الناصر محمود بحر، كلّيّة أصول الدين –الجامعة الإسلامية بغزّة، ماجستير، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

- **المستضعفات من النساء وصاحبات الجاه والسلطان في ضوء القرآن الكريم (دراسة موضوعية):**

أسماء رياض دردس، كلّيّة أصول الدين –الجامعة الإسلامية بغزّة، ماجستير، ٢٠١٨م.

- **المفسرون وأثرهم في إقصاء الإمام علي**عليه السلام عن فضائله كتاب مفاتيح الغيب للفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) دراسة تحليلية:

أحمد فاضل عبد زيد الشريفي، كلّيّة التربية للعلوم الإنسانيّة –جامعة كربلاء، دكتوراه، ٢٠١٨م.

- **المضامين التربوية المستنبطة من سورة الفتح وآثارها (دراسة موضوعية):**

ياسر فتحي أحمد أبو هلال، كلّيّة أصول الدين –الجامعة الإسلاميّة بغزّة، ماجستير، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

- **المضامين التربوية المستنبطة من سورة محمد وآثارها (دراسة موضوعية):**

أسامة عوني شعبان المقيد، كلّيّة أصول الدين –الجامعة الإسلاميّة بغزّة، ماجستير،

١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

- **المقاربات التداولية في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور:**

ستار هويدي علي الحسناوي، كلّيّة التربية للعلوم الإنسانيّة –جامعة كربلاء، دكتوراه، ٢٠١٧م.

- **موجّهات التلقي في الخطاب التفسيري مواهب الرحمن اختيارًا:**

علياء حميد محمد، كلّيّة الآداب –جامعة ذي قار، دكتوراه، ٢٠١٨م.

- **الموصول لفظًا المفصول معنى في القصص القرآني وأثره على المعنى:**

أحمد عبد الرحمن الملّاد، الجامعة الأردنية، دكتوراه، ١٤٣٩ هـ.

- **نظرية معاني النحو بين المنهجية والإجرائية في فتوح الغيب للطِّيبِيِّ ت ٧٤٣هـ:**

أحمد جاسم محمد، كلّيّة الآداب –الجامعة العراقية، دكتوراه، ٢٠١٨م.

- **وسائل التعدية في القرآن الكريم –دراسة وصفيّة نحويّة:**

محمود سلامة محمد الشاعر، كلّيّة الآداب –الجامعة الإسلامية بغزّة، دكتوراه، ١٤٣٩هـ.

ثالثًا: البحوث والدراسات:

- **الآليات التفسيريّة عند علماء الحلّة دراسة موازنة بين تفسيرَي منتخب تفسير التبيان لابن إدريس الحلّي (ت٥٩٨هـ) ومختصر تفسير القمّي لابن العتائقي (ت٧٩٠هـ):**

محمد عباس نعمان الجبوري و أمل حسين نوّار المسافري، مجلّة تراث الحلّة، العتبة العبّاسيّة المقدّسة –مركز تراث الحلّة، العراق، مج٣، ع٧، س٣: ١٤٣٩هـ –٢٠١٨م.

- **آيات لطف الله في القرآن الكريم مناسباتها، ومعانيها، والهدايات المستنبطة منها:**

حسن محمد علي آل أيوب عسيري، مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم الشرعية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، ع١٨٤، س(٥١) ١٤٣٩هـ.

- **أبو الأسود الدؤلي (ت٦٩هـ) وإعجام القرآن الكريم:**

عباس جاسم ناصر، مجلة دراسات البصرة –جامعة البصرة، ع٢٧، س٢٠١٨م.

- **إشكاليات وحلول ترجمة معاني النصّ القرآني:**

عدي جواد الحجار، مجلة مركز دراسات الكوفة –جامعة الكوفة، ع٥٠، س٢٠١٨م.

- **الأصول الثقافية ومرجعيات الأحكام القيمية للجواز النحوي قراءة في كتب معاني القرآن للفراء والأخفش والزجاج:**

صاحب منشد عباس، مجلة مركز دراسات الكوفة –جامعة الكوفة، ع٤٨، س٢٠١٨م.

- **الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم دراسة نقدية:**

حلا كاظم سلومي غباش، مجلة الأستاذ –جامعة بغداد، مج٢، ع٢٢٥، س٢٠١٨م.

- **البُنى الصّوتية في سورة الزُّمر:**

بيداء عبد نجم عزام، مجلة الأستاذ –جامعة بغداد، مج٢، ع٢٢٤، س٢٠١٨م.

- **التربية القرآنية وأثرها على أركان الدعوة:**

لمياء بنت سليمان الطويل، مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم الشرعية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، ع١٨٣، ج١، س(٥١) ١٤٣٩هـ.

- **جهود السُّيوطي في دفع ما يُشكل من مسائل علوم القرآن من خلال كتابه (الإتقان في علوم القرآن):**

يحيى بن صالح الطويان، مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم الشرعية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، ع١٨٤، س(٥١) ١٤٣٩هـ.

- **حملة أبرهة (أصحاب الفيل) في القرآن الكريم وفي كتب التفاسير والتاريخ والسير:**

شذى عبد الصاحب عبد الحسين، مجلة الأستاذ –جامعة بغداد، مج٢، ع٢٢٤، س٢٠١٨م.

- **دلالة (أو) العاطفة في تأكيد وقوع ما قبلها وعدم وقوع ما بعدها ضمن السياق القرآني:**

علي عبد الكريم شهوان، مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم الشرعية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، ع١٨٤، س(٥١) ١٤٣٩هـ.

- **ديناميكيّة العلاقة بين التّوحيد والشّفاعة (التّوحيد والدّعاء) في القرآن الكريم:**

جواد الخاتمي وسميّة الخاتمي، مجلة الأستاذ –جامعة بغداد، مج٢، ع٢٢٥، س٢٠١٨م.

- **سورة الواقعة دراسة لغوية:**

عبير محمد ماهر، مجلة الأستاذ –جامعة بغداد، مج٢، ع٢٢٤، س٢٠١٨م.

- **صياغة القواعد الترجيحيّة في التفسير (دراسة تطبيقيّة):**

خالد بن عثمان السبت، مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم الشرعية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، ع١٨٤، س(٥١) ١٤٣٩هـ.

- **الظواهر الصوتيّة والصرفيّة في قراءة محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلي (ت١٤٨هـ):**

إبراهيم بن سالم الصاعدي، مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم الشرعية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، ع١٨٣، ج١، س(٥١) ١٤٣٩هـ.

- **القراءات القرآنية عند الراغب الأصفهاني في كتابه مفردات ألفاظ القرآن:**

علي محمد علي شفيق الشيخ، مجلة الأستاذ –جامعة بغداد، مج٢، ع٢٢٤، س٢٠١٨م.

- **قرّاء الكوفة في كتاب (غاية النهاية في طبقات القرّاء) لابن الجزري ت٨٣٢هـ/ دراسة منهجيّة:**

فاطمة زبار عنيزان، مجلة التراث العلمي العربي (العراق)، ع٤، س٢٠١٧م.

- **المحبوبون في القرآن الكريم دراسة موضوعية تأصيليّة:**

رياض بن محمد المسيميري، مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم الشرعية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، ع١٨٣، ج١، س(٥١) ١٤٣٩هـ.

- **مسالك دراسة الدّلالة القرآنيّة في كتاب المثلّث لابن السِّيد البطليوسي (٥٢١هـ) توجيه واستدراك:**

وليد نهاد عباس، مجلة الآداب –جامعة بغداد، ع١٢٤، س٢٠١٨م.

- **مفهوم الضيق في القرآن الكريم (دراسة موضوعية):**

عامـــــــر صباح أحمد الكبيسي، مجلة الأستاذ –جامعة بغداد، مج٢، ع٢٢٤، س٢٠١٨م.

- **النص القرآني في كلام الإمام الحسين عليه السلام دراسة في ضوء التداوليات الإشارية:**

حيدر عبد الزهرة هادي التميمي، مجلة الأستاذ –جامعة بغداد، مج١، ع٢٢٤، س٢٠١٨م.

- **النقد القرآني للانحراف العقلي والعقدي:**

محمد كاظم الفتلاوي، مجلة كلّيّة التربية للبنات للعلوم الإنسانيّة –جامعة الكوفة، ع٢١، س٢٠١٨م .

أفكار وآراء

مُحَاضَراتٌ حَوْلَ القُرآنِ الكَرِيم

لُغَةُ الْقُرآنِ وَقدْسِيّةُ اللُّغَةِ العَرَبيَّة

محاضرة ألقاها المستشرق الألماني (شتيفان فيلد Stefan wild) في مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفرد في السنة ٢٠١٠ وترجمها الى اللغة العربية حسام صبري ونشرت على موقع (مركز تفسير للدراسات القرآنية Tafsir for Qurani Studies (www. tafsir. net).

رأت المجلة، وبحكم أهمية فكرة المحاضرة ورصانتها، نشر القسم الأول منها مقتبساً من الموقع المذكور بعد استئذان المركز الناشر، إعماماً للفائدة.. مع ملاحظة ان مافي المحاضرة من أفكار، إنما تعبر عن رأي المحاضر...

مقدمة المترجم:

هذه هي المحاضرة الثانية من المحاضرات الثلاث التي القاها المستشرق الألماني شتيفان فيلد في مركز دراسات الشرق الاوسط بجامعة هارفرد في عام ٢٠١٠، ويتناول فيها فيلد (القرآن واللغة العربية) يعتبر فيلد أنَّ حضور القرآن في الآونة الأخيرة في ألمانيا بل وفي عمق أوروبا هو حضورٌ يتسم بالقوة الشديدة، فالقرآن هو أكثر الكتب حضوراً وجاذبية في ألمانيا بعد الإنجيل، ويشكَّل أحد أهم موضوعات النقاش على مختلف المستويات الأكاديمية والسياسية وحتى النقاشات على مختلف المستويات الأكاديمية والسياسية وحتى النقاشات العامة، هذا الحضور شديد القوة لجاذبية القرآن، يتزامن مع صعود (إسلاموفوبيا) تجمع بين الغضب والخوف تجاهه، تذكر فيلد بمعاداة السامية، حتى لكأن هذا التعامل الرهابي مع القرآن والإسلام لايختلف كثيراً، وفقاً له، عن تعامل

الحكومة الاشتراكية الألمانية مع التلمود أيام النازية.

يحاول فيلد؛ انطلاقاً من هذا التشخيص لواقع حضور القرآن في السياق الغربي، ما بين جاذبيته وبين مايقابل به من خوف؛ أن يتساءل حول سرّ هذه القوة التي يتمتع بها النصّ القرآني، فيرى انَّ مركز هذه القوة يكمن في (لغة القرآن) العربية، فاللغة العربية –كمايرى فيلد –ليست مجرد وسيط للقرآن، بل هي أحد موضوعاته المركزيّة.

في هذا السياق يَعيبُ فيلد على بعض المستشرقين أمثال نولدكه، الذين اعتبروا قراءة القرآن فعلاً مملّاً، فضلاً عن هؤلاء الذين يسخرون من حديث المسلمين عن جمال القرآن والتأثير الكبير للغته، وعن (صرعى القرآن)، إنَّ هؤلاء –وفقاً لفيلد –لايشاركون المسلمين موقفهم اللاهوتي، كما أنهم يحكّمون معايير كتابية خاصّة على القرآن، وصحيح أنه ليس مطلوباً منهم مشاركة المسلمين موقفهم اللاهوتي، إلا أنَّ ازدراء المسلمين بسبب تأثرهم بجمال القرآن هو سوء فَهْمٍ منهجي كما يعبر، خصوصا أنَّ هذا الجمال للقرآن لم يعاينه المسلمون العرب وحدهم، بل كذلك العرب غير المسلمين كما يشير، بل وكذلك بعض من ترجم القرآن للغات أخرى من غير المسلمين وغير العرب.

وتأثير لغة القرآن على قارئه وسامعه لايتوقف عند حدّ ما في هذه اللغة من (إعجاز) و (تحدّ)؛ بل يمتد –وفقاً لفيلد –إلى طبيعة حضور هذه اللغة القرآنية، حيث التلاوة الشفهية للقرآن هي احدى العناصر الرئيسة لقوته وجذبه وسعة حضوره؛ فالقرآن (ظاهرة شفهيّة تتعلق بالفم والاذن)، و (السورة القرآنية ليست تقريراً عن الوحي، بل هي بروتوكول له)، تلك السِّمة (الشفاهية) تميز القرآن عن غيره من الكتب المقدسة، مثل التوراة، وتمنحه جاذبية وحضوراً أوسع، حيث يُمكن لغير المبصر قراءة القرآن وحفظه على خلاف التوراة التي تشترط النظر في الكتاب اثناء القراءة.

بعد تناول لغة القرآن، والإعجاز، والتحدي، والتلاوة الشفهية؛ ينتقل فيلد في الجزء الثاني من هذه المحاضرة إلى بحث تأثير (لغة القرآن) –التي تمتلك كل هذه القوة –على السياسة العربية المعاصرة والأدب العربي المعاصر.

إنَّ القرآن صان اللغة العربية، وأعاد تشكيلها وأعطاها خلوداً؛ مما مكّن هذه اللغة من ان تكون أحد الأساسات التي قام عليها الفكر القومي، والذيب كان رواده في كثير من الأحيان من المسيحيين العرب، كما أنَّ القرآن منح هذه اللغة أبعاداً دينية شديدة الخصوبة، استطاعت توفير أدوات أدبية شديدة الثراء لكثير من الأدباء المعاصرين يلجؤون إليها للتعبير عن أقصى الحدود البشرية الفردية والقومية.

إنَّ هذه السمات التي يذكرها فيلد للغة القرآن تدفع للسؤال عن ترجمة القرآن الى لغات أخرى، وهل تستطيع الترجمة الاحتفاظ بكلّ هذه السمات التي ترتكز عليها قوة القرآن وجاذبيته؟. يترك فيلد الإجابة عن هذا السؤال لمحاضرته القادمة، والأخيرة والمعنونة (القرآن اليوم، لماذا نترجم مالايقبل الترجمة؟). حسام صبري.

المحاضرة:

تشتمـــــــل هذه المحاضرة على مقدمة يسيرة، وسوف أتناول بعد المقدمة أربعة موضوعات؛

الموضوع الأول: العلاقة بين القرآن واللغة العربية.

الموضوع الثاني: عن دور القرآن في تاريخ اللغة العربية.

الموضوع الثالث: عن الأدب العربي المعاصر كمرآة للقرآن، ومدى تأثره به، وختاماً الموضوع الرابع: عن القرآن بصفته أدباً عالميّاً[1].

صدّر عدد الكريسماس من (دير شبيجل) الأسبوعية في ديسمبر ٢٠٠٧ غلافه بهذا العنوان: (القرآن: أقوى كتاب في العالم)، Das- Buch der welt der Koran machtigste)).

عادة ما تلتقط وسائل الإعلام من أمثال: (دير شبيجل) الطابع العام وروح العصر، ويكون ثمَّة توجه إعلامي يشير إلى الأعمال الأكاديمية التي تتميز بالجدية برغم السير الوئيد.

(١) اقتصرت (المصباح) على نشر الموضوعين الأولين.

لاشك أنَّ هذا النوع من الاعمامات الكبيرة ينبغي أن يُقابل بقدر من التحفظ، إلا أن مفهوم (أقوى كتاب في العالم) يعكس هذا الانطباع المتزايد بين كثير من المراقبين في المانيا، وربما في قلب أوربا، سواء بين المسلمين أم غيرهم. فالإسلام مع كتابه المقدس القرآن قد يكون أكثر الأديان التي يدور الكلام حولها هذه الإيام، وهو بوجه ما أقوى الأديان وأكثرها ظهوراً في اوروبا، إلا أنَّ (القوة) من التصنيفات الغامضة؛ فالقرآن كتابٌ واحدٍ من الأديان التي تتسم بالقوة، وتعود على الناس بالنفع بصورة ما، وهو يجذب انتباه الجمهور؛ لأنه يتنافس مع غيره من الكتب المقدسة، ودائماً ماتنافست الكتب المقدسة المختلفة للاعتراف بأنها الحق، لكن يبدو أنَّ من وراء هذا التنافس لحيازة الحقيقة منافسة أخرى لحيازة القوة، وفي الوقت نفسه بدأت تنحسر المسيحية المنظمة التي تأسست في أوروبا، كما بدأت تتقلص وتفقد تأثيرها تحت طرقات العلمانية والتهميش بطرقٍ شتى، يبدو أنَّ انحسار الكنائس المسيحية لايمكن إيقافه، ليس في المانيا فحسب؛ بل في أنحاء أوروبا. وتعدُّ خسارة المسيحية المؤسسية في البقعة الجغرافية التي مثلت حتى عام ١٩٨٩ جمهورية ألمانيا الديموقراطية خسارة فادحة، ويمكن اعتبارها انتصاراً متأخراً لاشتراكية الدولة.

القرآن هو كتاب المسلمين المقدس، ويتبوأ الآن المنزلة الثانية في ألمانيا بعد الإنجيل، وكما أنَّ المساجد تُبنى إلى جوار الكنائس ومعابد اليهود؛ فإنَّ المآذن ترتفع إلى جوار أبراج الكنائس، وللإسلام حضور عام في أنحاء أوروبا، حيث ينتشر المسلمون، ويتمثل هذا الحضور في رمزية الحجاب الظاهرة. وبعض الفنادق الأوربية التي تستضيف نزلاء أثرياء من الخليج تستبدل خِلسة القرآن بالإنجيل على الطاولات بجوار الأسرّة، ويوجد في ألمانيا وحدها الآن أكثر من عشرين ترجمة مختلفة للقرآن باللغة الألمانية، كما أنَّ الكتب المؤلفة عن القرآن كثيرة، ونسخ القرآن تباع وتشترى في أماكن عديدة.

ومع ذلك يلقى القرآن ازدراءً وتهميشاً وكراهية من قبل كثيرين في الدول الآوربية، فان فوبيا الإسلام في أوروبا ليس ضرباً من الخيال، وهو يشتد بوجه خاصّ على الإنترنت، ويجمع رهاب الإسلام في ألمانيا بين الغضب والخوف، وكذا في هولندا والدنمارك وسويسرا

واغلب الدول الأوربية الأخرى. ويبدو أنَّ هذا النوع من رهاب الإسلام، على الأقل من وجهة نظري، شبيهاً في تركيبه بمعاداة السامية، وقد أشار مؤخراً مدير مركز أبحاث معاداة السامية في برلين إلى أنَّ رهاب الإسلام في ألمانيا اليوم يتعامل مع القرآن على نحو يشبه تعامل الاشتراكية القومية مع التلمود بالأمس.

يقول السياسي الهولندي جيرت ويلدرز زعيم أحد الأحزاب الهولندية المهمّة: ببساطة إنَّ القرآن بمثابة كتاب (كفاحي) (Mein kampf)[٢] في صورته الإسلامية، بعبارة أخرى يقرآ كثير من غير المسلمين القرآن في أوروبا هذه الأيام على أنَّه الكتاب غير المقدس لعدوهم، ويرى كثير من العوام أن القرآن قنبلة موقوتة لابد من نزع فتيلها.

نشر الكاتب الألماني كريستوف لكسنبرج (وهذا اسم مستعار) -الذي تكلمت عنه أمس في محاضراتي[٣] -كتاباً يسعى للكشف عن (المعنى الحقيقي) للقرآن، وذلك بقراءة كثير من الآيات على أنَّها فقرات آرامية فهمت على نحو خاطئ. ومن اقتراحاته الموغلة في الغرابة إزالة الطابع الأسطوري عن الحور العين، فيرى أنَّ الحور العين اللاتي ينتظرون المؤمنين في الجنة كما ورد في القرآن؛ ماهن إلا العِنب الأبيض، وهو بهذا الرآي لايعيد فتح جدل مسيحي قديم مناوئ للإسلام في ظلّ ما ارتآه المسيحيون من أنَّ الآخرة عند المسلمين ماهي إلا متعة جنسية فاضحة، بل يعكسُ بوعي أو بدون وعي مايُقال من أنَّ التفجيرات الانتحارية التي يقوم بها بعض المسلمين هي ظاهرة حديثة تستند في الأساس إلى قراءة القرآن على نحو معين، وأنَّ الطريقة التي ينبغي التعامل بها مع الأزمة الحالية في العلاقة مع المسلمين تتمثلً فحسب في تكذيب تلك القراءة.

إذا كان ثمَّة ضرورة إلى أدلّة تُثبت قوة القرآن فيكفي أن نسوق الأحداث التي كان بطلها القسيس الإنجيلي المغمور في فلوريدا، والذي أعلن عن اعتزامه حرق نسخ من

(٢) الذي يقال أن كاتبهُ (اودلف هتلر).

(٣) يمكن الاطلاع على المحاضرة التي يشير إليها فيلد بعنوان (تاريخ القرآن، لماذا لانحرز تقدماً؟.) من خلال هذا الرابط: http . //bit. ly /2oNv3xq:

القرآن في الذكرى التاسعة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر. ومعظم الذي تظاهروا في باكستان والهند وأفغانستان احتجاجاً على حرق الكتاب المحفوظ، وأقدموا على حرق الأعلام وسفك الدماء وتعريض أنفسهم للقتل لم يقرؤوا القرآن على الارجح، إلا أنَّ هذه الحرب كانت في الأساس حرب الرموز القوية.

دعوني الآن أتناول الموضوع الأول: اللغة العربية بصفتها قضية مركزية في الوحي القرآني:

وبعيداً عن تلك المواقف المشينة التي نبهت عليها، يبقى السؤال: ما الذي يمثل بالضبط عنصر الجذب والقوة في القرآن؟.

هناك ثقافات قليلة في العالم تتجه إلى اللغة أكثر مما تفعل الثقافة العربية، لكن السبب الأساس في هذا التوجه الفريد عند العرب هو القرآن وأثره على اللغة العربية في الماضي والحاضر وكذا على تاريخها. وإذا كان من المقبول الحديث عن لغة مقدَّسة؛ فإني أوقن أن العربية هي أول ما يصدق بحقّها هذا القول، فليس هناك كتاب مقدّس غير القرآن استطاع بلورة ثقافة الناطقين به على نحو مشابه، وإن كان ثمَّة استثناء فهو من نصيب الكتاب العبراني.

إنَّ العلاقة بين القرآن العربي وتاريخ اللغة العربية هي موضوع هذه المحاضرة، والسؤال المتعلق بإمكان ترجمة القرآن وكيفيتها سوف يكون موضوع محاضرتي الأخيرة غداً[٤].

يعتقدُ المسلمون أنَّ القرآن هو آخر وحي نزل، وبعده لن يكلِّم اللهُ البشرَ إلى يوم الدين؛ لذا فإنَّ تاريخ العربية بعد نزول القرآن هو في حقيقة الحال من الناحية العقدية تاريخ اللغة التي عبرّت عن أهم مايخصّ مستقبل الإنسانية الروحي.

توجد أفكار مماثلة في كتب ديانات التوحيد الأخرى، إلا أن ثمَّة عنصراً فريداً في القرآن ولغته، ويتمثل هذا العنصر في أنَّ عربية القرآن ليست هي فحسب أداته اللغوية –وسيطه اللغوي –؛ بل هي إحدى الموضوعات المهمّة في الوحي القرآني، فالقرآن –فيما أعلم –هو

(٤) ستنشر المحاضرة الثالثة قريباً على قسم الترجمات.

الكتاب الوحيد الذي تمثل واسطةُ وحيهِ مركزَ رسالتهِ، والقرآن هو ذات القرآن، ويشير دائماً إلى نفسه، أرى أن القرآن في تاريخ الفكر الديني أكثر الكتب المقدسة إشارة إلى نفسه.

فلا جَرَمَ أن كان القرآن من الناحية التاريخية أول وثيقة عربية يَرِدُ فيها ذكر اللغة العربية، فهو عربي مبين (عربي مبين)، وتشير كلمة (عربي) في القرآن دائماً إلى اللغة وليس إلى قبيلة أومنطقة، وتؤكد أجزاء مهمّة من القرآن على حقيقة أنَّ رسالة النبي محمد كانت باللغة العربية، وهذا هو الفرق الكبير بين الوحي الإسلامي وماسبقه من الوحي اليهودي والنصراني وغيرهما، وفي الوقت الذي تلقّى محمد فيه الرسالة لم يكن جلّ العرب مسلمين لكن كافة أتباع النبي كانوا عرباً.

كان الوحي المتلوّ الذي جاء به النبي يُخاطبُ أصحاب اللسان العربي ابتداءً، فقد بدأت الأمة من مجتمع قوامه أصحاب اللسان العربي، وكان الآسلام دين العرب قبل أن يصبح ديناً عالمياً.

برزت فكرتان أساسيتان منحتا القرآن منزلة دينية فريدة مقارنة بالكتب الأخرى، تؤكد أولى الفكرتين على مايسمَّى بـ(إعجاز القرآن). وتؤكد ثانيهما على نفي خلق القرآن، أي التأكيد على أنَّ القرآن كلام الله قديم كقدم الله، ويؤكد القرآن على أن آياته أفضل الحديث، (أحسن الحديث)، بيد أنَّه لايتضح تماماً ما إذا كان الجانب البلاغي فحسب هو المقصود، ثمَّة شيء واحد واضح، وهو أنَّ صوت القرآن لامثيل له، فليست السورة القرآنية تقريراً عن الوحي بل هي بروتوكول له، والقرآن ذاته لايقرر تفوقه الجمالي في المقام الأول، وإنَّما أصبح الجمال البلاغي في كلمات القرآن جزءاً من إعجاز القرآن في أزمنة ما بعد النزول.

تشير آيات كثيرة إلى طبيعتها الإعجازية، إلا أنَّه لايوجد في القرآن مايدلّ على المفهوم الثاني المتعلق بعقيدة عدم خلق القرآن، وقد ظهرت هذه الفكرة في العقيدة الإسلامية الأولى في القرن التاسع[٥]، عندما نُقلت الخلافة إلى بغداد؛ إذ جمع العلماء بين مفهومي إعجاز القرآن

(٥) القرن التاسع الميلادي –الثالث الهجري.

وقِدم القرآن في خيال المسلمين الجمعي، وهذا جعل الكتب اليهودية والمسيحية أقلّ مكانة في نظر المؤمنين مقارنة بمنزلة القرآن(٦).

ثمَّة عنصر متميز في الهيمنة الدينية والكتابية أرى أنه لم يُدرس دراسة كافية، ففي هذا السياق لابد وأن تكون المنافسة بين الكتب المقدسة على حيازة الإعجاب قد لعبت دوراً جوهرياً؛ فالجنة في القرآن أكثر جاذبية من نظيرتها في الكتاب المسيحي، وعلى النقيض من ذلك، أنواع العذاب في النار أكثر تصويراً في القرآن وأقسى من نظائرها في المسيحية.

من المفهوم أنَّ رسالة النبي الجديد عن الآخرة قد تكون أكثر جاذبية، وأكثر رعباً في الوقت نفسه، وقد مثّل هذان الجانبان جزءاً من الصراع للاستحواذ على عقول الفئة الجديدة من أتباع النبي، وعلى عقول من يُتوقع إيمانهم، وعلى هذا النهج أخبر القرآن عن نفسه بأنه وثيقة تهيمن على الكتب الأخرى؛ لذا كان القرآن منذ بدايته (نصّاً شديد التنافسية)، كما كان مثار جدلٍ كبيرٍ، وكان على أمة (المسلمين) الناشئة –لسنا متأكدين حقّاً من معنى كلمة (المسلمين) في ذلك الوقت، ولا إذا ما كانت تشير دائماً إلى الشيء نفسه في وثيقة القرآن(٧)–

(٦) نلحظ هاهنا تكراراً لفكرة شائعة في كتابات عدد من المستشرقين، حيث يتم تصوير مكانة النصّ القرآني في المجتمع المسلم على أنها نتاج لعملية تثبيت مجتمعي أو حتى سياسي لاحقة للنصّ ذاته وخارجة عنه تمنحه قدسية ومكانة خاصة لم تكن له سابقاً، ويتم التركيز في هذا السياق على قضية إعجاز القرآن بالذات فيتم تصويرها كفكرة لاحقة على النصّ تم بها إضفاء القدسية عليه وتمييزه عن بقية الكتب كالتوراة والإنجيل، وهو مايخالف حقيقة الأمور، حيث يتحدث القرآن ذاته –كما يقر فيلد نفسه ويسهب –عن إعجازه الذي هو فرع عن كونه كلام الله، وعن تحديه وهيمنته على الكتب السابقة؛ كونه كلام الله المحفوظ، مما يعني أن قداسة القرآن ومركزيته في المجتمع المسلم وكونه الحَكَم على غيره من الكتب راسخة منذ أول لحظة؛ كونه كلام الله الخاتم المعجز، وأن ما حدث لاحقاً هو فحسب البلورة الكلامية لهذه العقيدة، وهي البلورة التي ربما شهدت بالفعل خلافاً تفصيلياً في طبيعة الإعجاز وقدره وموضعه وطبيعته، لكنا كلها خلافات لاتطال جوهر القول بإعجاز القرآن وكونه كلام الله المقدس، وأن هذا هو مايمنحه المكانة المركزية في المجتمع المسلم منذ أول لحظة وأبداً. (المترجم).

(٧) نلحظ هاهنا أثراً من آثار ظهور الاتجاه التنقيحي على ساحة الدرس الاستشراقي المعاصر، حيث شكك هذا الاتجاه في هوية المسلمين الأوائل، واعتبر أن (الاسلام) هو هوية لاحقة تمت صناعتها

كان على هذه الأمة التي جمعت بين أصحاب الخلفيات اليهودية أو النصرانية أو الوثنية أو غيرها، أن تنأى بنفسها عن الميول والقوى والنصوص الدينية والثقافية التنافسية. كما كان عليها أن تُدافع عن نفسها. ثمّة نماذج كثيرة مشهورة من القصص الديني التي ذاعت في هذه البيئة شديدة التعقيد ونُسجت في الغالب حول بطل من الأبطال، من ذلك قصة يوسف وإخوته، وقصة أصحاب الكهف (أهل الكهف)، وقصة الإسكندر الأكبر (ذي القرنين)، وغيرها كثير.

شهدت تلك الحقبة الزمنية تنافساً بين الطوائف وإقصاءً، إلا أنَّ الطوائف تعايشت بقدر من الاحتواء، وكان على الأمة الناشئة أن تبرهن على حضورها بل وتفوقها. يسرد القرآن قصة يوسف بالتفصيل في السورة الثانية عشرة، وهذه القصة هي أكثر القصص تفصيلاً في القرآن، وفي أولى آيات السورة يوجّه ذلكم الصوت المميز خطابه إلى النبي قائلاً: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[سورة يوسف: ٣]، وبالمناسبة تشير عبارة: (هذا القرآن) إلى أن كلمة (قرآن) لاتعني النص القرآني بأكمله، بل تعني دائماً وعلى وجه التقريب جزءاً من النصّ الذي نعتبره القرآن. وتدلّ صيغة التعظيم (نحن) في قوله: (نحن نقص عليك أحسن القصص) على معنى التوكيد في اللغة العربية، وتقول الآية إنَّ الجمهور سوف يستمع إلى قصة مشهورة، لكن هذه القصة في نسختها القرآنية هي قصة بالعربية، وهي أحسن القصص.

تمثّل هذه الهيمنة عنصراً قوياً في الخطاب القرآني، وتتجلى في أبرز صورة لها في تقييم القرآن للغته هو، اي اللغة العربية. ثمّة عدد من الآيات التي أسميها (آيات التحدي)،

وإضفاؤها على جماعات دينية يهودية ومسيحية في إطار انفصال هذه الجماعات عن المسيحية البيزنطية، للتوسّع حول هذا الأمر يمكن مراجعة مادتين تم نشرها على قسم الترجمات ضمن مواد ملف الاتجاه التنقيحي: عرض لكتاب جون وانسبروا (الدراسات القرآنية، مصادر ومناهج تفسير النصوص المقدسة) كتبه كارول كيرستن، وعرض لكتاب جيرد بوين وكارل أوليج (البدايات المبهمة: بحث جديد حول أصل الإسلام وتاريخه المبكر) كتبه جيرالد هوتنج، على هذين الرابطين 2Oamx16 :https //bit. ly /2o3pf0o :bit. lyhttps //-//bit. ly

والتي تلخص هذه الفكرة حين كال خصومُ النبي له الاتهامات، ومنها: أنه يفترى الآيات التي يتلوها، جاءهم الرد القرآني في سورة يونس: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[سورة يونس: ٣٨]، ويبلغ التحدي ذروته في سورة الاسراء (١٧): ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[سورة الاسراء: ٨٨].

كانت هذه هي الركيزة التي على أساسها قام الاعتقاد بأنَّ القرآن لايمكن أن يتفوق عليه حتى أبلغ البلغاء، فأصبح القرآن كلّه معجزة؛ فلم تقتصر سماته على الصدق في قصصه وأخباره، والحكمة والحزم في أوامره ونواهيه، وصدقه في أنباء المستقبل، بل كان أيضاً غاية في نقاء العربية وبلاغتها، متفوقاً على أسمى ما يمكن أن يَصِلَ إليه البشر.

كان وجود القرآن هو الدليل على الأصل الإلهي لما يتلوه محمد من آيات، واستندت هذه العقيدة كغيرها من العقائد الدينية الكثيرة إلى دائرة تفسيرية تأويلية، مفادها أنَّ القرآن كلام الله، ومن ثَمّ فهو حق؛ ولأن القرآن يقول إنه كلام الله، فهو حقّاً كلام الله.

أمَّا الجانب العقدي الآخر فيما يتعلق بالقرآن فمحوره قضية خلق القرآن، فالقرآن كلام الله غير مخلوق، بل هو قديم كقِدَم الله.

وبفضل الحماية التي توفرت للقرآن عبر هاتين العقيدتين؛ بلغ القرآن أسمى منزلة في المجتمع المسلم، فكان من المستحيل عقديّاً أن يساوي شيء نصّ القرآن فضلاً عن أن يهيمن عليه، وكانت أية محاولة بشرية للتنافس مع القرآن يحكم عليها بالهرطقة من منظور العقيدة الإسلامية السنية (الأرثوذكسية) على الأقل.

ثمَّة آراء أُخرى مخالفة؛ إذ زعم بعض فلاسفة المسلمين في بغداد أنَّ تأليف القرآن غير معجز، وأن البشر قادرون على الإتيان بمثله أو بأفضل منه. وهؤلاء هم المعتزلة، وهي فرقة من الفلاسفة الذين دارت بينهم هذه المناقشات، ولطالما رَمَى كثيرٌ من المسلمين هؤلاء المفكرين بالهرطقة، ولازالوا يفعلون[٨].

(٨) يشير فيلد هاهنا للقول بالصْرَفة الذي تبنّاه بعض أهل الاعتزال، وحاصله أن الله (رفع من أوهام

كان لجمال القرآن وتأثيره الطاغي في أوائل الوحي المكي صدى في كثير من الروايات الإسلامية عن تلاوة القرآن، وقد أكدت هذه الجوانب المبهرة على رؤية القرآن الذاتية، فكان الناس يدخلون في الإسلام بعد أن يستعمعوا إلى آية واحدة متلوّه، وهذا الوحي القرآني فوق ذلك بالغ التأثير والرهبة في النفوس، فكانت تقشعر القلوب وتبكي العيون وتسجد الجباه، وتختلج الأعضاء عند سماع التلاوات القرآنية المؤثرة، وكانوا يستحسنون من القارئ البكاء تأثراً بقراءته.

وفي أزمنة لاحقة ظهرت بعض الكتب التي تتحدث عن صَرعَى القرآن)، الذين ماتوا من تأثير القرآن المتلو عليهم، وفي هذه الحالات كان لسحر التلاوة القرآنية وقع عظيم، ولبلاغته الخطابية أثر عميم، وكان هذا للتلاوة وحدها دون الكتابة.

وهنا تظهر إحدى تناقضات الرسالة القرآنية الكثيرة التي لم تُحل بعد، وهي: أنَّ القرآن يُقرأ ويُتلى في المقام الأول، والقرآن بعد كلّ ذلك يعني قراءة، والقراءة في هذا السياق لاتعني أبداُ قراءة كتاب في ضوء المصباح، إنَّما هي ظاهرة شفهية تتعلق بالفم والأذن، فهي شفهية بكلا المعنيين. إلا أنَّ القرآن أيضاً كتاب، فيشار إليه بـ (الكتاب)وهو كتاب المسلمين، والعلاقة الجدلية بين المفهومين تقع صلب الدراسات الحديثة حول القرآن[٩].

العرب، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحدّاهم الرّسول بنظمه؛ ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه) (الحيوان، ٤/ ٣٠٥). أي أن الإعجاز لم يكن نابعاً من ذات القرآن وإنما لامر خارجي عنه وهو منْع الله العرب من الإتيان بمثله. وقد تعرض العديد من العلماء لنقد هذا الرآي وبيان إشكالاته. ويُلاحظ هاهنا أمران؛ الأول: أن هذا القول من المعتزلة وإن نفى الإعجاز الداخلي للقرآن إلا أنه يثبت له في الوقت نفسه إعجازاً من وجه آخر وهو عدم قدرة الخليقة على معارضته وعجزها عن ذلك. الثاني: إن المعتزلة وإن كانت طائفة لها العديد من الآراء المشكلة والتي هاجمها العديد من العلماء على مرّ التاريخ، إلا أن الزعم برميهم بالهرطقة كما يقول فيلد غير صحيح، فضلاً عن أن مصطلح الهرطقة بما يستتبعه من حمولة كنسيّة تقضي بالحرمان والإخراج عن جماعة المؤمنين وتحريم المشاركة في أداء الطقوس التي تشرف عليها الكنيسة هو أمر غير متصور في المجتمع المسلم الذي لم يعرف وجود مؤسسات تضع العقائد وتتحكم في الشأن الديني وتديره وتتوسط بين العباد وربهم. (المترجم).

(٩) ربما هذه الثنائيات المعتادة في التفريق بين مرحلة شفهية ومرحلة كتابية في حياة الأمم والحضارات أو في حياة الكتب والنصوص غير فعالة بالصورة الكبيرة حين ينظر بها إلى نصّ ديني، أو حين ننظر

نجدُ هنا فرقاً مهمّاً قليلاً ما يُلحظ بين كِتَاب المسلمين وكِتَاب اليهود؛ إذ يجب على القارئ اليهودي الذي يقرآ التوراة في الشعائر اليهودية أن يقرآ النصّ المقدس المكتوب بين يديه، وأن يتابعه إن دعت الضرورة بإصبع الإشارة التوراتي، أمَّا القارئ المسلم فيجوز له، بل يستحب، أن يتلو القرآن من حفظه وعن ظهر قلب، دون أن ينظر في النصّ المكتوب؛ ولهذا وُجد في الثقافة الإسلامية ولايزال يوجد كثير من مشاهير القراء من غير المبصرين، وقد كان طه حسين (١٨٨٩ -١٩٧٣) -أحد كبار المثقفين العرب في القرن العشرين- أعمى منذ طفولته، وقد علّمه أبواه أو مدرسوه أن يحفظ القرآن ويتلوه عن ظهر قلب؛ لأن هذه الوظيفة كانت إحدى الوظائف القليلة المتاحة للفتية مكفوفي البصر.

تشير التقديرات إلى أنَّ عشرة بالمائة من قراء القرآن في العصور الوسطى كانوا عمياناً، ومن المستبعد في التراث اليهودي -فيما أعلم -أن يكون قارئ التوراة في الشعائر اليهودية أعمى.

* * *

بها تحديداً إلى القرآن؛ حيث إنَّ النصوص الدينية كتبت أم لم تكتب تظلّ نصوصاً شفهية، بمعنى أنها نصوص جهرية تأتي قوتها من تلاوتها جهراً (تعبديّاً) حيث هي إعلان دائم، و(حدث لابد أن يسمع)، ولعل هذا يتضح من بعض آي القرآن، مثل آية: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة التوبه: ٦]، لكن في الوقت نفسه فالقرآن كتاب من سماته أن يُكتَب ويُدوَّن، وهذا لأن القرآن هو بالأساس استعادة للكتاب الأصلي، القائم في (أم الكتاب) في (اللوح المحفوظ)، بعد أن طالت كلمات الله المرسلة (الألواح) التحريف على يد اليهود، كما يكرّر القرآن دوماً، فهذ العلاقة التي يقيمها القرآن بينه وبين التوراة وبين ألواحها وبين اللوح المحفوظ، تقضي بكون الكتابة هي إحدى سمات هذا النصّ الذي هو وبالأساس وقبل التنزيل هو مكتوب ومُدوَّن، والذي بعد تنزيله ومع الحفظ الآلهي له ينتهج كلّ ما يمكن له أن يجعله محفوظاً ومُدوَّناً لهدي من أُورسِل إليهم حتى لايقعوا فيما وقع فيه سابقوهم الذين ضيعوا الكتاب بعد أن جاءهم، لذا فإن التناقض ليس في القرآن كما يُعبَّر فيلد، بل هو ناتج عن قراءة القرآن عبر هذه الثنائية كأنها ثنائية صلبة، وعدم الالتفات إلى (جدلية) العلاقة بين الشفاهة والكتابة في القرآن. انظر: فهم الفهم، مدخل إلى الهرمنيوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادمر، عادل مصطفى، دار رؤية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧، ص٤٢. (المترجم).

من الغريب جداً أن يوجد من غير المسلمين اليوم من يزدري إعجاب المسلمين بقوة النصّ القرآني وجماله البلاغي. نعم، لايُتوقع من غير المسلمين أن يقاسموا المسلمين معتقداتهم، لاسيما فيما يتعلق بالقيم الجمالية، إلا أنَّ العداء الذي تنضح به كتابات غير المسلمين حيال فهم المسلمين لمنزلة كتابهم المقدس لاحدود له.

اتُّهم القرآن بأنه يكرر بعضه بعضاً، ويشتمل على أخطاء نحوية، وأغلاط مضحكة، وأخرى غير منطقية. فقد كان كثير من المستشرقين، (وأنا أشير إلى المستشرقين وفقاً لمفهوم إدوارد سعيد)[١٠] مقتنعين بأن إعجاز القرآن يمكن البرهنة على خطئه من الناحية العلمية، وأن المسلمين وقعوا في سوء فهم كبير حين زعموا أنَّ القرآن بالغ الروعة والإلهام، وأن الدراسات الاستشراقية العلمية الخالية من الأغراض يمكنها أن تبيّن وتبرهن بموضوعية أنَّ القرآن لم يكن إلهيّاً وأنه غير معجز. وعلى النقيض من ذلك، كان القرآن مملّاً وقبيحاً وغبيّاً ومثيراً للغثيان، هل نضحك أو نبكي عندما نقرآ اليوم ماكتبه ثيودور نولدكه[١١]

(١٠) إدوارد سعيد (١٩٣٥ –٢٠٠٣) فلسطيني أمريكي، أستاذ اللغة الانجليزية والأدب المقارب بجامعة كولومبيا الامريكية، أشتهر سعيد بكتابه (الاستشراق)، والذي درس فيه الظاهرة الاستشراقية في علاقتها بالاستعمار وبالهيمنة والسلطة؛ مستخدماً المفاهيم التي طوّرها ميشيل فوكو في كتبه (حفريات المعرفة) و (المراقبة والعقاب) عن (الخطاب) وعلاقته بالحقيقة كـ (تمثيل) وبـ(السلطة)؛ لينظر للاستشراق (كمؤسسة استعمارية) وأسلوب غربي للسيطرة على الشرق وإعادة تشكيله، والكتاب ربما غيّر خارطة الاستشراق، وعقدت بعده المؤتمرات والندوات والكتب لمحاولة استكشاف طريق الاستشراق بعد كتاب سعيد، ويعرف سعيد الاستشراق بكونه: (نمط من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة السيطرة عليه)، وقد تُرجِم كتاب سعيد (الاستشراق) للعربية عام ١٩٧٨، ترجمه: كمال أبو ديب، وصدر عن مؤسسة الأبحاث العربية، كما ترجمه: محمد عناني، وصدر عن دار رؤية، القاهرة، ٢٠٠٦. (المترجم).

(١١) ثيودور نولدكه (١٨٣٦ –١٩٣٠)، شيخ المستشرقين الألمان كما يصفه عبد الرحمن بدوي، درس عدداً من اللغات السامية: العربية، والعبرية، والسيريانية، وآرامية الكتاب المقدس، ثم درس –وهو طالب في الجامعة –الفارسية والتركية، وفي العشرين من عمره حصل على الدكتوراه عن دراسته حول (تاريخ القرآن)، وهي الدراسة التي قضى عمره في تطويرها، وقد صدر الجزء الاول من (تاريخ القرآن) في ١٩٠٩، وعمل عليه مع نولدكه تلميذه شفالي، ثم صدر الجزء الثاني عن تحرير تلميذه فيشر عام ١٩٢٠، وصدر الجزء الثالث عام ١٩٣٧ عبر تحرير تلميذه بير جستراسر ثم برتزل.

المستشرق الألماني العظيم في القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين عندما قال محذراً: يجب أن ننتبه دائماً إلى أنَّ النبي لم يكن يخاطب قوماً من الأوربيين نالوا تعليماً أكاديميّاً)، هذا سوء فهم عميق ومنهجي من نولدكه أن يزدري المسلمين؛ لأنهم يتأثرون تأثراً عميقاً بقوة بلاغة القرآن المتلو لا لشيء إلا أن غير المسلمين لا يتأثرون؛ فإن ذلك ينمّ عن سوء فهم لطبيعة الأحكام الجمالية، فالطالباني الافغاني قد لايعجب بموسيقى يوهان سبستيان باخ واسعة الانتشار في الغرب، وللطالباني الأفغاني مايختار من أحكام، فالذوق أمرٌ شخصي، وكذلك الذوق الجماعي، والجمال دائماً في عين الناظر أو –في حالتنا هذه– في أذن السامع. إلا أنَّ المشكلة تكمن في ان العلماء من غير المسلمين كانوا ولازالوا يميلون إلى الاعتقاد فيما يورنه بحثا مستنيراً وخالياً من الغرض عن الحقائق الأكاديمية، فهل عدم تقديرهم للغة القرآن يدل على (بحث موضوعي)؟.

لكن رونق اللغة القرآنية أثر على بعض العرب من غير المسلمين، يصف الروائي المصري المعاصر إدوار الخراط (١٩٢٦ –٢٠١٥)[١٢] في سيرته الذاتية مبلغ شعوره بالفخر، وهو

كذلك درس نولدكه (المشنا) وتفاسير الكتاب المقدس أثناء عمله معيداً في جامعة جيتنجن، له إلى جانب كتابه الشهير (تاريخ القرآن) كتب حول اللغات السامية، منها: (في نحو العربية الفصحى)، وأبحاث عن علم اللغات السامية)، عمل أستاذاً في جامعة كيل ثم جامعة اشتراسبورج، كتابه (تاريخ القرآن) مترجم للعربية، حيث ترجمه: جورج تامر، وصدر عن منشورات الجمل، بيروت، ٢٠٠٨. (المترجم).

(١٢) ادوار الخراط (١٩٢٦ –٢٠١٥) روائي مصري اسكندري، اهم اعماله: حيطان عالية، ١٩٥٩)، (رامه والتنين، ١٩٨٠)، (ترابها زعفران، ١٩٨٦)، وقد ترجم عدداً من الأعمال الأدبية إلى العربية، أهمها (الحرب والسلام) للروائي الروسي تولستوي، و(الرؤى والاقنعة)، وهي قصص مختارة من الأدب العالمي، و(وردة لإيملي) للروائي الأمريكي وليام فوكنر، وله كذلك جهد نقدي برز في عدد من الكتابات اهمها: جائزة نجيب محفوظ عام ١٩٩٩، وجائزة الدولة التقديرية في الآداب في نفس العام، ويعتبر الخراط بالنسبة للكثير من النقاد والروائيين والقراء أحد اصحاب الاسلوب اللغوي الخاص، فله قدرة فريدة على استخدام ونحت المفردات؛ مما يجعل قراءته شاقّة أحياناً لكن ممتعة، هذا الاستخدام الخاص للغة يرجع فيما يرجع لتجريبية الخراط وذاتيته ونظرته للجمالية الخاصة للغة العربية، ورؤيته للعلاقة بين الأجناس الأدبية التي عبر عنها في تعبيره الشهير (الكتابة عبر النوعيه).

قطبي غير مسلم عندما يطلب منه أستاذه أن يتلو سوراً من القرآن، يصف الخراط شعوره وكيف كان (يُفتَّن بإيقاع العبارات)، ووكيف كان يغبط زملاءه المسلمين على كتاباتهم الرائع الذي يقوم عليه دينهم.

أمَّا الناطقون بغير العربية، فيصعب بيان ما للغة القرآن والخطاب الديني الإسلامي من سحر عليهم، أطلق نصير أبو زيد -بعضكم يعرفه أو سمع عنه، توفي في يوليو هذا العام (٢٠١٠) رجل شجاع، تعرّض زواجه للفضّ بسبب اتهامه بالهرطقة، ورحل للبحث عن ملجأ في أوروبا واستقر به الأمر في هولندا -على سحر لغة القرآن بأنها (الفتنة العاطفية للغة العربية)، وأشار إلى أنَّه يساء استخدامها؛ إذ إن -وأنا أقتبس -(المتطرفين يعتمدون جزئيّاً على توظيف أنماط مبتذلة من العربية الفصحى، وبغض النظر عما يقولون، فإنَّ لغتهم تبدو لغة علمية مألوفة رصينة وموثوقة إلا أنها شخصية، وسحرها يؤثر على العوام ممن لا يستطيعون التحدث بهذه اللغة العالمية).

أستطيع وأنا لستُ عربياً أن ألاحظ ذلك في كثير من البرامج الحوارية العربية على قناة الجزيرة مثلاً، عندما يستشهد عالم مسلم بالقرآن أو يتناول موضوعاً إسلامياً، إذ تعلو طبقة صوته، ويتباطأ نطقه ويغدو دراميّاً، كما أن استخدام صيغة التعظيم والثناء بعد ذكر اسم الله أو اسم النبي، ومن ذلك قولﷺ لها وقعها في نفوس السامعين فتستدعي احترام السامعين وتحظى بقبولهم، ويستحيل حينئذ أن يقاطع أحدٌ المتكلم، كما يصعب جداً أن يخالفه أحد.

* * *

دعوني انتقل إلى الجزء الثاني من المحاضرة حول دور القرآن في تاريخ اللغة العربية:

مع بداية انتشار الإسلام بين الناطقين بغير العربية أصبحت للعربية اليد الطولى في الثقافة الإسلامية، ولقيت هذه اللغة من عناية النحويين والمعجميين، فحاربوا ما أسموه أخطاء في اللغة وفساداً في الكلام العربي وهكذا، وإذا نظرنا للأمور من الناحية التاريخية؛ لأدركنا أنه لم يكن ثمَّة مفرّ من ظهور عقيدة تقول بإعجاز القرآن العربي، وأن يشيع الرأي بسموّ العربية على غيرها من اللغات، وبالرغم من هذا البريق أصبحت العربية مع مرور

الزمن تنافسها لغات أخرى كالفارسية والتركية العثمانية تدريجيّاً إلى أن حلَّت محلها. إلا أنَّ العربية ازدهرت كلغة عالمية للفقه والعقيدة والشعر والادب، الذي بقي حيّاً في المناطق التي تنطق بالعربية في العالم الإسلامي.

عندما انتشرت الأفكار والمعتقدات القومية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في الإمبراطورية العثمانية؛ ظهرت القومية العربية، وتبين أنَّ اللغة كانت أقوى ما وحّد العرب.

درس ساطع الحصري كبار القوميين العرب (توفي ١٩٦٩) أعمال الفيلسوف الألماني فيشته (١٧٦٢ -١٨١٤)[١٣]، وكان مما توصل إليه أنَّ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شهدا تشكّل رابطة بين الألمان قبل أن تولد الدولة الألمانية، تمثلت تلك الرابطة في اللغة الألمانية.

وكان إدموند تالبوت، وهو مسيحي لبناني، يحتفي بعربية القرآن، يقول: (لم تتغير اللغة العربية طوال ألفي عام على الأقل، فهذه العربية ذاتها لايزال المتعلمون في العالم العربي يتخذونها وسيلة للتواصل، ولا تزال القواعد النحوية ذاتها تحكم العربية كما تحكم أسجاع القرآن. يالروعة ذلك النضوج الأبدي، الذي يعد ميزة فريدة في هذا العالم)، ويقول: (بفضل القرآن لم تفسد مبادئ العربية الصحيحة).

واليوم يحذر اللغويون من الخلط بين التغيير اللغوي والفساد اللغوي، ومع أننا لانتفق مع إطلاق تلك الاحكام العامة، إلا أنَّها تعكس الفكرة التي حافظت على جاذبية العربية إلى يومنا هذا.

قال ساطع الحصري أنَّه يجب على العرب أن يستعملوا لغتهم المشتركة؛ لبناء دولة عربية

(١٣) فيشته (١٧٦٢ -١٨١٤) هو يوهان غوتليب فيشته، فيلسوف ألماني ولد في رانو، يعد من تلاميذ كانط، وأن اعترض الأخير على فلسفته، هو من أوائل تيار (المثالية الألمانية)، ويقلبه حسن حنفي- المفكر المصري -بفيلسوف المقاومة، بسبب دوره في المقاومة الألمانية ضد الاحتلال الفرنسي، وكثير من أفكاره الرومانتيكية ورؤاه للغة كانت أساساً للبلورة اللاحقة للقومية الألمانية، ولحسن حنفي كتاب عنه بعنوان: (فشته، فيلسوف المقاومة)، صدر عن مركز الكتاب للنشر، القاهرة، في أكثر من طبعة. (المترجم).

موحدة، وهذه اللغة المشتركة يجب ألا تكون لغة اللهجات العربية، بل يجب أن تكون اللغة المكتوبة سلفاً من العربية الفصحى، وعقيدة النصّ القرآني الذي يوحّد الأمة الإسلامية قد عَلْمنَها القوميون العرب، واستعملوها لبناء ما قد يسمّى بالأمة اللغوية.

لقد كانت العربية الفصحى في رداء ما أصبح يسمّى بالعربية القياسية المعاصرة، هي الضمانة الوحيدة المستدامة للوحدة القومية العربية، ويبدو أنَّها كانت الأمل الوحيد للوحدة السياسية والاجتماعية والثقافية بين المجتمعات العربية المنقسمة على أشدّها.

وقد أدّى المسيحيون -بالمناسبة -دوراً مهمّاً في الجمع بين فكرة القومية العربية وبين معتقداتهم الخاصّة، فكان هدف عامة المسيحيين العرب والمسلمين العرب تهيئة العربية المكتوبة لمواءمة الحداثة دون أن يعتدوا على قوتها التراثية والتوحيدية؛ ممَّا أبقى على نقاء القواعد الإساسية للنحو والصرف في العربية الفصحى وفي عربية القرآن.

زعم المؤرخ والفقيه الألماني كارل شميث (١٨٨٨ -١٩٨٥)[١٤] يوماً أنَّ معظم الأفكار الأوربية المهمّة فيما يتعلق بالدولة الحديثة يمكن اعتبارها مفاهيم علمانية تضرب بجذورها في العقيدة المسيحية، ويمكن بالمثل القول بأن اللغة العربية القومية هي رابطة إسلامية علمانية، فبعض الأفكار الأساسية في مفردات السياسة العربية المعاصرة تصبُّ في هذا الاتجاه: أمة، سلطان، ملة، طائفة، حزب، بعث، ومصطلحات أخرى؛ فالخلفية القرآنية لهذه المفاهيم السياسية واضحه.

(١٤) كارل شميث (١٨٨٨ -١٩٨٥) فيلسوف وسياسي وقانوني ألماني، من أهم نقاد الليبرالية، وقد انضم للحزب القومي الاشتراكي النازي في ١٩٣٣، من أهم كتبه كتاب (اللاهوت السياسي)، والذي أرسى فيه تصوره للعلاقة بين اللاهوت والسياسة، حيث يعتبر أنَّ المفاهيم الاساسية التي يقوم عليها الفكر السياسي الغربي (خصوصا مفهوم السيادة) هي مفاهيم مسيحية تمَّ علمنتها، وقد بلور عدداً من المفاهيم شديدة الأهمية في الفلسفة السياسية الحديثة، مثل: مفهوم (السياسي)، ومفهوم (الاستثناء)، ومؤخراً تمَّ ترجمة كتابه (مفهوم السياسي)، حيث ترجمه: سومر المير محمود، وصدر عن دار مدارات، ٢٠١٧، كما تم ترجمة كتابه (اللاهوت السياسي)، ترجمة: رانيا السيلي وياسر الصاروط، وصدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٨.

تنويه واعتذار

- في العدد ٣٧ -السنة العاشرة- وفي ص١٣٣ وفي بحث (مصادر القرآن الكريم) ورد اسم الباحث (د. أركان فضيل) خطأً والصواب: (د. قيس كامل رشيد) اضافةً الى (د. مروان صباح ياسين).
- في العدد ٣٧ من مجلة المصباح وعلى الصفحة ٤٠٠ وفي بحث السيد قاسم نوماس أحمـــد تحت عنوان ((النقد اللغوي عند السيد السبزواري في تفسير مواهب الرحمن)) وردت نسبة الكاتب الى (جامعة الامام الرضا عليه السلام) خطأً والصواب هو (جامعة فردوسي مشهد- جمهورية ايران الاسلامية) فالى ذلك نلفت الانظار مع الاعتذار.

ادارة المجلة